كلمة الوزارة

أ. الدكتورة لبانة مشوّح
وزيرة الثقافة

منابع الفكر

عندما أدرك العرب أنَّ المعرفة متعددة المشارب متنوّعة الروافد، وأنَّ الحضارة تراكمية لا تكتفي بذاتها ولا تغتني بتقوقعها، ولا يُبنى صرحُها بحجارة من لون واحد.. عندما أدركوا أهمية ما أنتجته شعوب تميّزت قبلهم من علوم وفنون وفكر وآداب، تحرّكوا بفضول نهم للكشف عن كنوز المعرفة الدفينة، فانكبوا على ترجمة المخطوطات النادرة من السريانية واليونانية واللاتينية والفارسية في مشروع منظّم محدّد الأهداف واضح المقاصد دقيق المعالم سليم الأدوات، هُيّئت له سبل النجاح كافة، فجيء بأهم المخطوطات في مختلف العلوم، واستقدم فحول المترجمين عن السريانية واليونانية والفارسية، فكان أن ترجموا عن الإغريق أعظم مؤلفاتهم وتعرّفوا من خلالها على عاداتهم وأخلاقهم وسنن حياتهم في الحرب والسياسة وشؤون الحياة كافة، فأضافوا أهمّ لبنة إلى صرح حضارتهم التي هضمت تلك المعارف وطوّرتها لتفيد منها الحضارة الإنسانية برمّتها. ولعلّ هذا المشروع التنويري الفريد من نوعه في التاريخ هو الذي جعل من عصر المأمون العصر

الذهبي للدولة الإسلامية التي امتد نفوذها من بغداد إلى الأندلس، وجعل من «دار الحكمة» أول جامعة حقيقية في التاريخ.

من أواخر القرن التاسع وحتى القرن الثالث عشر، كانت الترجمة نبعاً رقراقاً غذّت بمياهها الدافقة شرايين الحضارة العربية، وأسست لفكر ملتزم بالمنهجية العلمية القائمة على المحاكمة والبرهان. بدأت حركة الترجمة بأن استدعى أبو جعفر المنصور طبيباً فارسياً من جنديسابور هو جورجيس بن بختيشوع، وكان رئيساً لأول بيمارستان ومدرسة للطب في التاريخ بالمعنى المعروف آنذاك. وعندما وصل ابن بختيشوع بغداد مع طاقمه كاملاً، بدأت أولى مراحل حركة الترجمة، التي تطورت فيما بعد إلى تأسيس بيت الحكمة. وما «خزانة الحكمة» إلا النواة الأولى التي أسسها الخليفة العباسي هارون الرشيد، وهي خزانة لمخطوطات يونانية في الطب والفلسفة والكيمياء المترجمة إلى السريانية، ومخطوطات في علوم الهندسة والحركات والموسيقى والفلك أو علم النجوم مما حمله الرشيد معه من سائر بلاد الروم أثناء حملاته على مدن آسيا الصغرى كأنقرة وعمورية. وتولى النسطوري يوحنا بن ماسويه مهمة ترجمتها، إلى جانب الطبيب جورجيس بن بختيشوع ثم أولاده؛ ولاحقاً طبيب المأمون العالم والمترجم حنين بن إسحق أبو زيد بن إسحق العبادي. الذي تولى رئاسة بيت الحكمة، فتحوّل بفضله إلى أشبه مايكون بدار نشر حديثة تتولى أمور الترجمة والتأليف والنسخ. وقد ترجم ابن إسحق كتاباً في الأدوية هو «المادة الطبية» **Materia medica** لديسقوريدس **Discorides** كان له أثر مهم في علوم الصيدلة العربية، كما ترجم وألّف أكثر من مئة مخطوطة أهمها (الأسئلة الطبية) **Questions Medicinae** وهو كتاب وضع على شكل أسئلة وأجوبة. مما جعل المستشرقين المنصفين أمثال المستشرق الفرنسي لاكلارك يعدّ حنين بن إسحق أعظم شخصية علمية ظهرت في القرن التاسع الميلادي.

لا شك في أن ترجمة المخطوطات العلمية كان بداية انطلاق الإبداع العربي في شتى ميادين العلوم كالطب والصيدلة والكيمياء والرياضيات والهندسة والفلك.

ولا يقلّ أهمية عنها ترجمة المخطوطات الفلسفية التي طوّرت الفكر وسلّحته بمنهجية النقد العقلاني، فانتشرت المناظرات العقلية والمجادلات التي أدّت إلى تحوّل العقل العربي في اتجاه المنطق الحرّ.

وعلى خُطا الأولين، وللعودة لأحد أهم منابع الفكر الفلسفي، ارتأت الهيئة العامة للكتاب، ضمن الخطة الوطنية للترجمة التي أطلقتها وزارة الثقافة في آذار ٢٠١٣م، أن تعيد طباعة مجموعة من أعظم كتب الفلسفة اليونانية التي تصدّت وزارة الثقافة لترجمتها في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، ولعلّ درّتها «دستور الأثينيين» للمعلّم سقراط، و«الثيثيتس» لتلميذه أفلاطون، قام بتعريبهما بلغة سلسة أنيقة علم من أعلام العربية لغةً وفكراً، وأحد روّاد نهضتها المتأخرين، الأب فؤاد جرجي بربارة.

إنّ إعادة طباعة بعض من هذه الروائع إنّما هو اعتراف بفضل من سبقنا إلى ترجمتها ضمن مشروع ترجمة رائد بالغ الأهمية، وهو تنويه بالقيمة المعرفية لتلك المؤلفات، خاصة في الأزمنة الصعبة، عندما تعصف المحن بالشعوب، فتهتزّ القيم، وتختل موازين الفكر، وتغيم المفاهيم، وتحجبُ سحبُ الشك شمسَ الحقيقة.

نعيش في عصر انتفت فيه الحدود، وتدافعت الأفكار، وتوالدت المفاهيم والمصطلحات وتداخلت إلى حد الإبهام، فضاعت في ضبابية غير بريئة أحياناً، حتى غُرِّبَ الظاهر عن الجوهر، وبات الدّال مجافياً للمدلول، والمعاني مناقضة للألفاظ، والشعار يُخفي نقيضه، والحقيقة في مهبّ رياح النفعية. فما أحوجنا للعودة إلى منابع الفكر الفلسفي وانتهاج نهج المعلّم الأوّل سقراط في حمل النفس على سبر أغوارها واكتشاف الحقيقة الكامنة فيها، وصولاً للخصب الفكري القائم على المحاكمة والبرهان، والجمال الأزلي في تلاقي الأضداد وتناغمها، والخلاص بالعلم الذي يُنضِجُ العقولَ وينيرُها بضياء الحكمة، لتشقّ حُجُبَ الظلام، وتَسْلَمَ من السقوط في مهاوي الجهالة.

يعلّمنا أفلاطون في حواريات سقراط أنّ الخير في الحركة، وأنّ الموت في السكون والجمود والثبات على القديم. وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال التنكر للماضي واحتقاره ومناصبته العداء، بل قراءته قراءة نقدية واستجلاء مواطن القوة فيه للبناء عليها، ومواطن الضعف لتحليلها وتبيان أسبابها لتفاديها.

ويزيد أفلاطون فيقول على لسان معلّمه: «للحركة قوة الفعل كما أنّ لها قوة الانفعال، ومن احتكاك النقيضين يولد المحسوس والإحساس بتنوّع صنوفهما وألوانهما».

لعلّنا، عند قراءتنا لفلسفة الإغريق، نمعن الفكر في ذاك الاعتراف بمشروعية الاختلاف وسلامة التباين، لا بل بحتمية هذا الاختلاف وضرورة التمايز كدليل وجود وتأكيد كيان. وما التطابق إلا انصهار في الآخر وغياب فيه. وها هو سقراط ينطق بحكمة لو استوعبتها الأذهان وتمثّلتها القلوب، لسَكنَ السلامُ النفوس، وانتفت العصبيات، وزال الغبن والإقصاء، وغاب التنافر والتناحر. يقول المعلّم العظيم حامل السراج المنير لسبيل الحقيقة الكامنة في النفوس:

«لو كان ما نقيس به ذاتنا أو ما نلامسه كبيراً أو أبيض أو حاراً، ووقع هو نفسه على آخر دون أن يتحوّل، لما أمسى هذا الآخر آخراً».

حق الاختلاف هذا ومشروعيته الطبيعية، لا بل وحتميته، هي أساس فكر الحوار الإنساني المحصّن ضد الخلاف والتنافر والانزلاق إلى الفتن، المؤدي إلى سبل التسامح والتوافق والتلاقي وتقبّل الآخر وإنصافه.

كلمة العدد

د. علي القيم
رئيس التحرير

موليير.. فنّه الجميل أبهج العالم

خلال القرون الأربعة الماضية، لم ينقطع ذكره في كل بقاع العالم، فهو أسطورة مسرحية قلّما يجود العالم بمثلها.. هو الكاتب والممثل الفرنسي الشهير «جان باتيست بوكلان» المعروف باسم «موليير» (١٦٢٢-١٦٧٣م) الذي تصادف هذه الأيام ذكرى مرور (٣٤٠) سنة على رحيله، ونجدها مناسبة لنتغنى بالسمات المميزة لأعماله الرائعة التي بلغ عددها أكثر من ثلاثين مسرحية، ارتفعت ستائرها مئات آلاف المرات في العالم، وما زالت حتى اليوم تطرب الجمهور، وتثير فيه المرح الساخر الذكي في معظم أنحاء المعمورة..

ولد «موليير» سنة ١٦٢٢م لأب من تجار باريس، وتلقى تعليمه، ليصبح من رجال القانون، ولكنه جمع أصدقاء له وممثلين من المحترفين وكوّن فريقاً سماه «المسرح المصور» لم يصمد أكثر من سنتين أمام منافسة الفرق المسرحية الراسخة، فأفلس سنة ١٦٤٥م، وكان القانون الفرنسي يحكم بالحبس على المدين، حتى يفي بديونه، فدخل موليير السجن،

ولكن أباه دفع عنه ديونه وتوقع منه أن يعود إلى مهنة القانون، لكن الشاب فرّ إلى الريف حيث انضم إلى فرقة «شارل ديغران» الجوّالة للمسرح، وجاب معها أقاليم فرنسا الجنوبية، مدة ثلاثة عشر عاماً متصلة، يمثّل ويحاول الكتابة للمسرح..

في عام ١٦٥٨م سافر «موليير» إلى الشمال الفرنسي، وكوّن فرقة خاصة برعاية الأمير، شقيق الملك لويس الرابع عشر، الذي قدّمه لأخيه الملك في قصره في باريس، وشاهدا له مسرحيته «الطبيب يحب» فأعجب بها الملك كثيراً، وأمر «موليير» بالتمثيل على مسرح «بوربون الصغير» بالتبادل مع فرقة «فيوريللي» الكوميدية، وبهذا التقى موليير بجمهور باريس لأول مرّة، فقدّم مسرحية «المتحذلقات» عام ١٦٥٩م و«سجاناريل» ١٦٦٠م، ثم انتقل إلى مسرح «باليه رويال» (السراي الملكية) فقدّم «مدرسة الأزواج» وأوّل كوميديا-باليه يمتزج فيها المرح بالرقص، وتزوج زميلته الفنانة «أرمان بيجار» من أسرة «بيجار» المسرحية، وقدم «مدرسة الزوجات» يسخر من نفسه، ومن زواجه بمن تصغره سناً، ففازت بنجاح ساحق، أثمر الخيوط الأولى لمشاكله التي نغّصت حياته فيما بعد، وهي كثرة حسّاده من المنافسين، واستياء المؤسسة الأرستقراطية ورجال الكنيسة من قلمه الناقد، ولكن نجاحه أخفى مشكلاته، فقدّم مسرحية «نقاد مدرسة النساء» ومسرحية «ارتجالات فرساي» عام ١٦٦٣م، ثم «زواج بالعافية» في قصر «اللوفر» الملكي، والأمير «ايليد في فرساي» فكرمه الملك بدعم سنوي للفرقة، وسمح له بتسميتها «الفرقة الملكية».

قدّم «موليير» بعد ذلك مسرحيات «الحب أحسن طبيب» عام ١٦٦٥م ثم «الباستورال الكوميدية» و«الفنان العاشق» عام ١٦٦٧م و«البرجوازي النبيل» ثم «طرطوف» و«دون جوان» و«كاره الناس» و«البخيل» و«مقالب سكابان» و«طبيب رغم أنفه» و«النساء العالمات» عام ١٦٧٢م.. وكان يسعل فقدم دوراً يناسب مرضه، وهو دور «أرجان» في مسرحية «المريض بالوهم» فسقط على المسرح أثناء التمثيل، وحملوه إلى الكواليس، حيث توفي ليلتها بمرض السل، وأطفأ المسرح شموعه...

مع أنّ «وليم شكسبير» يحظى بشهرة أوسع -ربما- من «موليير» إلا أنّ الأخير كان أصدق التزاماً برسالته النقدية، وكان أوّل من نعرفه من الفنانين، يضحي بمستقبله المهني في سلك القضاء، ليجول سنوات في الأرياف، وينتهي به الحال في السجن، ويتحمّل النقد من مؤسسات كبيرة في قوتها وسلطانها، ومن الأطباء والمحامين والنبلاء والتجّار، من دون أن يحيد عن أسلوبه الساخر الجميل..

حول هذا الموضوع يقول الكاتب الكبير «ألفريد فرج»: «لقد صاغ موليير فن الكوميديا صياغة كاملة، وتأثر بصيغته الكتّاب والممثلون من بعده في كل أنحاء العالم، فكان أوّل كاتب يقدّم شخصيات من المجتمع الواقعي، ويسخر من أوجاع أخلاقها وسلوكها ويضعها في مواقف يعرفها المشاهد، ويتعرف من خلالها على أمراض المجتمع في فترة التحوّل من النظام الأرستقراطي الإقطاعي المستقر إلى النظام التجاري المدني الناشئ، وبزوغ طبقات اجتماعية جديدة».

في الدراسات النقدية، يمكن القول بثقة عن موليير، لم يكن في العالم مثله من كتّاب المسرح، من وضع أذنه على الأرض الصلبة، ينصت لوقع أقدام الأيام الآتية، ومن يرى بالعين العيوب الأخلاقية والسلوكية للناس من الطبقة السائدة.. يقول الصديق الناقد إبراهيم محمود الصغير: «كان موليير وحده سيد الموقف في الأعمال الكوميدية الكلاسيكية، ذلك أنّ موهبته الفطرية وسعيه واجتهاده، كانت كلها السبب الذي جعل منه واحداً من ألمع كتّاب الكوميديا على مرّ الزمن.. وثمة تأثيرات أثّرت في مسرح موليير، فثقافته وقراءاته المتواصلة، وخبرته الطويلة في عالم المسرح واحتكاكه الدائم مع الناس، واتصاله مع الأدباء والمثقفين في زمنه.. كل هذا انصهر في شخصيته وجعل منه سبيكة فريدة لا يمكن أن تقلّد من قبل الآخرين..».

في مسرح موليير، سحر الزمن وإسهامات المسرح القديم، وهذا ما جعل معاصره الشاعر الكبير «لافونتين» يقول في أبيات من الشعر نقشت على شاهدة قبره:

«في هذا القبر يرقد (بلوت) و(تيرانس)

بيد أن موليير وحده هو الذي يرقد فيه
لم تكن مواهبهم الثلاثة تشكّل سوى فكر واحد
أبهج فنه الجميل فرنسا».

تأثير المسرح القديم لا نجده في مسرحية واحدة، معينة، وإنّما في معظم مسرحياته، وهو تأثير خفي لا يظهر إلا للمختصين، وموليير لم يكن صاحب نظرية جمالية في فن المسرح، ولا يستنتج من الدراسات الكثيرة التي كتبت عن مسرحه، أنّه كان يدعو إلى مبادئ محددة في العرض المسرحي، فمسرحياته، ولاسيما الباريسية منها، تتنوّع من حيث بنيتها الدرامية، وأسلوبها الحواري ورسم شخصياتها، ومعروف أنّه قد استقى موضوعاته من مصادر شتى، لاتينية قديمه.. إيطالية.. فرنسية.. إسبانية معاصرة، والمتابع يمكنه بسهولة أن يجد تأثير ذلك بشكل واضح.

لقد سنحت الفرصة لموليير، منذ بداية عمله، أن يشهد تمثيل الفرق الإيطالية، لذلك نجد تأثير الكوميديا الإيطالية، الواضح في مسرحه، وفي تبنيه مخطط «الكوميديا ذات الحبكة الإيطالية» في معظم مسرحياته، وفي إعداد أشخاصه، فالخدم، مدينون لنماذج إيطالية..

وغالباً ما جمع موليير، التأثيرات الفرنسية والإيطالية والإسبانية جمعاً وثيقاً، مما نتج عنها «سحر الكوميديا، وهيبة العروض الفخمة» أو ماعرف باسم «الكوميديا- الباليه» الذي قدمه موليير بحس جديد، ورؤية مدهشة، دفعت النقاد إلى القول: إنّ أسلوب موليير، جعل مسرحياته منارة اجتماعية وأخلاقية دافعت عن مكارم الأخلاق، وحذرت الناس من الوقوع في المطبات والأخطاء التي وقع فيها أبطال مسرحياته، عبر أسلوب كوميدي متقن في طرح المشكلة ومعالجتها، وقد وظّف موليير فيها، وبشكل دائم الشخصية الرئيسة، ليحمّلها ما يمكن أن نسميّه «الموقف المضاد» الذي يعمل موليير على مواجهته، ودحض أفكاره، وكشف زيفه وأخطائه، عبر تكتل باقي الشخصيات في مواجهة هذه الشخصية، التي لا يعمل موليير على جعلها مكروهة، من قبل المشاهدين، بقدر

ما يهمه العمل على جعلها مثيرة للشفقة بسبب الحالة المؤلمة التي لابد وأن تبلغها في نهاية المسرحية، نتيجة طيشها وتعنتها وإصرارها على المضي في ارتكابها لأخطائها..

❁ ❁ ❁

لقد دخل موليير «تاريخ الآداب الأوروبية» من أوسع أبوابه، وتجلّى بعده الأوروبي في خطوته الأوروبية التي نالها في حياته، والتي لا تنفك تنمو على مرّ السنين، وتأثيره عظيم في انجلترا، وشهرته أصبحت كبيرة في ألمانيا وعلى نحو متميّز، ولم يبخل عليه «غوته» بالثناء والمديح، ووصفه الكاتب الشهير «جون بيرغس ويلسون» في كتابه (الأدب الإنكليزي) بقوله: «إنّ إنجاز موليير وحده يساوي كل أعمال كتّاب المسرح في عصر التجديد مجتمعين».

وأعتقد أنّ كتاب «حياة موليير» الذي ألفه الناقد والمؤرخ «هنري ترولوب» المختص بالآداب الفرنسية، وبمسرح موليير، على وجه الخصوص من أهم ما كتب عن هذا العبقري العالمي الرائع، الذي كان بحق أهم فنان في عصره، ونال المجد من مختلف أطرافه، وطبقت شهرته الآفاق.

وحتى اليوم، كل من يريد أن يضحك على البخل والبخلاء، ويموت من الضحك، ما عليه إلا أن يذهب إلى المسرح، ويشاهد مسرحيته الشهيرة «البخيل»، وكل من يريد أن يتعرّف على النفاق والمنافقين، عليه أن يشاهد مسرحية «المنافق» التي ما زالت تلاقي النجاح المنقطع النظير في شتى مسارح العالم، أمّا الذي يتوهم بأنّه مريض، ولا يشكو من شيء، فعليه أن يشاهد مسرحية «مريض بالوهم» التي كان يمثلها موليير، وخلال ذلك سقط صريعاً أمام الناس، ومات شهيد المسرح الفكاهي العالمي، الذي أعطاه الكثير، بل وأصبح اسمه رمزاً، وكانت تلك هي أفضل موتة يحلم بها فنان كبير مثله.

في «حياة موليير» أشياء كثيرة، ومهمة يمكن التوقف عندها أو الإشارة إليها، دعونا نقرأ في المقدمة التي كتبها لمسرحيته «المنافق»: «لقد اضطهدت وحوربت ومنعت..وزعموا أنّي أهاجم الدين، في حين أنّي لا أهاجم إلا المتاجرين به، وزعموا أنّي زنديق أو خليع،

في حين أنّي مؤمن بالله كبقية البشر».. أعماله كانت صادقة، لاشيء فيها مصطنع، كل ما فيها طبيعي، وذو معنى وفكرة، لدرجة أنّ أكثر الناس ثقافة وفكراً يعترفون بأنّهم كانوا يعيشون الحالة نفسها التي كانت تبدو على المسرح، وتمثيل موليير كان ينضح الفكاهة والحقيقة في آن معاً.. لقد كان يحدث الناس عن أمور مدهشة وغريبة.. تعيش في ضمائر الناس ويعرفونها جيداً، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على التحدث حولها سابقاً، وموليير لم يكن قط يحب الضحك.. إنّه إنسان يُضحك الآخرين، وكان يمتلك جميع أسرار الإضحاك والهزل..

من مأثورات موليير:

- الحياة تراجيديا لمن يشعر.. وكوميديا لمن يفكر.
- كلما أحببنا شخصاً كلما منحناه أقل، بحجة أنّ الحب الحقيقي يتحدث عن نفسه.
- نحن لسنا مسؤولين عمّا نفعل فقط، وإنما عمّا لم نفعل أيضاً.
- الكتابة كالبغاء، في البداية تمارسها من أجل الحب، ثم من أجل بضعة أصدقاء، ثم من أجل المال.
- أحبّذ أن تكون زوجتي بلهاء وبشعة، وألا تكون حسناء كثيرة الفطنة والفتنة ومستبدة طاغية.
- الأشجار التي تنمو أبطأ تحمل الفاكهة الأفضل.
- إذا كان الحب جزءاً من حياة الرجل، فهو كل حياة المرأة.
- من دون معرفة تصبح الحياة ظلّاً للموت.

ثقافتنا بين البناء والهدم

د. محمود السيد ✪



غنيٌّ عن البيان أنَّ الإنسان وحده من دون غيره من الكائنات الحية، يتميز بالثقافة وبقدرته على التفكير والابتكار بفضل ما أوتيه من عقل وذكاء وإرادة، وأنَّ الثقافة هي تأكيد لإنسانية الإنسان وإبراز لهويته المميزة، وهي عامل توحيد بين أبناء الشعب الواحد، وعامل أساسي في تغيير المجتمع ورسم طموحاته، وعامل سلام وتفاهم بين مختلف الشعوب.

وثقافة أي أمة هي تراثها المادي والروحي وسلوكها الحياتي وطموحاتها المستقبلية، ولا ينفصل أي مسار من هذه المسارات عن الآخر. وتتضمن الثقافة أموراً مشتركة بين جميع أبناء الوطن الواحد، ومن أمثلة هذه الأمور المشتركة اللغة والأزياء والتاريخ

✪ أديب ورئيس لجنة تمكين اللغة العربية - ووزير سابق.

العمل الفني: الفنان أيمن الدقر.

والمشكلات والآمال وجميع الجوانب العملية والأدائية والتطبيقية في حياة البشر، وهذه الأمور المشتركة لازمة للمواطنة ولتحقيق وحدة المجتمع وتجانسه وتماسكه.

وإنَّ الإستراتيجية التي تنتهجها أمتنا في المجال الثقافي هي إستراتيجية الثقافة الهادفة والملتزمة، وهي الثقافة البناءة التي يبنى الإنسان في ضوئها بناءً متوازناً ومتكاملاً على أنّه سلاح الأمة في مواجهة كل تيارات الغزو الثقافي وكل محاولات التغريب والهيمنة وطمس الهوية في منأى عن كل إرهاب وتطرف، ذلك لأنَّ الإرهاب والتطرف متلازمان، وإذا وجد التطرف انتفت القيم الإنسانية. وإذا سألنا عن سمات هذه الثقافة البناءة فإننا نجدها تتمثل في:

- المقاومة والفداء والتضحية في سبيل الوطن والذود عن حماه على أنَّ المقاومة هي سلاح الشعوب المقهورة والمضطهدة والمستضعفة، وهي أحد خيارات الشعوب الحية عندما تحتل أرضها وتنهب ثرواتها وتستعبد أجيالها.
- العقلانية القائمة على التفكير العلمي والأسلوب العقلاني في التفكير والحوار وممارسة النقد والبحث عن الأدلة والوقائع وتمثل القيم العلمية من مثل الأمانة والموضوعية.
- محبة الفرد لوطنه والإخلاص له والذود عنه من دون تردد أو تخاذل والتزامه بمبادئه وقضاياه وقوانينه وقيمه والتفاني في خدمته والشعور بمشكلاته، والإسهام الإيجابي مع غيره في حلها.
- تعزيز المواطنة على أنّها حقوق وواجبات وممارسة لهذه الحقوق والواجبات بكل وعي ومسؤولية، إذ إنَّ المواطنة بالوعي والكيان الفاعل والإرادة، ذلك كله يجعل مصلحة الوطن والوعي بالتحديات التي يواجهها والذود عن أرضه وحماه في قمة الأولويات.
- حماية الإنجازات التي حققها الوطن والمحافظة على استقراره.
- الانتماء إلى الوطن ذي العمق الحضاري والولاء له، وهذا الانتماء للوطن فوق أي انتماء آخر.
- تماسك المجتمع ووحدته الوطنية.
- التعاطف والغيرية والمحبة والعدالة.
- التسامح والحوار والسلام.
- الشعور بالمسؤولية تجاه حقوق الأفراد والجماعات.
- التعارف والتآخي والمساواة وقبول الاختلاف والإنصات إلى الآخر.
- نبذ مختلف أشكال العنف.
- تبادل الآراء والحوار البناء وتبادل الرؤى واحترام توجهات الآخرين ونبذ

التعصب والكراهية، وانفتاح متزن على كل الثقافات والحوار الواعي معها.

- الإيمان بالتعددية في إطار الوحدة الوطنية وتوظيفها في مصلحة الوطن.

- قوة الإرادة.

- عزة النفس والكرامة.

- مكافحة الفساد ومواضع الخلل في الأداء والعمل على علاجها.

- سيرورة القيم الإنسانية في الهياكل والمؤسسات الاجتماعية كافة محبة ورفقاً وتسامحاً وتشجيعاً في الأسرة والمدرسة والمجتمع.

- تحرير الفكر من إرهاب التفكير الخرافي والتفكير التكفيري، وضيق الأفق والتزمت والأثرة.

إنَّ الثقافة البناءة هي الحصن الحصين ضد ثقافة يطغى عليها التيئيس والتثبيط والتشاؤم والسلبية والانهزامية، وهي التي تفتح آفاقاً ملؤها الثقة في استشراف مستقبل أفضل، وتعمل على تشجيع المواهب المبدعة في ارتياد آفاق هذا المستقبل الأفضل.

وإذا كانت تلك هي بعض خصائص ثقافة البناء التي ننتهجها في عالمنا المعاصر فإن علينا أن نحافظ على هذه الخصوصية في ظلال عولمة لا تعترف بالحدود بين المجتمعات والثقافات، عولمة أحالت العالم إلى قرية كونية يسيطر فيها الأقوياء على الضعفاء، وتسود فيها العولمة المتوحشة البعيدة عن الإنسانية، إذ شهد العالم في العقد الأخير من القرن العشرين سبعة وخمسين نزاعاً مسلحاً في خمسة وأربعين مكاناً في العالم، ويؤجج أوار هذه النزاعات أرباب العولمة الذين يسوءهم أن يسود العالم السلام في العالم. ويؤرقهم أن يعيش العالم في أمان، وأن يعم الحب أرجاء المعمورة.

إنَّ عالمنا المعاصر سمته اللامعقول واللامنطق، وشريعته شريعة الغاب، وشعاره غطرسة القوة وتبني حق القوة لاقوة الحق، وبات مضمون الإعلام فيه تمجيداً للعنف ونزوعاً إلى العدوان والتدمير، وتحللاً من القيم. وانتهاجاً للعنصرية والاستعلاء، وحضاً على قيم الاستهلاك، وتعزيزاً للتفكير الخرافي وأنَّ الدنيا مسألة حظوظ.

وإنَّ عالماً تلك هي سماته في أمس الحاجة إلى قيادة إنسانية حكيمة توجهها القيم الجديرة بالإنسان لا تلك التي تجعل من الإنسان ذئباً على أخيه الإنسان، وتحيل المجتمع العالمي إلى مجتمعات متناحرة تنتفي في ظلالها القيم الإنسانية، وتتجمد فيها المشاعر الإنسانية.

والواقع لقد استطاع الإنسان في عالمنا المعاصر أن يكتشف الكواكب في كبد السماء وأن يسبر أغوار المحيطات، وأن ينتج ثورة المعلوماتية والاتصالات التي غدا التعامل

فيهـا مع التقانة أكثر من التعامل مع البشر، ولكنه لم يستطع أن يعيش على الأرض إنساناً بـكل ما تحمل كلمة إنسان من قيم ومشاعر وعواطف.

ومن التحديات التي تواجه ثقافتنا وتروم امحـاء ذاتيتنـا الثقافية وهويتنـا التحدي الصهيوني، وهو تحد عالمي يجيء في مقدمة التحديات كافة، ذلـك لأنَّ الصهيونية غزو استعماري استيطاني غير قابل للامتصاص بسبـب جبلته وطبيعتـه العنصريـة، وهو تحد قائم على العـدوان يروم امحاء الهوية العربية والذاتيـة الثقافية للأمـة العربية الإسلامية، فإسرائيل تحـاول جاهدة إلغاء الـتراث التاريخي كلـه في المنطقة، وتحاول إلغاء الوجود السكاني العربي بما يمثله من حياة سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وثقافيـة ودينية، وذلك بالكبـت والتضييق والاضطهاد والسجن وهدم البيوت والتهجير والإبادة. وتحـاول وصـل التاريخ الحديث للجماعـات الصهيونيـة بالتاريـخ القديم لليهود قبل ثلاثة آلاف سنة وإلغاء ما بينهما من التاريخ العربي كله، وتلقين ذلك للأطفال في المدارس العربية وسلب مختلف النشاطات الثقافيـة الخاصـة بالعـرب في فلسطين والجـولان، وادعاؤها ذلـك لليهود حتى في زخرفة الملابس العربية، فلا تعرض منه إلاّ فترات الهزائم وصور الانحطاط وإبراز مآثر اليهود في العصـور الإسلامية، ومنع الكتب العربيـة من التداول الحـر، وحرمان أبناء العرب من التعليم العالي بصورة خاصة.

والهـدف من هذه الممارسـات كافة هو محـو الهوية الثقافية أرضاً وشعباً، ومن هنا كان الصراع معه صراعاً على البقاء والوجود لا صراعاً على الحدود.

وما امتنـاع إسرائيل عـن التوقيع على اتفاقيـة نزع السـلاح النـووي، وامتناعها عن الانسحاب مـن الجولان وجنوب لبنان، وامتناعهـا عـن إعطـاء الشعـب العربي الفلسطيني حقوقه المشروعة في إقامة دولته المستقلة علـى أرضه وعاصمتهـا القدس، وامتناعهـا عـن تحقيـق السـلام الشامل والعادل، وعدم انصياعها للشرعية الدولية وقـرارات مجلس الأمـن والأمم المتحدة، وعدوانهـا على جنـوب لبنـان وعلى غزة وحصـار أهلها، وامتناعها عن إطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين والعـرب، إلاّ أمارات جلية وواضحة على طبيعة الكيان الإسرائيلي في عدوانيته ومحاربته للسلام العادل.

إنَّ الإستراتيجيـة التـي تنتهجها سورية في منظومتهـا الثقافيـة هـي إستراتيجية السلام الشامل والعادل، السلام القادر على الاستمرار، وإنَّ نهجها واضح ورؤيتها شاملة ودورهـا محوري عربيـاً وإقليمياً ودولياً في تطبيـق الشرعية الدوليـة والقانون الدولي

حتى يتحقق السلام والأمن في المنطقة العربية، ذلك لأنَّ السلام الشامل والعادل هو وحده القادر على توفير الفرص للتنمية الشاملة ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وأمنياً، إنَّه السلام الذي لا يقوم على العدوان ولا على الظلم، ولا على القتل، ولا على تهديم المنازل، وإنَّما يقوم على احترام المبادئ، واحترام الإنسان وحقوقه، واحترام الشرعية الدولية.

ومن هنا وقفت سورية ضدّ المشروعات الرامية إلى الخنوع والاستسلام والتنازل عن ذرة تراب واحدة من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧م، جاعلة القضية الفلسطينية هاجسها الأوَّل وعودة القدس قبل عودة الجولان السوري المحتل، ومركزة على أنَّ التحدي الأوَّل الذي تواجهه الأمة إنَّما هو التحدي الصهيوني، وأنَّ من يقف إلى جانبها في مواجهة هذا التحدي هو الصديق، أمَّا من يرضخ لإملاءات أمريكا ويرضى بعدوان إسرائيل على جنوب لبنان وغزة ولايحرك ساكناً تجاه ذلك فلا يمكن أن يكون صديقاً وطني الانتماء إلى أمته وقضاياها بأي صورة من الصور.

ولما كانت سورية قد وقفت ضدّ أمريكا في احتلالها للعراق عام ٢٠٠٣م، ووقفت إلى جانب المقاومة العراقية في تصديها للاحتلال الأمريكي، كما وقفت إلى جانب المقاومة في جنوب لبنان في تصديها للعدوان الإسرائيلي عام ٢٠٠٦م، وإلى جانب المقاومة في قطاع غزة بفلسطين في تصديها للعدوان الإسرائيلي أيضاً عام ٢٠٠٨م، ومانعت التدخل الأجنبي في ليبيا فإنَّ هذا التصدي كان محط سهام الإمبريالية الأمريكية وإسرائيل والدول الغربية، وإذا الهجمة الشرسة على سورية يشتد أوارها فتجلت في التجييش الإعلامي المضلّل، وفي العقوبات السياسية والاقتصادية، وفي دعم نفر من المعارضة لم يدرك أبعاد المؤامرة ضدّ بلاده وأمته، وتجدر الإشارة إلى أنَّه لا يمكن وضع المعارضة كلها في سلة واحدة، فهناك معارضة داخلية حريصة كل الحرص على الوطن وسيادته، مطالبها محقة وتنبذ العنف في سبيل تحقيقها، وقد استجابت القيادة لها لأنَّ ثقافتها بناءة.

أمَّا ذلك النفر من المعارضة الذي ينفذ بوعي أو من غير وعي إملاءات القوى الخارجية المتآمرة على الأمة، فإنَّه يعتمد ثقافة هدامة تجلت في ممارسات بعيدة كل البعد عن كل ثقافة بناءة، ومن سمات هذه الثقافة المعتمدة من ذلك النفر المعارض:

- الاستقواء بالأجنبي ودعوته إلى التدخل في الوطن بحجة حماية المدنيين.
- تخريب الممتلكات العامة.
- قتل الأبرياء والتمثيل بالجثث.

- ترويع المواطنين ونصب الكمائن لهم.
- استبعاد الآخر وعدم الاعتراف به.
- عدم الإيمان بحل المشكلات بطريقة حضارية.
- الامتناع عن الحوار مع أبناء الوطن.
- رفض كل الإصلاحات التي تقوم بها الدولة.
- عدم الإيمان بالتنوع وتقديره.
- ممارسة التعصب والتزمت والنأي عن الانفتاح وسعة الأفق وتقبل النقد.
- الإيمان بالتفكير الخرافي والمسلمات وأساليب السحر والشعوذة والترهات.
- الابتعاد عن ركائز الحياة البناءة في القرن الحادي والعشرين والقائمة على:

أ . تعلّم لتعيش وتتعايش.

ب . تعلّم لتعرف.

ج . تعلّم لتكون.

د . تعلّم لتعمل.

على أن ينصبَّ هذا التعلم واكتساب المعرفة على بناء الشخصية المتوازنة والمتكاملة معرفةً ونزوعاً وأداء بحيث تنعكس ثقافتها خصباً ونماء على الفرد والمجتمع، لا تعصباً وتزمتاً وتكفيراً وتخريباً وقتلاً وتدميراً في صرح المجتمع.

إننا في سورية نقدر عالياً المواقف المبدئية لبعض الدول الصديقة المعبرة عن وقوفها إلى جانب القضايا العادلة للأمة، ونصرة الحق العربي في فلسطين والجولان وجنوب لبنان واستعادة العراق لعافيته ووحدة أرضه وشعبه، ووقوفها إلى جانب الشعب السوري في تصديه للمؤامرة الكبيرة التي يتعرض لها منطلقين من قيم الحق والمحبة والتسامح واحترام الآخر، وكراهية العدوان والعنف والاستكبار والاستغلال والاستبداد، ومنطلقين من العمق الحضاري للثقافة السورية، إذ إنّ أوّل زراعة للقمح عرفها الإنسان لأوّل مرة في تاريخ البشرية كانت في سورية. وفي سورية تمّ اكتشاف النحاس في الألف الخامس قبل الميلاد، وفيها اخترعت الأبجدية الأولى في أوغاريت، وقدمتها أمتنا هدية للبشرية، ونقلت معها المعرفة والقيم الإنسانية والتعامل الحضاري، كما أنّ رُقم أوغاريت الموسيقية هي أوّل تدوين موسيقي في تاريخ البشرية، وعبر سورية انتشرت الرسالات السماوية تروم الخير والمحبة والسلام للناس كافةً وتدعو إلى احترام كرامة الإنسان أنّى كان وفي منأى عن أي تعصب أو تزمت أو طغيان.

لقد أزعج أعداء الأمة ذلك البعد الحضاري لسورية، وتلك المواقف المبدئية التي تقفها سورية في مناصرة الحق ورفض الهيمنة وإباء الضيم والخنوع والمذلة والاستسلام فإذا هم يستخدمون مختلف الأساليب لتركيعها مستعينين بشريحة من

أبناء سورية المتفلتين من ثقافتها البناءة، وبعض العرب الذين ينفذون مخططات أمريكا وإسرائيل والدول الغربية.

وكانت سورية من قبل وستظل وستبقى رمزاً للتآخي الإنساني. رمزاً للمحبة والوئام. رمزاً للعدل والسلام. ولن تتخلى عن رسالتها الحضارية الإنسانية في هذا العالم سمواً ونبلاً وكمالاً وحقاً وخيراً وجمالاً أفهم الآخرون مواقف سورية المبدئية أم لم يفهموها وستبقى وفية لقيمها الإنسانية ولمبادئ أمتها وثوابتها على مرور الأيام مهما تك العقبات وتشتد التهديدات.

إنَّ علينا نحن – العاملين في المجال الثقافي بمختلف ضروبه وأبعاده وأطيافه – أن نجعل الكلمة فعلاً متعدياً. فعلاً يغير ملامح الواقع ويجعله أكثر إنسانية، ذلك لأنّ الفعل ذا البعد الإنساني، الفعل المقاوم، إنّما هدفه واحد ألا وهو الوعي بأعتباره الجسر بين الكلمة والفعل، أو الممر الذي يسمح بتحويل المنطوق إلى مفعول.

ومعركة الوعي ليست واقعة في حرب نظامية ننتصر فيها ونرتاح، أو نهزم فيها ونستسلم، وإنّما هي حرب مواقع، فيها تقدم وتعثر، فإذا خسرنا موقعاً اليوم فقد نسترجعه غداً، أو نتخذ من آخر مركز قيادة في حركة من الكرّ والفرّ لا تهدأ ولاتنتهي، ولا يكون طريق المقاومة للتحديات طريقاً فعّالاً إلاّ إذا كان ممتداً امتداد الأفق على حد تعبير إدوارد سعيد.

إنّ علينا أن نكافح الأفكار الشريرة الإجرامية ودعاتها ومناصريها. وأن نناصر الأفكار الخيِّرة في كل زمان ومكان بغية إيجاد عالم يسوده العدل والسلام والمساواة بين الشعوب، عالم ينتفي منه العدوان والاستغلال والظلم وتسلط الأقوياء على الضعفاء، ويعمل فيه على تلافي التواكل والسلبية واللامبالاة والسذاجة والميل إلى الرتابة واللفظية والركاكة والسطحية والانغلاق والجمود والتطرف، وكل أولئك معاول هدم في صرح الثقافة.

شهرزاد تبني مدينة السرد في سورية

(موضوعات السرد في روايات المرأة)

د. خليل الموسى ٭

ليست عمارات الرواية الوجودية في أعمال كوليت الخوري وغادة السمّان منفصلة ومعزولة عن عمارة الروايات الأخرى المختلفة، ولم تكن سابقة أو لاحقة لها، وإنّما جاءت ضمن سياق ثقافي متّصل بسياقات ثقافيّة أخرى، فقد بدأت المرأة الكاتبة في سورية تخرج إلى العلن بقصصها ورواياتها، حتّى إننا نجد الرواية الواقعية والرومانسية تتداخلان في إنتاج الروائية الواحدة، كما أنّنا نجد اختلاف الموضوعات والأساليب بين رواية وأخرى أيضاً، فلكلّ رواية عالم خاصّ بها، وظروف تدفع شخصياتها إلى أن تعيش ضمن هذا العالم، ومن هنا تنوّعت الموضوعات الروائية، ممّا يعني أنّ المتن الحكائي كان البذرة الأولى في هذه الرواية أو تلك، ومن هنا فإنّنا سنتوقّف عند ثلاثة موضوعات كبيرة، ليتّسع مجال القول فيها بدلاً من توزيعها على موضوعات ثانوية وهامشيّة، وهي:

أولاً: موضوعات الحبّ والمرأة:

الحبّ من الموضوعات الاجتماعية المحبّبة في الأعمال الطويلة والروائية من جهة، وهو عنصر تشويق وجذب للقرّاء من

٭ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

جهة أخرى، وقد تنبّه على ذلك **جورجي زيدان** في رواياته التاريخيّة. فرأى أنّ موضوع الحبّ، وإن كان مختلقاً، يُلطّف مناخ الرواية، ويخفّف من ملل القراءة الطويلة، ويحافظ على اهتمام القارئ حتّى النهاية، ويمكن أن يكون هذا الموضوع أساسيّاً أو ثانويّاً، كما أنّ الرواية قد تسير في أحد اتجاهين:

الأول: اتجاه الرواية الشخصية، إذْ تقوم البطلة بالكشف عن مشاعرها وإحساساتها مباشرة. ويحكي البطل قصّته بنفسه، ويكشف للقارئ عمّا يحسّ به وما جرى معه، ممّا يُقرّب هذا النوع من السيرة الذاتية لدى بعض الدارسين، وتكون الرواية بضمير مفرد المتكلّم (أنا) وفعل المضارع، وهذا ما وجدناه - مثلاً - في رواية «أيام معه» و«ليلة واحدة» و«**امرأة من طابقين**» و«**الرواية المستحيلة فسيفساء دمشقيّة**». واتجاه الرواية الموضوعيّة، إذْ تقوم الرواية بسرد مشاعر البطلة وإحساساتها بضمير مفرد الغائب (هي - هو)، وفعل الماضي الغائب وهذا يعني أنّ ثمّة شاهداً أو سارداً يحكي قصّة البطل/البطلة وما يجري معه من الخارج، وهذا ما وجدناه - مثلاً - في روايات «**الحبّ المحرّم**» و«**أروى بنت الخطوب**» و«**عينان من إشبيلية**»..إلخ .

إنّ الكتابة في موضوعات الحبّ ضمن اتجاه الرواية الشخصية أكثر جراءة في ظلّ نظام بطريركي يبحث عن كلّ صغيرة وكبيرة في عالم المرأة، والكتابة هنا قريبة من هذا البوح الداخلي والمناجاة النفسيّة والقصيدة الغنائيّة، وهذا ما فعلته الدكتورة **أسماء معيكل** في تجربتها الروائيّة الأولى «**خواطر امرأة لا تعرف العشق**»[1]، إذْ قدّمت للرواية في الافتتاحية بخمس قصائد دفعة واحدة، وهي رواية تكرّر مقولة عرفتها الرواية السورية من قبل، وهي أنّ الرجل الشرقي واحد، وهو وليد ثقافة بطريركية ذكوريّة لا تؤمن بالمساواة بين الجنسين، وربّما كان الرجل المثقّف الذي يلهج دائماً بالمساواة أشدّ خطورة من الإنسان العادي .

سارة سعيد بطلة الرواية امرأة سورية شابّة محافظة تعمل في السلك الدبلوماسي تُسطّر قولاً وفعلاً أسمى آيات العشق والحبّ في هذه الرواية لرجل على أبواب الخمسين متزوّج وربّ أسرة، تحبّه حبّاً جارفاً بعد أن تَبيّن لها بأنّه مختلف عن جنس الرجال في معاملاته مع المرأة واحترام مشاعرها، ويُدعى نصر الله فرحان الغيفاري، وهو من ديانة أخرى (مسيحي)، وسبق لسارة كما شرحت لنصر الله أنّها تعلّقت برجل عربي متزوّج وربّ أسرة التقته في مؤتمر أقامته السفارة في مدريد لأيام قليلة، ومع ذلك

فإنّها تدين المجتمع البطريركي الذي تتحكّم في علاقاته بين المرأة والرجل ثقافة ذكورية جائرة، «**وما يدهشك حقاً أنّه بينما تكون يد الرجل بيد زوجته تكون عيناه معلّقتين بالأخرى (...) الرجل عندما يفعل ما يفعله يفعله لأنّ لديه استعداداً فطرياً تكوّن نتيجة الثقافة الذكوريّة المتغلغلة في لا وعيه، والتي تبيح له القيام بكلّ شيء بينما تحرم المرأة من أبسط حقوقها**» (ص ١٥٩).

-ونصر الله أو نصر اختصاراً بطل هذه الرواية رجل مثقّف يستطيع الولوج إلى قلوب النساء بسرعة البرق ومن دون استئذان، وفي مكتبه غالباً عدد من الحسناوات المعجبات، ولنقل الضحايا التي تنتظر الذبح، شهريار جديد أو دون جوان، حقوقي ترك مجال القضاء ليعمل في الإعلام، وهو يتمتّع بكلام معسول مع الجنس اللطيف المخدوع، فضلاً عن أنّه شاعر، وتكتشف سارة في النهاية أنّها كانت إحدى ضحاياه، وأنّ العبارات التي كان يُردّدها على مسمعيها كان يُردّدها على مسامع هؤلاء النسوة، ومنهنّ إحدى صديقاتها التي كشفت لها ما كانت تجهله عن حبيبها نصر، فحلّت المعرفة التي تحدّث عنها أرسطو في التراجيديا، وحاولت أن تخرجه من حياتها، وإن لم تستطع إخراجه من قلبها، فتزوجت، وأنجبت أربعة توائم استشهدوا فيما بعد في حرب التحرير الفلسطينية، لترحل، بعد ذلك، عن هذه الدنيا بطريقة شبه أسطورية، ويصل خبرها إلى نصر الله مع ظرف يحتوي مخطوط روايتها ليختار لها عنواناً مناسباً.

-ونعود إلى الوراء إلى تجاه الرواية الشخصية، لنجد أنّه اتجاه مُحبّب في كتابة الرواية، خاصّة في موضوع الحبّ والمرأة، ويمكن أن يقف المرء عند رواية «**خذني بين ذراعيك**» ١٩٦٧م لـ **أمل جرّاح**، و«**الحبّ والوحل**» لـ **إنعام المسالمة**، و«**في الليل**» لـ هيام نويلاتي، ولكنّنا سنكتفي هنا بالعرض لرواية «**اعترافات امرأة فاشلة**»[٢] لـ صبيحة عنداني، والواضح من عنوانها أنّها اعترافات، وهي شبيهة باعترافات **جان جاك روسو**، والفارق الوحيد فيما بينهما أنّ الكاتبة هنا أسندت هذه الاعترافات إلى شخصية متخيّلة تُدعى **إلهام**، وهذا ما فعلته من قبل **سلمى الحفّار الكزبري** في «**يوميات هالة**»، فصار من الصعوبة أن ننسب هذه الاعترافات أو اليوميات إلى الكاتبة وإلى السيرة الذاتية، كما هي الحال في عمل روسو، والبطلة إلهام تتزوج في سنٍّ مبكرة من رجل يدعى «**محمود**» يعمل مع أخيه عادل في الخان، وتنجب منه ولداً سُمِّيَ بـ «**خالد**»، ولكنّ أخاه يتشهّى إلهام، ويحاول

اغتصابها، ويقع محمود أيضاً في حبّ زوجة صديقه فؤاد، ويتسبّب ذلك بمقتل ابنها خالد، فيجنّ جنونها، وتحاول الانتقام من عادل، ويتمّ طلاقها من محمود بعد أن ظنّ زوجها أنّها على علاقة مع أخيه، ثمّ تُصاب بالجنون، وهنا تسرد اعترافاتها، وهي تذكر طفلها القتيل، وهنا تترك مجالاً للراوية أو المؤلّفة في الصفحتين الأخيرتين لتصف حال بطلتها: **«باستطاعتك أن ترى، إذا تجوّلت في شوارع وأزقّة حلب، امرأة لا تتجاوز الثالثة والعشرين من عمرها، تحجبها ملاءة عتيقة، وترتسم على سحنتها تقلّبات الطبيعة القاسية وعوادي الأيام الغادرة العاتية، تراها تتنقّل بين الأزقّة والشوارع لتنتهي إلى مقبرة الصالحين حيث تتوسّد الأرض بجانب قبر صغير، وتنادي في نوبات متتالية متعاودة: خالد.. خالد.. خالد.. وفي إحدى حانات مدينة حلب تستطيع أن ترى أخوين يلتقيان على غير موعد ويجلسان إلى طاولة واحدة على غير قصد. يجرعان كؤوس الخمر لينسيا.. ويشربان ليهربا من حقيقتهما المؤلمة.. والاثنان عاشقان يتحرّقان؛ الأول يتحرّق بحب زوجة قريبه. والثاني يحبّ زوج أخيه»** (ص ١٨٦ – ١٨٧) .

-أمّا رواية الحب الموضوعية، فهي في موضوع الحب، ولكنّ الراوي/الراوية يتكلّم على هذا الحب الذي كان شاهداً عليه، ولم يكن طرفاً فيه، ومن هنا فإنّ دوره يقتصر على ما شاهده أو سمعه، وهذا ما جاء في رواية **«عينان من إشبيلية» لـ سلمى الحفّار الكزبري**، وسردها لسيرة كارمن وروبرتو، ورواية **«الحبّ المحرّم» لـ وداد سكاكيني**، وسردها لحكاية الحبّ بين نديدة وسهيل، ويكون السرد في هذه الرواية غالباً بوساطة ضمير المفرد الغائب (هو/هي) والفعل الماضي، لأنّ الراوي يسرد من الذاكرة كالمؤرّخ إلى حدٍّ ما، ومن ذلك مثلاً رواية **«ومر صيف»**[3]، وهي تحكي حكاية الدكتور يوسف الأسواني بطل هذه الرواية، وله علاقات نسائيّة مختلفة، مع أنّه متزوج من مديحة، وله شقّة في محلّة الدّقي يتردّد إليها مع موظّفة، وسهير علوان الصحفية عشيقة أخرى، ولكنّ العلاقة بينهما لم تصل إلى الحب أو الصداقة (ص ٧٥ – ٧٧)، ثمّ تعلّق و هو مريض في لندن بالممرضة الإنكليزية الشقراء جين، وهكذا اتسع قلب الأسواني لثلاث نساء دفعة واحدة، تزوج من مديحة زواجاً شرقياً وهي أصغر منه وربّة بيت مطيعة تنتظر عودته على أحرّ من الجمر وهي مثال الزوجة الممتازة (ص ٩٨ – ٩٩)، ثمّ هي لا تعرف شيئاً عن علاقاته النسائية، فقد كان يبحث عن عشيقة مثقّفة، فوجدها

في سهير علوان التي كانت تعرف ماضيه وحاضره جيداً، ولكنّ مصلحتها في أن تبقى جانبه، وهي تحتاج إليه كما يحتاج هو إليها، ثم تعلّق بالممرضة جين في أثناء العملية الجراحية له في لندن، ومع ذلك فإنّه كان يحبّ سهيراً، ويعطف على جين، ويحنّ إلى مديحة .

- واستطاعت غادة السمّان أن تسطّر بقلمها الشفاف ولغتها الشاعريّة الفيّاضة مشاهد الحبّ على طريقة الرواية الموضوعية، فقد نقلت إلينا قضية ياسمين المرأة الدمشقية، التي هجرت مدينتها إلى بيروت، للبحث عن الثراء، فسلّمت جسدها لـ نمر الذي تخلّى عنها إلى سواها، فتزوّج من ابنة الثريّ فاضل السلموني، فضاعت طموحات ياسمينة في رواية «بيروت ٧٥»، ودنيا في رواية «ليلة المليار» صورة أخرى عن ياسمينة، فهي فنانة تشكيلية تلغي ماضيها الغني بعد الزواج من نديم الذي لا يهتمّ إلا بالمال، وإن كان ذلك على حساب دماء الأبرياء، وهذا ما اكتشفته دنيا بعد صفقة الزواج، مما جعلها تعيش تناقضاً حاداً بين ماضيها وحاضرها، بين أن تكون إنساناً يتعذّب بعذاب الآخرين أو إنساناً يُسهم في عذابهم، وهي ترى زوجها يميل حيث تميل مصالحه، ولا يتورّع عن قتل الأطفال في مدرسة، ولذلك فإنّها تعيش في ازدواجيّة خانقة للوصول إلى حلٍّ سريع لحياتها، ومن هنا تقيم الرواية حواراً بين دنيا وفتاة مُتخيّلة ضمن لوحة لها لترشدها إلى ما يجب عليها أن تفعله:

«**قالت فتاة اللوحة:**

- **حتّام تتهرّبين من اتخاذ قرار حاسم؟**

- **لا أتهرّب.. إنّني عاجزة !**

- **لماذا؟**

- **لا أدري..**

- **سأقول لك لماذا..**

- **لا تقولي شيئاً بعد الآن، أعرف ما يمكن أن يقال لامرأة مثلي، فوفّري أنفاسك وأنفاسي، إنّني أبذل كلّ ما بوسعي.. هذا كلّ ما أستطيع أن أقوله لك**» (٤) .

- أمّا موضوعات المرأة المتّصلة بالحبّ فهي تنضوي ضمن مقولة واحدة، وهي أنّ الرجل الشرقي يتلوّن بحسب الظروف التي يمرّ بها، وهو ضمنيّاً لا يعترف بالمساواة بين الجنسين، ولكنّ المثقّف يتخفّى أحياناً خلف أقنعة مختلفة للوصول إلى غرضه، وهذا ما وجدناه أولاً في رواية «**أروى بنت الخطوب**» و«**الحبّ والوحل**» و«**في الليل**»، ثمّ في «**أيام معه**» و«**ليلة واحدة**»، و«**ومرّ صيف**» إلى رواية «**خواطر امرأة لا تعرف العشق**»... إلخ، ولكنّ طريقة المعالجة أو الرفض لهذا الواقع المرّ

كانت مختلفة في مرحلة البدايات والرواية التقليدية، لأنّ الذهاب إلى المواجهة مع نظام بطريركي متجذّر لا تعني سوى الهزيمة لرسوخ هذه القيم في المجتمع الذي لا يقبل أيّ هفوة من المرأة سواء أكانت عن وعي أو من دون وعي منها، في حين أنّ مرحلة الرواية الوجودية كانت تتجلّى بالهجوم على حصون هذا النظام الذكوري، حتّى لو كان انتحارياً، وهذا ما كان في روايتي **«أيام معه»** و **«ليلة واحدة» لـ كوليت خوري**، وفي معظم روايات غادة السمّان التي نقلت بطلاتها خارج دمشق، وإلى بيروت تحديداً، حيث الكلمة الأخيرة للمصالح الشخصيّة والحرب والدماء وتسليع الضعفاء، سواء أكانوا نساء أو رجالاً .

ثانياً – رواية النضال القومي:

اشتركت الروائية السورية في معركة النضال القومي جنباً لجنب مع الروائيين، وهي لا تختلف عنهم في شيء سوى أنّها أبرزت دور المرأة في هذا المجال، فهي أيضاً قادرة على التضحيات ومقارعة المستعمر كالرجال تماماً، وفي أيّ قطر عربي، وقد برزت نشاطات المرأة العربية المثقّفة في هذا المجال خارج مدينتها وخارج محيطها في رحلتها إلى أقصى بلاد المغرب العربي، وهذا ما تمثّل في سمر بطلة رواية «أيّام مغربية»[*] ١٩٦٥م لـ قمر كيلاني، وهي دمشقيّة مدرّسة للغة العربية تسافر إلى الدار البيضاء لتدريس هذه اللغة، وهناك تنزل عند صديقتها السوريّة الأصل جميلة، وهي متزوّجة من رجل أعمال مغربي مصطفى، وتتعرّف بوساطتها على مجموعة من الأصدقاء، وهم من جنسيات مختلفة يسعون إلى تحرير المغرب من الاستعمار الفرنسي، وتنضمُّ سمر إليهم لتقوم بواجبين قوميين في آن واحد: تدريس اللغة العربية، وهو السلاح الفعّال لخلق جيل مؤمن بالعروبة، والنضال لتحرير وطنها الثاني من المستعمر، وهي شخصية وطنية فاعلة تُسهم في المهرجانات الثقافية وتحرير المجلّات الصغيرة هناك، وتشترك في تهريب القنابل إلى الوطنيين (ص ٩٩)، فالمرأة لم تعد في هذه الرواية موضوعاً رومانسيّاً وغرضاً غزلياً، وإنّما هي تشترك في صناعة تاريخ بلادها والمستقبل العربي، غير آبهة بما تواجه من مشكلات، وثمّة شخصية حزم، وهو شاب سوري أيضاً يعمل في وكالة أنباء في المغرب، ويشترك أيضاً في النضال القومي ضدّ المستعمر الفرنسي (ص ٩٠)، وثمّة شخصيات أخرى، ومنها جميلة وزوجها مصطفى، وشخصيّة العربي الشاب البورجوازي المغربي الموظّف في المستشفى الذي يشترك مع سمر في تهريب القنابل

للوطنيين لنسف منشأة أجنبية .

-تنتقل سمر في عملها التدريسي إلى مدينة أغادير التي انتقلت إليها صديقتها جميلة وزوجها مصطفى، وتشترك هناك أيضاً بالنضال القومي ضدّ المستعمر الفرنسي، ولكنّ الرواية تنتهي بزلزال أغادير الشهير الذي كاد يمحو كلّ أثر لهذه المدينة بثوانٍ «**تفجّر دويّ هائل .. الأرض تتأوّه .. تتحرّق .. ثوانٍ .. ثوانٍ فقط هي الساعات .. هي الأعوام .. هي دهر بأكمله**» (ص ١٤١)، ثمّ تعود سمر بعد ذلك إلى مدينتها دمشق في نهاية الرواية، وقد أدّت واجبها القومي على صورة مثلى .

«**أيام مغربية**» الرواية الأولى لـ **قمر كيلاني**، وهي تجربة البدايات أنتجت بعدها قمر عدداً من الروايات التي لا تختلف عنها في توصيف النضال القومي، وهي تنتهج نهج الرواية الموضوعية الواقعية، وفي هذه الرواية من واقع المغرب العربي في ظلّ الاستعمار الفرنسي، وفيها أحداث تاريخية معروفة، ومنها نفي السلطان إلى باريس مدّة أربع سنوات، وحادثة زلزال أغادير، وإذا كان ثمّة من مأخذ على هذه الرواية، وهو أنّ المؤلّفة ركّزت على الطبقة البرجوازية في المغرب، فهو مأخذ ضعيف، فالدائرة التي كانت تتحرّك فيها البطلة ضيّقة، وهي مرتهنة بصديقتها جميلة وزوجها، وليس غريباً أن تكون مصالح مصطفى مع الفرنسيين، وهو مشغول بشركات التعمير، والحلّ والربط في ذلك بأيدي المستعمر، ومصطفى ليس وحيداً من العرب الذين يتعاونون مع المستعمر لتنفيذ مآربهم، فأمثاله كثر في كل قطر عربي، ثمّ ينبغي أن تكون شخصيات الرواية كثيرة من جهة، ومتنوّعة من جهة أخرى، وكان على سمر وهي في ضيافة جميلة وزوجها أن تنقل صورة صادقة عن الطبقة التي ينتميان إليها : «**إنّ جميلة وزوجها مصطفى يمثّلان ذلك النفر من الناس الأرستقراطيين الذين يسيرون في تيار المدينة المغربية، فيرتادون نوادي الخيل والسباق والمراقص الباذخة، وتطلعنا المؤلّفة على سهراتهم، ومباذلهم، وهمومهم في الحياة، ومنها هموم القضية الوطنية التي تظلّ بالأحرى ثانويّة عندهم .. إنّ مصطفى في الرواية يتعاون مع الأجنبي، ويشتري أسهم شركة فرنسيّة**»[٦] .

-تثبت بطلات روايات **قمر كيلاني** أهمية دور المرأة العربية في النضالين الوطني والقومي بأشكال مختلفة وبحسب ما يقتضيه السرد الروائي، فأسرة الجبيلي اللبنانية مؤلّفة من أب مسلم «**وديع**» وأم مسيحية «**كاميليا**»، والأبناء سونيا وندى ورياض،

وسونيا بطلة هذه الرواية طالبة جامعية تحبّ شاباً فلسطينياً (سامي)، ينخرط في صفوف المقاومة الفلسطينية، ولذلك فإنّها تخرج معه في مهمة فدائية، فتُجرح وتشفى، وتعمل ممرّضة في المشفى لتؤدّي دورها القومي، ثمّ تقوم بتهريب سامي الجريح بشاحنة إلى الجبل، حيث ملاجئ المقاومة، لكنّها تنسحب بعد ذلك من العمل في المقاومة، لتعود إلى بيتها البرجوازي وأشجار الكرز في الجبل، لكنّ مجموعة من الفدائيين قتلوا سونيا من دون أن تترك الرواية أيّ قرينة أو مسوّغ لمقتلها، وإذا كان مقتلها خطأً أو مقصوداً، وهي أيضاً لم تكن تصل إلى أيّ مسوّغ لقتال العربي أخاه العربي، فالعدو واضح ومحدّد، والحرب الدائرة في لبنان عبثيّة، وهي لمصلحة الأعداء، فـ **«ليست المعركة بين فلسطين ولبنان إذن .. أو بين عرب وعرب. إنّما هي معركة مع الاستعمار الذي لبس جلد الحرباء ليتلوّن كلّ يوم بلون، إنّه الآن يتلوّن بالطائفية .. كما يتلوّن باليمين واليسار وبلبناني وغير لبناني وهو في الحقيقة يستهدف التجزئة ويسعى إلى تمزيق شمل الوطن الصغير وضياع استقلاله»** [٧] .

-ولابدّ من أن يتوقّف المرء أخيراً عند رواية خصصتها صاحبتها للحرب على العراق، وهي بعنوان **«صور تلاحقني»** [٨] لـ **ماري رشّو**، وعنوانها يشير إلى أنّها رواية شخصية من جهة، ورواية مشهديّة من جهة أخرى، فالبطلة بسمة تقوم بالرواية بضمير المفرد المتكلّم، والصور مشاهد متلاحقة، ثمّ هي تسجيلية بحسب طبيعة موضوعها، فالصور ما التقطته وعاشته البطلة في بغداد بعد الاجتياح الأمريكي، والبطلة بسمة من أصول عربية سافرت إلى أمريكا للتخصّص تزوجت مرّتين ولم تنجب، وهي تقيم في أمريكا منذ ثلاثين عاماً، وهي ذات جنسية أمريكية، وقد قُبلت للعمل مع الجيش الأمريكي مترجمة لمعرفتها بالعربية والإنكليزية، ولم تستمع لتحذيرات أختها وزوجها، وهي تسرد وتصوّر ما جرى معها في العراق، وما رأته من مشاهد، فالشعب في حالة سيئة من النظام السابق، وهو يعاني الفقر والجوع والتخبّط والحرمان ولسعات البعوض السامّة (ص ٣٩)، ومع ذلك فهو لا يريد بقاء الأمريكي في بلاده والتدخّل في شؤونه (ص٣٧)، والتقت بسمة هناك عدداً من الأمريكيين العرب، ومنهم محمود ونور الدين، وكان هدفها تحسين أوضاع الشعب العراقي ومساعدته، خاصّة فيما يخصّ الأطفال، كالمدارس، وقد قامت بجهود جبّارة لإنجاز مدرسة السلام للتلميذات

الصغيرات، وكان فرحها بذلك، حتّى إنّها اتصلت بزوجها، وطلبت منه أن يرسل إليها من أمريكا ألف قلم وألف ممحاة وألف مسطرة وألف مبراة على وجه السرعة، لتدبّ السعادة في قلوب أطفال العراق، فتسعد هي لحرمانها من هؤلاء (ص ٥٥ – ٥٧)، وكان حزنها كبيراً وهي ترى مجموعة من التلاميذ وهم يرمون كلباً هزيلاً واهناً بأحذيتهم (ص٧٦ – ٧٧)، أما مشاهد التفجيرات التي لا تأتي على موعد فهي تملأ صفحات الرواية، وقد تعرّضت بسمة غير مرّة للموت، ثمّ انتقلت من المعسكر الذي كانت تقيم فيه إلى معسكر المطار، وهو أكثر راحة، ثم كان لقاؤها السريع بالطفلة هبة التي ماتت أمّها ولا تعلم شيئاً عن مكان أبيها، ثم اختفت بسرعة وكأنّها حلم، ولكنّ صورتها ظلّت عالقة بذاكرة بسمة التي أحبّتها بسرعة، وطلبت من آلاء ومحمود لمساعدتها في البحث عنها، ولكنّهما يعتقدان أنّ هبة أتت ذات حلم (ص ١٠٥ – ١٠٨) .

-ثمّة صور أو مشاهد أخرى كثيرة تتوالى بعد ذلك، ومنها التفجيرات المتتالية والضحايا من الشعب العراقي، الطفل سليم الذي أرشدها إلى مكان وُضعت فيه المتفجّرات استعداداً لتفجير جديد (ص١٢٤ – ١٢٦)، الشاب الذي ادّعى بأنّه يتصل بالخالق ويعرف كل ما سيجري ويعرض عليها مواهبه ويضعها في خدمة الأمريكان مقابل المال (ص ١٣٩ – ١٤١)، تودي المرأة المستهترة التي تتنقل من جندي إلى آخر وتعيش معها في غرفة واحدة (ص ١٤٢)، ليلة القبض على صدّام في الحفرة وتغيّر وجوه الناس بين السعادة والذهول والغضب (ص ١٥٧)، آلاء التي أحبّت الشاب العراقي الكلداني سالم، وتواعدا على الزواج لتحمله معها إلى أمريكا، ولكنّ انفجاراً ضخماً أصاب سالماً وأباه وأمّه، وكانوا يبتاعون مؤونة يومهم من أحد مخازن التموين، فمات الأب بعد أيام، ولحقت به الأم، وأصيب سالم بحروق من الدرجة الثالثة. أمّا أخته التي كانت في البيت فإنّها في حالة هستيرية مستعصية، وحُوّلت للمعالجة النفسية (ص ١٦٠ – ١٦١)، ثمّ زفّ نور الدين بشراه لبسمة في أنّه عثر على طفلة لا تتعدّى العاشرة، قالت إنّها تعرف الأمريكية بسمة، ووصفها، فعرفت أنّها هبة، وكانا على موعد معها (ص ١٦٤ و ١٧١) .

ثالثاً: رواية الموضوعات الإنسانية:

لم تتوقّف الرواية العربية عند موضوعات الحبّ والمرأة، وهي الأساس في معظم الروايات، وإنّما اشتركت مع الروائيين الرجال في موضوعات النضالين الوطني والقومي،

ومنهنّ تجاوزن هذا وذاك إلى موضوعات إنسانيّة عادلة رأين فيها أنَّ ظلماً وقع على شعب من الشعوب المجاورة أو البعيدة، ويأتي في طليعة هذه الروايات رواية «**طفلة الكوليرا**»[٩] لـ **ماري رشّو** التي تتناول حكاية الشعب الأرمني، وقد جمعتها من مصدرين: حكايات جدّتها آرشا التي كانت تقصّها على حفيدتها لورا، وهي حكايات ليست من الخيال، وإنّما عاشتها هذه الجدّة لحظة بلحظة منذ أن كانت تعيش في مدينة وان بين جيران من الأرمن والأتراك والأكراد عيشة وئام وسلام إلى أن دبّت الفتنة، وبدأ التنكيل والقتل والتهجير، وقد واجهت آرشا الموت في كلّ لحظة على دروب العذاب الطويلة. وتعرّضت للاغتصاب إلى أن حلّت في حلب وقامت الثورة العربية، والمصدر الثاني الذي استقت منه لورا حكايات الشعب الأرمني الكتب والصحف والصور والوثائق الأخرى التي استطاعت الحصول عليها، وقد دخلت قسم التاريخ لهذا الغرض.

- تتذكّر لورا من حكايات جدّتها آرشا -التي رحلت- المعاناة المرّة التي عاشها شعب أعزل لاختلافه عن الآخر الذي يمتلك أسباب القوّة، فقد كانت آرشا وأسرتها وأهلها يشتغلون بصناعة دود القزّ والحرير، ولمّا جاء الاتحاديون إلى الحكم، ومنهم طلعت وأنور وجمال بدأت ملامح الفتنة، واتُّهم الأرمن بتهم غير حقيقية، فسيق شبابهم إلى حرب لا مصلحة له فيها، ومع ذلك فقد كانت المذابح تُحاك لهم، ولذلك فإنّ صديقتها التركية نظلة نصحتها:

«**ليتكم ترحلون إلى خارج تركيا يا آرشا، هنالك أخبار بشعة (ص ٤٣)**».

ثمّ إنّ ألمانيا منحت الضوء الأخضر لتركيا لذبح الأرمن والتخلّص منهم، وهذا ما فعله الأتراك على عجل، فقتلوا معظم شبّان الأرمن وسبوا نساءهم في كلّ مكان، ثمّ ساقوا النساء والأطفال والشيوخ، وبينهم آرشا وطفلاها: واهان وريتا، إلى ساحة المدينة، وبدأت رحلة التهجير أو التجويع والتنكيل والموت، وقامت آرشا بوصف هذه الرحلة ودقائقها وصفاً عينيّاً واقعياً قاسياً، وكانت مهمّة رجال الدرك أن يبيدوا النساء والشيوخ، وقد سلّموهم لقطاع الطرق الذين اغتصبوا النساء على مرأى منهم، ومن النساء اللواتي اغتصبن آرشا، وقد شعرت فيما بعد أنّها حامل، والعم آفو هو ابن الحرام الذي لم تعرف آرشا طريقة لإجهاضه، وكان ضمن هذه الرحلة العجوز نوبار، وهو رجل هرم حكيم كان يعرف ما سيجري، ويعرف أيضاً أنّ للقتل مختصين، وكان يشجّع المقرّبين منه على الصمود والصبر، ثمّ جاء وباء الكوليرا

على ما تبقّى من أطفال على قيد الحياة، ولمّا اقتربت القافلة من بلاد الرافدين قدّمت آرشا ابنتها ريتا لإحدى السيّدات العربيات، فقالت دون تردّد:

- خذيها، إنّها جائعة، أطعميها.

ركعت المرأة وحضنت ريتا، لم تتفوّه ريتا بكلمة، لم تتعلّق بأذيال أمّها، ولعلّها عرفت أنّ الخلاص قد أتى» (ص ١٠٩)، ولكنّ المفاجأة أنّ زوجة الآغا الأرمني الذي أخذه الأتراك ولم يعد لم تستطع أن تتحمّل ما هي عليه، فتركت طفلتها في حضن آرشا وغابت عن الأنظار، ثمّ سمّى واهان الطفلة (سيما) التي أصبحت فيما بعد زوجته، ووصل القطار بعد ذلك إلى حلب بعدد قليل، وكان استقبال العرب ومساعداتهم يفوق الوصف، حتّى إنّ نعيم بك رفض الأوامر من وزارة الداخلية بإبادة الأرمن، لكنّ برقيات وزير الداخليّة تواصلت وهو يردّد فيها بأنّه لن يهنأ له بال ولا يطمئن إلى حال ما لم يختفِ آخر أرمني من الوجود (ص ١٢٦)، ثمّ كان التهجير من حلب إلى رأس العين، وهناك كانت آرشا وابنها واهان في خدمة أسرة الحاكم علي بك الذي عُزِلَ من وظيفته لعدم تطبيق الأوامر الصارمة، ثمّ تحسّنت أحوال آرشا خاصّة بعد قيام الثورة العربية الكبرى (١٩١٦) ضدّ العثمانيين، وانتقلت الأسرة إلى حلب بعد تحريرها، وتوالت الأحداث والمؤتمرات، وزوّجت آرشا ابنها وهران من سيما، وولدت لورا في عام الجلاء، لترحل الجدّة بعد ذلك، ولكنّ حكاياتها ظلّت حيّة في ذاكرة لورا، وهي التي دفعتها إلى دراسة التاريخ في الجامعة، لتبحث في مأساة شعب، بل كانت هذه الحكايات هي المصدر الأساس لبحثها، «وما حاولت جدّتي زرعه في رأسي الصغير، كان كحبّة قمح ستنبت ذات يوم، وتستقي من الحقيقة التي لن يستطيع التاريخ تجاهلها أو طمسها» (ص ٣٦).

-هذه بعض موضوعات السرد في روايات المرأة في سورية، وقد اقتصر الكلام على عدد محدّد من هذه الروايات، ولكنّه يفي بالحاجة، فهو يقدّم صورة عن أدب المرأة المتنوّع من جهة، ثمّ إنّ الهمّ الأساس كان مهيمناً على هذه الروايات، سواء أكان ذلك في الحبّ أو النضال القومي أو الموضوعات الإنسانيّة الأخرى، وقد يجد المرء هذا الموضوع أو ذاك موزّعاً على روايات أخرى، ولكنّه جانبي أو ثانوي أو هامشيّ.

الحواشي

١- صـــدرت رواية «خواطر امرأة لا تعرف العشق» عـــن الأطلسية للنشر بتونس سنة ٢٠٠٩م، والإشارة في المتن للصفحات اختصاراً للحواشي .

٢- صدرت هذه الرواية عن دار الرائد ببيروت سنة ١٩٨٣م، والإشارة في المتن للصفحات اختصاراً للحواشي.

٣- صـــدرت رواية "ومرّ صيف" لكوليـــت خوري أول مرّة ضمن منشورات اتحـــاد الكتّاب العرب بدمشق سنة ١٩٧٥م، ونعتمـــد هنا الطبعة الخامسة الصادرة عن دار طلاس بدمشق سنة ٢٠٠٥م، والإشارة في المتن إلى رقم الصفحات من هذه الطبعة اختصاراً للحواشي .

٤- السمّان، غادة: ليلة المليار، منشورات غادة السمّان، بيروت، ط١. ١٩٨٦م، ص ٢٧٨ .

٥- صدرت «أيام مغربية» عن دار الكتاب العربي في بيروت، سنة ١٩٦٥م، والإشارة في المتن للصفحات اختصاراً للحواشي .

٦- عدنان بن ذريل: الرواية العربية السورية - دار نفسية، مطبعة الآداب والعلوم، دمشق، ١٩٧٣م، ص٤٩ .

٧- كيلاني، قمر: بستان الكرز، اتحاد الكتّاب العرب بدمشق، ١٩٧٧م، ص٢٤١ .

٨- صـــدرت هـــذه الرواية عـــن دار الحوار باللاذقيّـــة سنـــة ٢٠٠٧م، والإشارة في المتن للصفحـــات اختصاراً للحواشي.

٩- صـــدرت هـــذه الرواية عـــن دار الساقي ببـــيروت، سنة ٢٠٠٨م، والإشـــارة في المتن للصفحـــات اختصاراً للحواشي.

«مفدي زكريا»
«الناي الذي أصبح بوقاً للثورة»

إبراهيم محمود الصغير ✪



لا يزال الكثير من أبناء العروبة، وخاصة الذيـن عاصـروا الحرب الضروس للثورة الجزائرية الباسلة ضد الاستعمار الفرنسي (١٩٥٤– ١٩٦٢)، لا يزالـون يذكـرون بكل فخر وحماس وتشوق نشيد الجزائر الخالد (قسـماً بالنازلات الماحقات)، والذي كانوا يرددونـه في مطلـع كل صـباح، في طابور المدرسة الصـباحي، بعد نشيدهم الوطني، والذي كان يُبث أيضـاً في الإذاعات العربية المتنوعة، فيثير الحماسة في قلوب الجماهير، ويوقـظ في أعماقهـم المشـاعر الوطنيـة والقوميـة اللاهبة، كما يحـرك فيهم حسّ

✪ أديب وناقد فلسطيني.

التضحية والفداء من المحيط إلى الخليج.

وقد أحبته، كذلك، كل الأجيال، التي تلت الثورة الجزائرية وإلى الآن، ورأت فيه، ليس نشيداً للثورة الجزائرية فحسب، بل «نشيداً قومياً عربياً بروح إسلامية»[1]، وقد انتبهت القوات الفرنسية المستعمرة إلى خطورة مثل هذه الأناشيد الوطنية والقومية، على وجودها وهيمنتها، فحاولت جاهدة منع طبعها ونشرها، كما حاولت منعها من الانتشار بين أفراد الشعب، بل وألقت القبض على مؤلفي هذه الأناشيد، وزجّت بهم في السجون، ومنهم مؤلف هذا النشيد الشهير (قسماً)، وذلك في محاولة منها للقضاء على مثل هذه الأناشيد الوطنية، ولكنها باءت بالفشل الذريع، لأن ما ينتشر ويرسخ في ذاكرة الشعب لا يمكن لأي قوة في العالم أن تقتلعه منه أو تمحوه.

حتى بعد أن نالت الجزائر استقلالها «أرادت القوى (الفرانكفونية) في عقد التسعينيات في القرن المنصرم (القرن العشرين)، إلغاءه، أو حذف بعض فقراته»[2].

أمّا في داخل الجزائر، فقد كان هذا النشيد «يدوي صداه عبر الجبال والوديان والسهول والمنازل، حتى الأقبية والسجون أيام الثورة، وقد أصبح النشيد الرسمي للثورة الجزائرية، ثم النشيد الوطني في ظل الحرية والاستقلال، ومطلعه:

قسماً بالنازلات الماحقات
والدماء الزاكيات الطاهرات
والبنود اللامعات الخافقات
في الجبال الشامخات الشاهقات
نحن ثرنا فحياة أو ممات
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا»[3].

والغريب في الأمر، أن معظم الناس في المنطقة العربية كلها، يعرفون هذا النشيد، وجزء كبير منهم يحفظونه عن ظهر قلب، ولكنهم لا يعرفون اسم مؤلفه، حتى المثقفون منهم يجهلونه، إلا القليل منهم. ولو قلت لبعضهم: «إن مؤلف هذا النشيد هو الشاعر الجزائري (مفدي زكريا)، ولحنّه الموسيقار الكبير (محمد فوزي)» [4] لأخذه العجب من هذا. ولا يزال هذا النشيد الخالد، يدوّي إلى اليوم في كل أنحاء الجزائر، مذكراً الناس باسم مؤلفه (مفدي زكريا) بأحرف من نور. فمن هو مفدي زكريا؟

لمحة مضيئة عن حياة مفدي زكريا:

ولد (مفدي زكريا)، «واسمه الحقيقي زكريا بن سليمان، لقبه زميل البعثة الميزابية والدراسة (الفرقد سليمان بو جناح) بـ (مفدي زكريا) فأصبح لقبه الأدبي الذي

اشتهر به»[٥]. ولد يوم الجمعة في نيسان من عام (١٩٠٨) في قرية (بني يزقن) الواقعة في واحة (بني ميزاب) في الجنوب الجزائري، وفيها بدأ قراءة القرآن في الكتاتيب، وعلومه الابتدائية. ثم انتقل إلى (عنابة) لمتابعة دراسته، وأرسله والده بعد ذلك إلى (تونس) ضمن (البعثة الميزابية)، فمكث عامين في مدرسة (السلام القرآنية)، وانتقل بعدها إلى (المدرسة الخلدونية) لدراسة العلوم. وأكمل تعليمه في (جامع الزيتونة)[٦].

ويبدو من خلال هذه الفترة الطويلة التي أمضاها دارساً ومتعلماً في (تونس)، أن ثقافته اتسعت كثيراً وتنوعت، وأنه تمكن من الاغتراف من نبع اللغة والثقافة العربية. كما تفتحت موهبته الشعرية والأدبية بشكل ملحوظ، وأصبح ذا شخصية واعية وناضجة، وتعمقت تجاربه في الحياة أكثر، وربما يعود ذلك إلى نوعية التعليم الممتازة التي تلقاها في الأماكن التي درس فيها في (تونس) وإلى مثابرته واجتهاده في الدراسة والتعلم، وإلى قوة حافظته للعلوم التي يتلقاها. كما كانت لمخالطته المستمرة مع رجال العلم والأدب في (تونس) دور كبير في صقل شخصيته وإثراء ثقافته، وشحذ مكامن الإبداع لديه: «حيث غشي مسامرات الأديب التونسي الكبير (الأستاذ العربي الكبادي) وجمعته صداقة حميمة في تلك الفترة بالشاعرين (أبو القاسم الشابي) و (رمضان حمود) الذي كان زميلاً له في البعثة.

نشر أول قصيدة له وهي (إلى الريفيين) عام (١٩٢٥) في جريدة (لسان الشعب) التونسية، ثم بدأ النشر في جريدة (الصواب) التونسية ثم (اللواء) و (الأخبار) المصريتين»[٧].

ولا ننسى كثرة مطالعاته للكتب القيّمة، والمجلات الثقافية، والصحف العربية المتنوعة، التي كانت تأتي من مصر وبلاد الشام باستمرار إلى (تونس) والتي كانت ممنوعة من الدخول إلى الجزائر بأمر السلطات الفرنسية المستعمرة. وقد أثرت هذه المطالعات كثيراً في أفكاره وأسلوب شاعريته، ومكّنته من أن يلمّ بالأساليب الأدبية والشعرية التي كانت سائدة آنذاك في مصر وبلاد الشام، ومكنته أيضاً أن يعرف الكثير عن أدبائها وشعرائها، خاصة قصائد شعراء (مدرسة الإحياء) وكذلك (المدرسة الرومانسية). ولعل في مؤلفيه (الخافق المعذب) و(محاولات طفولة)، وهما من إنتاجه في شبابه، خير دليل على تفتح موهبته الأدبية والشعرية في وقت مبكر.

وعاد إلى الجزائر، حيث النضال الحقيقي، وحيث انصهرت شخصيته ومثله وأفكاره وشاعريته، في أتون النضال ضد المستعمر الفرنسي. وواكب الحركة الوطنية

بشعره ونضاله على مستوى المغرب العربي. فانخرط في صفوف الشبيبة الدستورية، كما شارك مشاركةً فعالة في مؤتمرات طلبة شمال أفريقيا، وعلى مستوى الحركة الوطنية الجزائرية مناضلاً في حزب (نجم شمال أفريقيا) فقائداً من أبرز قادة (حزب الشعب) الجزائري وقد قال في ذلك:

فداء الجزائر روحي ومالي
ألا في سبيل الحرية
فليحي حزب الاستقلال
ونجم شمال أفريقية[8]

وقد تتابعت قصائده في الصحف والمجلات، مرافقاً الحركة السياسية الوطنية مناضلاً بقلمه ولسانه، فكان شاعر الحرية والنضال والدعوة إلى التضحية والفداء في سبيل عزة الوطن وحريته واستقلاله، وكان يوقّع بعض قصائده بـ(ابن تومرت) وهو اسم مؤسس دولة الموحدين بالمغرب.

لقد دهش من كان يعرفه منذ صباه لهذا التحول الكبير في شخصيته، فهذا الفتى المثقف، ذو التربية الدينية المثالية، وذو المشاعر والأحاسيس الرقيقة، والشاعرية المرهفة الناعمة، والذي يشبه «الناي» في رقته وصفاء صوته، وتعدد نغماته، ينقلب فجأة إلى «بوق كبير» يصل صدى صوته القوي إلى كل ركن من مساحة الجزائر الكبيرة، ليثير الحمية والنخوة في قلوب الناس في الصحراء، وفي الجبال، وفي السهول، وفي المدن والأرياف وحتى في السجون!

لقد آمن (مفدي زكريا) بالثورة الجزائرية، وأعطاها كل ما لديه. كما آمن بالشعب محركاً حقيقياً للثورة، وملهماً للنضال والكفاح، ومنجماً لا ينضب للمجاهدين والشهداء.

يقول عنه الدكتور (وليد مشوح): «وهكذا نجد الأمر واضحاً عند (مفدي زكريا)، فهو بحكم تربيته الدينية والروحية العالية، استقر يقينه على الإيمان بمقدرة شعبه على الفعل والحرية، مما حوّله من شاعر صائغ، إلى شاعر ملتزم، يؤدي بشكل راقٍ جداً متطلبات التزامه، ويتمثل القيم السلوكية لموروثاته الاجتماعية، ليصبح في سلوكه الفني – التعبيري مثالاً سلوكياً نضالياً ثورياً متميزاً، ولاسيما حينما اندغمت شخصيته الفردية بقيم النضال الشعبي وضرورته للحرية لاستعادة الهوية القومية والدينية للجزائر، بوصفها الركن المهم في تركيبة أمتها العربية»[9].

ولكي يؤكد (مفدي زكريا) اندماجه بالشعب والثورة، ويعمق إيمانه بحرية الجزائر واستقلالها، فقد انضم إلى (جبهة التحرير الوطني) عند تشكّلها، وكان «التحامه بالجبهة والجماهير ليس فقط بحمل السلاح والقتال، بل كان مبلوراً في

شعره الذي أثار حقد الاستعمار الفرنسي عليه، وقد سُجن خمس مرات، كما جاء في ديوانه (اللهب المقدس) إلى أن هرب من السجن في شباط عام (١٩٥٩) ملتحقاً بصفوف (جبهة التحرير الوطني) بالخارج متنقلاً ما بين «تونس والمغرب»[١٠].

لقد شارك (مفدي زكريا) أفراد شعبه في النضال ضد المستعمر الفرنسي، كما شارك زملاءه الأدباء والشعراء والمثقفين الجزائريين في تصديهم لثقافة وفكر المستعمر «ذلك أنه ليس هناك من مثقف يستطيع أن يكون كبيراً في ذاته، ولذاته، فالشعور الجمعي في الألم وانتفائه، في الفرح وانديا حه، في السعادة وغمرتها، هو الذي يجعل هذا الشعور عميقاً في انفرازه بتربة المجتمع والتاريخ، والمثقف الذي لا يعرف أن يشارك في هذا الشعور، ليس في وسعه أن يكون لسان مجتمعه وزمنه، وإنسانيته، ولا يستطيع تالياً، أن يكون ممثلاً لهذه المكونات»[١١].

لم يهدأ (مفدي زكريا) في نضاله ضد المستعمر الفرنسي أبداً، بل ظل رافعاً قلمه سلاحاً مرعباً ومخيفاً، بل قاتلاً للمستعمرين، إلى أن نالت الجزائر استقلالها في الخامس من شهر تموز عام(١٩٦٢)، فأصبح تطوافه ما بين تونس والمغرب والجزائر إلى أن اتخذ من تونس مستقراً له.

وفي السابع عشر من شهر آب عام (١٩٧٧) انتهت رحلة الشاعر (مفدي زكريا) إثر سكتة قلبية، ونقل جثمانه إلى الجزائر، ودفن في بلده في (وادي ميزاب) بعد أن غنى بلاده:

بلادي التي من ذوب قلبي نظمتها
نشيداً فغنى الكون ثورتها شعرا
غمست بمطلول الجراحات ريشتي
فجاءت رسومي تلهم العقل والفكرا
وواكبت في الأعماق ثورة أمتي
ولازلت حتى أرسم البعث والنشرا[١٢]

وطنية (مفدي زكريا):

لقد نذر (مفدي زكريا) نفسه وشعره وفكره من أجل حرية وطنه وشعبه، وللتخلص من ربقة الاستعمار الغاشم بأي وسيلة من الوسائل الممكنة، ولما كان لا يملك إلا شعره، فقد أشهره كسلاح باتر فتاك ضد المستعمرين، ووضع كل عصارة قلبه وعقله وأحاسيسه بشعره. وعندما قامت الثورة الجزائرية الباسلة، أصبح، وعن جدارة «بوقها» المدّوي في كل أنحاء الجزائر. ففي ديوانه «اللهب المقدّس» تطالع القارئ أنفاسه المتهدجة الثائرة في كل صفحة من صفحات أشعاره النضالية، فالثورة الجزائرية هي الينبوع المتفجر في شعره، لأنَّها القضية الأساسية التي وقف عليها فنه وحياته،

والتي ألهمته حرارة أنفاسه، ولا عجب أن سمي (شاعر الثورة الجزائرية) فهي قولة حق بلا منازع، لأنّها الجذوة التي ألهبت وجدانه وفكره، منذ عرف طريقه إلى عالم الكلمة، حتى غدا شاعر الحرية والنضال.

وهو يوجه الإهداء في ديوانه: «إلى الدقيقة الواحدة من فاتح نوفمبر - (١) تشرين ثاني (١٩٥٤).. إلى أول أصبع جزائرية حركها الأزل، وضغط بها القدر الرابض، على زناد البعث، لتطلق القذيفة المسحورة الأولى، فتسعر (اللهب المقدّس) في دروب بلادي الحالمة، وأحراشها السكرى، ورمالها العطشى، وجبالها الغضبى... أهدي ذوب كبد تحترق في أتون (اللهب المقدس)»[١٣].

كما يقول في بداية الديوان في كلمة له: «لم أُعْنَ في (اللهب المقدّس) بالفن والصناعة، عنايتي بالتعبئة الثورية، وتصوير وجه الجزائر الحقيقي، بريشة من عروق قلبي غمستها في جراحاته المطلولة، والشعر الحق - في نظري - إلهام لا فن، وعفوية لا صناعة»[١٤].

والشاعر لا يكتفي بأن يزجّ بنفسه في أتون الثورة ولهيبها وحده، بل يكتب إلى ابنه يقول:

هكذا يفعل أبناء الجزائر
يا صلاح الدين في أرض الجزائر
سر إلى الميدان مأمون الخطا
وتطوع في صفوف الجيش ثائر
أنت جندي بساحات الفدا
وأنا، في ثورة التحرير، شاعر
زغردي يا أمه وافتخري
فابنك الشهم فدائي مغامر[١٥]

ثم يتوجه إلى كل فرد من أفراد الجزائر، محاولاً أن يجعل منه قذيفة حارقة تنفجر في صدر العدو، وذلك بوساطة شعره المشحون بأحاسيسه ومشاعره الثورية والمثير للنخوة وحب الاستشهاد، يقول الدكتور «وليد مشوح» معبراً عن موقفه هذا: «أما الشاعر فيعتمد على الدفق الشعوري المتأتي من الإحساس، فيصنع له الصاعق ويجهزه للانفجار، ثم يدفع به إلى الجماهير بشكل مباشر، ومن غير الحاجة إلى وسائط خارجة عن الأحاسيس والمشاعر، فهو النار التي تشعل الفتيل»[١٦].

هذا هو حال شاعر الثورة الجزائرية (مفدي زكريا) الذي يعرف أن كلماته تأخذ صداها في آذان وقلوب الجماهير، فيقول في حماسة وافتخار:

وهزت ثورة التحرير شعباً
فهبّ الشعب ينتصب انتصابا
وقال الله: كن يا شعب حرياً
على من ظل لا يرعى جنابا

فأيقظت القنابل من تعامى

وأسدل فوق ناظره نقابا[١٧]

وقد نجح الشاعر في إثارة الشعب الجزائري من أقصاه إلى أقصاه، بوساطة قصائده الثورية اللاهبة، وأناشيده المفجرة للأحاسيس والعواطف، والدافعة إلى النخوة وحب النضال والاستشهاد وخاصة نشيده الخالد (قسماً بالنازلات) الذي مرّ ذكره في البداية، والذي ألّفه في الزنزانة رقم (٦٩) من سجن (بربروس) في (٢٥نيسان/١٩٥٥)، لذلك زاد حقد المستعمرين عليه، وزجّت به في السجون أكثر من مرة. وفي ظلام السجون وزنزانات العذاب، كتب أروع قصائده وأناشيده الثورية، ولم يرهبه السجن، ولانال من إرادته بالتعذيب. وفي الزنزانة رقم (٧٣) من سجن (بربروس)، نظم قصيدة في ظلام الزنزانة، وحفظها بيتاً بيتاً، لاستحالة كتابتها، يقول فيها:

سيان عندي، مفتوح ومنغلق

يا سجن، بابك أم شدت به الحلق

أم السياط بها الجلاد يلهبني

أم خازن النار يكويني فأصطفق[١٨]

ولكن الذي كان يؤلمه، في ظلام السجن، هو حنينه الدائم إلى زوجته التي كان طيفها يتراءى له في ظلام الزنزانة، فيناجيها، رغم الألم والوحدة والظلام، قائلاً:

سلوى أناديك (سلوى) مثلهم خطأ

لو أنهم أنصفوا كان اسمك الرمق

يا فتنة الروح هل تذكرين فتى

ما ضره السجن إلا أنه ومق؟

هل تذكرين إذا ما الحظ حالفنا

إليك أهتف يا (سلوى) فنتفق؟

عادت بها الروح من (سلوى) معطرة

فالسجن من ذكر سلوى كله عبق[١٩]

لقد أوحى أول نوفمبر (تشرين الثاني) يوم انطلاق الثورة الجزائرية، للشعراء الجزائريين مداً شعرياً جارفاً. وقد أعطى (مفدي زكريا) (نوفمبر) حقه من الوحي الشعري، وجعله رمزاً من رموز الثورة، ينبض بالأمل، ويومض بالنصر، ويزهر بالغد المشرق، بل ويشبهه بليلة القدر، التي في ثناياها تباشير الخلاص والنصر، فمن قلب سجن (البرواقية) يقول في قصيدة نظمها في الذكرى الثالثة لانطلاقة الثورة الجزائرية:

دعا التاريخ ليلك فاستجابا

(نفمبر) هل وفيت لنا النصابا؟

وهل سمع المجيب نداء شعب

فكانت ليلة القدر الجوابا؟

تبارك ليلك الميمون نجماً

وجل جلاله، هتك الحجابا[٢٠]

كما يقول عن (نوفمبر) في (إلياذة الجزائر):

نوفمبر غيرت مجرى الحياة
وكنت نوفمبر مطلع فجر
وذكرتنا في الجزائر بدراً
فقمنا نضاهي صحابة بدر[21]

وفي مكان آخر من ديوانه (تحت ظلال الزيتون) يقول مخاطباً نوفمبر:

فخبر بني الدنيا نفمبر إننا
سنثأر للشعب الذي لم يزل يشقى
سنثأر للحرّ الفدائيّ قد غدا
ذبيحاً ينادي الخلد حنّ له شوقا[22]

والشاعر يؤمن، كذلك، بالكفاح المسلح، ويرفض التنظير والمفاوضات الدبلوماسية، وكلمة الشعب وسلاحه هما القرار الصائب الذي يجب أن يكون. ومن سجن (بربروس)، والذي يقع في قلب (حي القصبة) والذي أصبح الآن من متاحف الثورة، نظم قصيدة في القاعة التاسعة، يقول فيها:

نطق الرصاص فما يباح كلام
وجرى القصاص فما يتاح ملام
وقضى الزمان فلا مردّ لحكمه
وجرى القضاء وتمّت الأحكام
لغة القنابل في البيان فصيحة
صنعت لمن في مسمعيه صمام
والحق والرشاش إن نطقا معاً
عنت الوجوه وخرّت الأصنام[23]

ويقول في قصيدة نشيد (بربروس) أيضاً مخاطباً الثورة والثوار:

يا ثورة التحرير صوني الحمى
وحرريه من يد الغاصبين
شقّي الطريق فوق سيل الدما
وحطمي الطاغين والظالمين[24]

كما يقول مهاجماً السياسة والمفاوضات العقيمة:

وإذا السياسة لم تفوّض أمرها
للنار كانت خدعة وتصنعا
إني رأيت الكون يسجد خاشعاً
للحق والرشاش إن نطقا معا[25].

وهو يعتبر الشعب وحده صاحب القرار والمصير، فيقول:

هو الشعب آمنت بالشعب فردا
وصرت بخالقه مؤمنا
ولولاك يا شعب تزجي الشراع
لما بلغ الركب شاطئ الهنا[26]

والشاعر في تصويره للجزائر ونضالها ضد المستعمرين، من خلال ثورتها اللاهبة، يعتبرها قصيدة أزلية، أبياتها مكتوبة بالدماء والجراح، وأن (نوفمبر) هو مطلع هذه القصيدة الخالدة حيث يقول:

إن الجزائر في الوجود رسالة
الشعب حررها وربك وقعا
وقصيدة أزلية أبياتها
حمراء كان لها نوفمبر مطلعا

غنى بها حر الضمير فأيقظت
شعباً إلى التحرير شمَّر مسرعا
نظمت قوافيها الجماجم في الوغى
وسقى النجيع رويَّها فتدفعا[٢٧]

وهذه الأبيات هي من قصيدة بعنوان (اقرأ كتابك) وهي من أروع القصائد التي كتبها (مفدي زكريا)، وكان قد كتبها في سجن (البرواقية) في الزنزانة رقم (٣٧٥) بمناسبة الذكرى الرابعة للثورة الجزائرية وقد أُلقيت بالنيابة عنه في إذاعة صوت العرب من القاهرة.

وفي هذه القصيدة تنطلق رغبة الشاعر في أن يوصل صوته إلى كل إنسان في أرض الجزائر وأن يشحنه بأحاسيسه وانفعالاته، ليكون مثله متمرداً وثائراً على كل قيود المستعمر، وهو يطلب منه ذلك بلغة الأمر والحث، وإثارة النخوة والتحدي في داخله. وفي قصيدته هذه تتراقص الكلمات وتتشرّب المعاني، وتفوح روح التحدي والتمرد، وتتفجر المشاعر العنيفة المقهورة، حتى لكأننا نسمع في قصيدته هذه أنفاس المقاتلين وأنات الجرحى وصرخات الشهداء، ورنين السلاسل والأغلال في السجون، بل وحتى أزيز الرصاص ودوي المدافع، ومطلع هذه القصيدة:

هذا (نفمبر) قم وحيِّ المدفعا
واذكر جهادك والسنين الأربعا
واقرأ كتابك للأنام مفصلاً
تقرأ به الدنيا الحديث الأروعا
واصدع بثورتك الزمان وأهله
واقرع بدولتك الورى والمجمعا
واعقد لحقك في الملاحم ندوةً
يقف السلاح بها خطيباً مصقعا
وقل الجزائر واصغ إن ذكرت لهم
تجد الجبابر ساجدين وركَّعا[٢٨].

الشهادة والشهداء عند (مفدي زكريا):

اعتبر (مفدي زكريا) أن الشهادة في سبيل الوطن هي إكسير الثورة الجزائرية، وأنها الوسيلة الوحيدة والناجحة إلى الحرية. وأن الشهداء هم الجسر الذي يوصل إلى النصر وإلى الحرية، وأن دماءهم هي التي تعبد الطريق إلى الخلود. لذلك امتلأت قصائده بذكر الشهادة والشهداء، بل وأفرد للشهداء أناشيد خاصة بهم، منها (نشيد الشهيد) الذي يقول فيه:

اعصفي يا رياح
واقصفي يا رعود
واثخني يا جراح
واحدقي يا قيود
نحن قوم أباة
ليس فينا جبان
قد سئمنا الحياة
لا نمل الجهاد
في سبيل البلاد[٢٩]

وعن هـذا النشيد يقول الدكتور (صالح خرفي): «والذي جسده (مفدي زكريا)، كان ذروة الشعر الثوري في مراحل لم تزل سياسية، أو هي بالأحـرى ذروة التعبئـة السياسية. ولهـذا فرض هذا النشيـد، الذي انطلق من ظلمـات سجن (بربروس)، نفسه على الأيام والليـالي حتى وجد إطاره الصحيح في ثورة نوفمبر حيث أصبح النشيد الرسمي للشهداء يدوي في أرجاء (بربروس) كلما اقترب شهيد من المقصلة»[30].

ويقول عن لسـان شهداء أمتـه، الذين رفضوا الخنـوع والذل للمستعمرين، وآثروا الجهاد والاستشهاد ونيل الشرف والكرامة:

نحن رويـنـا الـثـرى مـن دمـنـا

وغـرسـنـا في ذراهـا الأضـلـعـا

وزرعـنـا في ربـاهـا مـهـجـاً

وسقينا الزرع حتى أينعا(31)

وعندما هرب الشاعر من السجن في عام (١٩٥٩) نظم قصيـدة أثناء فراره، وهو في طريقه إلى المغـرب، وجسمه مليء بالجراح والكدمات من أثـر التعذيب، وقد أخذ منه التعـب والإجهاد، يقول فيها واصفاً الشهيد الثائر، وهي من شعر التفعيلة:

«ويغني فوق أعواد المشانق

فتحييه الخوافق

وتزكيه الخوارق

أنا ثائر... في الجزائر

أنا ثائر... إن أمت: تحي الجزائر»[32].

وفي نشيـده الخالد (قسمـاً بالنازلات) والذي رددته الأجيـال ولا يزال حتى الآن، يذكر الشهادة والشهداء فيقول:

نحن من أبطالنا ندفع جندا

وعلى أشلائنا نصنع مجدا

وعلى أرواحنا نصعد خلدا

وعلى هاماتنا نرفع بندا

جبهة التحرير أعطيناك عهدا

وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا[33]

و(مفـدي زكريـا) حينمـا يتحدث عن الشهادة والشهداء، لا يتحدث تصوراً وخيالاً، «وإنمـا رأى بعينه كيف يؤخـذ المناضل إلى المقصلة، أو كيف يرمى بالرصاص، ولاشك في أنـه استطـاع في تشخيصـه أن يربـط بـين القضية من جهـة، وبـين الاستشهاد مـن أجلها من جهة ثانيـة، فهو وجهاً لوجه أمـام الشهيـد (أحمد زبانـا) ساعة تنفيذ حكـم الإعـدام، وذلك في القاعـة التاسعة داخل سجن (بربروس) في ليلة (١٨/تموز عـام١٩٥٥) وذاك هو الذبيـح الصاعد في شعر (مفدي زكريا)»[34] وهي قصيدة رائعة جميلـة، تنبعث منها موسيقـى خارجية في اللفظ والشكل، وموسيقى داخلية في المعنى والعاطفة، وتختلط فيهـا المشاعر الوطنية

والدينية والإنسانية في شكل متناسق وكأنها لوحة فسيفسائية ساحرة لا تؤثر في العين فقط، وإنما في العقل والروح والوجدان.

يقول الشاعر في هذه القصيدة:

قام يختال كالمسيح وئيدا
يتهادى نشوان يتلو النشيدا
شامخاً أنفه جلالاً وتيهاً
رافعاً رأسه يناجي الخلودا
حالماً، كالكليم، كلمه المجـ...
د، فشد الحبال، يبغي الصعودا
وتسامى كالروح في ليلة القد...
ر سلاماً، يشع في الكون عيدا
وامتطى مذابح البطولة معرا...
جاً ووافى السماء يرجو المزيدا
وتعالى مثل المؤذن يتلو
كلمات الهدى ويدعو الرقودا
صرخة، ترجف العوالم منها
ونداء مضى يهز الوجودا
اشنقوني فلست أخشى حبالاً
واصلبوني فلست أخشى حديدا
واقض يا موت في ما أنت قاض
أنا راض، إن عاش شعبي سعيدا
أنا إن مت فالجزائر تحيا
حرة مستقلة لن تبيدا[٣٥].

يقول الدكتور (وليد مشوح) عن هذه القصيدة: «فهي قصيدة حارة، ولدت في لحظة باردة سيطرت قشعريرتها على الذات، وماثلت في صوتها الأصل، وصداها الموسيقى الجنائزية وترنيمة الملائكة عندما يسقط الشهيد في ساحة الجد لا في ساحة اللعب»[٣٦].

العروبة والإسلام عند (مفدي زكريا):

في معظم قصائد (مفدي زكريا)، نجد شعره قومياً عربياً شكلاً ولفظاً ومضموناً، ولكن بروح إسلامية صرفة. وكأن العروبة والإسلام وجهان لعملة واحدة. فالشاعر يتغنى بانتماء الجزائر إلى الإسلام والعروبة، فتحت رايتهما تصدت كتائب جيش التحرير المستعمرين، مستلهمة مبادئها وأهدافها وسلوكها من الأصول الإسلامية وروح الشريعة، جاعلة من الجهاد في سبيل إعادة البلاد إلى نهج العروبة والإسلام مبدأً مقدساً آمن به رجالها إيماناً لا يتزعزع، خاصة عندما حاولت فرنسا جاهدة، تشويه الدين الإسلامي وطمس اللغة العربية، ونشر اللغة الفرنسية بدلاً منها.

ويستحق (مفدي زكريا) أن ينال شرف نعته بالمدافع الصلب عن الوحدة العربية لا لما شدا به من قصائد في هذا الغرض فحسب، بل لما بذل وضحى في سبيل مبدئه، متوجاً قوله بفعله. فلقد دفع الثمن من حريته، إذ زج به العدو في سجونه المظلمة،

فلم يجزع أو تهن عزيمته، بل زاده الاضطهاد والتعذيب إيماناً بحرية وطنه وعروبته، وهو الذي يقول:

على نبضات الشعب وقعت ألحاني
ومن نشوة التحرير لحنت أوزاني
وملء عروقي صارخ دم يعرب
فألهمني ينبوع يعرب تبياني
وماذاك إلا أن شعري من دمي
يفجره وعيي، وحسي، ووجداني(٣٧)

وهو عندما يتكلم عن العروبة يترنم بلفظها، وينتشي بمعناها، ويعتز بانتسابه إليها، بل ويأخذه الحماس في الحديث عنها، ويدعو إلى الوحدة العربية بمثل قوله:

تلك العروبة إن تثر أعصابها
وهن الزمان حيالها وتضعضعا
الضاد في الأجيال خلّد مجدها
والجرح وحّد في هواها المنزعا
إما تنهّد في الجزائر موجعٌ
آسى الشآم جراحه وتوجعا
واهتز في أرض الكنانة خافقٌ
وأقضّ في أرض العراق المضجعا(٣٨)

(ومفدي زكريا) يعتبر الجزائر أرض العروبة، وأنّها السند القوي للوحدة العربية، وفي قصيدة رائعة قالها في مهرجانات عيد النصر عام (١٩٦٢)، ثم ألقاها مرة ثانية في جامع (كتشاوة) عند افتتاحه بمناسبة عيد الثورة من العام نفسه، يقول فيها:

يا نازلين كراماً في ديارهم
أرض الجزائر للأحرار أوطانُ
ويا عروبة من أمٍّ لنا وأبٍ
هنا العروبة دوحات وأغصانُ
هنا الأصالة في صُلْبٍ وفي رحم
هنا القرارات تدبير ورجحانُ
هنا فلسطين تمتد انطلاقتها
إن كان في العرب أنصارٌ وأعوانُ
ونحن للوحدة الكبرى دعامتها
إن كان في العرب تفكيرٌ وميزانُ
مدوا يداً نبني دنيانا موحدة
فما استقام بدنيا الخلف بنيانُ(٣٩)

وهو عندما يتحدث عن الوحدة العربية، يتحدث عنها بشكل عام وشامل وكأجزاء مترابطة، إلا أنه يبدأ أولاً من الجار الأقرب، والذي هو امتداد طبيعي للجزائر، والذي يشمل تونس والمغرب. «وكانت إيماناته بوحدة التراب المغربي جلية واضحة، إذ ظل شعره يرفض الحدود، كما رفض القيود.. وتجوهر ذلك الإيمان في عروبته التي أرادها مؤطرة بالإسلام، وقد ركز على اللغة العربية كمقوّم أساسي من مقوّمات القومية العربية، ولم يحتج إلى الترميز، وهو المناضل الجسور، بل أعلنها واضحة بقوله:

تونس والجزائر اليوم والمغـ...

رب شعب لن يستطيع انفصالا

وحدة أحكم الإله سداها

من يرد قطعها أراد محالا

نحن روح مزاجه العناد والد...

ين، فلن يستطيع - قط - انحلالا

نحن شعب على الزمان عزيز

عربي كالنيرات اشتعالا

كلما رمتم افتراقاً قربنا

وعقدنا محبة واتصالا[40]

وهو يدافع عن وحدة المغرب العربي ويطلق عليها اسم (المغرب الأكبر)، ويهاجم كل من يحاول تفريق هذه الوحدة ووضع الحدود الاصطناعية بينها فيقول هازئاً بهم:

سلام على المغرب الأكبر

على طبعه الناصع الأطهر

وقالوا: حدود فدسنا الحدود

ورحنا بأصنامها نزدري

متى كان بين الأشقاء سد

يقام على الزور والمنكر؟[41]

ويعلن الشاعر فرحته العارمة باستقلال تونس في العشرين من آذار (١٩٥٦) قائلاً:

أشرق العيد فانشروا الأعلاما

واملأوا الكون بهجة وابتساما

وارفلوا اليوم في المدائن تيهاً

وارفعوا اليوم في السموات هاما

واشربوها يوم الخلاص كؤوساً

باركتها الدِّما فصارت مُداما[42]

كما يقول، معلناً فرحته، بمناسبة جلاء الجيش الفرنسي عن القواعد المغربية في شهر تشرين أول عام (١٩٦١):

«خلدوا يوم الجلاء

عن بلاد المغرب

عن سهولي عن شعابي

عن دروبي عن ترابي

أرض أمي وأبي... خلدوا يوم الجلاء»[43].

وليس غريباً على شاعر مثل (مفدي زكريا) أن يدعو لوحدة التراب المغاربي، لأنه يعتبر تونس والمغرب امتداداً طبيعياً للجزائر، وكان يتنقل بين هذه الأقطار الثلاثة وكأنه يتنقل ضمن بلد واحد، وكان يشارك في الأعياد والمناسبات الوطنية والقومية لهذه البلدان الثلاثة باستمرار، ويخصها بشعره وأناشيده، خاصة وأنه اتخذ من تونس مقراً له وفيها توفي.

ويتجاوز (مفدي زكريا) المغرب العربي، ليرنو بعينيه إلى وادي النيل وبلاد الشام، والتي وقفت مع الثورة الجزائرية، حكومة وشعباً، وأمدتها بالمال والسلاح والعتاد وبكل ما تستطيع تقديمه من دعم مادي ومعنوي. ولا ينسى الشاعر أبداً موقف هذه البلاد

المشرّف، فهو يقدم لها الشكر والعرفان بقصائد غاية في الروعة والجمال، فمن داخل الزنزانة رقم (٣٧٥) في سجن البرواقية، ومن قصيدة قالها في الذكرى الرابعة للثورة الجزائرية، يقول مخاطباً مصر وأهلها:

ولمصر دارٌ للعروبة حرة
تأوي الكرام وتسند المتطلعا
النيل فتح للغريب ذراعه
والشعب فتح للشقيق الأضلعا
يا مصر يا أخت الجزائر في الهوى
لك في الجزائر حرقة لن تقطعا
هذي خواطر شاعر غنى بها
في الثورة الكبرى فقال وأسمعا
وتشوّقات من جبين موثق
ما انفك صباً بالكنانة مولعا[44]

وعندما حدث العدوان الثلاثي على مصر في (٢٩تشرين أول من عام ١٩٥٦) وكان الشاعر آنذاك في الزنزانة رقم (٩٦) في سجن (بربروس)، استبدت به مشاعر الغضب على المعتدين، وقال في قصيدة يندد فيها بالعدوان، ويساند مصر في محنتها، ويقف معها بكل عواطفه ومشاعره، ومخاطباً الرئيس (جمال عبد الناصر):

قم يا جمال يردد قولك الهرم
واحكم بما شئت تنجز حكمك الأمم
واصدع بأمرك والثالوث يرهبه
واخفق بثغر الحمى، يخفق به العلم
واحفظ لمصر (قناة) في حشاشتها
جرى بها، قبل أن يجري البخار دم
إرادة الشعب أن تصدق عزيمته
إرادة الله يجري باسمها القلم[45]

كما يخص (مفدي زكريا) الشام بأصدق المشاعر، ويغدق عليها كل الحب والاحترام، بل ويفرد لها مكانة خاصة في قلبه. ففي القصيدة المطولة والرائعة التي ألقاها باسم الجزائر في مهرجان الشعر بدمشق يوم (٢٣ أيلول عام١٩٦١) يقول فيها:

سل العروبة هل ضجت لشكوانا
وسل أمية هل رجت لبلوانا
ويا ذرى الشام هل هاجت مواجدنا
فبارك الشعر في ناديك لقيانا؟
ويا دمشق هل ابتلت جوانحنا
بعد التنائي الذي قد كان أضنانا؟
هي المشاعر شبتها لواعجنا
فصاغها الشعر حباً من حنايانا
وتلك أكباد عبد القادر انطلقت
تبارك النبل في أكباد مروانا
آمنت بالله - يا فيحاء - كم مهج
خلدن في حرم الفيحاء ذكرانا[46]

ثم يقول في موقع آخر من القصيدة، مبيناً حبه وإعجابه الشديدين بدمشق وجمالها وحسنها، وخاصة بغوطتي دمشق:

والغوطتان رأيت الله عندهما
وما تعبدت دون الله أوثانا
لولا التقى لحسبت الخلد دونهما
حسناً، وسميت قاسيون رضوانا(٤٧)

ولا ينسى الشاعر أواصر المحبة والقرابة التي تربط الشعبين في الجزائر وفي الشام، فيقول مذكراً بذلك:

وفي الجزائر كم يا شعب من رحم
تهفو لجلق أشواقاً وتحنانا(٤٨)

وكان لفلسطين، جرح العروبة النازف، أثر كبير في قلب (مفدي زكريا)، وقد آلمه ضعف العرب وتخاذلهم في نصرتها، فيخاطبها قائلاً في حزن وألم:

أناديك في الصرصر العاتية
وبين قواصفها الذارية
فلسطين مهبط الأنبيا
ويا قبلة العرب الثانية
فلسطين والعرب في سكرة
قد انحدروا بك للهاوية
رماك الزمان بكل لئيم
زنيم من الفتنة الباغية(٤٩).

ثم يجيب على لسان فلسطين، رداً على سؤاله، بشكل محاورة:

أيا شاعر العرب ذكرتني
وهجت جراحاتي الدامية
لقد كان لي سبب للبقا
فقطع قومي أسبابية(٥٠)

ولكن الشاعر لا يلبث أن يجيب عليها، على لسان العرب، وكله أمل وتفاؤل:

فلسطين لا تيأسي إنني
سأصلح في الشرق أخطائيه
فلسطين لا تقنطي فالحمي
سينصفه اليوم أحراريه
أنا العربي الكريم الجدود
أنا النور في الليلة الداجية
أنا الشعب والشعب لا ينثني
أنا الحر إن حلّت الداهية(٥١)

مفدي زكريا والإنسانية:

إنَّ المتتبع لشعر (مفدي زكريا)، في كل مراحله، يجد أنَّ شعره ملازم للهم الوطني بالدرجة الأولى، الذي هو بالنسبة له الجزائر، ومن هذا الهم الوطني يأتي الهم الإنساني، وإلا كيف يمكن للشاعر أن يلتزم بالهم الإنساني إذا كان همه الوطني هو الذي يؤرقه، ويشغله عن كل هم سواه؟ ومع ذلك فإننا نجد الهم الإنساني موجوداً في طيات شعره، بشكل شفاف وجميل، وذلك من خلال انشغاله بالهم الوطني، والهم العربي، وقضية فلسطين، ثم الهم الإنساني بشكل عام. وفي كثير من قصائده نراه يخاطب فيها الضمير العالمي وذلك من خلال الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، ويندد بالقرارات الخاطئة والظالمة بحق الشعوب

الضعيفة، والمغلوبة على أمرها، ومن بينها شعب الجزائر، وخاصة الشعوب التي تقبع تحت الاحتلال الاستعماري، كما في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. لقد ساند (مفدي زكريا) ثورات التحرر في العالم، كما مجّد استقلال الشعوب عن الاستعمار الأجنبي. وفي مؤتمر الشعوب الأفريقية المنعقد في تونس في (كانون الثاني عام ١٩٦٠م) يقول مخاطباً هذا المؤتمر:

اصدع رفيعاً أيها المارد
واصعد سريعاً أيها الصاعد
وحطم الأغلال واقذف بها
إلى لظى يصهر بها الجاحد
وسطر استقلال أفريقيا
يا أيها المحفل الحاشد[٥٢]

كما يقول في (إلياذة الجزائر) منددا بالمستعمرين، ومدافعاً عن شعوب أفريقيا:

ولم يبرحوا الأرض لما استقلت
شعوب ولم تستكن للهوان
فتبيَضُّ صفحة أفريقيا
ويسود وجه المغير الجبان[٥٣]

ومثلما حمل الشاعر هم الشعوب المقهورة، وهم العرب، وهم فلسطين، إضافة إلى هم الوطن، فقد حمل كذلك هم المسلمين، ودعا إلى وحدتهم في مشارق الأرض ومغاربها، وهو بذلك يقول:

ووحدة مغربنا اليوم خطو
إلى وحدة المسلمين غدا
بتوحيد بعض نوحد كلاً
وهل ينكر الخبر المبتدا؟[٥٤]

وهو إذ يشارك في الهم الإنساني، فإنما يريد أن يسمع صوته أيضاً إلى كل العالم من خلال المناضل الجزائري والثائر الشهيد، والذي يتكلم باسم كل واحد منهم في الكثير من القصائد، كما يقول في إحدى قصائده:

«قام كالمارد... يرتاد المنايا
وتهادى... يملأ العالم بشرى
وتحدى الدهر... لا يخشى الرزايا
وتمادى يغمر الأكوان عطراً
ومضى يبني على هام الضحايا
وتنادى.. يلهم التاريخ سفرا»[٥٥].

أسلوب (مفدي زكريا) ومذهبه في الشعر:

إنَّ الدارس في تأنٍ وروية لشعر (مفدي زكريا) والمتفحص له بدقة وشفافية، سيجد أن شعره عربي الوجه والملامح، جزائري القلب والنبضات، إسلامي الروح والأهواء، ثوري الأنفاس والأحاسيس، وإن أجمل شعره وأكثره هو الذي كرّسه للثورة الجزائرية ولنضال الشعب الجزائري، ولا عجب أن لُقِّب (شاعر الثورة الجزائرية) لأنه كان فعلاً شاعرها وبوقها القوي الذي

أوصل صوتها إلى كل ركن من أرض الوطن، بل وإلى خارج الوطن ليشمل كل العالم.

لذلك نرى شعره يمتاز بالوضوح والسلاسة والغنائية، ويخلو من التعقيد والإبهام والغموض. فكلماته عربية بسيطة واضحة، حلوة الجرس والإيقاع في إذن السامع، ولا يستعمل كلمات معقدة وغريبة وخارجة عن المألوف، أو غير مفهومة، ويتحاشى الكلمات العامية والدارجة. كما أنه شاعر ملتزم بقضايا وطنه، وبأخلاقيات شعبه، وبتعاليم دينه، وبموروثاته الشعبية الأصيلة، لا نجد له إسفافاً في الكلام، ولا فحشاً في التعابير، ولا إساءة في المعاني، ولا خروجاً عن إطار الأخلاق والأعراف، بل إنه ينصب نفسه معلماً ومصلحاً للشعب، ويهاجم في شعره دائماً، كل المظاهر الفاسدة والسلبية، كما يهاجم الشعر المنحرف الذي يدغدغ المشاعر والأحاسيس، ويثير الغرائز لدى القراء والمستمعين، وقد حدث أن هاجم (نزار قباني) في مقدمة ديوانه (اللهب المقدّس).

(ومفدي زكريا)، في كل قصائده، حتى الثورية منها، يلتزم الغنائية الشعرية، ولكن المليئة بالمعاني النبيلة، والطافحة بالمشاعر الصادقة، والعاطفة المتدفقة بالحب والحياة.

والغنائية لديه مترافقة بإيقاع جميل متكرر، غالباً ما يعود إليه بعد عدة أبيات، بجمل متتابعة، وكلمات رشيقة عذبة، وبقافية واحدة تتكرر بشكل جميل أخاذ، كما في كل أناشيده وبعض قصائده الرائعة المعروفة. وهو يدخل الشعر في اتجاهات مختلفة، ولكن يقوده دائماً في ذلك حسه المرهف، وشعوره الصادق، وطبعه السوي، وتفكيره الأخلاقي النيِّر وانتماؤه الشديد للوطن، وحبه الآسر للعروبة، وإيمانه القوي والراسخ بالإسلام. والذي يقرأ (لمفدي زكريا) يرى فيه الشاعر الحالم، والمغني الساحر، والوطني الغيور، والعربي الأبيّ، والمسلم الملتزم، بل ربما يرى كل ذلك في قصيدة واحدة.

يقول عنه الدكتور (وليد مشوح) في مقالة رائعة له عن القيمة الإيقاعية في شعره: «مفدي زكريا يمتلك مكنة لغوية، ومهارة عروضية، وشفافية في الذائقة، لذا اختار لقصائده أبحرها، وعروضها، وقوافيها عن تجربة وقدرة ومعرفية عالية، وهذه خصوصية من خصوصياته، التي أسبغت على شعره سمات احتفى بها الجمهور، وكانت محركاً للشارع، لأنها تفعل في النفس فعلاً حماسياً، ويحفظها الناس على اختلاف ثقافاتهم وأعمارهم، فيزيدون على موسيقاها موسيقى تحرك الحواس، بل كل نأمة وعصب وشعيرة في الجسم، وهذه

الخاصية الأخرى»[٥٦]. ويقول في موقع آخر من المقالة نفسها أيضاً: «ولكن (زكريا) كان متمسكاً بتقليدية البناء الشعري الموروث على صعيد التشكيل الموسيقي لشعره، حريصاً على تأكيد طول النفس – أحياناً – في القصيدة، وقصره عندما يجأر بالشكوى من الواقع الراهن، أو يحض على رفع وتائر الفعل الثوري في أحايين كثيرة، وذلك عبر أدائية موسيقية صاخبة، وهو ما يكشف عن جانب في نزوعه الشعري الموروث والذي انطلقت منه تجربته الشعرية أساساً.. بيد أن تلك المرحلة التي خرج (زكريا) من إسار تعبيريتها الفنية، وتداول أكثر من فاعلية، قد مزجت عناصرها وتشكلاتها لتصنع قصيدة بطاقتها الأدائية والجمالية، التي تمتلك مواصفات انتمائها إلى مذهبية كلاسيكية، خرجت في أحايين معينة إلى واقعية صريحة، أو مدت بصرها إلى تمثل رومانسي ضيق»[٥٧].

ويقول الأستاذ (أحمد دوغان) في الفصل الذي خصصه (لمفدي زكريا) في كتابه القيّم (في الأدب الجزائري الحديث)، يقول حول أسلوب ومذهب (مفدي زكريا) في الشعر: «(ومفدي زكريا) من الذين أخرجوا الشعر الجزائري من التقليد، وألبسوه ثوب الواقعية. فقد اتخذ من الواقع النضالي أرضية لفنه وشعره. أما فيما يتعلق بالأسلوب فإنه التزم منحى الشعر العربي وأجاد في السبك، ووحدة الموضوع، وساعده في ذلك ملكته اللغوية، والانطباع. وبذلك يكون قد أعطى بُعداً للواقعية الثورية، التي تتجاوز في مفهومها، أبعاد الكلاسيكية الجديدة، أو حرية التقييم للغة الشعر المعاصر»[٥٨].

(ومفدي زكريا)، وإن استخدم شعر التفعيلة في بعض قصائده مثل قصيدة (أنا ثائر)، كما اقترب في أناشيده من الشعر الحديث، إلا أنه هاجم الشعر الجديد، وشنّ عليه حرباً شعواء لا هوادة فيها، وعلى الخصوص قصيدة النثر، حيث يقول:

وعابثين أرادوا الشعر مهزلة
فأزعجوا برخيص القول آذانا
تنكروا للقوافي حين أعجزهم
صوغ القوافي وضلوا عن ثنايانا
قالوا جحود على الأوضاع وزنكم
فشعرنا الحر لا يحتاج أوزانا[٥٩]

ويقول، مهاجماً للشعر الحديث أيضاً، في مكان آخر:

وقالوا قصيدك شعر قديم
يكبله بالتفاعيل غلُّ
وما حيلتي إن يكن شعرهم
دخيلاً وشعري يزكيه أصلُ[٦٠]؟

بل إنّ (مفدي زكريا) يعتبر الشعر رسالة مقدسة لا يجب المساس بها وتجاوزها ومحاولة إلغائها، وفرض أشكال جديدة

عليها، فهو يقول وبنبرة شديدة عالية:

رسالة الشعر في الدنيا مقدسة
لولا النبوءة كان الشعر قرآنا
فأين من جرس الإيقاع خلفكم
ما الشعر؟ إن لم يكن دوحاً وأغصانا[٦١]؟

وقد اشتهر عنه أنه كان شديد الاهتمام بشعره، وبإلقائه بشكل مميز، إلى درجة أنه كان ينصهر مع القصيدة، ويذوب في أبياتها، لتشيع حوله جواً شعرياً، آسراً يسحر من يستمع إليه، ويجعله جزءاً من ذلك الجو السحري. ولا يزال الكثيرون من الناس ممن عاصروه، يتذكرون صوته الآسر الساحر وهو يلقي بصوته رائعته الخالدة (إلياذة الجزائر) والتي بلغت آنذاك (٦١١بيتاً)، والتي ألقاها في الملتقى السادس للفكر الإسلامي في (٢٤تموز عام ١٩٧٢) بنادي الصنوبر (قصر الأمم)، والتي بث بكاملها من الإذاعة الجزائرية فاستمع إليها كل الشعب الجزائري. وفي ذلك يقول عنه الأستاذ (عبد القادر نور) الإعلامي الجزائري الكبير، وأول رئيس تحرير لكل من الإذاعة والتلفزيون الجزائري: «كان كلما التقينا يسمعني بعضاً من أشعاره بصوته الجهوري، المليء بالحيوية، وبإلقائه المتميز، يجعلني أعيش في جو آخر وفي عالم آخر، تسمو فيه الروح، وتتجرد من صفتها الأرضية. كان ينقلني في بضع دقائق إلى عوالم وآفاق واسعة، وقد كنت أصغي إليه في وقار، وكأنني في محراب أتعبد. لقد أنعش روحي بسحر بيانه»[٦٢].

آثار (مفدي زكريا) ومؤلفاته:

ترك (مفدي زكريا) الكثير من الإنتاج الأدبي، والفكري، والدراسات الأدبية والنقدية، موزعة ما بين مطبوع ومخطوط، ومنشور في الصحف والمجلات. وما يهمنا هنا، ليس كل إنتاجه، وإنما إنتاجه الشعري فقط، وهو يتمثل بالآثار التالية، المطبوع منها والمخطوط.

١- ديوان اللهب المقدّس: وهو أشهر دواوينه الشعرية، وقد كرّس معظم قصائده للثورة الجزائرية، وصدر في ثلاث طبعات - بحسب ما جاء في كتاب (في الأدب الجزائري الحديث) للأستاذ (أحمد دوغان) - الطبعة الأولى كانت عام(١٩٦١) عن المكتب التجاري في بيروت). والطبعة الثانية عن (وزارة التعليم الأهلي والشؤون الدينية) بالجزائر. والثالثة عن (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) بالجزائر عام (١٩٨٣).

٢- ديوان تحت ظلال الزيتون: صدر في تونس عام(١٩٦٥) عن (المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية). كما ورد في كتاب (الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير) للدكتورة نور سلمان. بينما

الأستاذ (أحمد دوغان) يقول: إنه صدر عن (دار النشر القومية) بتونس.

٣- ديوان من وحي الأطلس: وصدر في الجزائر عام (١٩٧٦م). كما جاء في ديوان (أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى).

٤- ديوان أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى: وصدر عام (٢٠٠٣م) عن مؤسسة (مفدي زكريا) في الجزائر.

٥- ديوان إلياذة الجزائر: صدر بشكل كامل عام (١٩٩٢م) عن (المؤسسة الوطنية للكتاب) في الجزائر. وهو مجموعة من الأناشيد عدد أبياتها (٦١١) بيتاً صدرت عام (١٩٧٢م) في طبعات عدة نشرتها (مجلة الأصالة) الجزائرية، ثم زاد عليها الشاعر فيما بعد إلى أن بلغت (١٠٠١) بيت، وتعتبر (الإلياذة الجزائرية) أحسن سجل لتاريخ الجزائر حتى الآن.

٦- ديوان انطلاقة: ديوان المعركة السياسية في الجزائر (١٩٣٥ - ١٩٥٤م).

٧- ديوان الخافق المعذب: شعر الهوى والشباب.

٨- ديوان محاولات طفولة: إنتاج الشاعر في صباه.

٩- أهازيج الزحف المقدّس: وقد كتبها بلغة الشعب.

هذا وما يزال مريدو ومحبو (مفدي زكريا) - حتى اليوم - يجمعون قصائده المخطوطة أو المجهولة أو غير المعروفة، المتفرقة هنا وهناك في المجلات والجرائد التي كان ينشر فيها، أو القصائد التي كان يهديها إلى أصدقائه وأقاربه ومحبيه ومازالت لديهم إلى الآن أو بعض القصائد التي كان يكتبها بسرعة ويلقيها في المنتديات والأمسيات الشعرية، ولم تجد طريقها للنشر. وسوف يصدرون كل ما يتوافر لديهم من شعره غير المنشور في دواوين جديدة إن شاء الله.

الهوامش

(١) جبل قسماً - سهيل الخالدي - الجزائر - وزارة المجاهدين - بلا تاريخ.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في الأدب الجزائري الحديث - أحمد دوغان - منشورات اتحاد الكتّاب العرب بدمشق - ١٩٩٦م.
(٤) جبل قسماً - سهيل الخالدي - الجزائر - وزارة المجاهدين - بلا تاريخ.
(٥) من مقدمة ديوان (أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى) - مفدي زكريا - مؤسسة مفدي زكريا - الجزائر - ٢٠٠٣م.
(٦) في الأدب الجزائري الحديث - أحمد دوغان - منشورات اتحاد الكتّاب العرب بدمشق - ١٩٩٦م.

(٧) من مقدمة ديوان (أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى) - مفدي زكريا - مؤسسة مفدي زكريا - الجزائر - ٢٠٠٣م.
(٨) الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير - الدكتورة نور سلمان - دار العلم للملايين - بيروت١٩٨١م ط١.
(٩) مجلة التراث العربي - اتحاد الكتّاب العرب بدمشق - العدد (١٠٧) سنة (٢٠٠٧م) عن مقالة للدكتور وليد مشوّح.
(١٠) في الأدب الجزائري الحديث - أحمد دوغان - منشورات اتحاد الكتّاب العرب - دمشق - ١٩٩٦م.
(١١) مجلة المعرفة السوريّة - وزارة الثقافة - العدد (٣٨٠) - ١٩٩٥م - من الافتتاحية للدكتورة نجاح العطّار.
(١٢) في الأدب الجزائري الحديث - أحمد دوغان - منشورات اتحاد الكتّاب العرب - دمشق - ١٩٩٦م.
(١٣) اللهب المقدّس - مفدي زكريا - منشورات المكتب التجاري - بيروت - تشرين ثاني ١٩٦١م - ط١.
(١٤) المصدر السابق.
(١٥) المصدر السابق.
(١٦) مجلة التراث العربي - اتحاد الكتّاب العرب بدمشق - العدد (١٠٧) سنة (٢٠٠٧م) عن مقالة للدكتور وليد مشوّح.
(١٧) اللهب المقدّس - مفدي زكريا - منشورات المكتب التجاري - بيروت - تشرين ثاني - ١٩٦١م ط١.
(١٨) المصدر السابق ص/٢٠/.
(١٩) المصدر السابق ص/٢٢/.
(٢٠) اللهب المقدّس - مفدي زكريا - منشورات المكتب التجاري - بيروت - تشرين ثاني - ١٩٦١م ط١. ص/٣٠/.
(٢١) إلياذة الجزائر - مفدي زكريا - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - ١٩٩٢م - ط٢ - ص/٦٩/.
(٢٢) الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير - الدكتورة نور سلمان - دار العلم للملايين - بيروت١٩٨١ -ط١.
(٢٣) اللهب المقدّس - مفدي زكريا - منشورات المكتب التجاري - بيروت - ١٩٦١م- ط١ - ص/٤٢/.
(٢٤) في الأدب الجزائري الحديث - أحمد دوغان - منشورات اتحاد الكتّاب العرب بدمشق - ١٩٦١م.
(٢٥) الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير - الدكتورة نور سلمان - دار العلم للملايين - بيروت١٩٨١ ط١.
(٢٦) إلياذة الجزائر - مفدي زكريا - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - ١٩٩٢م - ط٢ - ص/٧٨/.
(٢٧) اللهب المقدّس - مفدي زكريا - منشورات المكتب التجاري - بيروت - ١٩٦١م - ط١ - ص/٥٨/.
(٢٨) المصدر السابق. ص/٥٧/.
(٢٩) المصدر السابق. ص/٨٤/.
(٣٠) في الأدب الجزائري الحديث - أحمد دوغان - منشورات اتحاد الكتّاب العرب بدمشق - ١٩٩٦م.

(٣١) المصدر السابق.
(٣٢) المصدر السابق.
(٣٣) اللهب المقدّس – مفدي زكريا – منشورات المكتب التجاري – بيروت – تشرين ثاني ١٩٦١م ط١ – ص٧١.
(٣٤) في الأدب الجزائري الحديث – أحمد دوغان – منشورات اتحاد الكتّاب العرب بدمشق – ١٩٩٦م.
(٣٥) اللهب المقدّس – مفدي زكريا – منشورات المكتب التجاري – بيروت – تشرين ثاني – ١٩٦١م-ط١. ص٩.
(٣٦) مجلة التراث العربي – اتحاد الكتّاب العرب بدمشق – العدد /١٠٧/سنة ٢٠٠٧م – من مقالة للدكتور وليد مشوّح.
(٣٧) في الأدب الجزائري الحديث – أحمد دوغان – منشورات اتحاد الكتّاب العرب – دمشق – ١٩٩٦م.
(٣٨) اللهب المقدّس – مفدي زكريا – منشورات المكتب التجاري – بيروت – ١٩٦١م – ط١ – ص٦٠.
(٣٩) أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى – مفدي زكريا – مؤسسة مفدي زكريا – الجزائر – ٢٠٠٣م – ص١٨٤.
(٤٠) مجلة التراث العربي – اتحاد الكتّاب العرب – العدد (١٠٧) – ٢٠٠٧ عن مقالة للدكتور وليد مشوّح.
(٤١) إلياذة الجزائر – مفدي زكريا – المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر – ١٩٩٢م – ط٢ – ص/٨٦/.
(٤٢) في الأدب الجزائري الحديث – أحمد دوغان – منشورات اتحاد الكتّاب العرب – دمشق – ١٩٩٦م.
(٤٣) اللهب المقدّس – مفدي زكريا – منشورات المكتب التجاري – بيروت – ١٩٦١م – ط١. ص٦٠.
(٤٤) المصدر السابق. ص/٦٣/.
(٤٥) المصدر السابق. ص/٢٩٩/.
(٤٦) المصدر السابق. ص/٢٨٧/.
(٤٧) المصدر السابق. ص/٢٨٨/.
(٤٨) المصدر السابق. ص/٢٨٨/.
(٤٩) المصدر السابق. ص/٣٣٧/.
(٥٠) المصدر السابق. ص/٣٤١/.
(٥١) المصدر السابق. ص/٣٤٧/.
(٥٢) المصدر السابق. ص/١٤٦/.
(٥٣) إلياذة الجزائر – مفدي زكريا –المؤسسة الوطنية للكتّاب – الجزائر – ١٩٩٢م – ط٢ – ص/١١٨/.
(٥٤) المصدر السابق. ص/٩٢/.
(٥٥) في الأدب الجزائري الحديث – أحمد دوغان – منشورات اتحاد الكتّاب العرب بدمشق – ١٩٩٦م.
(٥٦) مجلة التراث العربي – اتحاد الكتّاب العرب بدمشق – العدد (١٠٧) – ٢٠٠٧م عن مقالة للدكتور وليد مشوّح.
(٥٧) المصدر السابق. ص/٥٨/.
(٥٨) في الأدب الجزائري الحديث – أحمد دوغان – منشورات اتحاد الكتّاب العرب بدمشق – ١٩٩٦م.

(٥٩) اللهب المقدّس – مفدي زكريا – منشورات المكتب التجاري – بيروت – ١٩٦١م – ط١. ص/٢٩١.
(٦٠) إلياذة الجزائر – مفدي زكريا – المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر – ١٩٩٢م – ط٢.
(٦١) اللهب المقدّس – مفدي زكريا – منشورات المكتب التجاري – بيروت – ١٩٩١م – ط١. ص/٢٩١.
(٦٢) شاهد على ميلاد صوت الجزائر – عبد القادر نور – الناشر الإذاعة الجزائرية – بلا تاريخ.

المراجع والمصادر:

١- الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير – الدكتورة نور سلمان – دار العلم للملايين – بيروت – كانون ثاني ١٩٨١م – ط١.
٢- جبل قسماً – سهيل الخالدي – وزارة المجاهدين – الجزائر – بلا تاريخ.
٣- ديوان اللهب المقدّس – مفدي زكريا – منشورات المكتب التجاري – بيروت – تشرين ثاني ١٩٦١م – ط١.
٤- ديوان إلياذة الجزائر – مفدي زكريا – المؤسة الوطنية للكتّاب – الجزائر – سنة ١٩٩٢م –ط٢.
٥- ديوان أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى – مفدي زكريا – مؤسسة مفدي زكريا – الجزائر – سنة ٢٠٠٣م.
٦- شاهد على ميلاد صوت الجزائر – عبد القادر نور – الناشر الإذاعة الجزائرية – بلا تاريخ.
٧- مجلة التراث العربي – الصادرة عن اتحاد الكتّاب العرب بدمشق – العدد/١٠٧/ سنة٢٠٠٧م – عن مقالة للدكتور وليد مشوّح بعنوان «القيمة المعيارية في شعر مفدي زكريا».
٨- مجلة المعرفة السـوريّة – الصادرة عن وزارة الثقافة – دمشق – العدد/ ٣٨٠/- سنة١٩٩٥م عن افتتاحية للدكتورة نجاح العطار بعنوان: قاسيون والأوراس.
٩- في الأدب الجزائـري الحديـث – أحمـد دوغان – منشـورات اتحاد الكتّاب العرب – دمشـق – سـنة ١٩٩٦م.

(النقدُ) في مشروع التجديد التراثي

د. بغداد عبد المنعم *

ليستْ (الحداثةُ) خياراً من الخيارات، هي روح العصر وأداؤه على الأقل ضمن الإطار المعنوي الأولي لمصطلح الحداثة، أمّا (الحداثة الفكرية).. أو (الحداثة البحثية) وكذلك (الحداثة والتراث) فهي تساؤلاتُ وتحدياتُ هذا الزمن لهويتنا.. وهو تحدٍ كان من بين نتائجه ظهورُ بعض عناصر هذه الهوية التي بقيتْ مغيَّبة أو مُهمَّشة أو جرى التعامل معها بسطحية..

وبما أنه ليس هناك نهضة مجردة عن الهوية، وليس هناك هوية تخلعُ تاريخيتها ولا تراثها.. سيكون على (نهضة جديدة) قادمة القيام بعملية نفسية وبحثية بآن معاً نتمكن فيها من التقدم نحو تصنيع أداء تفاعلي جديد يتعلق بالتراث عبر الدرب النقدية (التراثية) بصفتها حركة من التاريخ إلى المستقبل يفرضُها الزمنُ الجديد الحساس بمعطياته الكثيفة من حيث التسارع التكنولوجي والإلكتروني ومن حيث واقع لن يبني لهذه اللحظة سماتٍ نهضوية مستوية فحسب بل سيؤهلها للانبعاث في فضاء إستراتيجي أكثر تفاعلاً وتجدداً.. من حيث إنتاج علاقاتٍ حداثية تسطعُ فيها سرعاتُ الاتصال الإلكتروني والسطوة الإعلامية

* باحثة في التراث العربي، وعضو معهد التراث العربي في حلب.

الفاعلة وحالةُ نقد يؤسسُ لعلاقة جدلية وحداثية بين التراثية والثقافة، يصحُ بها أن تخرج (التراثية) من المغلقات الدائرية والمستوية إلى حركة لولبية تتحرك صعوداً من مستوى إلى مستوى.

١- «تراثيةُ» القرن العشرين

لماذا التراثية وليس التراث؟ ومن غير التوغل عميقاً.. أقول، التراث ثابتٌ بحكم الزمن الذي أُنْجِزَ فيه، وأمَّا (التراثية) التي أعنيها هنا فهي الحركة المشغولة عليه من أبحاث وتحليلات ونقد يكون بها هذا التراث موجوداً على أرض الواقع وفي قلب اللحظة بحيث يكون فاعلاً فيها مُنْجِزاً وصانعاً في الحضور الثقافي..

في تاريخية العلاقة مع التراث القريبة منا مباشرةً نلاحظُ أنَّهُ وحتى الربع الأخير من القرن الماضي صدرتْ المشاريعُ والبحوث الفكرية (التراثية) في السياق النهضوي الذي أُجِّجَ بداياتِ القرن العشرين، كان من أهمها وأكثرها شيوعاً على امتداد المنطقة العربية بحوثُ ومؤلفات حسن حنفي ومحمد عابد الجابري ومحمد أرغون وحسين مروة والطيب تيزيني وعبد الله العروي وطه عبد الرحمن والشيخ عبد الله العلايلي وجورج طرابيشي.(١)

لن تكون هذه السطور مجالاً نقدياً لرؤاهم (التراثية) بل يمكن الإلماح إلى ثلاثة أنماط ظهرَتْ بها (تراثية) القرن العشرين، وهي تمثل الطريقة التي تمَّ الاشتغال بها على التراث (كي يتم تحويل الموضوع التراثي إلى كائن معرفي موجود مُنْتَج)، كان من هذه التجسيدات التراثية المعرفية (التوظيفُ الأيديولوجي للتراث).. و(الفهم التراثي للتراث) وهما شكلان مازالا شديدي الوضوح والحضور في (التراثية الراهنة) ولئن كان التوظيف الأيديولوجي للتراث قد حوَّلَهُ إلى ذخيرة في مواجهة أخرجتْهُ من إمكانية النمو الثقافي الطبيعي، فإنَّ الحضور التراثي للتراث لم يُشكل إلا قراءة دائرية ضيقة تخرجُ من النص لتدخل إليه من جديد في استسلام مطلق لأهدافه وأساليبه ومشكلاته وحتى لـ لغته!!

والشكلان السابقان افتقدا إلى خلق حوار مع التراث من موقعنا الزمني والتقني.. يعانيان من فقدين كبيرين: النقد والنظرة التاريخية، وانعَدَمَتْ العتبةُ الإبداعيةُ المُتجاوِزَة لما افتُرِضَ بأنَّهُ مُقدَّس أو تابو.. وبقيت نتائج هذين الاتجاهين مُغَلَّفة وبعيدة.

أمَّا الشكلُ الثالثُ التاريخي من الحضور المعرفي للتراث فلعله الظهور الأقدم والأعمق تأثيراً في المستوى البحثي.. ذلك هو

الحضور (الاستشراقي الخارجي للتراث)، وقد تشكل باحثوه ومنتجوه من المستشرقين وتلامذتهم العرب الذين تخرجوا من المراكز والجامعات الأوروبية.. وأجيال بحثية استمرت على منوالهم.. ومن هذه (التراثية الاستشراقية) انطلقتْ أبحاثُ تاريخ العلوم العربية في نسخ باهت أو غير باهت عن مناهج عمل المستشرقين. ومن استمراراتها الراهنة أيضاً توجهات اليونسكو نحو إيجاد صيغ أممية ثقافية للاهتمام التراثي.. مثل إصدار (وثيقة التراث غير المادي)(٢) وغير ذلك.. مما بقي يستدعي إقداماً سطحياً إلى التبني السطحي لهذه الطُروحات من قبل القائمين على (أمر الثقافة) أو (أمر التراث).. من دون نقدها أو تقديم وجهة نظر وطنية أو خصوصية تجاهها!

إذن، لقد اهتمَّتْ تلك الطبقةُ من مفكري القرن العشرين بتصنيف أشكال معرفية حداثية للتراث عبر عملية بحثية بقيتْ في معظم الأحيان محدودة حيال زمن كان يتقارب منها بشدة وستتسارعُ حداثتُهُ وتقنياتُـهُ وأحداثُهُ بـدءاً من القرن الحادي والعشرين وذلك على نحو لم يشهدْهُ التاريخُ التقني لا في تاريخ العالم ولا في التاريخ الاجتماعي السياسي للمنطقة العربية.

و(التراثية) مع تساؤلاتها الحداثية ستحتفظ أكثر من السابق بالبعد التحميلي بل بالإمكانية الولادية من كونها إرثاً مشتركاً عربياً معرفياً قابلاً للتجدد والتثوير مثل باقي أبعاد الواقع. والسؤال الذي ينبثق سيكون: هل نشهدُ تراثيةً تجديدية خارج تراثية القرن العشرين..؟

٢- التراثيةُ الجديدة.. المشروعية والداخلية

حين دخلَتْ الثقافةُ العربية خلال القرن الماضي في تغريبتها طويلة الأمد.. قامت بشكل طبيعي ببرمجة الأسلوبيات الفكرية وصنعتْ بالنتيجة واقعاً حقيقياً امتدَّ حتى ما قبل هذه اللحظة بقليل، واقعٌ احتلتهُ مجموعةُ أمراضٍ مُتداخلة ما بين (الاقتصادي) و(السياسي) وبالتأكيد (الثقافي)..كان من الوقائع المَرَضيّة للتغريبة الثقافية العربية حالاتٌ من الفصام، منها الانفصال بين الواقع العلمي والثقل التاريخي الهائل.. فثم عقدة مرضية تجاه هذا التاريخ بأبعاده الشاسعة، ولم تكن هذه العقدة ببعد واحد أو باتجاه واحد، لكنها بالتأكيد حملت باتجاهين على طرفي نقيض.. اتجاهان بينهما مئة وثمانون درجة، كلاهما محمولٌ على عقدة مرضية تضعفه فيمسي مصدرَ انحطاطٍ وتراجع.. الاتجاه الأول تعامل مع التاريخ تعاملاً سكونياً مفصولاً عن الجسم التاريخي المتفاعل والمتجادل.. الاتجاهُ

الثاني، لا يعرف تاريخَهُ أصلاً.. لكنه ينحني صاغراً لتاريخ الآخر، من دون أن يبحث في هويته بل من دون أن يصنعها أو يحاول إنشاءَها وتقديمها..

شيءٌ من أمراض هذه التغريبة جعلنا بعيدين عن البنائية من داخل التاريخ العربي بمعناه الحضاري الشامل وليس كتاريخ للأحداث السياسية وتفاعلاتها فقط. ذلك أنَّ التاريخ كائن متعدد الأبعاد والأرواح.. وداخل هذا التاريخ يجثم بكثافة وجبروت التاريخُ العلمي العربي مثلما تكمنُ كذلك أبعاد تاريخية كثيرة كالتاريخ الأدبي والفني والتاريخ التشكيلي والتاريخ السياسي..

لقد خلقَ الغربُ مصطلحَ تاريخ العلم (A History Of Science) وفروعه في تاريخ الطب وتاريخ الكيمياء والهندسة، وتاريخ الهيدرولوجيا وتاريخ الميترولوجيا وكذلك تاريخ العمارة وتاريخ الهندسة.. هو كذلك كان قد وضع الإستراتيجية الفكرية الشاملة بتأسيسه الخالص لكل ذلك فأنشأه إنشاءً من جملة تاريخه وأعلامه، فأضحى هذا التاريخ تاريخاً غربياً بمحوره الكبير والعام والتأسيسي وصُدِّرَ إلى كل الأرض على أنّه تاريخٌ عالمي!!

إنَّ استنباط وبلورة هذه الفروع التاريخية عربياً وإسلامياً هو مهمةٌ شاسعة وطويلة الأمد وذلك بسبب غزارة النصوص التراثية العربية التي كَمَنَتْ بداخلها موضوعاتُ هذه التأريخات، ولكون عدد ليس قليلاً منها ما زال مخطوطاً ومتناثراً في مكتبات العالم، وكذلك فإنَّ هذه العملية البنائية من داخل التراث العربي ستكون حتماً في مواجهة مع التواريخ الغربية التي وضَعَتْ أزمنتَها ومدنَها ومؤرخيها فقط على لوحة العالم حتى أصبحت الألياذة والأوديسة جزءاً من التاريخ الأدبي العالمي الذي فُرِض على كل الأرض.. في حين لم تغدُ معلقة امرئ القيس الليلية الهائلة جزءاً من هذا التاريخ.. فهذا الشاعرُ الملك هو الذي شَكَّلَ من شعره تلك اللوحاتِ الباقية التي أعتقد أنها تشكل مصدراً من مصادر تاريخ الشعر العالمي، ومع ذلك فهو لم يحمل على الإطلاق شهرةَ هوميروس..!

والسبب في اعتقادي هو خضوعه منذ أمدٍ بعيد لـ قراءتنا التراثية الداخلية الدائرية والمسطحة..

فقد بقي (كتابُ الطبيعة) لأرسطو من المبادئ التي اعتُمِدَت عالمياً (غربياً) في بعض فروع تاريخ العلم فأصبح المبدأ لعدد من التأريخات العالمية (الغربية) ومنها (تاريخ الهيدورلوجيا).. لكنَّ كتاباً مميزاً مثل كتاب وصف المطر والسحاب لابن دريد الأزدي (القرن الثالث الهجري) لم يغدُ جزءاً ولا حلقة من هذا التاريخ.. ولا كذلك الباب الرصين الذي أفرده الثعالبي عن المياه في

كتابه الموسوعي (فقه اللغة وسر العربية)..

لقد تمَّتْ إهانةُ هذه النصوص التراثية من قبلنا حين أُخْضِعَتْ لتناولٍ لغوي فقط، وفي أحسن الأحوال لبعض القراءات الأدبية السطحية.. وحتى هذا بقي في الحدود الدُّنيا البائسة.. ولم يُفطن إلى أنَّ بُعداً علمياً وعتبةً إبداعية قابلة للوجود في تلك الدرب (الافتراضية) المنطلقة من عمق التاريخ إلى نقطةٍ ما من المستقبل لن تتضحَ ما لم تغدُ تحت إدارةِ خطةٍ بحثية وطنية تمتلكُ الإستراتيجية والشمولية، ولها من التأثير والقرار ما يعطيها المقدرة على تفعيل المكونات الكلية للتراث العربي - المُحقق والمطبوع وكذلك المخطوط - ومن ثم الصعود إلى السوية التجديدية في البحث التراثي.

وهذه الإدارة البحثية الشاملة هي من يمتلك الأسلوبية الحديثة لنشر وترويج هذه النتائج عالمياً عبر القنوات الأممية والدولية مما يستدعي حتماً مجالاً واسعاً من الفعل الديبلوماسي المواكب للفعل البحثي والمؤمن به وبنتائجه بعيدة المدى.

إنَّ توسيع مفهوم المصادر المشكِّلة لمثل هذه التواريخ يُشَكِّلُ استناداً مهماً لأنَّ النص العربي المكتوب واللغة العربية بشكل عام بقيت هي التجلي الأكبر للعطاء الحضاري العربي الإسلامي.. وبَدءاً ننطلق ونخرجُ من بوابة المصطلح الغربي ومن ثم تكونُ إعادة ملئه بشكل فعال بالحلقات العربية المُغْفَلَة في معظم الأحيان والمسطحة والمهمَّشَة هذا في حال أنها ذُكِرتْ..

حقاً إنَّ (التراثية الاستشراقية) قدَّمتْ جهداً ضخماً ووجهة نظرٍ من التراث العربي (لكنَّها قدمت هذا المنجز إليها.. إلى الغرب!) وأطلقتْ روحَ النشر في جثث المخطوطات، لكنَّ ذلك ظل في دائرة خاصة بعيداً عما صنعهُ الغربُ وبناه من تواريخ علمه وتكنولوجياته والتي بناها بصلابةٍ وصلفٍ وعن سابق إصرار باستنادات تاريخية يونانية لاتينية فقط.. في بُعد بعيد عن الموضوعية والعلمية.. وهكذا قام بجهد عتيد لصالح مشروعه في الشرق.. وليس لأجل هذا الشرق..

وإذن، ليس من المحتمل على الإطلاق أن تكون هذه العملية البنائية الطويلة (التراثية الجديدة) عملية خارجية أو استشراقية.. وتلك ليست مسؤولية الغرب أصلاً.. فمن الطبيعي جداً أن تُحمَّل (التراثية الجديدة) على محورين عريضين:المشروعية والداخلية (المحلية - الوطنية - العربية).

وهذه (التراثية) تعني من بين ما تعني: تشكيل ذاكرة جديدة وإعادة قراءة خالية من عُقد النقص لكل الأبعاد التاريخية والتي سبق أن أدخلتها هذه العقد في أضيق حدود،

فمنعتها من النمو وقطعتها عن حقيقتها في معظم الأحيان.. وسلبتـا طاقتها الهائلة.. تلـك الطاقة التـي تغذي عـادةً النهضات القادمة.

لقـد جـرى تشويـه النصـ التاريخي باعتبـاره قـراءة مستمرة وناميـة.. فتلبث التشوهُ في الرؤيـا العامة للوقائع فلا يمكنُ فصـل هذه عن تلك - طاقة التاريخ وطاقةُ بنـاء الوقائـع-.. وبالنتيجـة تمّ بشكل ما تكريس (ذُهانية) مقطوعة عن الأمرين معاً: التاريخية الحقيقية ومبادرة صُنع الواقع..

٣- الثقافة الجديدة

إنَّ حوامل الثقافـة، وكذلك ما يتجسد في الأداء الإنساني داخل منظومة المجتمع.. حواملٌ تعطي تجلياتها في كل لحظة، لا يمكن أن تتوقـف ولا يمكن إيقافهـا، لكنْ، لحظةُ بعد لحظة يمكـن تعميق السويـة أو تغيير زاوية النظر، لنغدو أمام فعل أو تجلٍّ ثقافي جديد غير وصائي ولا مُتعـالٍ ولانخبوي.. بل فعلٌ حيوي قائـم بحكم معادلات الواقع وصراعاته وتناقضاته.. ليتكون فيها وعبرها وبسببهـا تجددٌ حقيقي في مفهوم (ثقافتنا) وتتوالـد على هـذه العتبة الجديـدة زمنياً وتفاعليـاً ونفسياً فاعلية التحاور بكل أنواع المشاكل بدءاً من المشكلات المجتمعية المدنية المباشرة كالصحة والتعليـم وانتهاءً بـ القيم والتعـدد الثقافي والتقاليـد واللغة والتربية والهوية والمواطنة والأديان..

وهذا التجدد الثقافي والذي من المفترض أن يخـرجَ من تربتنا هذه المرة بشكله المُبادر والصانـع والمستمر، يحملُ بأمرين أساسيين تفاعليـين، الأول: الانتمـاء إلى (الحداثـة التكنولوجية)، والثاني: انبثاق (حداثة) كلية غير مسبوقة في الأداء المجتمعي عموماً..

ويمكن أن نقول بكل بساطة بأنَّ الثقافة الجديدة تشمل تقنيات التكنولوجيا الجديدة ليـس كرافعة ومُسرِّع فحسـب، بل وكنتائج جديدة تماماً، وعلى قـدر هذه التسارعات التقنية وعلـى قدر خصوصية هذه اللحظة غـير العاديـة في تاريخنا الحديـث.. على قدْر كُل هذا سنكـونُ بانتظار ظهور (ثقافي جديد) يكـون قادراً على بنـاء حالة النقد بمعناه الواسع.. (التراثيـةُ) فيه أمرٌ حتمي مـادام يمتلك أمرين: الهُويـة والجغرافيا.. سينزع الجذور السيئة وامتداداتها وأوهامها التاريخيـة التـي دخلت البنيـة الحضارية للمجتمـع.. الحداثـة في هـذا الظهـور الثقـافي الجديـد ستتجاوز حمـل المعرفة إلى بنائهـا.. وسنغـدو بالتأكيد أمام مثقف واسع المرجعيـات والإمكانيات بسبب المدى التقني الهائـل للتواصل، لكنْ لن يكون هذا كل شيء!. سيكـونُ قـادراً علـى الاختزال والفرز والخلق.. مثل هذا المثقف (الجديد)

كان موجـوداً وفاعلاً في الأزمنة المفصلية.. والمفصـلُ لن يغدو متحــركاً وفاتحاً إلا إذا غدا عددُ المثقفين الجُدد كافياً.. من دون أن يكونوا (نُخبة) ولا مُصْطنَعين ولا متحركين على أجندات جاهزة..

يجب أن تتكاثر الأسئلة لتُحاصرَ الجوابَ وتعتقـلَ حقيقتَهُ.. إنَّهــا أسئلـةُ المئة سنة السابقــة وأسئلـةُ المئة سنــة الآتية.. وحين تتكاثــر الأسئلة تتوضح اللغــة وتوشكُ على ولادة: هــل صنع المثقفون خــلال المئة سنة الأخــيرة نبضَ الواقع؟ هــل صنعوا ذهنيتهُ أم كانــوا في أحيان كثــيرة خطباء نمطيين ورسميين؟؟

هل سيستعيرُ المثقفُ نبضَ الواقع ليكون جديــداً ومقبولاً وليتم الاعتراف به.. وذلك بعــد أن أمسى هو بجهــة والواقع في جهة متباعــدة عنــه باستمرار..؟؟ هــل سيكون خــروجُ المثقــف الجديد عمليــةً جدليةً مع الواقع بحركته المباشرة؟ مَنْ سيعطي الآخر؟؟ مَنْ سيكتــب للآخر؟ مَنْ مرجعيــةُ الآخر؟ وبالتأكيد ما بــين المثقف والشارع ثمة أزمة نوعية! ولئن كان هذا الشرخُ قائماً في علاقة المثقف بواقعه فإنَّ شرخاً موازياً لا شك قائم في العلاقة بين المثقف نفسه وتراثه..

هــذا الواقع الجديد غدا مؤهلاً ليكونَ حامــلاً بكل شيء من التاريــخ والذاكرة إلى التفاصيل اليومية العادية والتي غدت بحدِ ذاتها حاملةً للحداثة..

حداثــة نوعية يمكن أن نقول إنَّها محلية أو وطنيــة أو عربيــة.. وحين يكــونُ الأمرُ بهذا الشكل وبهذا المضمون فهو على الأقل يُشكّل مبدأً إحداثياً لعصرٍ جديد.. سيُشَكّلُ مشروعَهُ التأريخــي الحقيقي لهذه اللحظة ولـ اللحظة التــي تليها.. ولكنَّ هذا المشروع لنْ يستنــد إلى فراغ في الهويــة أو الذاكرة أو الثقافــة أو اللغة.. إنَّهــا فقط استداداتٌ حداثيــة تختلفُ عمَّا تعودنــا عليه في المئة سنة الأخيرة..

ففــي كل مفصل مــن التاريــخ أعادتْ اللغةُ ولادةَ ذاتِهَــا استجابةً وتماهياً مع بَدْءٍ جديــد.. وكان التغيرُ المعجميُّ وانبثاقُ فنونٍ كتابيــةٍ جديدة وأحياناً ثورية أمراً يدعو إلى الدهشــة.. بينما اللافــت للانتباه هو عدم الصعــود البحثي الفكــري عموماً والتراثي خصوصــاً.. إذ بقــي في دوائر محدودة غير مُتفاعلــة كأنَّهــا عمل مقطوع عــن الحياة والنمــو.. وبشــكل أكثر تركيــزاً بات عملاً مقطوعاً عن الثقافة!

ويتحول سؤالُ التجديد في هذه المقاربة إلى بُعــد مُحدد في إجابة رَمَتْ إلى تشخيص ثلاث مشــكلات في الطريــق إلى الوصول: كيف تنبنــي (التراثية) في الثقافة العربية الجديدة بينابيعها غــير المسبوقة (الحداثة

التقنية والإلكترونية وما يتبعها، وفي الحركة التغييرية على الإحداثيات الأرضية لهذه الثقافة..؟) فعمليةُ الولادة لم تنتهِ بعد لأنَّها ترتبط بكل ذلك وبها تتضح سماتُ هُوية ثقافية شديدة الثقل بواقعها وليس بتاريخيتها فحسب.. ولئن كان (التراث) كائناً شديدَ الصلابة.. غير أنَّهُ بقي متوارياً ومُسْتَلَباً في الكينونات الثقافية التاريخية (الحديثة) وحتى الآنية.

وإذن، سيكون على سؤال التجديد أن يتوجه إلى (التراثية).. أي إلى (الحركة الجديدة على التراث).. وكيف تبني (التراثية) في علاقة تجديدية في هوية ثقافية؟

٤- النقد التراثي.. من (التراثية) إلى (هوية ثقافية)

لا تُولدُ الحالةُ النقدية المواكبة لـ(التراثية) من خارج التجربة البحثية والنفسية بآنٍ معاً..

إنَّ فقدان (النقد التراثي) لم يُمكِّن كل الأنماط التراثية المُنتجة في القرن الماضي: الشكلان الداخليان (الأيديولوجي والدائري) أو الشكل الخارجي (الاستشراقي وامتداداته) من العبور الحقيقي إلى الثقافة.. تصلَّبَ هذا المنجز ضمن أُطُر محدودة من دون أن تؤدي إلى الوصول إلى التيار الثقافي العام وتحقيق بناء مستمر في داخله.. فبقيتْ كلُّ الأشكال السابقة خارجيةً بالنتيجة ومحدودة التأثير. ولن يمتلك إلا النقد مهمة المواجهة مع المُنتج التراثي المُتَوقِّع.. وقد لاحظتُ أنَّ المجلات التراثية خصوصاً أهملت إهمالاً شديداً آلية النقد في إصداراتها ومحاور بحوثها وتحولت عن النقد إلى ما يشبه لجان تحكيم للبحوث تُقيِّم بـ(نعم أو لا)! وبقيت هذه المجلاتُ والمؤسساتُ التراثية الصادرة تعيشُ مرعيةً في حوض يخصُّها داخل الأكاديميات غير المفتوحة أصلاً على المجتمع وتفاعلاته اللحظية. وتبعاً لذلك بقي هذا (المنجز التراثي المُعلب والمُبْعَد) في شكل يُقاربُ الإهمال المهذَّب (المُتَعمَّد) مقطوعاً عن التفاعل ومقطوعاً عن أنْ يتفاعل معه.. أي معزولاً.. مع انعدام (النقد التراثي).. فهذا النقد لم يكن موجوداً ولم يكن فرعاً قائماً بذاته في يوم من الأيام.. في حين صبَّتْ أعمالٌ نقدية فكرية في القرن الماضي على التراث نفسه.. وكان من أهم التناولات النقدية للتراث خلال القرن العشرين تلكَ التي اهتمتْ بتقسيم التراث إلى مستوياتٍ أربعة (الفكر المُنتج للتراث- الفكر المُستغل للتراث- الفكر المُستهلك للتراث - الفكر الدارس والمبلغ للتراث). وهي تقسيمات مهمة وتشريحية للباحث المفكر محمد أرغون حاول من خلالها أن يضع التراث

وإنتاجاته في سويات كبيرة متداخلة في معظم الأحيان.. وقد جعل السوية الأولى تمتد حتى القرن الخامس الهجري وحَمَّلَ هذه السويةَ بأدائين كانا موجودين معاً:

الأداء التقليدي النصوصي، والأداء الإبداعي الذي أنتج النصوص العربية الجديدة في وقتها مثل: نص الجاحظ ونص الفارابي ونص البيروني ونص ابن رشد.. وكان في الأداء الإبداعي مُنتَجٌ علمي واختراعي أيضاً فمنه على سبيل المثال النظريات الرياضية الجديدة عند الخوارزمي، والموضوعات الجبرية والتفاصيل الهندسية التنفيذية عند الكرجي، وهي ليست إلا مبادئ تنتظر إعادة كتابة تاريخها (تواريخها) على خارطة غير مستوية بل تقتحمُها الأبعادُ اقتحاماً.. هي أبعادُ الحداثة تقنياً وإدارياً وبحثياً.

لنقل إنَّ هذا النوع النقدي الواقع على التراث مباشرةً حاول بقراءات خاصة استجلاب نماذج من التراث موحية للحاضر.. كأنَّها أداة تغيير مثلاً.. استحضار صورة تاريخية (ديمقراطية) أو (نقدية) أدَّتْ تاريخياً إلى تكوينٍ (جديد) في لحظته تلك.

إذن، ليست الحالةُ السابقة هي ما أقصدها هنا، إنَّما إيجاد آلية (النقد التراثي) بأدواته وفلسفته وبنيته الخاصة.. وهذا النقد الجديد من الممكن أن يستفيد من أدوات النقد الثقافي، وساحةُ عمله هي المنطقة البحثية التراثية الحالية.. والنقد التراثي لم يكن لـه من يعتني بـه ويخلِّصه ويبلوره ليكون واضحاً..

في مجمل هذا المنجز غاب النقدُ الاحترافي الفعال.. من الوصول إلى المعنى في النص التراثي من النص ذاته، ولعلَّ من بديهيات هذا النقد تجَاوزُ التحميل المُسبق سواء التراثي أو الأيديولوجي.. ثم التحليل التاريخي من خلال ربط النص بمجاله الزمني وبمرجعياته الثقافية والسياسية والاجتماعية، وذلك لأجل تأصيل حضور هذا النص في صورة جديدة وبعلاقات جديدة من أجل أن يكون معاصراً لنا.

إنَّ بناء أركان هذا النقد (النقد التراثي) قد تتطلب حواراً واسعاً ومستمراً.. وقد نقترب قليلاً أو كثيراً من بناءات النقد الثقافي أو الأدبي.. لكنَّ هذه الخطة النقدية طويلة الأمد ستخلقُ جسراً نشطاً من التراثية إلى هُويَّةٍ ثقافية حقيقية هذه المرة.

خاتمة

تلك كانت محاولةً في إثارة الأسئلة داخل السؤال الكبير: (سؤال التجديد).. فالأسئلة التفصيلية قد تُفكك المشكلةَ وقد تُشخِّص ما لم يكن بادياً.. لقد كانت المشكلات المطروحة سبباً في إثارة تعريفات جديدة: التراثية-

الثقافة الجديدة العربية- النقد التراثي.. والتي أعمل عليها لتتحول إلى مصطلحات مُعادِلة لواقع بحثي قادم.. وخطة تطرح محاورها المتنوعة ما بين البحث والثقافة والعتبة الثقافية العالمية.

كان من أسئلة هذا البحث: كيف تنبني (التراثية) عبر علاقة تجديدية في (هُوية ثقافية)؟

والمقصود بإعادة طرح هذا السؤال في الخاتمة هو اقتراح بعض الإجراءات كجزء من الإجابة:

- تحضير التراث للمفكرين والثقافة: وذلك عن طريق تنشيط إصدارات متواصلة من المخطوطات الخام (مثل إصدارات فؤاد سيزكين «فرانكفورت، ألمانيا» وإصدارات أحمد يوسف الحسن «سورية، معهد التراث»..

- تأسيس إصدارات جديدة تحت محاور وتساؤلات حداثية تُوجِّه إلى عتبات ومناطق لم يُنظر إليها سابقاً.. وهنا مجالٌ لا متناه.. وحتى لا يبقى الأمر ارتجالياً وخاضعاً للمصادفة والفردية.. أقترح أن يتم تشكيل فريق من خبراء وبحَّاثة التراث ومثقفين متنوعين أيضاً يقدمون هذه المحاور والإضاءات..

- تأسيس فرع (النقد التراثي) كمادة دراسية أكاديمية بعد التحضير المعمق لمحتواها.. وإدراجها في المعاهد المعنية بالدراسات التراثية.

- الاستلهام من المثقفين والاقتراب منهم ليتحقق احتكاكٌ عملي بين التراث والمجتمع وتحقيق مصالحة حقيقية بين (التراثية) والمجتمع..

- إصدار مُعجمات (تراثية) سهلة التناول..

الهوامش

١- انظر:

- حسن حنفي، التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم. (القاهرة - المركز العربي للبحث والنشر ١٩٨٠م.
- محمد عمارة، نظرة جديدة إلى التراث. بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٩م.
- محمد عابد الجابري، نحن والتراث قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي- بيروت - دار الطليعة - ١٩٨٠م.
- التراث وتحديات العصر في الوطن العربي (الأصالة والمعاصرة) مركز دراسات الوحدة العربية بيروت- آب - ١٩٨٥م.
- محمد عابد الجابري، نحن والتراث (قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي) بيروت -دار الطليعة - ١٩٨٠م- ط٢.

• محمد عابد الجابري، التراث والحداثة.
• نـدوة التراث وتحديات العصر في الوطن العربي (الأصالة والمعاصرة) مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت ١٩٨٥م.
• أنور عبد الملك، تغيير العالم. سلسلة عالم المعرفة- الكويت (٩٥) - ١٩٨٥م.

٢- نصت الاتفاقية الدولية لحماية التراث غير المادي العالمي التي صدرت بتاريخ ١٧/ ١٠/ ٢٠٠٣م. واعتبرت هـذه الاتفاقيـة أنَّ عمليتي العولمة والتحـول الاجتماعي تعرِّضان هذا التراث لأخطـار التدهور والزوال والتدمـير.. عرفت الاتفاقية هـذا التراث بأنه يشمـل الممارسات والتصورات وأشـكال التعبير والمعارف والمهـارات ومـا يرتبط بها مـن أدوات وقطع ومصنوعـات وأماكن تعتبرها الجماعات جـزءاً من تراثها الثقـافي وينمـي لديها الإحساس بهويتها والشعـور باستمراريتها وهو يتجلى بـ: التقاليد وأشكال التعبير الشفهي باللغة وغيرهـا. وفنون وتقاليد الأداء. والممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات. والمعارف والممارسات الاجتماعية بالطبيعة والكون.

السريان في التاريخ

د.ملكة أبيض ❂

تتحدث مصادر حديثة تحت عنوان «الآشوريون» أو «الكلدان» أو «السريان» أو «الآراميون»، عن جماعات مسيحية منتشرة حالياً في بلدان الشرق، وفي مناطق كثيرة من العالم وتقول «إنَّ أصولهم ترجع إلى بلاد ما بين النهرين، وإنَّهم ساميون يتكلمون الآرامية الشرقية، ويعود أجدادهم إلى الحضارة السومرية-الأكادية التي انبثقت في بلاد ما بين النهرين في حوالى ٤٠٠٠- ٣٥٠٠ق.م، ولاسيما في المنطقة الشمالية من الأراضي الأكادية التي عرفت فيما بعد باسم «بلاد آشور» في حوالي القرن الرابع والعشرين ق.م.

-١-

لقد شكل الآشوريون دولة مستقلة، ثم إمبراطورية قوية من القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد إلى نهاية القرن السابع ق.م. وفيها تجد هذه المصادر أسس «العهدين القديم والجديد». فهنا -بحسب ما تقول- كتبت قصة الطوفان قبل ألفي عام من كتابة العهد القديم، وهنا كتبت أوَّل ملحمة وهي ملحمة جلجامش بموضوعها الإنساني الأزلي وهو صراع البشرية من أجل البقاء، وهنا تطورت الحضارة نفسها وجرى

❂ أديبة وكاتبة وأستاذة جامعية.

نقلها للأجيال القادمة.. وهنا اتخذت الخطوات الأولى لتوحيد الشرق الأدنى بوضع الجماعات المختلفة من إيران إلى مصر تحت مظلة الحكم الآشوري بتحطيم الحواجز الإثنية واللغوية، وتمهيد الطريق للوحدة الثقافية التي سهلت الانتشار اللاحق للهيلينية، واليهودية، والمسيحية، والإسلام». وهذا صحيح، إذا أخذنا بالحسبان، ما انتقل إلى الآشوريين من أسلافهم في المنطقة، وهم السومريون، والأكاديون، والبابليون.

وهذا الانتقال والتداول المستمر يبرز بشكل واضح في مجال اللغة. فالآشورية القديمة (وهي الأكادية) كانت تكتب بالخط المسماري على ألواح الطين، واستمرت كذلك من البداية وحتى حوالي ٧٥٠ق.م. ولكن منذ ذلك الوقت ظهرت طريقة جديدة في الكتابة على الجلد أو البردي، جلبها الآراميون، وعلى إثر هذا التطور التقني بدأت الآرامية تحل محل الآشورية القديمة، وأصبحت اللغة الرسمية الثانية في الإمبراطورية الآشورية[١].

وحين استولى الفرس الأخمينيون على مدينة بابل سنة ٥٣٩ ق.م فرضوا الآرامية لغة رسمية على إمبراطوريتهم بكاملها.

ومع غزو الإسكندر الكبير المقدوني، وهو تلميذ الفيلسوف اليوناني أرسطو، بدأت الحقبة الهيلينية في المنطقة. ولكنه لم يباشرها بنفسه فقد عاجلته المنية سنة ٣٢٣ق.م. وبعد موته المفاجئ تجزأت مملكته، وجرى تعيين القائد سلوقوس بن أنطاكوس حاكماً على بابل. فأسس هذا الحاكم مدناً عديدة وهي مدينة إنطاكية على نهر العاصي في سورية، ومدينة سلوقية الواقعة على مسافة ٣٠كم جنوب بغداد الحالية على الشاطئ الغربي من نهر دجلة، ومدينة الرها في المنطقة الواقعة أعلى بلاد ما بين النهرين وهي أورفه الحالية في الجنوب الشرقي من تركيا؛ وزوّد هذه المدن بالمباني العامة والمسارح والمكتبات. على أن السلوقيين انسحبوا سنة ١٣٢ق.م إلى غرب نهر الفرات تاركين قسماً كبيراً من بلاد ما بين النهرين لحكم الفرثيين، وهكذا نشأت مملكة الرها المستقلة التي حكمتها سلالة ملكية وراثية استمرت ثلاثة قرون ونصف القرن. وكان قسم كبير من سكان هذه المملكة ينطقون باللغة الآرامية. وخلال ذلك تطورت اللغة الآرامية وتنوعت مما أدى إلى خلق لهجات مختلفة منها السريانية[٢].

وفيما يتعلق بالثقافة، مرّت بالآشوريين بعد سقوط مملكتهم عهود احتلال مختلفة، فأفادوا من ثقافاتها، ولاسيما من الثقافة اليونانية التي لم يبخل خلفاء الإسكندر من

سلوقيين وبطالمة في نشرها بالمنطقة عن طريق إنشاء المكتبات والمدارس. وحين قام المسيح، وراح حواريوه ينشرون تعاليمه، اعتنقوا المسيحية منذ القرن الأول أو الثاني الميلادي على يد المبشرين توماس، وتيدوس، وبارتولوميو الذين جاؤوا إلى مدينة الرها (الآشورية- السريانية) وأنشأوا فيها أول كنيسة وأقدمها في العالم.

هذه الكنيسة نجحت نجاحاً باهراً، وانتشرت في قارة آسيا من سورية إلى منغوليا، وكوريا، والصين، واليابان، والفيليبين. ويذكر الرحالة ماركو بولو أنّه التقى الرهبان الآشوريين في قصر ملك الصين، ويبدو أنّهم وصلوا إلى هناك منذ القرن السادس الميلادي، وأنّ أوّل نظام كتابي استخدمته منغوليا كان الأبجدية الآشورية[٣].

وننبه بهذه المناسبة إلى أنّ هذه المصادر تذكر الآشوريين إلى جانب السريان Syriac والسوريين Syrian للدلالة على المجموعة البشرية نفسها، مبررة ذلك بأن أهل منطقة كيليكيا وما حولها كانوا منذ القرن الثامن ق.م يطلقون على حكامهم الآشوريين اسم سوريين، وربما كان ذلك تخفيفاً للفظ «الآشوريين» من قبل الشعوب الأخرى. على أنّ هذا التخفيف ترسّخ خلال المرحلة اليونانية السلوقية في المنطقة، والتي بدأت عام ٣٢٣ق م حيث تحوّل اسم آشور Assyria إلى سورية Syria، واتسع استخدامه ليشمل المنطقة الآرامية في الغرب وكانت تحت السيطرة الآشورية آنئذ. في حين كان الفرثيون يستخدمون اسم آشورستان، وهو شكل فارسي لاسم آشور القديم.

هذا النشاط التبشيري كان يمهّد له ويدعمه نشاط منقطع النظير في مجال التعليم. فقد ظهرت الكتابات السريانية الأولى في بداية القرن الأول الميلادي، وأنشئت المدارس في فترة مبكرة لتعليم الدين واللغة السريانية في البداية ثم ما لبث بعضها أن وسّع منهاجه ليشمل اليونانية والفلسفة والعلوم والطب على غرار المدارس التي بناها السلوقيون والبطالمة في المنطقة ولاسيما مدرستي أنطاكية والإسكندرية. ومن مدارس السريان الأولى مدارس: نصيبين، والرها، ورأس العين، وسلوقية- قطيسفون، وجند يسابور وغيرها.

وحين أصدر الإمبراطور جوستنيان (سنة ٥٢٩م) أمره بإغلاق المدارس الفلسفية العريقة في أثينا، ومنع الأساتذة الوثنيين من التعليم، كان الأساتذة السريان في المشرق جاهزين لأداء هذه المهمة، كما كان قسم

كبير من الفلسفة والعلوم اليونانية قد نقل فعلاً إلى اللغة السريانية[٤].

ذلك أنَّ السريان كانوا قد بدؤوا ترجمة المعرفة اليونانية إلى السريانية منذ القرون الميلادية الأولى أيضاً. فركزوا جهدهم في البداية على الأعمال الدينية: الأناجيل، والتفاسير، ثم تحركوا بسرعة نحو العلوم، والفلسفة، والطب. فترجموا سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وجالينوس وآخرين، وشرحوهم وأضافوا إليهم. وكانت مدارسهم تخرج المزيد من المترجمين حتى ملؤوا بهم الساحة حين اشتد الطلب عليهم خلال بناء الثقافة العربية- الإسلامية وتحوَّلهم إلى جزء منها.

-٢-

هذا ما أفدناه من بعض المصادر الحديثة، فماذا عن المصادر الأخرى ولاسيما العربية التقليدية منها؟

يتوصل الدكتور أحمد داود في دراساته حول «تاريخ سورية القديم» إلى أنَّ العرب سكنوا منذ بدء التاريخ رقعة الأرض الممتدة من شاطئ الخليج العربي الشرقي وجبال زاغروس شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، ومن البحر الأسود شمالاً إلى بحر العرب جنوباً. وقد انقسموا من حيث نمط العيش إلى قسمين: مدنيين وزراعيين، من جهة، كانوا يشغلون منطقة الخليج العربي وأحواض الأنهار والسهول الساحلية الخصبة، وبدو رحّل، من جهة أخرى، يعيشون على الرعي والتنقل في المناطق الداخلية من شبه جزيرة العرب.

ومنذ ذلك الزمن انقسمت اللغة العربية إلى ثلاث لهجات رئيسة: عربية زراعية شرقية وهي السريانية (في منطقة الخليج العربي والحوض الأدنى لنهري دجلة والفرات وجبال السراة) وعربية زراعية غربية وهي الأمورية (في حوض الفرات الأعلى والمنطقة الغربية وصولاً إلى البحر المتوسط)، وعربية عاربة (في جوف شبه الجزيرة العربية)، علماً بأن منطقة الخليج العربي كانت مأهولة وفي مستوى سطح البحر قبل ارتفاع مياهه وإغراقها، وذلك اعتباراً من أواخر العصر الجليدي الرابع، أي من ١٤٠٠٠ ق.م، بفعل مناخ دافئ ساد الكرة الأرضية. وتابعت مياه الخليج ارتفاعها واستمرت تغمر منطقة الخليج حتى استقر مستواها تقريباً اعتباراً من ٤٠٠٠ق.م على الوضع الراهن، وتشكلت خلال ذلك مساحات جديدة من الأراضي الرسوبية قرب رأس الخليج صالحة للاستيطان والاستثمار الزراعي[٥].

فالسريانية في التاريخ العربي قديمة قدم هذا التاريخ، يدل على ذلك الحديث الشريف الذي ذكره تاريخ الطبري برواية أبي ذر الغفاري، قال «قال رسول الله (ص): يا أبا ذر، أربعة (رسل) سريانيون: آدم وشيث ونوح وأخنوخ (الذي هو إدريس) وهو أوّل من خطّ القلم، وأنزل الله على أخنوخ ثلاثين صحيفة»[٦] وقول ابن عباس: «أهبط آدم بالهند (وهو جبل من جبال السراة) وحوّاء بجدّة، فجاء في طلبها حتى اجتمعا» الذي ذكره تاريخ الطبري أيضاً[٧].

ويضيف كتاب «سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب» للبغدادي، خلال حديثه عن آدم «وكانت لغته في الجنة العربية، فلما عصى وأخرج من الجنة سلبه الله العربية فتكلم بالسريانية»[٨]. وهذا يدل على قدم السريانية وتداولها في أجزاء من شبه الجزيرة العربية. ذلك «أن التراث العربي يميز بين آدم الرسول وآدم العاقل الأول. فإذا كان عمر الإنسان العاقل يعود إلى مئات الآلاف من السنين فإن آدم الرسول يجب أن يكون في حدود الألف الخامس (أو الرابع) ق.م.»[٩] أو حوالي (٢٩٠٠) ق.م، استناداً إلى النصوص السومرية الأولى[١٠].

والسريانية هي لغة الجماعات التي شكّلت الممالك القديمة في وادي الرافدين.

يقول المسعودي في «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ما يلي: «ثم ملَك أهل نينوى عليهم بعده امرأة يقال لها سميرام (سميراميس). وكان أهل نينوى ممن سمّينا نبيطاً وسريانيين، والجنس واحد واللغة واحدة، وإنما بأن النبيط (يختلفون) بأحرف يسيرة في لغتهم، والمقالة واحدة». ثم يعدّد ملوك النبط ويقول عنهم إنهم ملوك بابل المعروفون بالكلدانيين، ويقول: «والقوم الذين كانوا بين آدم ونوح عليهما السلام، كان لسانهم سريانياً»[١١].

ويورد الطبري خبراً يؤكد ذلك إذ يقول: «إنّ نمرود بنى الصرح وأسنده إلى السماء، ثم ارتقى فوقه ينظر بزعمه إلى إله إبراهيم، فأخذهم الله من أساس الصرح فتقّض ثم سقط... فتبلبلت ألسن الناس من يومئذ من الفزع، فتكلموا بثلاثة وسبعين لساناً، فلذلك سميت بابل. وإنّما كان لسان الناس قبل ذلك السريانية».

وبمناسبة ذكر إبراهيم الخليل، يقول الطبري «... فلما عبر الفرات من حرّان غيّر الله لسانه فقيل عبراني، أي حيث عَبَر الفرات»، أي إنه غيّر لهجته من السريانية الشرقية التي كان يتكلمها سابقاً.

ويقول عن إسماعيل «وأما إسماعيل جد العرب العدنانيين جميعاً فقد شبَّ على

لهجته السريانية الشرقية، ثم تزوّج امرأة من جرهم وهم من أصول العرب العاربة، فصار يتحدث بالعربية الأم وليس باللهجة السريانية.

ويتابع عن ابن الأثير: «كانت جرهم بواد قريب من مكة.. فجاؤوا إلى هاجر فقالوا: لو شئتِ لكنّا معك فآنسناك والماء ماؤكِ؟ قالت: نعم. فكانوا معها حتى شبَّ إسماعيل وماتت هاجر، فتزوج إسماعيل امرأة من جرهم فتعلّم العربية منهم هو وأولاده، فهم العرب المتعربة»[١٢].

وهذا يؤكد أن اللسان الأول لسكان ما بين النهرين كان السريانية منذ القرن الرابع ق.م على الأقل، على أن ذلك لايمنع من تداول لهجة أخرى في الوقت نفسه. فالملكان سرجون الأكادي، وحمورابي البابلي كانا عموريين، ومن الطبيعي أن تكون للعمورية مكانة في دولتيهما.

هناك تفسير آخر تقدمه المراجع العربية التقليدية لأصل السريان، وهو انتسابهم لجدّ يسمى «سوريان» من أحفاد سام بن نوح.

جاء في «سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب» للبغدادي: «السريان هم بنو سوريان بن نبيط بن ماش بن آرم بن سام بن نوح»، وعن الكلبي: «إنَّ منهم النبط وهم أهل بابل في الزمن القديم»، وعن ابن سعيد: «هم من بني نبيط بن آشور بن سام»[١٣].

وهنا أيضاً نرى أنَّ السريان من القبائل العربية القديمة. وسواء أكانوا من أبناء آرام بن سام أم من أبناء آشور بن سام فذلك لا يغيّر من الأمر شيئاً لأن آشور وآرام أخوان.

-٣-

كذلك هو حال الآراميين، فهم فرع سكاني عربي عاش في البداية حياة رعي وترحال، قادت كثيراً منهم إلى جنوب وادي الرافدين، وتكلموا هناك السريانية التي كانت اللهجة الأساسية لكل من سومر وأكاد وبابل وآشور. وربما كانت تغيرات محلية قد طرأت عليها لدى كل من هؤلاء تبعاً لظروفهم، ومحيطهم، واحتكاكهم الحياتي اليومي، وإبداعاتهم خلال تلك الأزمنة الطويلة. مما جعل السريانية في منطقة عيلام وسومر تتضمن كلمات مختلفة، بينما تضمنت هذه اللهجة في آشور في الشمال كلمات من مصادر مختلفة أخرى.

يبقى صحيحاً ما ذكره المسعودي من أنّه ربما كان هناك اختلاف في بعض الكلمات ولكن «المقالة» واحدة. ذلك أنّه لم تكن هناك حدود فاصلة ضمن الرقعة الجغرافية

الواسعة التي كانوا يتحركون ضمنها، وقد حدثت ظروف دفعت الآراميين إلى الانتقال من هناك.

«في عام ١٥٩٥ق.م سقطت بابل في أيدي قبائل الكاشيين الهمجية الذين انقضوا عليها بعد أن دمّرتها الزلازل. مما جعل عشائر الآراميين الجوّالة حول «أور» في جنوب «بابل»، والتي ارتادت المنطقة ذات المراعي القريبة من شطوط الأنهار لمواشيها، وابتعدت عن مراكزها في قلب البادية العربية، من أن تعود أدراجها إلى مراكزها. وهذه الفترة تعدّ فترة النزوح السرياني الآرامي من منطقة جنوب بابل إلى شبه جزيرة العرب. وبقي الوجود الآرامي هناك يأخذ طابعاً متصاعداً فترة من الزمن يقلق المدن والمناطق المستقرة...»[١٤]. على أنه ظهر في المنطقة الغربية بحلول القرن الحادي عشر ق.م.

لم يشكل الآراميون دولة موحدة على الإطلاق، بل انقسموا إلى ممالك صغيرة مستقلة موزعة في أرجاء الشرق الأدنى، ولاسيما فيما يعرف الآن بسورية الحديثة. وحين سقطت ممالكهم أمام الآشوريين بحلول القرن الثامن ق.م. انصهروا مع هؤلاء ومع البابليين والأكاديين الأصليين في بابل وآشور.

وعلى النقيض من ذلك قفزت اللغة الآرامية لتصبح اللغة السائدة في جميع أنحاء الهلال الخصيب، وتطورت في أواخر العصور القديمة إلى لغات أدبية مثل السريانية والمندائية[١٥]. ففي الألفية الأولى قبل الميلاد تحوّلت إليها كل الجماعات في المنطقة من أكاديين، وبابليين وآشوريين. وحين استولى الفرس الأخمينيون على مدينة بابل سنة ٥٣٩ق.م فرضوا هذه اللغة لغة رسمية على إمبراطوريتهم بكاملها، كما ذكرنا سابقاً.

-٤-

وفيما يتعلق بتطور الكتابة يقول د.أحمد داوود «وجد في معبد «آي- آنا» في أوروك أول كتابة، وكانت تصويرية، هذه الكتابة التصويرية هي التي تطورت مع الزمن إلى الكتابة المسمارية، إلى أن اختفت الصورة المقصودة فيها وأصبحت صوتية، واكتملت في أواسط الألف الثالث ق.م. وأقدم لغة كتبت هي اللغة العربية بلهجتها السريانية وبالرموز السومرية في الشرق والأمورية في الغرب في الألف الرابع ق.م.

..وإذا كانت أوّل كتابة تصويرية ومقطعية مكتشفة حتى الآن قد وجدت في سومر فإنّ أول تطوير لهذه الكتابة من المقطع إلى الحرف، أي إلى اختراع أبجدية

مبسطة للكتابة، إنّما جاءت على أيدي أشقاء السومريين في الغرب. على أيدي السوريين في أوغاريت وجبيل.. لقد أوجد أبناء أوغاريت أوّل أبجدية صوتية في العالم، وكتبوها بالخط المسماري. ثم إنّ أشقاءهم في جبيل توصلوا في القرن الثالث عشر ق.م إلى تطويرها وكتابتها بالعلامات التي هي الأبجدية الفينيقية، التي أصبحت أم الأبجديات المستعملة في العالم أجمع»[16].

وقد حمل الآراميون فيما بعد الحروف الأبجدية من سواحل البحر المتوسط شرقاً إلى آسيا حتى الهند، كما نقلها الفينيقيون غرباً إلى أوروبة. وهكذا تغلبت الكتابة بالحروف الأبجدية على الكتابة بالمقاطع المسمارية التي كانت شائعة آنذاك»[17].

لذلك علينا ألا نستغرب ظهور الخبر نفسه تحت اسم الآراميين أو السريان أو الآشوريين أو السوريين، فنحن إزاء فروع عدة تنتمي لأصول واحدة، إضافة إلى اختلاطها المستمر وانصهار بعضها في بعض أكثر من مرة. وفي سورية الحديثة، ما نزال نلتقي بمواطنين ينتسبون إلى «الآشورية» أو «الكلدانية» أو «السريانية»، أو «الآرامية». إنّها هوية حضارية واحدة كما يقول موسكاتي: «إنّ المناطق الثلاث: الجزيرة العربية وسورية (ومن ضمنها فلسطين) وبلاد ما بين النهرين كلها تكوّن وحدة جغرافية متماسكة الأجزاء، كانت في تلك الأزمان مسرحاً رئيسياً للنشاط البشري. وإنّ الأقوام الذين استوطنوا هذه الأصقاع هم وحدهم الذين رسموا شكل تاريخها وحضارتها في ضوء أحوال بيئتهم الطبيعية»[18].

ويتساءل أفرام عيسى يوسف: «كل ما نعرف أنّ السريان برزوا من صلب الشعوب الشرقية العريقة، فمن كان هؤلاء القوم وما هي لغتهم؟

هل هم ورثة الآشوريين القدامى، أم أحفاد البابليين، أم الآراميين الذين استقروا في سورية وفي بلاد ما بين النهرين؟»[19].

والواقع، إنّ السريان هم أحفاد كل هؤلاء، واللغة السريانية حصيلة جهدهم جميعاً. وهذا هو شأن العرب واللغة العربية.

الهوامش

١- الإنترنت:

Assyrians; Assyrian/ Chaldean/ Syriac people. Syrian history; Syriac Christianity (Wikipedia): Syriac or Syrian Christianity.

٢- أفرام عيسى يوسف، الفلاسفة والمترجمون السريان، ترجمة شمعون كوسا، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق- بيروت- بغداد، ٢٠٠٠م.

٣- الإنترنت- مصدر سابق- Syriac or Syrian Christianity.

٤- د.ملكة أبيض، مدارس السريان ومترجموهم، المعرفة، العدد ٥٨١، السنة ٥٠، شباط ٢٠١٢م، دمشق.

٥- د.أحمد داوود، تاريخ سورية القديم، دار الصفدي، دمشق، ط٣، ٢٠٠٣م.

٦- تاريخ الطبري، ج١، ص١١٦.

٧- الطبري، المرجع نفسه.

٨- البغدادي، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، ص١٠.

٩- د.أحمد داوود، مرجع سابق.

١٠- الإنترنت:

Sumerians, Mesapotamia for kids.

١١- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، ص٣٢٠.

١٢- الطبري، مرجع سابق.

١٣- البغدادي، مرجع سابق.

١٤- د.أحمد داوود، مرجع سابق.

١٥- الإنترنت:wikifedia) Arameans)

١٦- د. أحمد داوود، مرجع سابق.

١٧- ويل ديورنت، قصة الحضارة، ج٢، ص٣١٦.

18- Moscati, Ancient semitic civilizations, London, 1937, P. 13.

١٩- أفرام عيسى يوسف، مرجع سابق.

العربُ وتأييدُ المَناذِرَة

حسن موسى النميري *

كانَ العــربُ الذيــنَ يَعيشُــونَ في نَجْدٍ والحِجازِ واليَمامَةِ، وفي سَوادِ العِراقِ، وبَيْنَ نَهْــرَيْ دِجلــةَ والفُراتِ، وعلى شَــواطئهما، ويَزدَحمُــونَ على سَــواحِلِ الخَليجِ، الذي لمْ يَكُنْ يُسَمَّى باسْمِهِمْ، وإنَّما كان يُسَمَّى باسْمِ إحدَى أقْوَى دَولتَيْنِ، قائمَتَيْنِ بالقُرْبِ مِنْهُمْ، هُمَا دَولةُ الفُرسِ، ودَولةُ الرُّوم.. أقُولُ: كانَ العــربُ في هــذهِ المَناطِقِ، ذاتِ المساحاتِ الشّاسِعَةِ الوَفيرَةِ الثّرواتِ، الكثيرَةِ الخَيْراتِ، الخَطيرَةِ المَوْقِعِ، كانُوا يَشــعُرونَ بِشَــيءٍ مِنَ التَّمزُّقِ والإحباطِ وعَدَمِ الرِّضَى، مِنْ غِيَابِ دَولَةٍ تَجْمَعُهُــمْ. وكِيانٍ يُمَثِّلُهُم في السَّــاحَةِ التي يُسَــيطِرُ عليْها دَولتَانِ عِملاقتَانِ كانتا دائمَتَي الصِّراعِ، مُستَمِرَّتَيْ الصِّدامِ، كَثيرَتَي الحُروبِ.

ومَــا أنْ وُلِــدَ هذا الكِيَانُ الصَّــغيرُ على ضِــفَّةِ الفُــراتِ، في هذا المَكانِ الــذي يُقالُ لَهُ (الحيرَة) والذي أقامَتْــهُ قَبيلةٌ عَربيَّةٌ مِنَ الأزْدِ، مِــن عَرَبِ الجَنُوبِ، خَرجتْ من اليَمَنِ بعدَ حُدُوثِ سَيْلِ عَرِمٍ، وانْهِيَارِ سَدِّ مَأرِب. أو على الأقَلِّ بَعدَ تَهْديدِهِ بالانْهِيَارِ.. ما أنْ تَسَامَعَ النّاسُ مِنَ العربِ بِولادَةِ هذا الكِيانِ، وإنْشاءِ

* أديب وباحث في التراث العربي (فلسطين).

هذهِ الإمارةِ حتى أسرَعُوا لتأييدِه، والالتفافِ حَولَهُ، والانضواءِ تحتَ لوائهِ، وتسابقُوا لإبداءِ رَغباتٍ عارمةٍ، لمُؤازرتِهِ ومُعاونتِهِ والدِّفاعِ عن وُجُودِه، واستمرارِ بقائِه.

لم يَقتصِرْ تأييدُ دولةِ المناذرةِ على قبائلِ عَـرَبِ الجَنُـوبِ كطَيِّءٍ ومَذحِـجٍ وهَمدان، ولكـنَّ كثيرًا من قبائلِ عَـرَبِ الشَّمَالِ أيضًا كبَكْرِ بن وائل، وتغلب وتَميم وبَني عامرٍكلِّها سارَعـتْ لإعـلانِ تأييدِها، وأبـدَتْ سُرورًا وفَرَحًـا واستِبْشـارًا بـولادةِ هـذهِ الدَّولةِ، وظُهورِها إلى حَيِّزِ الوُجُودِ، وأبدَتْ استعدادًا لتأييدِهـا ودَعْمِهـا ومُؤازرتِها، ورعايـةِ مَصَالحِها والوُقُوفِ إلى جَانبِها أملاً بنُمُوِّها وقُوَّتِها واشْتِدادِ عُودِها، لتَكـونَ رمزًا لعِزَّةِ العـربِ وقُوَّتِهِـم وسِيادَتِهم. وقدَّمَتْ قبائلُ العربِ عَونًـا ماديًّا، ودَفَعَـتْ لمُلوكِ الحيرةِ المالَ والرِّجالَ لتقويةِ مَواقفِها، وكانَ العربُ حَريصينَ على أنْ تكـبرَ هذهِ الدَّولةُ وتَسمُو وتَزدهِـرَ، وتنمُـو مَكانَتُها، ويَعلـو مَجدُها، ويَرتفِعَ سُلطانُها.

والأُمَمُ بطَبيعَتِهـا تَحترِمُ القُوَّةَ، وتُحالِفُ القَـويَّ، وتُؤيِّـدُهُ وتدعَمُهُ، وتَعتـزُّ بقُوَّتِه.. والعربُ لَيْسُوا بدعًا مُختلِفًا عن الأُمَمِ، وإنَّما هم كغَيْرِهِم، أُمَّةٌ يَسْري عليها ما يَسري على غَيْرِهـا، ويَنطبِقُ عَليهم نَهْجُهـا، ويَحْكمُهم نِظامُها. وربُّما يكونُ العربُ أشَدَّ حُبًّا للقُوَّةِ، وأكـثرَ احترامًـا للأقوياءِ، وتأييـدًا ودَعْمًا لهُم. فقـد ازدادَ تأييـدُ العـربِ، واستَمرَّ دَعمُهُـم، وتَنامَى التفافُهُم حَولَ المَناذرَةِ بعدَ أنْ استَطاعَ (عَمرو بنُ عَديّ) الانتِصارَ على الزَّبَّـاءِ[1] والقَضـاءَ على حُكمِهـا، وتدميرَ دَولتِها. فـازدادَ تأييـدُ العـربِ للمَنـاذرَةِ، وتضاعَـفَ دَعمُهُمْ لدَولتِهم، وعَظُمَ تعاوُنُهم مَعَها، واعْتِزازُهُمْ بها.

قُلنا إنَّ كثيرًا مِنَ القبائلِ العربيَّةِ شَماليِّها وجَنُوبيِّها أيَّـدَت المَنـاذرَةَ، ودَعَمَتْ دَولَتَهم وشَدَّتْ أزرَهم، وانضَوتْ تحتَ لوائِهِمْ، حتى أنَّ أكـثرَ مُؤيِّديهم كانُوا مِـنْ عَرَبِ الشَّمالِ؛ أي مِـن القبائلِ المَعَدِّيَّـةِ العَدنانيَّـةِ، وهمْ يَعرِفُـونَ تَمامًا أنَّ أصْلَهم من عَرَبِ الجَنُوبِ القَحْطانيين، وقـد أيَّدَتْهم قبائـلُ الشَّمالِ بصَرفِ النَّظَرِ عن انتِمائِهِـمُ الجَنُوبيِّ، لأنَّ المَنـاذرَةَ أنفسَهم لم يُبْدُوا مَيْـلاً، ولم يُفكِّرُوا بالانحِيـازِ إلى عَـرَبِ الجَنُـوبِ، ولم يَخطُرْ على بالِ واحِدٍ منهُـم أنْ يُديرَ ظَهْرَهُ لعَرَبِ الشَّمَـالِ، أو يُبْدِيَ تَعَصُّبًـا لعَرَبِ الجَنُوبِ. ولهـذا وَجَـدُوا التَّأييدَ والدَّعْـمَ مِن جَميعِ القَبائلِ بلا استِثناء.

يَظْهَرُ لَنا هذا التَّأييدُ، ويَنْكَشِفُ لَنا هذا الدَّعمُ واضِحًا جَليًّا في مَعارِكِ ذي قارٍ التي أيَّدَ فيها مُعظَمُ العربِ مَوقِفَ مَلِكِ المَناذرةِ الذي قَتَلَهُ كِسْرَى شَرَّ قِتْلَةٍ، وأنْهَى حَياتَهُ نهايةً فيها كَثيرٌ مِنَ النِّكايةِ والمَهانَةِ والاسْتِصْغار.

لا أُريدُ أنْ أقِفَ مُدافِعًا عن النُّعمانِ بن المُنذرِ، وبالوَقْتِ نفسه لا أُريدُ أنْ أقِفَ بِمَوقِفِ الشَّامِتِ مِمَّا حَصَلَ لَهُ، وإنْ كانَ يَخطُرُ بِبالي أنَّهُ رُبَّما يَستَحِقُّ ما حَصَلَ لَهُ، فالظَّالِمُ كَثيرًا ما يُبْتَلَى بِمَنْ هوَ أظلَمُ مِنْهُ.. اعتدَى النُّعمانُ على الشَّاعِرِ (عَديِّ بن زَيد العبادي) لوشايَةٍ وَشَى بها أحدُ خُصُومِه، اللهُ أعلَمُ بِصِحَّتِها، فَقامَ النُّعمانُ وحَبَسَ عَديًّا ثمَّ قَتَلَهُ في حَبْسِه، ويقُولُ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ: إنَّهُ قُتِلَ مَظلومًا، في ظُرُوفٍ غامِضَةٍ، على الرَّغمِ مِنْ أنَّهُ كانَ صِهْرَهُ (زَوجَ أُخْتِهِ) وكانَ عَديٌّ عَزيزًا على كِسْرَى؛ لأنَّهُ كانَ مُوَظَّفًا كَبيرًا في ديوانِه، فقد كانَ كاتبًا وتَرجُمانًا، ومُسْتَشارًا ثَقافيًّا لِكِسْرَى.. أرْسَلَهُ مَرَّةً مُمَثِّلاً لَهُ فَقامَ بزيارَةٍ لِبلادِ الرُّومِ، فأُعجِبَ بِه قَيْصَر، وأكرَمَهُ بِهدايا، وأُعطيَاتٍ، وزَوَّدَهُ كَثيرًا مِن المُدُنِ والبُلْدانِ في الدولةِ الرومانيَّة.

سَكَتَ كِسرَى على مَقتَلِ عَديٍّ، ووَجَدَ في ابْنِهِ (زَيد بن عَديّ) عِوَضًا، فَعَيَّنَهُ في مَنْصِبِ أبيه، ويَبْدُو أنَّهُ لم يَكنْ أقَلَّ مِنْ أبيه، فَأحَبَّهُ كِسْرَى وَقَرَّبَهُ.

كانَ الفَتَى (زَيدُ بنُ عَديّ) يُفَكِّرُ في الثَّأرِ لِمَقتَلِ أبيه..فَحَسَّنَ لِكِسْرَى أنْ يَخْطُبَ إحدَى بَناتِ النُّعمانِ أو أخَواتِه، وهوَ يَعلَمُ أنَّ هذا سَيَقَعُ مِنَ النُّعمانِ مَوقِعًا سَيِّئًا، لإباءِ العربِ مِن مُصاهَرَةِ العَجَم..فَأمَرَهُ كِسْرَى أنْ يَكتُبَ لِلنُّعمانِ بذلكَ، ثمَّ قالَ لِكِسْرَى: أرْسِلني ومَعي رَجُلٌ مِن قومِكَ تَختارُهُ، لِنَأتِيَكَ بِجَوابِ النُّعمانِ، ولَمَّا أوْصَلَ زيدٌ الرِّسالَةَ قالَ النُّعمانُ: أمَا وَجَدَ المَلِكُ في (عِينِ) السَّوادِ وفارسَ ما يَفي بِحاجَتِهِ؟ وهذا الجَوابُ في الحَقيقَةِ لا عَيبَ فيه، وليسَ فيه إساءةٌ لأحَد، إلاَّ إذا تُرجِمَتْهُ تَرجَمَةً حَرفِيَّةً. فالعَربُ يُسَمُّونَ المَرأةَ واسعَةَ العَيْنَيْنِ(عَيْناءَ) والجَمْعُ (عِينٌ) والعَيْناءُ في الأصْلِ (المَهاةُ) ويُسَمِّيها العربُ (بَقَرَةً وَحْشِيَّةً) والتَّسْمِيَةُ مَبْنِيَّةٌ على تَشْبِيهِ الفَتاةِ واسِعةِ العَيْنَيْنِ بالمَهاةِ (أيْ بالبَقَرَةِ الوَحْشِيَّةِ) المَشْهُورَةِ بِسَعَةِ عَيْنَيْها.. فَسَألَ (الفارسيُّ المُرافِقُ) لِزَيد: مَا العِينُ؟ فقالَ زيد: (البَقَرُ) وكانَ زيدٌ يَعني ما يَقُولُ، إذ هوَ يُريدُ أنْ يَنقُلَ الفارسيُّ الجَوابَ بِحَرفِيَّتِه، لِيَكونَ في كَلامِ النُّعمانِ ((قِلَّةُ أدَبٍ)) ولِيَقَعَ في مَكيدَةٍ، ويَظهَرَ زيدٌ مَظْهَرَ البَريءِ، الصَّافي

النيَّة، الخالي الذِّهن، الذي لا دَخلَ لَهُ في كُلِّ ما حَدَثَ.

وعادَ زيدٌ ورَفيقُـهُ، وأبلغَ المَلكُ (كسْرَى) بجَوابِ النُّعمانِ (ما وَجَدَ في (بَقَرِ) فارس؟) فَحَقَدَهـا على النُّعمـانِ.. لكنَّهُ حـاوَلَ أنْ يُخفيَ تأثُّرَهُ ما استطاعَ.

تَمَهَّلَ كِسْرَى أشْـهُرًا ليُوهِـمَ النُّعمانَ أنَّ الأمرَ لم يَدَعْ آثارًا سلبيَّةً في نفسِه، وأنَّ الأمرَ أصبَحَ مَنسيًّا، ثم أرسَلَ للنُّعمانِ يَطلُبُ زيارَتَهُ، فَخـافَ النُّعمانُ، ثم هرَبَ مُصـطَحِبًا أهلَهُ ونساءَهُ، والتَجأَ إلى طَيِّءٍ راجيًا أنْ تَحْميَهُ في جَبَلَيْها، لكنَّ طَيِّئًا رَفضَـتْ طَلَبَهُ واعتذرَتْ قائلَـةً: لا قُـدْرَةَ لَنَا على مُواجَهَـةِ كِسْرَى، فانْتَقَلَ ونَزَلَ بِبَني شَـيْبانَ بذي قارٍ، وأجارَهُ (هانئُ بنُ مَسعُود) سَيِّدُ بَني شَيْبَانَ.. ثم تَرَكَ النُّعمانُ أهلَهُ وذَويهِ لَدَى بَني شَـيْبانَ، وسَارَ فَسَلَّمَ نَفسَـهُ لِكِسْرَى.. فَقَيَّدَهُ ثم رَماهُ مُقَيَّدًا تَحتَ أرجُلِ الأفيالِ حتى ماتَ.. وعَيَّنَ (إياسَ ابن قبيصةَ الطَّائي) واليًا على الحِيرَةِ.. قال سَلامَةُ بنُ جَنْدَل يَذكرُ قَتْلَ كِسْرَى للنُّعمانِ:

هُوَ المُدْخِلُ النُّعمانَ في أرضِ فارِسٍ

وجاعِلُهُ - في قَولِهِم - في المَدائنِ[٢]

والقاهُ أيْضًا - بَعْدَ ذا - تَحْتَ أفْيُلٍ

وفي العَرَبِ العَزْيا بَقايا ضَغَائِنِ[٣]

أرْسَـلَ كِسْرَى إياسًا إلى هانئِ بنِ مَسعُود الشَّيْباني يَطلُبُ وَديعَةَ النُّعمَانِ، فأبَى هانئٌ، فَهَدَّدَهُ كِسرَى بِسَـحْقِ قَوْمِـهِ بَكرِ بن وائل.. ونَشَبَتْ مَعاركُ ذي قارٍ التي استَمَرَّتْ ثَلاثَةَ أيَّـامٍ، بينَ قبائلِ العربِ مُتَعَـدِّدَةِ القياداتِ، وبينَ العَجَـمِ (الفُرسِ) ومَـنْ كانَ يُحالِفُهُم مِـنَ العرَبِ، كَقبيلَتَيْ تَغلب وإياد، وشِرذِمَةٍ مِن طَيِّءٍ يَقودُهـا والي الفُرسِ على الحِيرَةِ (إيـاسُ بـنُ قبيصـة).. انْجَلَتِ المَعاركُ عن هَزيمَةٍ مُنْكَرَةٍ للفُرسِ، وانتصارِ للعَرَبِ عليْهِم لأوَّلِ مَرَّةٍ في تاريخِهِم.. كانتْ مَعاركُ ذي قارٍ بِسَـبَبِ خَطأٍ ارتكَبَهُ النُّعمانُ بنُ المُنذرِ، ومَعَ ذلكَ فـإنَّ العرَبَ لم يَخذُلوهُ ولم يُسْـلِموهُ، أو يُسلِمُوا أهلَهُ وَودائعَهُ (للأجنبيِّ) على الرُّغمِ مِنَ الخَسائرِ والمَخاطِرِ التي تَعَرَّضُوا لَها..

يَذكرُ المُؤَرِّخُونَ أنَّ مُلـوكَ المَناذِرَةِ كانُوا يُقدِّرونَ الشِّعرَ، ويَحترِمونَ الشُّعراءَ، ويَسعَونَ لاجْتِذابِهِمْ إلى بَلاطِهِم ومَجالِسِهِم، ويَحْرِصُونَ على جَمْـعِ أشْـعارِهِم، والاحْتِفـاظِ بها.. فَيُقالُ إنَّ النُّعمـانَ بنَ المُنْذِرِ كانَ يأمُرُ بفتحِ أبوابِ مَجَالِسِـهِ على مَصَاريعِها لأهلِ الأدَبِ والشِّـعرِ، ويَحْرِصُ على تَقريبِهِم والتَّرْحيبِ بِهِـم، ويجْـزِلُ لَهـم الأعطيـاتِ والهِبَاتِ والهَدايا.. وأنْشَـأَ في قَصْرِهِ ديوانًا تُدَوَّنُ فيهِ

أشعارُ الفُحول، وتُسَجَّلُ وتُوَثَّقُ ويُحتَفَظُ بها في خَزائنِ المَلِك، بَعيدًا عنْ أيدي العابثِين.. وظَلَّ هذا الدِّيوانُ وهذهِ السِّجلاتُ في مَكانٍ أمينٍ حَفيظ. حتى دالتْ دَولَةُ المَناذِرَة.. ثم وَرِثَ الأمويُّونَ هذا الديوان أو ما بَقيَ منهُ[4]

من أقدَمِ الشُّعراءِ الذينَ قيلَ إنَّ لهم صِلَةً طَيِّبَةً بالمَناذِرَة كان الشاعِرُ (المُمَزِّقُ العَبْدِيّ) واسْمُهُ شَأْسُ بْنُ نَهار، وهو منْ بَني عبدِ القيس أهلِ البَحْرَيْن، لم نَستطِعْ تَحديدَ سَنَةِ ميلادِهِ ولا سَنَة وفاته، لكنَّنا قَدَّرنا أنَّهُ أدْرَكَ عَمْرو بنَ هِنْد، الذي ذُكِرَ أنَّهُ حَكَمَ ما بينَ (٥٥٤-٥٦٩م) وإليْهِ يَقُولُ الشاعِرُ مُسْتَنْجِدًا ومُسْتَغيثًا بِهِ:

فإنْ كُنْتُ مَأكُولاً فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ
وإلاَّ فَأدْرِكْنِي ولَمَّا أُمَزَّقِ[5]

فأنتَ عَميدُ النَّاسِ، مَهْمَا تَقُلْ نَقُلْ
ومَهْمَا تَضَعْ مِنْ باطِلٍ لا يُحَقَّقِ[6]

أكَلَّفْتَني أدْواءَ قَوْمٍ، تَرَكْتُهُمْ
فَإلاَّ تَدارَكْني مِنَ البَحْرِ أغْرَقِ[7]

ومِنْ أقدَمِ الشُّعَراءِ الذينَ كانَ لَهُمْ صِلَةٌ مُتَأرجِحَةٌ بالمَناذرة (طَرَفَةُ بنُ العَبْد) البَكْرِيّ، الذي اتَّصَلَ بهمْ ولكنَّنا لم نَقرأ لَهُ شعرًا في الإشادَةِ بهِمْ. قَدَّرَ الزركلي أنَّ طَرَفَةَ وُلِدَ (سنة ٨٦ ومات سنة ٦٠ قبل الهجرة).. كان في عَهْدِ عَمْرو بن هِند، فَوَجَّهَهُ مَعَ خالِهِ المُتَلَمِّس ليَكونا مُرافِقَيْنِ لأخيه قابُوس بن هِند الذي كانَ يُعِدُّهُ لِخلافَتِه، أو لاستلامِ مَنْصِبٍ كبيرٍ في دَولَتِه، لكنَّ طَرَفَةَ لم يَحمدْ رُفقَةَ قابُوس، فَذَمَّهُ وذَمَّ أخاهُ عَمْرًا حيثُ قال فيهِمَا:

فَلَيْتَ لَنَا مَكانَ المَلْكِ عَمْرو
رَغُوثًا حَوْلَ قُبَّتِنا تَخُورُ[8]

لَعَمْرُكَ إنَّ قابُوسَ بنَ هِنْدٍ
لَيَخْلِطُ مُلْكَهُ نَوْكٌ كَثيرُ[9]

ولَمَّا خافَ عَمْرُو بنُ هِندٍ لِسانَ طَرَفَة، وكانَ شابًّا جَريئًا مُغامِرًا، مُنْفَتِحًا على الحياة، يَخْشَى أولو الأمرِ رأيَهُ ولِسانَهُ.. حمَّلَهُ عَمْرو بنُ هِنْدٍ رِسالَةً، إلى نائِبِهِ على البَحْرَيْن، وكذلكَ فَعَلَ مَعَ خالِهِ (المُتَلَمِّس) وأوْهَمَهُمَا أنَّهُ أوْصَى الوالي أنْ يَهَبَ لِكُلٍّ منهما جائزَةً سَنِيَّةً.. وفَضَّ المُتَلَمِّسُ رِسالتَهُ (صَحيفَتَهُ)[10] وعَرَفَ أنَّ عَمْرو بنَ هند طَلَبَ من واليه أنْ يَدفِنَهُ حَيًّا فَمَزَّقَ الرِّسالَةَ، وألْقَى بها في النَّهْرِ بالحيرَة، أمَّا طَرَفَةُ فيُقالُ إنَّهُ أوْصَلَ الصَّحيفَةَ، فَسَجَنَهُ الوالي فَتْرَةً، ثم قَتَلَهُ.. كما يُقالُ إنَّهُ قالَ في سِجْنِهِ بالبَحْرَيْن أبياتًا يُخاطِبُ بها عَمْرو بنَ هِنْدٍ، ويُعاتِبُهُ برِفْقٍ:

أبا مُنذرٍ! كانتْ غُروراً صحيفتي
ولم أُعطِكُم بالطَّوعِ مالي ولا عِرضي
أبا مُنذرٍ! أفنيتَ، فاستبقِ بعضَنا
حَنانيكَ! بعضُ الشرِّ أهوَنُ مِن بَعضِ[11]

والمُسَيَّبُ بنُ عَلَس شاعرٌ جاهليٌّ قديمٌ من قبيلة ربيعة، وهوَ خالُ الأعشى الكبير (مَيمُونُ بنُ قيس) والأعشى راويتُهُ وتلميذُهُ، قَدَّرَ لويس شيخو[12] أنَّهُ ماتَ سنة ٥٨٠ للميلاد، وأنَّهُ عاصَرَ عَمْرو بنَ هِند، والتقى في بَلاطِهِ بطَرَفة وخالِهِ المُتلمِّس. وقد مَدَحَ المُسَيَّبُ بنُ عَلَس عَمْرو بنَ هِند، ومِنْ ذلكَ قَوْلُهُ:

وإذا المُلوكُ تَدافَعَتْ أركانُها
أفْضَلْتَ فَوقَ أكُفِّهِمْ بِذِراعِ[13]
ولأنتَ أجوَدُ مِن خَليجٍ مُفعَمٍ
مُتراكِبِ الآذِيِّ، ذي دُفّاعِ[14]
ولأنتَ أشجَعُ في الأعادي كُلِّها
مِن مُخدِرٍ لَيثٍ مُعيدٍ وِقاعِ[15]
يأتي على القومِ الكثيرِ سِلاحُهُم
فَيَبيتُ مِنهُ القَومُ في وَعْواعِ[16]

ومن أقدمِ الشُّعراءِ الذينَ كانَ لهم صِلَةٌ بآلِ المُنذرِ (المُثَقِّبُ العَبديّ) واسْمُهُ عائذُ بنُ محصن، وهو مِنْ قبيلةِ عبدِ القيس، أهلِ البَحرَين، وهوَ ابنُ أختِ (المُمَزَّق) الذي ذَكرنا اسْمَهُ قُبَيْلَ قليل.. لُقِّبَ بالمُثَقِّبِ لبَيْتٍ قالَهُ، يَذكرُ نِسْوَةً، وهوَ قَوْلُهُ:

ظَهَرنَ بِكِلَّةٍ، وَسَدَلنَ أُخرى
وَثَقَّبنَ الوَصاوِصَ لِلعُيونِ[17]

ذَكَرَ الزركلي في الأعلام[18] أنَّ المُثَقِّبَ ماتَ حَوالى سنة ٣٥ قبلَ الهِجرةِ أيْ عام ٥٨٨م وذكرَ أنَّهُ أدركَ عَمْرو بنَ هِند ومَدَحَهُ بقولِهِ:

غَلَبتَ مُلوكَ الأرضِ بالحَزمِ والنُّهى
فأنتَ امرُؤٌ في سُورَةِ المَجدِ تَرتَقي[19]
وأنجَبَ بِهِ مِنْ آلِ نَصْرٍ، سَمَيْدَعٍ
أغَرَّ، كَلَوْنِ الهِندُوانيِّ رَوْنَقِ[20]

وكانَ المُثَقِّبُ العَبدي يَتردَّدُ على بَلاطِ المَناذرة، ومِنْ شعرِهِ في مَدحِ عَمْرو بن هِنْد:

وإلى عَمْرٍو وإنْ لم آتِهِ
تُجلَبُ المِدحَةُ أو يَمضي السَّفَرْ
واضِحُ الوَجهِ، كَريمٌ نَجرُهُ
مَلَكَ السَّيفَ إلى بَطنِ العُشَرْ[21]
بَاحِرِيُّ الدَّمِ، مُرٌّ طَعمُهُ
يُبرِئُ الكَلْبَ إذا عَضَّ وَهَرْ[22]

وعَمْرو بنُ قَمِيئةَ مِنْ أقْدَمِ الشُّعراءِ الذينَ كانُوا على صِلَةٍ طَيِّبَةٍ بالمَناذرة، وهوَ شاعرٌ جاهليٌّ قديمٌ، قَدَّرَ الزركلي[23] أنَّهُ وُلِدَ نحو سنة ١٨٠ قبلَ الهِجرةِ أيْ نَحو

عام ٤٤٨للميلاد، وماتَ نحو عام ٨٥ قبل الهجرة، أي نَحوَ عام ٥٤٠ للميلاد، وهو من قبيلة بَكر بن وائل، عاصَرَ عَمرو بنَ هِند، وقيلَ: بَلْ أدركَ أباهُ المُنذرَ بنَ ماء السَّماءِ الذي حَكَم ما بَيْنَ (٥١٤- ٥٥٤) للميلاد، والأبياتُ التَّاليَةُ قيلَ إنَّ عَمرو بنَ قَميئةَ قالَها يَعتَذِرُ للمُنذرِ بن امرئ القيس (والمَشهُورُ أنَّهُ ابنُ ماء السَّماء) وماءُ السَّماء هيَ أُمُّهُ، ويُقالُ إنَّها أُختُ (كُليب وائل والمُهلهل) لذلكَ نَجدُ الشَّاعرَ قد خاطَبَ المَلكَ بعبارَة (ابن الشَّقيقة) يُشيرُ إلى أنَّهُ مِنْ أخوالِ المَلكِ، فَماءُ السَّماءِ (أُمُّ المَلك) شَقيقَةٌ لَهُ لأنَّها مِثْلُهُ تَنْتَسِبُ إلى بَكر بن وائل.. قال عَمرُو بنُ قَميئةَ يَمدحُ المُنذر بن ماء السَّماء، وهو في أوَّل الأبياتِ هذه يَذْكرُ ناقتَهُ:

إلى ابنِ الشَّقيقةِ أعملتُها
أخافُ العِقابَ، وأرجُو النَّوالا[٢٤]

إلى ابنِ الشَّقيقةِ، خَيرِ المُلوك
أوفاهُمُ عِندَ عَقدٍ حِبالا[٢٥]

ألَسْتَ أبَرَّهُمُ ذِمَّةً
وأفضَلَهُمْ، إنْ أرادُوا فِضالا[٢٦]

فأهلي فِداؤكَ مُستعتِبًا
عَتَبتَ، فصَدَّقتَ في المَقالا

تصدَّقْ عليَّ فإنِّي امرُؤٌ
أخافُ على غَيرِ جُرمٍ نَكالا[٢٧]

والأسوَدُ بنُ يَعفُر النَّهْشَلي الدَّارمي التَّميمي شاعرٌ جاهِليٌّ، مِن ساداتِ تَميم، نادمَ النُّعمانَ بنَ المُنذرِ، قَدَّرَ الزِّرِكلي[٢٨] أنَّهُ ماتَ نحو السنة الثَّانية والعشرينَ قبل الهجرةِ، أي ما يُساوي نحو سنة (٦٠٠) للميلاد، ويُسَمَّى الأسوَدُ في بَعضِ الكُتُب بأعشَى بَني نَهشَل؛ لأنَّ بَصَرَهُ كُفَّ في أواخِرِ أيَّام عُمرِه.. وأظنُّهُ أدركَ مُلوكًا قبلَ النُّعمانِ بنِ المُنذِرِ الذي يَعُدُّهُ بَعضُ مَنْ كَتَبُوا عنِ المَناذِرَةِ، آخِرَ مُلُوكِهِمْ.. قال الأسوَدُ بنُ يَعفُر يَتحسَّرُ على أيَّامٍ لَهُ قَضاها في كَنَفِ المَناذِرَة:

ماذا أُؤمِّلُ بَعدَ آلِ مُحَرِّقٍ
تَركُوا مَنازِلَهُمْ، وبَعدَ إيادِ[٢٩]

أهلِ الخَوَرنَقِ، والسَّديرِ وبارِقٍ
والقَصرِ ذي الشُّرُفاتِ، مِن سِنْدادِ

نَزَلُوا بأنقِرَةٍ، يَسيلُ عليهِمُ
ماءُ الفُراتِ يَجيءُ مِن أطوادِ[٣٠]

جَرَتِ الرِّياحُ على مَحَلِّ ديارِهِمْ
فكأنَّما كانُوا على مِيعادِ[٣١]

والنَّابغةُ الذُّبيانيُّ يَكادُ يكونُ اسْمُهُ أكثَرَ الأسماءِ تَرَدُّدًا إذا ما ذُكرَ المَناذِرَةُ، وهو مِنْ

أكثر شُعراء العرب اتّصالاً ببلاط الملوك، حتى قيل: إنّه لا يقدرُ على العيْش بعيدًا عَنْ مَجالس الملوك، ويُمكنُ أنْ نصِفَ النّابغةَ بالرَّجُل المُتقلِّب الوَلاء، المُتغيِّر المزاج، الباحثِ عن مَصلَحَتِه، فقد كانَ النّابغةُ في حضْنِ ملوك المناذرة، مُقرّبًا مِنْ مُلوكهم، يُرحّبُ به في مَجالِسِهم، وتُجزَلُ لَهُ هَداياهم، وتَنْهالُ عليْه هِباتُهُم وأعطياتُهم، وتُفتَحُ لَهُ بُيوتُهم... وفجْأةً نَراهُ في الطّرَف الآخَرِ؛ في بَلاط الغَسَاسِنَة، يَمدَحُهم، ويُثني على أفعالِهم، ويُمَجِّدُ أجدادَهُم، ويَسُبُّ خُصُومَهم. وإذا هُمْ إخوانُهُ، وأحبّاؤُهُ (يُحَكَّمُ في أمْوالِهم ومُمتَلَكاتِهم، فيَتَصَرَّفُ فيها براحَتِه وحُرّيّتِه، ويُقرَّبُ إلى مَنازلِهم ومَجالسِهم، فيُدخِلُ إليها متى يَشاءُ، وساعَةَ يُريدُ) كما يَقولُ هو نفسُهُ في إحدى قَصائِده:

مُلوكٌ وإخْوانٌ إذا ما أتَيْتُهُمْ
أُحَكَّمُ في أمْوالِهِمْ وأُقَرَّبُ[٣٢]

لقد كانَ النّابغةُ مَحبوبًا ومُقرّبًا أكثرَ من أيِّ شاعرٍ آخَرَ، وفجأةً تَلِدُ قَصيدةٌ، ويَتَردَّدُ صَداها على ألسِنَةِ النّاس، هذه القصيدةُ فيها إسْفافٌ كثيرٌ، واستخدامٌ مُفرطٌ لأوصافِ أعضاءٍ في جَسَدِ المرأة، ممّا يُحظَرُ الخوضُ في ذِكرِه، إلّا للأشخاص السّاقطين، غيْرِ الأسوياء، الذينَ لَفَظَهم المُجتَمَعُ، وأبى أنْ يُخَصِّصَ لَهم مَكانًا بينَ النّاجحينَ من أفرادِه.. ويُتّهَمُ النابغةُ بأنّهُ هوَ صاحِبُها، في وَصفِ امرأةِ صَديقِه، وحَبيبِه (النُّعمانِ بن المُنذر) وتَشتهِرُ القَصيدةُ باسم (المُتَجَرِّدة) فيضطرُّ النابغةُ لِتَرْك مَكانِه، والهَرَب إلى دِمشقَ، إلى بَلاطِ الغَساسِنَة هكذا فَوْرًا وبِلا تَرَدُّد، وتبدأُ مُراشَقاتُ القالِ والقيلِ، بينَ النابغةِ، وبينَ مَنْ كانُوا يُناصِبُونَهُ العداءَ كالمُنخّل اليَشكُري وغَيْرِه.. ويَبدو أنَّ النابغةَ رُمِيَ بالخيانَة، وعَدَمِ الوَفاءِ لمَنْ فَتَحُوا لَهُ أبوابَهم، وأدْخَلوهُ بُيوتَهم، واستأمَنُوهُ على أسرارِهِمْ وأعراضِهِم.. لكنَّ النابغةَ يَظَلُّ يَحِنُّ إلى المَناذِرَة، ويُواصِلُ تَقديرَهم، والثّناءَ عليْهِم، ويَستَمِرُّ في مَدحِهِم والاعتذارِ إليْهِم، ويُرسِلُ القَصيدةَ تلوَ القصيدةِ، يَرُدُّ التُّهمَةَ التي وُجِّهَتْ إليْهِ، ويُعَرِّضُ بمَنْ تآمَرُوا عَليْه، والصَقُوا به تُهمَةً، وهو بَريءٌ -كما يَزعُمُ- كُلَّ البَراءَةِ مِنْها. ويُكَرِّرُ تقديرَ مُلوكِ المَناذِرَة، وتَعظيمَ مَقامِهِم، وإعلاءَ شَأنِهِمْ. من ذلكَ قَولُهُ للنُّعمانِ بن المُنذر، يُدافِعُ عن نَفسِهِ، ويُبَرِّرُ اتِّصالَهُ بالغساسنة:

أتاني -أبيتَ اللعنَ- أنّكَ لُمْتَني
وتِلكَ التي أهتَمُّ مِنها وأنْصَبُ[٣٣]

فَبِتُّ كَأنَّ العائداتِ فَرَشْنَ لي

هَراسًا بهِ يُعلى فراشي، ويُقشَبُ[34]

حَلَفتُ فَلَم أترُكْ لنفسِكَ ريبَةً

وليسَ وراءَ اللهِ للمَرءِ مَذهَبُ[35]

لَئِنْ كنتَ قد بُلِّغتَ عنِّي خِيانَةً

لَمُبلِغُكَ الواشي أغَشُّ، وأكذَبُ[36]

ولكنَّني كنتُ امرَءًا ليَ جانِبٌ

مِنَ الأرضِ فيهِ مُسْتَرادٌ ومذهبُ[37]

وأجادَ النَّابغَةُ في قَصائدِهِ التي كانَ يَعتذِرُ للنُّعمانِ فيها، والتي وُسِمَتْ (بالاعتذاريَّات) والتي يَقُولُ بَعضُ النُّقَّادِ إنَّهُ سَبَقَ بها الشُّعراءَ، ونعتقِدُ أنَّ كَثيرينَ سَبَقُوهُ بالاعتذارِ، ولكنْ رُبَّما يكونُ قد تَوَسَّعَ وتَفَنَّنَ وأكثَرَ مِن هذا النوعِ مِنَ القَولِ، وأجادَ في مُعظَمِ ما قالَهُ.. قالَ في اعتذاريَّةٍ أُخرَى.. يُدافِعُ فيها عن نَفسِهِ، وينفي تُهمَةَ الخيانةِ، ويُعَبِّرُ عن وَلائهِ الدَّائمِ للمَناذِرَةِ، وأنَّهُ وَفِيٌّ ومُحِبٌّ لهم، ومُصِرٌّ على استِمرارِ علاقَتِهِ بِهِم:

فَلا لَعَمْرُ الذي مَسَّحتُ كَعبَتَهُ

وماهُريقَ على الأنصابِ مِن جَسَدِ[38]

ما قُلتُ مِن سَيِّءٍ مِمَّا أُتيتَ بِهِ

إذًا فَلا رَفَعَتْ سَوطي إليَّ يَدي[39]

إذًا فَعاقَبَني رَبِّي مُعاقَبَةً

قَرَّتْ بها عَيْنُ مَنْ يَأتيكَ بالفَنَدِ[40]

أُنبِئتُ أنَّ أبا قابُوسَ أوعَدَني

ولا مُقامَ على زَأرٍ مِنَ الأسَدِ[41]

لا تَقذِفَنِّي بِرُكنٍ لا كِفاءَ لَهُ

وإنْ تَأثَّفَكَ الأعداءُ بالرِّفَدِ[42]

وحُجرُ بنُ خالدِ بن محمود.. شاعِرٌ مِنْ قيسِ بنِ ثَعلبة، جاهليٌّ عاصَرَ عَمْرو بنَ كُلثوم، سَيِّدُ تَغلب، وكانا يَتنافَسانِ..كانَ حُجْرٌ مُؤيِّدًا للمَناذِرَةِ، قالَ الأبياتَ التَّالية في مَدحِ النُّعمانِ بن المُنذر:

سَمِعتُ بِفِعلِ الفاعلِينَ،فَلَمْ أجِدْ

كَمِثلِ أبي قابُوسَ، حَزمًا ونائلا

فَساقَ إلَيهِ الغَيثَ مِن كُلِّ بَلدَةٍ

إلَيكَ، فَأضحَى حَولَ بَيْتِكَ نازِلا

فَأصبَحَ مِنهُ كُلُّ وادٍ حَلَلتَهُ

مِنَ الأرضِ مَسفُوحَ المَذانبِ سائلا[43]

مَتَى تَنْعَ يُنْعَ الجُودُ والبَأسُ والتُّقَى

وتُصبِحْ قَلوصُ الحَربِ جَرْباءَ حائلا

فَلا مَلْكَ ما يُدرِكْكَ سَعيُهُ

ولا سُوقَةٌ ما يَمدَحَنْكَ باطِلا[44]

والأعشى (مَيمُونُ بنُ قَيس) يَبدُو وكأنَّهُ كانَ مُعجَبًا بالمَناذِرَةِ أو بِبَعضِهِم، فقد رُويَتْ لَهُ أبياتٌ يُشيدُ فيها بالمَلِكِ عَمْرو بن هِند، ولسنا مُتأكِّدينَ ما إذا كانَ قد أدرَكَهُ ورآهُ أم لا، وإنِ ادَّعى أنَّهُ رآهُ:

كَمْ رَأيْنَا مِنْ أُنَاسٍ هَلَكُوا

(ورأيْنَا) المَلْكَ عَمْرًا بِطَلَحْ[٤٥]

قَاعِدًا يُجْبَى إليْهِ خَرْجُهُ

كُلُّ مَا بَيْنَ عُمَانَ، فَالمَلَحْ[٤٦]

وقال الأعشى يَمدحُ الأسودَ بنَ المُنذِر، وقيل: المَمدوحُ هوَ (المُنذرُ بنُ الأسودِ):

فَرْعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ في غُصُنِ المَجْـ

ـدِ، غَزِيرُ النَّدَى، عَظِيمُ المحَالِ[٤٧]

لا تَشَكَّيَ إليَّ وانْتَجِعِي الأسْـ

ـوَدَ أهْلَ النَّدَى، وأهلَ الفَعَالِ[٤٨]

ثم يَبدأُ بخطابِ مَمْدوحِه، فيقولُ لَهُ:

جُنْدُكَ التَّالِدُ العَتِيقُ مِنَ السَّا

داتِ، أهلِ القِبَابِ والآكَالِ[٤٩]

غَيْرَ مِيلٍ، ولا عَوَاوِيرَ في الهَيْـ

ـجَا، ولا عُزَّلٍ أكْفَالِ[٥٠]

ولَبيدُ بنُ ربيعة العامريّ شاعرٌ مُخَضْرَمٌ رأيناهُ يَفِدُ على النُّعمانِ بنِ المُنذرِ، ورأينا كيفَ أفسَدَ علـى الرَّبيعِ بنِ زيادِ العَبسيّ عَلاقتَهُ بالنُّعمانِ وقد كان الرَّبيعُ نَديمًا لَهُ.. ويَبدو أنَّ لَبيدًا ظلَّ يَذكرُ المَناذرةَ بالخيْرِ، ونقرأُ لَهُ أبياتًا في رِثاءِ النُّعمانِ بنِ المُنذِرِ حيثُ يَقولُ:

لِيَبْكِ على النُّعمانِ شَرْبٌ وقَيْنَةٌ

ومُخْتَبِطاتٌ - كالسَّعالي - أرامِلُ[٥١]

لَهُ المُلْكُ في ضاحي مَعَدٍّ، وأسْلَمَتْ

إليْهِ العِبَادُ كُلُّها ما يُحَاوِلُ[٥٢]

فإنَّ امرأً يَرْجُو الفَلاحَ، وقد رأى

سَوَامًا وحَيًّا بالأفاقَةِ، جاهلُ[٥٣]

أمَّا ابنُ بُقَيْلَةَ الغَسَّانيُّ[٥٤] فكانَ كثيرَ التَّحسُّرِ على أيَّامِه معَ المَناذرَةِ، وهوَ في الأبياتِ التَّاليَةِ يُعرِّضُ بحمَلَةِ المُسلمينَ على الحيرَةِ في خلافَةِ أبي بَكرٍ الصِّدِّيقِ، فتَراهُ يُشبِّهُ المُسلمينَ بالنَّعمِ السَّائمَةِ، لأنَّهم قَهَرُوا قومَهُ وأذلُّوهم:

أبَعْدَ المُنْذِرَيْنِ أرَى سَوَامًا

تَرُوحُ بالخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ[٥٥]

وبَعْدَ فَوارِسِ النُّعمانِ أرْعَى

قَلُوصًا، بَيْنَ مُرَّةَ والحَفِيرِ[٥٦]

فَصِرْنا بَعْدَ هُلْكِ أبي قُبَيْسٍ

كَجُرْبِ المَعْزِ في اليَومِ المَطِيرِ[٥٧]

تَقَسَّمُنا القَبائِلُ مِنْ مَعَدٍّ

كَأنَّا بَعضُ أجْزاءِ الجَزُورِ[٥٨]

نُؤدِّي الخَرْجَ بَعدَ خَراجِ كِسْرَى

وخَرْجٌ مِنْ قُرَيْظَةَ، والنَّضيرِ[٥٩]

وكُنَّا لا يُرَامُ لَنَا حَرِيمٌ

فَنَحْنُ كَضَرَّةِ الضَّرْعِ الفَخُورِ[٦٠]

ونختِمُ ببَيْتَيْنِ مُعَبِّرَيْنِ للحُرَقَةِ بِنْتِ النُّعمانِ بنِ المُنذرِ وهي امرأةٌ شاعرةٌ مِن نَسْلِ

مُلوكِ المَناذرةِ.. قالتْ هذينِ البيْتَيْنِ تَبْكي مَجدَ آبائها المُنهار، ودولَتَهم التي دالَتْ:

فَبَيْنا نَسُوسُ النّاسَ والأمْرُ أمرُنا

إذا نَحْنُ فيهِمْ سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ[11]

فَـأُفٍّ لِـدُنْـيَـا، لا يَـدومُ نَعيمُها

تَـقَلَّبُ تَـاراتٍ بِـنـا، وتَـصَـرَّفُ[12]

وهكـذا يَظهَرُ لَنَا أنَّ لِدَولَةِ المَناذِرَةِ كثيرًا مِـنَ المُؤَيِّدينَ والأنْصـارِ، مِن أهـلِ الفكرِ وأصحـابِ الـرَّأيِ والألسِنَةِ؛ مِـنَ الشُّعَراءِ والخُطَبـاءِ والرُّجّازِ..ومِـنْ أهـلِ الرِّياسَةِ والقيـادَةِ؛ كَزُعماءِ القبائلِ..وقفَ هؤلاءِ إلى جانبِ دَولَـةِ المَناذِرَةِ يُؤَيِّدونَهـا ويُسانِدُونَها لأنَّهـا في مَفهومِهِمْ رَمْـزٌ لِسِيـادَةِ العَرَبِ، وعِزِّهِمْ ومَجْدِهِم ومَنَعَتِهِم.

الهوامش

١- الزَّبّـاءُ: هي مَلِكَةُ تَدمُرَ، الزَّبّاء بنت عَمْرو بن الظَّرِب.. مَلِكة في العصـر الجاهلي، مَلَكَتْ تَدمُرَ والجزيرة والشّـامَ، يُسمّيها الغربيُّونَ (زنوبيا) ويُقـالُ إنَّ أُمَّها يُونانِيَّةٌ مِن نَسْلِ كليوباتـرا، مَلِكةِ مِصرَ حَكَمَتْ حَوالى مُنتَصَـفِ القرن الثالث للميلاد، قَتَلَ جَذيمةُ الأبرَشُ اللَّخمِـيُّ أباها، فاحتالت عليْهِ واسْتَدرَجَتْهُ، وأطْمَعَتْهُ بِنَفسِهـا، فجاءَها طامِعًا بالـزَّواجِ منْها، وضَمِّ بلادِها فَقَتَلَتْهُ..لكنَّ عَمْرو بن عَـديّ (ابن أُخْتِهِ) ثَأرَ لِخالِه، فاضطرَّها للانتِحار، وخَرَّبَ مُلكَها /انظر أعلام الزركلي ٣/٤١.

٢- المَدائن: عاصِمةُ دَولةِ الفُرس، وقَولُ الشّاعرِ (في قَولِهِمْ) دليلٌ على شكِّهِ بِقَولِهِم.

٣- ديوانه ص٧٦. وانْظُرْ كِتابَنا دُنْيا الحَيَوان في الأدَبِ العربي ٢/٧٥٩. الأفْيُلُ والفُيُولُ والأفيالُ والفِيَلَةُ: جَمْعُ فِيل.

٤- انظر طبقات ابن سلام ١/٢٣ والحياة العربيّة من الشِّعر الجاهلي ص٤١/ د.أحمد الحوفي.

٥- يَقولونَ إنَّ المَلِكَ لَمّا سَمِعَ هذا البيتَ قال: لا آكُلُكَ، ولا أوكِلُكَ غَيْري (وبهذا البيت قيلَ لَهُ المُمَزَّق).

٦- عَميدُ الناسِ: سَيِّدُهم. تَضَعُ: مِنْ وَضَعَ بِمَعْنَى: أنْزَلَ أو أخْفَضَ.

٧- الشعر والشعراء لابن قُتَيبة ١/٤٠٠/ نشر دار المَعارف في مصر. الأدواء: جمعُ داء.

٨- الرَّغُوثُ: الشّاةُ المُرضِعُ.

٩- ديوانه نشْر دار صادر ص٤٨. النُّوكُ: الحُمْقُ.

١٠- وبِصَحيفَةِ المُتَلَمِّسِ يُضْرَبُ المَثَلُ بالشُّؤم، فيُقالُ: (أشأمُ مِنْ صَحيفَةِ المُتَلَمِّس) لأنَّ فيها حَتْفَ حامِلِها.

١١- ديوانه ص٦٦. حَنانَيْكَ: حَنانًا مِنْكَ بعدَ حَنان.

١٢- شُعَراء النصرانيَّة ١/٣٥٠.

١٣- تَدافَعَتْ أركانُها: تَبارَوا وتَسابَقوا في المَعالي. أفضلَتْ فوقَ أكُفِّهِم: فُقْتَهُم بالكَرَمِ والجُودِ.

١٤- الآذيّ: المَـوج ومُتَراكـب أو مُتَراكم: أمواجُهُ مُتَلاحِقَةٌ، ومُتَراكِبَة؛ يَتلو بَعضُها بَعضًا. ذو دُفّاع: ذو قُوَّةٍ تَدفَعُ ما يَعلوها.

١٥- المُخدرُ: الأسَدُ اللازمُ لِعَرينِه. مُعيد وقاع: يُكَرِّرُ ضَرَباتِه.

١٦- شُعَراء النَّصرانيَّة في الجاهليَّة ٣٥٢/٣٥٣. الوَعواع: الجَلَبَةُ والضَّجيجُ.

١٧- الكِلَّـةُ: سِـترٌ رَقيقٌ كانَتْ تَتَلفَّعُ بِهِ المَرأةُ، أو تَفرشُهُ في هَوْدَجِها. الوَصاوِصُ: جمع وَصْوَص وهو بُرْقُعٌ تَلبَسُهُ الفَتاةُ صَغيرَةُ السِّنِّ، تَتَسَتَّرُ فيه.

١٨- الأعلام ٣/٢٣٧.

١٩- النُّهَى: العَقل والتَّفكير. السُّورة: المَنزِلة الرَّفيعة.

٢٠- ديوانـه صـ٩٧ /دار صادر/ تحقيق د حسن حمد. أنْجِبْ بِه: صِيغَةُ تَعَجُّـبٍ، تَعني: ما أنْجَبَهُ. السَّمَيْدَعُ: السَّيِّدُ الكَريمُ. الهندُوانيُّ: السيفُ الهِنديُّ. رونق: ذو حُسْنٍ وجَمالٍ.

٢١- الواضِحُ: الأبيضُ في أعمالِه. نَجْرُهُ: حَسَبُهُ وأصْلُهُ السَّيفُ؛ بِكَسْرِ السِّين؛ ساحِل البَحْر. العُشَر: شَجَرٌ يَنبُتُ في بُطُونِ الأوديَةِ، يَقُولُ: امتَدَّ مُلكُهُ مِنْ سواحِلِ البَحْرِ إلى بُطونِ الأوديَةِ.

٢٢- ديوانه ٣٧ / ٣٨ / نشر دار صادر. الدَّمُ الباحِريُّ: دَمُ الرَّجُلِ الأصيل، الخالص الحُمْرة (يُريدُ أنَّ المَمدوحَ حسيـبٌ نَسيـبٌ) يَظهَرُ أصلُهُ في دَمِهِ النَّقيِّ الصَّافي. يُبْرِئُ الكلب: كانَ القُدَماءُ يَعتَقِدونَ أنَّ دَمَ المُلوكِ يُبْرِئُ مَنْ يُصَابُ بِعَضَّةِ الكَلْبِ الكَلِبِ.

٢٣- انظر الأعلام، ٨٣/٥.

٢٤- أعمَلتُها: أتعَبتُها (يُريدُ ناقَتَهُ).

٢٥- حِبالا: يُريدُ هوَ أوفاهُمْ حِبالَ عُهُودٍ.

٢٦- أرادُوا فِضَالا: أرادُوا اخْتِيَارَ الأفضَلِ.

٢٧- ديوانه ٦٩/٧٠. النَّكالُ: العِقابُ الرَّادِعُ.

٢٨- انظر الأعلام ٣٣٠/١.

٢٩- ذَكَرنا آنِفًا أنَّ مُحَرِّقَ الأوَّلَ هوَ المُنذِرُ بنُ امرئِ القيس، وأنَّ الثاني هو عَمْرُو بنُ هِند.

٣٠- أنْقِـرَة: بِكَسْـرِ القافِ وضَمِّها مَوْضِعٌ قَريبٌ مِنَ الحيرَةِ (وليسَ أنْقَـرَة التي في تُركيًا). أطْواد: جِبال، جمعُ طَوْدٍ.

٣١- الشعر والشعراء لابن قُتَيبة ٢٥٦/١، وانظر المُفَضَّليَّة رقم ٤٤ ص٢١٧.

٣٢- انظر ديوانه، ص١٦.

٣٣- أبيتَ اللَّعنَ: تَحيَّةٌ خاصَّةٌ بِمُلوكِ العرب. أهتَمَّ: أُصَابُ بالهَمِّ. أنصَبُ: أُصَابُ بالتَّعَبِ والإعياء.

٣٤- العائدات: قَريباتُ المَريضِ اللَّواتي يَزُرنَهُ. الهَراسُ: نَبْتٌ لَهُ شَوكٌ كثيرٌ. يُقشَبُ: يُخلَطُ ويُجَدَّدُ.

٣٥- الرِّيبةُ: الشكُّ.

٣٦- الواشي: السَّاعي والنَّمَّامُ الذي يُفسدُ العلائقَ بين الناس.

٣٧- ديوانه ١٧/١٦ مُستَرادٌ: مكان أرودُ (أي أقبلُ فيه وأدبرُ) ومذهب: مكانٌ واسعٌ يَحتملُ أنْ أذهبَ فيه وأعود.

٣٨- في البيتِ دليلٌ على تقديسِ أهلِ الجاهليَّةِ للكعبة. هُريق، وأُريق: صُبَّ. الأنصاب: الحجارةُ التي كانَ أهلُ الجاهليَّةِ يَذبحونَ عندَها، لها أو لغيرِها. جَسَد: يريد الدَّمَ (يَحلِفُ بِمَسِّ الكعبةِ وتقديمِ القرابينِ للأوثان).

٣٩- السَّوطُ: سُيُورُ جلدٍ تُلَفُّ ويُضرَبُ بها (يَدعُو على يَدَيْه بالشَّلَلِ إنْ كانَ قالَ ما أوصلَهُ الوُشاةُ والنَّمَّامون).

٤٠- الفَنَدُ: الكذبُ الذي يَأتيكَ بهِ الوُشاةُ.

٤١- أبو قابوس هو النُّعمانُ بنُ المُنذر. أوعَدني: هَدَّدني. وكيفَ يَشعُرُ بالرَّاحةِ مَنْ يُهَدِّدُهُ الأسَدُ.

٤٢- الرُّكنُ: الأمرُ العظيمُ. لا كِفاءَ لَهُ: لا نَظيرَ ولا مَثيلَ لَهُ. تأثَّفكَ الأعداءُ: تَعاوَنُوا عليكَ. الرِّفدُ: جمعُ رِفدٍ، وهوَ العَطاءُ (يَرجُو ألاَّ يُرْمَى بما لا يَقْدِرُ على رَدِّه، وإنْ حَسَّنَ لكَ الوُشاةُ قَذْفي).

٤٣- مَسفوحٌ: مَصْبُوبٌ (يُريد: كثيرَ الانْصِبابِ). المَذانبُ: جمعُ مذنَبٍ؛ وهوَ مَسِيلُ الماءِ.

٤٤- ديوان الحماسة بشرح التبريزي ٨٩/٤ وانظر الحيوان للجاحظ ٣/٥٨-٥٩. السُّوقَةُ: المُواطنُون العاديُّون.

٤٥- طَلَحٌ: وقيل (ذو طَلَح) مَوْضِعٌ في بلادِ بني يربوع/ انظر مُعجم البُلدان لياقوت ٣٨/٤.

٤٦- انظر لسان العرب(طلح). الخرجُ والخراجُ: الجزيَةُ، أو الضَّرائبُ التي تَدفعُ على غَلاَّتِ الأرض. و(مَلَح): مَوضِعٌ في ديارِ بني جعدة باليَمامَة، أو قريَةٌ بنواحي مَسكن/انظر ياقوت ١٩٠/٥.

٤٧- النَّبْعُ: شَجَرٌ عيدانُهُ صُلبَةٌ تُصنَعُ مِنهُ القِسيُّ. النَّدَى: الكَرَم. المِحَالُ: القُوَّةُ.

٤٨- هذانِ البيتانِ في سمط اللآلي ٩٠٧/٢. لاتَشكَّي: يُخاطبُ ناقتَهُ ويَطلبُ منها ألاَّ تشكو وهي في طَريقِها إلى الأسود.

٤٩- التالد: الأصيلُ، القديمُ. أهلُ الآكال: زُعماءُ القبائلِ المُؤيِّدةِ للمَناذرَة،كانُوا يُدْعَونَ في رأسِ كُلِّ سَنَةٍ، ويُقَدَّمُ لهم الهَدايا، وهِباتُ المَلِكِ، والطعامُ لِمُدَّةِ شَهْرٍ، ولذلكَ يُقالُ لهم أهلُ الآكال.

٥٠- ديوانه ص٣٠٢ وانظر سمط اللآلي ٩٤١/٢. ميل: جمعُ أميَلَ؛ وهوَ الضعيفُ. عَواوير: جمعُ عَوار: وهو بمعنى الجبان الأميل. أكفال: جمعُ كِفْل: الذي لا يَثْبتُ في القِتال.

٥١- شَرْب: جمعُ شاربٍ؛ وهوَ النَّديمُ يُشارِكُ القومَ على شَرابِهِم (وتُطلَقُ على مَجموعَةٍ يَتعاطَونَ الخَمْرَ). قَينَة: مُغنِّيَةٌ تُرافِقُ الشَّرْبَ وتُتحفُهُم. مُختَبِطات: طالبات المَعروف (تُشَبِّهُ إحداهُنَّ بِمَنْ يَختَبِطُ شَجَرَةً لِيَحُتَّ ورَقَها لتأكُلَ غَنَمُه). السَّعالي: جمع سِعلاة وهي أُنثى الغُول، يُشَبِّهُ العربُ العَجوزَ بها، يُريدُ: كانَ النُّعمانُ يَسقي

جُلَساءهُ، ويَجودُ على عُفاتِهِ، وهم طالبُو المَعروفِ منْهُ.

٥٢- مَعَدّ: أحدُ أجداد العرب، ويَعني القبائلَ المَعَدّيّة.

٥٣- انظر معجم ياقوت ٢٢٦/١. الأفاقة: مِن مَنازلِ آلِ المُنذر، كان المُنذرُ يَبدو إليْه في الرَّبيع.

٥٤- اسْمُهُ عبد المسيح بن عَمْرو بن قيس بن حَيّان بن بُقَيلةَ الغَسّاني، مِن أهلِ الحيرَة، عاشَ عُمْرًا في الجاهليَّة، وأدركَ الإسـلامَ، واجتَمَـعَ بخالدِ بنِ الوليد. وهو مِنَ الشُّعراءِ الدُّهـاة، والمُعَمَّرينَ. وهو ابنُ أُخْتِ الكاهن (سُطَيْح) /الأعلام ١٥٣/٤.

٥٥- السَّـوام: الإبل السَّائمـة السَّارحة. تَرَوَّحُ: يُريدُ تَتَرَوَّحُ -بتاءين- حذفَـتْ إحْداهُما تَخْفيفًا، ومَعناها: تَعُودُ مَساءً.

٥٦- فوارِسٍ: جمع فارس، يُريدُ: بَعدَ أنْ كانَ أحَدَ فُرسانِ النُّعمـانِ، صارَ راعيًا. القَلوصُ: النَّاقَةُ الفتيَّةُ. مُرَّة والحَفير: مَوضِعانِ.

٥٧- أبو قُبيس: تَصغير (أبي قابوس - تَصْغير تَحَبُّبٍ).

٥٨- الجَزور: الجَمَلُ يُذْبَحُ، ثمَّ يُهَيَّأ لكي يَلعبَ المُتَقامِرونَ على لَحْمِه.

٥٩- الخَرج: يَعني الخَراج: وهي ضريبةٌ تُدفَعُ على السِّلَعِ (يَشكو أنَّ قومَهُ يَدفعونَ الخَراجَ للمُسلمينَ، كما يدفعُ اليَهودُ)، وقُرَيظَةُ والنَّضيرُ: قبيلتانِ من اليَهود.

٦٠- الحـريمُ: المُحَـرَّمُ الذي لا يُنْتَهَكُ، لا يُرامُ حَريمُهُ: لا يَجْرُؤُ أحَدٌ على خَـرْقِ حُرْمَتِهِ. الضَّرَّةُ: أصْلُ الثَّدي. الضَّرع: ثَديُ الناقة أو البَقرة. الفَخور: المُمْتَلئ حَليبًا دائمًا.

٦١- نَسُوسُ: نَقودُ. سُوقَةٌ: مُواطِنون عاديُّون. نَتَنَصَّفُ: نَطلُبُ أنْ يُنصِفَنا الآخرونَ ويأخُذوا لنا حَقَّنا.

٦٢- لسان العرب (نصف) وانظر أعلام الزركلي ١٧٣/٢. تَقَلَّبُ وتَصَرَّفُ: أصْلُهما بتاءيْن (تَتَقَلَّبُ وتَتَصَرَّفُ).

تعاليم القرآن الكريم
تعاليم أمن وسلام

رباب كزبري الخطيب ⁕



إنَّ سورة القدر لخصت لنا تعاليم الإسلام في كلمة واحدة هي كلمة (سلام) بدليل ورود اشارة وقف بعدها، ولما كان الإسلام دين دعوة فقد حث أتباعه على (الجهاد)، ليس بمعنى القتال والقضاء على المخالفين، ولكن بمعنى بذل جهد وطاقة المؤمن لتبليغ الناس كافة تعاليم هذا الدين، فالجهاد في سبيل الله لايعني إكراه الناس في عقائدهم، كما لايعني قتل كل من يرتد عن دينه، ولقد أذن الله للمؤمن بقتال الذين يقاتلونهم من حيث إنّهم ظلموا، وإنَّ الله على نصرهم لقدير، ومن اجل الدفاع عن حرية الاعتقاد، وحفاظاً على المقدسات، وعليه فلم يكن هذا

⁕ رئيسة المنتدى الفكري الإسلامي وعضوة مؤسسة في الرابطة السورية للأمم المتحدة.

السماح بالقتال، قتالاً هجومياً، بل قتالاً دفاعياً ليس إلا، وبعيداً عن كل اعتداء .

تعال ياقارئي إلى رحاب القرآن، إنَّ أوَّل الآيات التي نزلت على قلب النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) هي **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم﴾** (سورة العلق، الآيات من ١-٥). وفيها يأمر الله تعالى رسوله بتبليغ رسالته، ومن الملاحظ أنّ الله قد حذف مفعول الأمر (اقرأ) ولم يبين (لمحمد صلى الله عليه وسلم) ماذا ينبغي عليه أن يشهره ويبلغه إلى الناس، لذلك أتت سورة القدر بعدها بترتيب التلاوة التي وضحت تعاليم رسالة الإسلام فاختصرتها بكلمة سلام، وأنّ تعاليم القرآن تصل بالعاملين عليها والملتزمين بنشرها في العالم إلى تحقيق الأمن والسلام في هذا العالم الذي ظهر الفساد فيه براً وبحراً وجواً، وهيًّا نسير معاً في رحاب سورة القدر «إنّا أنزلناه في ليلة القدر». لكلمة ليلة معنى مجازي غير مادي وبه نزلت دالة على زمن الانحطاط الذي تؤول إليه أمة من الأمم، وتشيع فيها المفاسد، ويظهر فيها حب هذه الدنيا، ويتبع أهلها حب الشهوات وهو المعنى الوارد في معجم (أقرب الموارد)، وعليه فإنّ مضمون سورة الفلق كان في حقيقته بمثابة البذرة والنواة، فسورة القدر شرحت ماحملته تلك البذرة في داخلها من دلالات ومضمون، فمعنى كلمة (القدر) مبلغ الشيء وما يساويه، ويكون تقدير الله تعالى للأشياء على وجهين الأوّل إعطاء القدرة، والثاني جعل الشيء على مقدار مخصوص وحسبما تقدمه حكمة الله عز وجل، وقد ورد أيضاً في معجم (أقرب الموارد) إنَّ من معاني القدر الحرمة والوقار، وعليه يكون المعنى «إنّا أنزلناه في ليلة القدر» من أجل معالجة أمور مخصوصة ومماثلة لأمور سابقة لها عبر الزمان كانت قد حدثت زمن انحطاط هذا الإنسان عن إنسانيته وحين كان ينتشر الفساد واتباع الشهوات في الأرض بين البشر.

«ليلة القدر خير من ألف شهر» إنَّ كلمة شهر صيغة مصدر أشتق من شهر وتعني الإشهار، فرسالة الإسلام التي بعث الله محمداً (صلى الله عليه وسلم) رسوله لإشهارها وتبليغها إلى الناس كافة هي في حقيقة أمرها خير من جميع ماسبقها من إشهارات كانت قد سبقتها، وفي هذا إشارة إلى أن التعاليم الإسلامية قد أكملت الشرائع السماوية المنزلة .

«تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر» نلاحظ أن كلمتي (الملائكة والروح) وردتا معرفتين بالألف واللام وتحملان معنى الاستغراق تنبيهاً لعظمة شأن هذه الرسالة

«من كل أمر» بمعنى أنَّ جميع ما أنزله وينزله الله تعالى في هذا القرآن عبارة عن مجموعة أوامر إلهية وهي (سلام)، أي اعلموا أيُّها الناس بأن تعاليم هذا الدين تعاليم سلام للبشرية جمعاء، وبقصد أن يستتب الأمن والسلام بوساطتها في العالم.

فبهذا تكون كلمة (سلام) أصلاً من أصول تفسير جميع الآيات التي تضمنت تعاليم إسلامية موجهة إلى جماعة المؤمنين، فلا تجوز والحال هذه أن يفهم المفسر حين تدبره مضمون آية تتعلق بالجهاد والقتال خلافاً لمعطيات هذا الأصل التفسيري الذي حملته هذه الكلمة (سلام) ثم قال «هي حتى مطلع الفجر» بمعنى أنَّ تعاليم السلام هذه ستظل تعمل على معالجة الفساد إلى أن يعم (السلام) وبها لايجوز أن تفهم دلالات الآيات التي نصت على الجهاد بمفاهيم تتنافى مع معطيات مضمون (السلام) وكذلك الآيات التي نصت على (القتال)، وإنَّ أوَّل دليل نقدمه ليثبت مصداقية ذلك نستقيه مما ورد في الآيتين (١٥-١٦) من سورة المائدة مخاطباً فيها أهل الكتاب **﴿ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين (١٥) يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾**.

تعاليم الإسلام هي (نور) تضيء تعاليمه للإنسان الدرب في مجال إقرار الأمن والسلام في موطنه، وحيثما كان، وتعاليمه هي في حقيقتها وسائل توضح للناس قاطبة كيفية تحقيق الأمن والسلام في أرجاء العالم.

وإذا تساءلنا عن السبب الحقيقي الذي دفع الله سبحانه وتعالى إلى إنزال هذا القرآن، وما اشتمل عليه من تعاليم سلام، فيكون الجواب من سورة يونس الآية (٢٥) **﴿والله يدعو إلى دار السلام، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾**.

من باب أنَّ من أسماء الله الحسنى (السلام)، فكيف يعقل أن يتصف الله بصفة السلام ومن ثم يأمر عباده بأوامر تخالف حقيقة مضمون هذه الصفة.

والدليل الثاني الذي يثبت بأنَّ تعاليم الإسلام هي تعاليم سلام وأنَّ الغرض منها هو إقامة الأمن والسلام في هذا العالم هو أنَّ الله أمر المؤمنين في القرآن أن يبادلوا الذين يتعاملون معهم بالمودة ويمدون إليهم يد المحبة والسلام وهم بدورهم (أي الذين يتعاملون مع المؤمنين) يمدون يد المحبة والسلام إليهم وذلك في الآية (٩٤) من سورة النساء حيث قال **﴿ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن**

ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فَمَنَّ الله عليكم فتبينوا إنَّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾ معنى الآية إذا خرجتم من منازلكم تجاراً أو غازين في سبيل الله فتبينوا أي لاتتسرعوا في حكمكم على أي شيء يواجهكم وحاولوا أن تفهموا ماتسمعونه وأن تستوضحوا حقيقته.

ثم الموعظة الأخرى أنه إذا ألقى إليكم أي إنسان السلام ولو كان مختلفاً عنكم في أفكاره عليكم أن تردوا سلامه بسلام وأن تنظروا إليه أنه يريد أن يتعامل معكم بسلام وألا تعتبروه عدواً لكم وإذ لم تتقيدوا بهذه التعليمات تكونوا أردتم الحياة الدنيا وانزلقتم إلى حالة الجاهلية قبل الإسلام ثم عاد الله تبارك وتعالى وكرر قوله (فتبينوا) ليؤكد ضرورة إحداث هذا التبديل في السلوك المسالم الذي يمدون فيه يد المحبة والمسالمة لكل من مدّ يده بالمحبة والسلام.

ونرى دليلاً ثالثاً في سورة القصص بالآية (٥٣-٥٥) قال تعالى ﴿وإذا يتلى عليهم قالوا ءامنا به إنه الحق من ربنا إنّا كنّا من قبله مسلمين (٥٣) أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون (٥٤) وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾.

علينا أن لانقابل الإساءة بالإساءة ليكون الإسلام مصدر سلام في هذا العالم على صعيد الفرد والجماعة، وقد لفت الله أذهان المستمعين إليه أنَّ اسمه السلام وقد أوصاهم في كتابه أن يفشوا السلام بينهم في حياتهم الدنيوية وأن يصبغوا سلوكهم اليومي بصبغتها ففي سورة (يس) الآية (٥٨) (سلام ... قف ... قولاً من رب رحيم) هناك إشارة وقف بعد لفظة سلام ليقف القارئ متأملاً بمدلول هذه الكلمة وشمولها للناس قاطبة وتأكيداً لذلك لننصت إلى خطاب الله في سورة البقرة الآية (٢٠٨ - ٢٠٩) ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين (٢٠٨) فإن زللتم من بعد ماجاءتكُمُ البينات فاعلموا أنَّ الله عزيز حكيم﴾ إنَّ كل من يعاكس مشيئة الله يؤول حاله في العالمين إلى الفشل الذريع، إنَّ الذين لم يدركوا هذه الحقيقة نلاحظهم يسفكون دماء الأبرياء مبتعدين عن سبيل (السلام) ويلقون بالتالي المصير المشؤوم، وهذا قد وعد الله في سورة محمد الآية (٣٥) أن تكون الكلمة العليا في هذا العالم لمن لم يتهاون ولم يتكاسل في تحقيق الأمن والسلم فقد قال ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يَتِرَكُم أعمالكم﴾، إلا أنَّ اسم (الإسلام) هو صيغة مصدر ويعني الطاعة والانقياد

والتسليم لأمر الله وأنَّ كلمة (السلام) هي صيغة مصدر واسم من التسليم أيضاً، وأنَّ من أسماء الله الحسنى اسم (السلام) وهو صيغة مصدر أيضاً فحين يدعو الله الناس إلى (دار السلام) يكون قد دعا إلى التسليم بما جاءت به تعاليم (الإسلام) تلك التعاليم التي اختصرتها آيات (سورة القدر) تلك الدار التي وصفتها سورة يونس الآية العاشرة **﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أنَّ الحمد لله رب العالمين﴾** لذلك نرى أنَّ محمداً رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أمر جميع صحابته بأمر نابع من معطيات هذه الحقيقة وقال: (افشوا السلام بينكم) ولم يقتصد من أمره إلقاء تحية (السلام عليكم) فيما بينهم مجرد رسم وتقليد بل ان يفهم المسلم هذه الكلمات النابعة من تعاليم (السلام) التي أتت بها تعاليم الإسلام، واستناداً إليه لايعود المسلم يفكر في مخاصمة أحد ولا في سفك دماء أحد من دون وجه حق بل يسير على درب السلام ومن أجل تحقيق الأمن والسلام في العالم بأسره، لذلك أكد على فريضة الصلاة خمس مرات في اليوم وعند تمامها يقول ملتفتاً إلى يمينه (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ومن ثم يلتفت إلى شماله مكرراً ذلك معبراً بشكل رمزي في التفاته على اليمين (بأهل الميمنة) وهم جماعة المؤمنين بعقيدته وعن الشمال (أهل الشمال) وهم جماعة المخالفين له بالعقيدة وعلى معاشرة الجميع بالبر والسلام ماداموا يعاملونه بالبر والسلام هم أيضاً، والمسلم ماأن يفرغ من أداء فريضة صلاته إلا ويقول مباشرة واستناداً للمتواتر عن محمد (صلى الله عليه وسلم) (اللهم أنت السلام، ومنك السلام، وإليك يعود السلام ياذا الجلال والإكرام) واستناداً إلى هذه النتيجة نعود وندرك بأن كل من يخالف تعاليم السلام هذه ويسعى إلى سفك الدماء من دون حق يكون مخالفا لتعاليم دين الإسلام، فالإسلام دين دعوة إلى سبيل الله كما ورد في سورة النحل (١٢٥) **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾**.

ومهمة الدعوة إلى سبيل الله استعمل لها القرآن مصطلح (الجهاد) هذه الكلمة التي لاتعني القتال ولا ترادفه لغوياً والتي لاتتناقض مع مفهوم السلام وقد ورد في معجم الجهاد، الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو، والجهاد ثلاثة أحزب، الأوّل مجاهدة العدو الظاهر، والثاني مجاهدة الشيطان، والثالث مجاهدة النفس، وتدخل هذه الأنواع ضمن قوله تعالى: **﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾** سورة

الحج الآية (٧٨). ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾ سورة التوبة (الآية ٢٠) ﴿إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ سورة الأنفال الآية (٧٢)، وقال محمد (صلى الله عليه وسلم) (جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم).

والجهد هو الطاقة قال تعالى «والذين لايجدون إلا جهدهم» سورة التوبة، واستناداً إلى هذه يعود تقدير قوله تعالى في الآية (٥٤) من سورة المائدة ﴿ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ يصبح تقديره أنّ المؤمنين يبذلون قصارى جهدهم وهم يسعون للتمسك بالصراط المستقيم، وحث المؤمن على فعل كل ماأمره ربه به من أعمال الخير وعلى طريق تحصيل العلم وأداء جميع فرائضه الدينية ومنها مقاتلة العدو إن توافرت شروط مقاتلته والرد على عدوانه، فوجب عليه القيام بمقاتلة المعتدين ومقاتلتهم بجهد عظيم .

ففي النوع الأوّل للجهاد مثال الآيات الواردة في سورة الفرقان وهي آيات مكية (٥١ - ٥٢) ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً (٥١) فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾.

أمر الله رسوله ببذل كل جهد لتبليغ قومه تعاليم القرآن، كذلك الأمر في الآية السادسة من سورة العنكبوت المكية حيث مُنِعَ المؤمنون من القتال ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إنّ الله لغني عن العالمين﴾، كذلك هنالك دليل آخر من سورة العنكبوت المكية الآية (٦٩) ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين﴾، إنَّ سورة الفرقان والعنكبوت المكيتين والمنزلتين في الدور المكي من حياة البعثة المحمدية يوم لم يكن محمد (صلى الله عليه وسلم) والذين آمنوا معه قد ردوا على اعتداءات الكفار عليهم باعتداءات مثلها، بل كان مافعلوه هو تحملهم شتى أنواع الابتلاء التي كان ينزلها بهم أهل مكة وعليه لو راجعنا الآية الثامنة من سورة العنكبوت قال تعالى ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما الي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي إنَّ الوالدين يضغطان على ابنهما ليكرهاه على الارتداد إلى عقيدتهما، كذلك في سورة لقمان المكية (١٥) ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم

بما كنتم تعملون﴾، كذلك هنا محاولة الوالدين الضغط على ابنهما بشتى أنواع بذل الطاقة. إذ إنّ كلمتي (جهد وجاهد) لاتدلان على القتال وإنما على بذل الإنسان لقصارى طاقته في سبيل تحقيق مقصد ما، ومن هنا نفهم قول محمد (صلى الله عليه وسلم) (إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) وكذلك قوله (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأعظم) حيث اعتبر مجاهدة النفس وتقويمها جهاداً أكبر ولو كان القصد من مصطلح (جهاد في سبيل الله) هو القيام بقتل المختلف في العقيدة لكان من الخطأ أن يعقد محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) معاهدة عدم الاعتداء على من كان حول المدينة المنورة من اليهود الذين كانوا محصنين في مستعمراتهم بعد أن أصبح محمد (صلى الله عليه وسلم) سيداً في المدينة المنورة وحاكماً عليها ولا كان صح قول الله تعالى في الآيتين (٧-٨) من سورة الممتحنة ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم (٧) لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحب المقسطين﴾. إنّ تعاليم الإسلام قد أمرت بالقسط والعدل ولم تعط الحق بمقاتلة المختلف معه في العقيدة وسفك الدماء بل اتباع سبيل الحوار معه بالحجة والبرهان وهذا دلتنا عليه الآية (١٢٥) من سورة النحل ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إنّ ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾، إنّ القرآن أعطى حرية العقيدة والتفكير لكل إنسان واعتبرها حقه الطبيعي الذي يوجب كرامته «لاإكراه في الدين» البقرة (٢٥٦) كذلك أيدت هذا الحكم الآية (١٠٨) من سورة يونس ﴿قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾ وعليه لايجيز الإسلام إكراه أحد على قبول معتقداته حتى ولا على إكراهه على التنازل عمّا يعتقده شخصياً.

تعاليم الإسلام في القتال

في حياة الأنبياء الكبار توجد مرحلتان، مواطنة عادية في بدء دعوتهم يخضعون فيها لأنظمة وقوانين البلد الذي ولدوا فيه، ومرحلة سيادة بعد الهجرة من موطنهم وبعد أن يكونوا قد تقلدوا مقاليد الحكم في البلد الذي هاجروا إليه .

وأنا أعتبر بأن الله قد جعل مرحلة الحياة المكية نموذجاً للمسلم الذي يعيش في بلد غير إسلامي وقد جعل جل شأنه مرحلة

الحياة في المدينة المنورة أنموذجاً للمسلم الذي يعيش في بلد إسلامي، فمحمد (صلى الله عليه وسلم) كان قد أطاع قوانين قريش في مكة المكرمة وقدم هناك أسوة حسنة لأهلها ولم يتوان في الوقت نفسه عن إشهار معتقده هناك، إنّما بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد تحمل إلى جانب ذلك كله جميع ما اعترضه من مشاكل واضطهاد بسبب معتقده.

أمّا في المرحلة الثانية في المدينة المنورة وجدت الحكومة الإسلامية نفسها مهددة تهديداً حقيقياً.

الخطر الأول من شخص اسمه (عبد الله بن سلول) كان يطمع بالسيادة على المدينة المنورة قبل تقبل أغلب أهلها للإسلام، وإنّ الذين أسلموا من اتباع الشخص المذكور كان يشوب إسلامهم نفاقٌ، وهي حقيقة أثبتت مصداقيتها توالي الأيام والأحداث وقد تعرض لذكر تلك الحقيقة آي الذكر الحكيم، فالأمن لم يستتب لمحمد (صلى الله عليه وسلم) بعد أن أصبح حاكماً على المدينة، والمجتمع الإسلامي كان مهدداً في حقيقة أمره من داخله من قبل جماعة المنافقين من أتباع عبد الله بن سلول.

الخطر الثاني كانت توجد بجانب المدينة المنورة مستعمرات لليهود وإنّ استقرارهم حول المدينة كان بدافع من معطيات نبوءة سفر التثنية، فلما بعث الله محمداً بن عبد الله لم يعرف أولئك اليهود المستقرون قرب المدينة صدق نبوته وكانوا يعتقدون أن ميزان صدقه هو محاولة قتله، ونجاته من المحاولة كما جاء في كتابهم، لذلك كانت العداوة متأصلة في نفوس اليهود ضد هذا النبي الأمي الذي لم يؤمنوا بنبوته، وعلى الرغم من علم محمد (صلى الله عليه وسلم) بما كان اليهود يفعلونه مع ذلك فقد عقد مع يهود خيبر القريبين من المدينة المنورة معاهدة صداقة وعدم اعتداء أي إنّ محمداً (صلى الله عليه وسلم) قد أقدم في أوائلَ حكمه على عقد معاهدة مع يهود الحصون المحيطة بالمدينة درءاً لشرهم من جهة ويقصد اقامة الأمن والسلام في ربوع دولته الصغيرة، ومن هنا ندرك بأنّ دولة المدينة كان أهلها يقفون على فوهة بركان، فالمنافقون من جهة واليهود الحاقدون من جهة أخرى، والمشركون يهددون المسلمين في عقر دارهم وقد نقلت لنا سيرة ابن هشام رسالة أرسلها زعماء مكة إلى عبد الله بن سلول وقد ورد في آخرها (إنكم آويتم صاحبنا وإنّا نقسم بالله لنقاتلنه أو لنخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلكم ونستبيح نساءكم) وقد عقد محمد رسول الله إثر تلك المكاتبة التي وصلته أخبارها معاهدة مابين أطراف ثلاثة هم: (الأنصار والمهاجرون

واليهود) فاشترط محمد (صلى الله عليه وسلم) في تلك المعاهدة شروطاً كثيرة كان من جملتها أنه إذا وقعت حرب فمن واجبهم أن يتعاونوا جميعهم على صد العدوان ولا يحق لفريق منهم عقد صلح منفرد وأنَّ كل خلاف أو مخاصمة تحدث فيرد الفصل فيها إلى الله وإلى الرسول في نهاية المطاف وأنَّ هذه المعاهدة المشار إليها إن دلت على شيء فإنما دلت على أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) كان قد قرر معاملة اليهود وغيرهم بالمساواة مع المسلمين وبالحسنى والنظر إليهم على أنَّهم جميعهم مواطنون شرفاء وهي مثال فريد على احترام الإسلام لحقوق المواطن الإنسانية وأن الإسلام ضمن حرية الاعتقاد ورسخ مبادئ الأخوة الإنسانية، وقد شرع محمد (صلى الله عليه وسلم) للمدينة المنورة قوانين مدنية ولم يفكر بتأسيس جيش منظم من المهاجرين والأنصار في البداية لأنَّ المسلمين ذاقوا الأمرين في السابق ويتوقون للعيش بأمان فقد كانت الحرب والقتال غير محببة إلى نفوسهم وقد هاجروا إلى المدينة ليعيشوا عقيدتهم بحرية وأمان ويدعووا إلى ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة وبغاية أن يعم السلام العالمي بأسره لذلك عندما عمد زعماء مكة قتال محمد (صلى الله عليه وسلم) والتآمر مع المنافق عبد الله بن سلول نزلت الآيات (٣٩-٤٠) تخاطب المؤمنين وتأذن لهم بالقتال في سورة الحج ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير (٣٩) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا وَلينصرن الله من ينصره إنَّ الله لقوي عزيز (٤٠) الذين إنْ مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾.

هاتان الآيتان قد صيغتا صياغة دستورية عامة الدلالة وغير مخصصة لتصبحا مرجعاً لجميع الآيات التي أنزلت من بعدها والتي نصت على القتال والتي صيغت صياغة قانونية الدلالة بدليل أنَّ فعل (أذن) ورد بصيغة المجهول كذلك فعل يقاتلون، وقد نصت هاتان الآيتان على الأمور التالية:

أولاً: استهل الله الآية الأولى بقوله «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا» ولم يقل (للذين يضطهدون) إشارة إلى هذا الدور الثاني من حياة هؤلاء الذين ظلوا مسالمين لايردون على العنف بعنف مثله مدة ثلاث عشرة سنة، وما عاد هناك من مجال للمكيِّين ليضطهدوهم كما كانوا يفعلون بهم في مكة بل جاء زمن تنفيذ هؤلاء المكيين تهديدهم المسلمين بالقتال.

أورد تعالى الإذن للمؤمنين بالرد على

العدوان الجماعي وأن «يقاتلوا الذين يقاتلونهم» حفاظاً على أرواحهم وقال تعالى واعداً رسوله وصحابته بقوله «وان الله على نصرهم لقدير»

ثالثاً، وقد راح الله يعدد في الآية الثانية حيثيات هذا الإذن المذكور

١- بقوله «الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله» بمعنى أن هؤلاء المعتدين اضطروا هؤلاء المؤمنين ليتركوا ديارهم وما يملكون وليهاجروا منها بغير أي ذنب ارتكبوه ليستحقوا عليه هذا العقاب إلا تعبيرهم عن معتقداتهم بوجود الله ربهم وهم بهذا استعملوا حقاً من حقوق الإنسان وهو (حرية المعتقد).

٢- وعبر تعالى عن الحيثية الثانية لقراره المذكور وقال «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً» ومعنى ذلك أنَّ الله دأب على الإذن لجماعات المؤمنين من قبل بعثة هذا الرسول بمقاتلة أعدائهم المعتدين بعد تجاوزهم مرحلة الصبر على الاضطهاد إلى دور القتال في بلاد الهجرة وبصورة جماعية.

٣- وقد أضاف تعالى حيثية ثالثة قال فيها «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز» هو أن من غير المعقول أن يمنح الله هذا الإنسان حريته في أن يعتقد مايشاء ويقوم آخر الأمر لإكراهه على ترك معتقده ليس بصورة فردية ولكن بصورة جماعية وبالقوة ومن ثم يترك الله هذا الإنسان المظلوم وحيداً في الميدان، وخلاصة القول إنَّ على المؤمنين تحمل مختلف أنواع الاضطهاد والإيذاء ماداموا يعيشون في دولة غير إسلامية فإن وصل حد الاضطهاد إلى درجة غير محتملة فقد أمرهم ربهم أن يهاجروا من تلك الدولة غير الإسلامية إلى دولة تقبلهم ولا تتدخل في عقائدهم وإنَّ تعاليم الهجرة هذه تضمنها قول الله تعالى في الآية (٩٧) من سورة النساء **﴿إنَّ الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنَّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيراً﴾** أمَّا إذا لاحق أصحاب البلد الذي هاجر منه هؤلاء المؤمنون أولئك الذين اضطهدوا فيه من قبل وقاموا بمهاجمة هؤلاء المؤمنين في البلد الذي أصبحوا فيه حكاماً فإنَّ الله عز وجل يأذن لهم «أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم والله على نصرهم لقدير» إنَّ المقصد من الإذن بالقتال صدر بغاية حرية الفرد الدينية في أن يعتقد ما اقتنع تفكيره الفردي بصحته وللمحافظة على دور العبادة فنحن نعلم تاريخياً بأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) قد أمضى في مكة المكرمة ثلاث

عشرة سنة ومع ذلك فلم يبن فيها مسجداً واحداً، ليس بسبب إنّه لم يشأ بناء مساجد في مكة ولكن بسبب ممانعة أهلها من المشركين الذين رفضوا حتى إزالة الأصنام التي كانوا يعبدونها في حرم مكة ولهذا فقد كان المؤمنون في مكة يتخذون من بيوتهم مساجد يؤدون فيها صلواتهم المفروضة فرادى وجماعات ومن هنا ندرك السبب في عدم وجود صوامع للمسيحيين وعدم وجود صلوات لليهود في مكة قبل الإسلام مع انه من الثابت تاريخياً أنه كان يوجد مسيحيون ويهود، فالسبب أن عرب الجاهلية لم يكونوا يحترمون حق الإنسان في أن يختار مايشاء من عقيدته وما كانوا يسلمحون بإقامة دور عبادة أيضاً.

لذلك بعد (الإذن) للمسلمين من الله في المدينة لمقاتلة الذين (يقاتلونهم) كان من نتائجه أن المسلمين بدؤوا يقدسون حرية الاعتقاد وضرورة احترام دور العبادة وعدم المس بها بغض النظر عن عقيدة الذين يتعبدون الله فيها ودليلهم على ذلك الآية (٢٥٦) من سورة البقرة «لاإكراه في الدين» والله قد احتفظ لنفسه بحق هداية هذا الإنسان ولم يجعل رسوله محمداً الصادق الأمين على الناس وكيلاً في هذا الشأن، هذه حقيقة تجلت في الآية (١٠٨) من سورة يونس قال الله **﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾** وفيها نزع الله عن محمد (صلى الله عليه وسلم) مسؤولية الضغط على حرية الفرد بقصد هدايته وبالأحرى نزعها عن جميع المؤمنين وترك لهم مهمة النقل بالحوار القائم على الحجة والبرهان فقط بعيداً عن أي نوع من أنواع الضغط والإكراه وتأييداً لهذه الحقيقة فالله قال في الآية (٩٩) من سورة يونس «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» وهذا النص يجرد محمداً (صلى الله عليه وسلم) وأتباعه من حق إكراه أي إنسان على الاعتقاد بعقيدة معينة وترك لعقله وارادته مسؤولية الاختيار كذلك في الآية (٥٦) من سورة القصص **﴿انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾** وهو نص قرآني صريح ويرفض فكرة الإكراه في الدين لذلك وبصورة عملية نجد الرسول محمداً (صلى الله عليه وسلم) سمح لوفد نجران المسيحي أن يؤدي صلاته داخل المسجد في المدينة المنورة ومنع الجيوش الإسلامية التعرض لدور العبادة في البلاد المفتوحة.

فالقتال في الإسلام قام على قوانين جديدة وقد أحدثت تغييراً جذرياً في قوانين

القتال التي كان معمولاً بها في الجاهلية والأديان السابقة فحربهم يجب أن تكون دفاعية وليست هجومية من أجل توطيد حرية الاعتقاد في الأرض والعدالة واقامة الأمن والسلام في ربوع هذا العالم والدليل سورة الأنفال الآية (٣٩) **﴿وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾** وقد تضمنت الآيات من (٣٦-٤٠) من سورة الأنفال المعاني التالية :

إنَّ انفاق الذين كفروا أموالهم للتدخل في أمر حرية الفرد وإكراهه على عقيدة معينة وعدم إعطائه حرية اختيار عقيدته يعود على هؤلاء بالحسرة يقيناً والله يفسح المجال لهؤلاء الذين يكرهون الناس أن يعودوا عن عملهم الشائن ويتوقف القتال مابينهم وبين جماعة المؤمنين ولا يأذن الله للمؤمنين في التدخل في شؤون الذين كفروا ان هم (انتهوا) من إكراه الناس في عقائدهم (فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) والله سيظل يتولى المؤمنين برعايته لهم وبتأييدهم بالنصر على أعدائهم «نعم المولى ونعم المصير» فالمقصد من الإذن في سورة الحج بالقتال هو الحفاظ على حرية الاعتقاد والإبقاء على المقدسات الدينية، وإنَّ تعاليم الإسلام هي سلام وتهدف إلى إقامة الأمن والسلام في الأرض إلى جانب إنها تعرف الناس إلى خالقهم وتعلمهم كيف يجذبون محبة ربهم ويتقربون منه فهذا هو السبب في أن الله بعد أن قام بترهيب المشركين من خلال آيات سورة الأنفال حاثاً المؤمنين على أعداد ماستطاعوا من قوة لرد العدوان يقول في الآيتين (٦١-٦٢) **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم (٦١) وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين (٦٢)﴾** ومن هنا نرى أن التشريع الإسلامي قد أمر المؤمنين المقاتلين أن يقبلوا الصلح فيما إذا عرضه أعداؤهم عليهم من باب أنَّ مقاتلة المسلمين أعداءهم قد فرضها العدو نفسه عليهم، وقد أذن الله بالقتال (وهو كره) لنفس المسلم وأوصى الإسلام باحترام وتنفيذ جميع المعاهدات التي تعقد مابين المسلمين وأعدائهم، وهذه الموعظة تضمنتها الآية الرابعة من سورة التوبة **﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾**، وتعاليم القرآن أمرت أن تعين كل من عادى الإسلام ويتوق إلى الاطلاع على تعاليمه فقد أمر الهيئة الإسلامية الحاكمة أن تيسر له ذلك بكل الوسائل الممكنة وذلك في الآية السادسة من سورة التوبة **﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع**

كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾. كذلك أحدثت تعاليم الإسلام تبدلاً جذرياً في مواضيع القوانين المتعلقة بالأسرى قبل الإسلام ففي الآية (٦٧) من سورة الأنفال ﴿ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم﴾ أي لايجوز للنبي أخذ أسرى واحتجازهم من خلال معارك ثانوية بل يجوز احتجازهم (حتى يثخن في الأرض) أي الا في حال حدوث حرب تدور فيها معارك دموية، وهذا هو السبب في أن الله أتم موضوع الكلام عن الأسرى وذلك في الآية الرابعة من سورة محمد ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها .. وقف.. ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوكم بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾ فالعرب كانت تغزي في الجاهلية لتأخذ الأسرى والسبايا فاختصر الله بالتبديل الجذري «فإما مناً وإما فداء» وفي سورة النور الآية (٣٣) سمح لمن لايملك الفداء بالمكاتبة ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً آتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ وهذه ميزة الإسلام لم تكن جارية قبله وإن كل من يراجع تعاليم القادة المسلمين في الحرب يتبين له :

إنه لايجوز للمسلم أن يمثل بجثث العدو، (مسلم ج٢ ص٦٢ وفي البخاري أيضاً).

لايجوز استعمال سلاح الخداع، (مسلم).

لايجوز قتل الشيوخ والنساء والأطفال خلال الحرب، (مسلم ج٢ ص٦٥).

لايجوز قتل القساوسة والرهبان وأئمة الدين، (طحاوي).

إنَّ من واجب جيش المسلمين أن يتلطف بعوام المغلوب، (مسلم ج٢٠ كتاب الجهاد).

وأوصوا بالتزام حرمة الطرق في الحرب فلا يعرقلوا السير عليها، (أبو داود - الجهاد).

جمع شتات العائلات، (أبو داود).

حسن معاملة الأسرى، (الترمزي - أبواب السير).

احترام الدبلوماسيين وانتحال الأعذار لأخطائهم، (أبو داود - الجهاد).

ولم يجرء الإسلام على هدم منازل العدو ولا قطع أشجار أراضيهم خلافاً لما يفعله اليهود في فلسطين، (موطأ الإمام مالك)، ما نستخلصه بحق الإذن بالقتال:

كان السبب في (الإذن بالقتال) إن الدولة الإسلامية الناشئة قد هددت القضاء عليها أخطار ثلاثة كان أبرزها تهديد حرية

الاعتقاد حتى القتل وإزالة معالم المقدسات.

سورة الحج حين أذنت بالقتال فقد أذنت بمقاتلة الذين يقاتلون المسلمين وبسبب أن أعداءهم بلغوا درجة الظلم في الاعتداء على المسلمين ولم يقفوا حد الإيذاء والاضطهاد.

الحرب التي أذن الله بها هي حرب دفاعية وهي مقدسة لأنَّها تسعى للحفاظ على حرية المعتقد والمقدسات وقد أسفرت نتائج الحروب الإسلامية احترام العقيدة وحق الإنسان في اختيار عقيدته وتقرير مصيره.

وعمقت كراهية الحرب والاعتداء وأحدثت تبديلاً جذرياً في قوانين القتال التي كانت قبل الإسلام ووضعت شرطاً أساسياً للقتال باسم الدين وهو أن يحدث اضطهاد باسم الدين ويتجاوزه إلى حد القتال.

قسم الله عز وجل أعداء الدين الإسلامي إلى فئتين : الفئة الأولى مقاتلة ومعتدية، والفئة الثانية خلاف ذلك، فأمر المؤمنين بمقاتلة الفئة الأولى الذين يقاتلونهم في دينهم ليخرجوهم من ديارهم وظاهروا على ذلك ونهاهم عن مقاتلة الفئة الثانية بل وحثهم على التعامل معهم ببرهم والإحسان إليهم **﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إنَّ الله يحب المقسطين إنَّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم من يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾** (الممتحنة٨-٩).

وقد قارن المقصد الذي يقاتل المؤمن من أجل تحقيقه، والمقصد الذي يسعى الآخر من أجل تحقيقه في الآية (٧٦) من سورة النساء **﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾**.

هذه هي تعاليم الإسلام، لا قتال إلا من أجل الحرية والعدالة والسلام ... والحق تلك المبادئ الإنسانية الرائعة، ولا تكونوا إلا على من اعتدى عليها وحرمها الإنسان الذي منحه الله إيَّاها ليعم السلام والأمن العالم بأسره.

عالم الرجال وعالم الأطفال

د. أحمد عمران الزاوي ✪

هذا العنوان، هو عنوان لأحد كتبي الذي طبع في عام ٢٠١٢م .

وقد قصدت به التعبير بالرمز عن كيفية نظرهم إلينا وإلى أنفسهم منذ عدة قرون[1]

طبعاً:

هم لم يعرفوا

ونحن لم ننس الحكمة العربية التي تقول «كل حال يزول»

إذ بمقتضاها سوف يسقط الرجل بين فكي الشيخوخة وسوف يبلغ الطفل صباه وشبابه ورجولته وعنفوانه.

ذلك الزمن الذي كان في نظرهم ونظرنا مستحيل القدوم، بشّرت بقدومه حرب تشرين ثم زغردت له حرب الجنوب وحرب غزة.

قنع المواطن العربي أن تاريخه القادم يجب أن يكون من صنعه لا من صنع غيره.

وأنه إن استعاد قراءة تاريخه فلكي يتجنب الأخطاء التي أسقطته إلى الحضيض الحضاري يتسقط فتات المواد الحضارية في العالم.

جميع الطرق التي سلكها آباؤنا خلال القرون الخمسة السابقة كانت تقودهم إلى اللاّمكان ولم يكن الآباء أكثر هواناً من الأبناء

✪ أديب ومفكر وباحث سوري.

فقد ورث الأبناء الاستسلام والرضوخ و الهوان واعتادوا أنيار الأمم.[٢]

في الإنسان- خلافاً للحيوان- حاسة غير جمهرة الحواس الظاهرة.

حاسة قالوا عنها: «إنها السادسة» وقالوا «هي الروح» أو هي النفس غير أنهم مهما اختلفوا في الأسماء اتفقوا على أنها الأمير الذي يوجه الحواس الخمس ويأمرها.

فالحياة ألزمت الحواس الخمس بتنفيذ ما يصدر عن الأمير من قرارات من دون أن يكون لها القدرة على مناقشة أي قرار أو تعديله بل من دون أن يكون لها حضور أو اعتراض على الأسباب الموجبة للقرار خيراً كان أم شراً أو متداخلاً شره مع خيره.

الحاسة السادسة أو الأمير العربي اعتقلته مصالح الأمم منذ أكثر من خمسة قرون وقام البديل الأجنبي مقامه ومنذ ذلك الحين لم يصدر عن الأمير الأجنبي أي قرار لصالح الجسد العربي.

منذ ذلك الزمن فرض على العين العربية والأذن العربية و اللسان العربي ألا يكون السمع والنظر والكلام والفكر إلا كما يشاء ذلك الأجنبي.

الآن، وبعد قرون قنع المواطن العربي أن الفرد البشري في أي مكان هو أحد اثنين لا ثالث لهما هما: «الإنسان» و«الذئب»

فالإنسان: هو «الخير» و«التسامح» و«الغيرية» و«كظم الغيظ» و«احترام الآخر»

والذئب: هو «الغدر» و«التسلط» و«اقتناص الفرص» و«بناء المصالح الشخصية على جثث مصالح الآخرين».

هذا التقسيم:

مثلما ينطبق على الأفراد ينطبق على الأمم.

منذ أن خرجنا من الأندلس في عام ١٤٩٢ لم يأتنا من الغرب غير أمم من الذئاب المفترسة.

فالفترة العبقرية من تاريخنا لم تعش غير ردح من السنين.

بعدها تتالت الأجيال وانطوت تحت إبط التاريخ جماعة الأخيار وجماعة الأشرار.

مات النبي و الراشدون والتابعون والمتصوفون و المتدينون.

مات «أبو جهل» و«أبو لهب» و«ابن ودّ» و«أبو سفيان» و«مرحب» و «المنصور» و«المتوكل» وسواهم.[٣]

ولكن الإثنية مازالت قائمة إلى اليوم.

فثمة المُبهر في سمو الأخلاق وثمة المبهر في الصِّغَر والاحتيال.

لقد استقر في الأذهان النظيفة المعاصرة أن استعادة الحقيقة توجب الانطلاق من الصحراء.

ليس المقصود ذلك الفضاء اللامتناهي من الرمال.

بل الفضاء الذي خلا من الدخلاء والعملاء الذي نستطيع فيه من دون استعلاء وخيانة أن نعيد بناء شخصيتنا العربية ونعيد كتابة دستورها وقوانينها وأنظمتها بقلمنا ومسطرتنا.

عُدت- وأنا عبد الفكر النظيف إلى ماشاع في الإعلام كتباً ومجلات وصحفاً فلم أجد غير أنواع من الفكر المطاط الذي خلا من الحياة وبرع في الدَّوران والزَّوغان ..... في الحقيقة........

لم أجد فرقاً كبيراً بين ما نسمعُ وبين ما قاله ذلك الشاعر الذي منحه الخليفة جائزة لما قال :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار
فكأنما أنت النبي محمد
وكأنما أنصارك الأنصار

كلاهما القائل ومن قيل فيه القول.

وجميع الذين استحسنوا وصفَّقوا يعرفون جيداً أن هذا القول مبالغة اخترقت الكذب و النفاق حتى آخر محطة.

فلا الخليفة الممدوح مثل النبي ولا أنصاره مثل أنصار النبي ولا هو ولا هم بقادرين على مجابهة مشيئة الأقدار.

كما لم أجد فرقاً كبيراً :

- بين من كانت مخزوناته الذهبية تحتاج إلى الفؤوس لتكسيرها.

وبين حيتان المال وأصحاب الشركات العابرة للقارات .

هرمٌ من الغنى الكافر في كل زمان.

وفي مقابلة فقر كافر يتمثل في الملايين من الأكف المستجدية والأجساد العارية والمعد الفارغة.(٤)

تلك الثنائية الكافرة ليست عندنا فقط بل هي في كثير من البلدان أيضاً.

ولكننا تميزنا عن سوانا من أمم الأرض كمال قال محمد حسنين هيكل بِصُنْعِ الطغاة والعيش معهم.(٥)

أمتنا- لا تزال منذ عدة قرون كذلك الذي وصفته قصة تولستوي .

أخذاً من خرافةٍ شرقيةٍ كالآتي:(٦)

(إن رجلاً تعلق بغصن متدلياً إلى هوةٍ عميقة هرباً من وحش مفترس في الأعلى ومن وحش مفترس في الأسفل بينما تتجمع على الغصن جرذانٌ تقرضه من مفصله الأول وبينما هو هكذا ينتظر الموت رأى بضع قطرات من العسل على أوراق الغصن فمد لسانه ليلعقها)

ومع أن تولستوي كتب «حياة إيلمير» منذ أكثر من مئة سنة.

فإنَّ مثله الخرافي ينطبق علينا.

أمتنا تشبه الرجل الذي تعلق بالغصن.

و الغصن الذي يقبض عليه ويتأرجح معه هو الأمل بالوحدة العربية.

و الوحوش في الأعلى و الأسفل هم المستعمرون الذين يحيطون بنا من كل جانب والجرذان القارضة هم أتباع المستعمرين وعملاؤهم الذين خلت صدورهم من الضمير القومي.

هؤلاء العملاء لو قرأوا التاريخ قراءة واعية لرأوا فيه أنَّ العميل كان دوماً في جميع الأزمنة و الأمكنة منبوذاً فاقداً للاحترام .

ولرأوا فيه أنَّ النار عندما كانت تندلع في الأمة كانت تلتهمهم مثل غيرهم.

قال المستعمرون المستثمرون القابضون على تاريخنا واقتصادنا وسيادتنا وسياستنا أنتم لستم غير جماعات من الشوك نبتت في مزابل التاريخ فلا تحسن غير القرص و الأذى .

قلنا:

نحن أوَّل من عَرَف ونفَّذ المساواة بين الناس ورفض التفريق بين الأجناس .

فالنبي (ص) أمره الله أن يقول للناس أنه بشرٌ لا يختلف عنهم إلا في ما يوحى إليه:» قل إنَّما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إلي...» (٦/٤١)

والخليفة الأول: خاطب الناس وقال: أيُّها الناس لقد وليت عليكم ولست خيركم أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة عندكم....»

و الخليفة الثاني قال: «و الله لو ذهبت سخلةٌ ضياعاً على شطِّ الفرات لخشيت أن يحاسبني الله عليها يوم القيامة»

و الخليفة الرابع قال: لذلك الرقيق الذي أحنت العبودية ظهره: «ارفع رأسك ولا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حراً»

قبل ذلك الزمن العبقري.

كانت أمتنا- كما قال نيتشة في زرادشت- جدولاً تعفَّن ماؤه.(٧)

فطهَّره الزمن العبقري والفكر النظيف الشريف.

أمَّا الآن.

وقد مرَّت قرون على تصنيفنا في أذيال الأمم نعاني من صَنَميَّة الإحساس مكتفين بمضغ الماضي متقوقعين تحت سقفه.

العالم الحديث يعيش عصر الأزرار أمَّا نحن فما زلنا في عصر الأحجار .

نعم:

إن بعث الحياة في الأفكار الميتة فوق طاقة الأرواح الميتة.

ولكن: نعم أيضاً.

لا نستطيع الاَّ نعيش زمننا ، لذلك، وقد صار لدينا التشخيص الصحيح- بات علينا أن نحرر أرجلنا من القيود لكي نستطيع القفز فوق المصدَّات علينا ألا نكتفي بالماضي استغناءً به عن سواه والاَّ ننبذه بكليته كي لا نبقى شجرة من دون جذور مآلها اليباس والسقوط.

يجب ألا يمر في خاطرنا غرور دايان الذي قال بعد حرب ١٩٦٧م :

«لم نعُد في حاجة إلى الله ، ومن الآن فصاعداً فإن كل ما نطلبه لن يكون منه بل من فوهات المدافع وصدور الدبابات وفي غدٍ سوف نذهب إلى جبل حوريب ونعيد إليه الوصايا»(٨)

نحن يجب ألا نصل إلى هذه الصَّنميَّة .

فكتابنا أمر بالإثنينية.

«وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ...» (القصص-٢٨/٣٧)

«اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً..» «حديث شريف»

قال الغربيون ومع هذا كله:

سنبقى عالم البالغين وستبقون عالم الأطفال سوف تبقون عند أقدام موائدنا الحضارية وسوف لن ينالكم إلا ما سوف نلقيه لكم من فتاتنا سوف تبقون كتلك المرأة الكنعانية التي وردت في متّى (٢١/١٥-٢٨) التي طلبت من المسيح أن يشفي ابنتها المريضة فقال لها:

«لم أُرسَل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضَّالَّة وليس حَسَناً أن يؤخذ خبز الأبناء ويلقى إلى الكلاب» فقالت» نعم يا سيد و الكلاب تأكل من الفتات الذي يسقط من أربابها...»

وتابعوا:

إن ما بين أيديكم من سيارات وطيارات وبوارج ومدافع وصواريخ وصرعات الألبسة و الأطعمة و العادات هو من نفاياتنا.

حتى ثقافتنا.

سوف تبقى المرجع الأبدي لثقافتكم فالتحصيل الجامعي عندكم يعاني من رفض وقصور حتى يرفده التحصيل من جامعاتنا وعالمُكُم سوف يبقى عالةً على علمائنا ونظرياتكم على نظرياتنا... سوف تبقى وسوف تبقون كما نحن وأنتم الآن إلى زمنٍ غير منظور.

قلنا: هذا منطق الغرور.

فقد أثبت التاريخ أن المسير الأممي «خط بياني» فيه المنخفضات وفيه المرتفعات فالسقوط يبتدئ من الشواهق والارتفاع يبدأ من الحضيض وما عرف التاريخ دواماً لأحدهما.

ولقد أدرك أحد شعرائنا هذه الحقيقة فقال.

مــا طــار طــير و ارتــفــع
إلاّ كــمــا طــار وقــع

قالوا:

إنَّ عدم التفريق بين الأفراد والأمم الذي ما زلتم تدعون إليه هو منطق القطيع الذي لا يفرق بين عالم وجاهل وذكي وغبي وأعمى وبصير وراعٍ وقطيع .

قلنا.
لقد أفهمنا المسيح ومحمد أن لا فرق بين البشر إلا بالأخلاق.
وأنَّ الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله.
وأنَّ زلازل التاريخ وثوراته وقفزاته من السيِّئ إلى الحسن ومن الحسن إلى الأحسن حققها المنبوذون المستضعفون.
هؤلاء الذين كان «الملأ» في كل زمان يسميهم الأرذال (الحج- ٢٢/٥ و الشعراء- ١٠٠٢/٢٦) [٩]
فتلاميذ المسيح الحواريون كانوا من الصيادين والمتخلفين عن الملأ ولكنهم هم الذين نشروا أفكار المسيح في الدنيا.
والأتباع الذين حملوا إلى الأمم رسالة الإسلام بدأوا من الأرقاء المستضعفين الذين تحملوا أسباب الأذى في سبيل نشر الخير والمحبة والمساواة.
والعمال الذين يصنعون كل شيء من الإبرة حتى الصاروخ والمركبة الفضائية.
وأدركوا مؤخراً أن غنى الأغنياء يقابله فقرهم وسعادة السعداء يقابلها شقاؤهم.
وأنَّ مظاهر الحضارة وأكداس الأغنياء والشركات التي ضاقت بها الأوطان فقفزت إلى القارات.
ذلك جميعه ليس غير فائض ما تنتجه عضلاتهم وبين ما يلقى إليهم من قشور الإنتاج.

لقد وجد هؤلاء المستغَلُّون حقائق الأمور.
وقنعوا بأن الملأ[١٠] وضعوا القوانين والأنظمة لحماية مصالحهم.
فقد كانوا في كل زمن ممتلئين خوفاً من أن ينكفئ الكثير على القليل فيُرديه.
لذلك عكفوا على وضع الزَّوادع والمصَّدات من قوانين وأنظمة وسجون ومشانق.
في مسرحية «بيت القلب المحطم» لبرناردشو «حوارٌ بين» شونفير» و«هيكتور» يعبر عن التناقض الشديد بين الناهب والمنهوب منه.
أجتزئ منها فقرات كالآتي:
الكابتن شونفير: ما العمل إذن؟
أنظلُّ في هذا الوحل ويرغمنا هؤلاء الخنازير الذين يعتبرون الكون آلةً لدهان شعورهم وملء خياشيمهم يجب علينا أن نكسب قوى الموت و الحياة وإني أرفض أن أموت قبل أن أحقق ذلك.
هكتور: ولكن من نحن لنحكم عليهم؟
شونفير: ولكن من هم ليحكموا علينا؟ ومع ذلك فإنهم يفعلون هذا بلا تردد هنالك عداء قائم
بين أساسنا وأساسهم إنَّهم يخنقون أرواحنا.
إنهم يؤمنون بأنفسهم وما علينا إلا أن نؤمن بأنفسنا.

مروراً بالأعراف و هود و يوسف والمؤمنون و الشعراء والنمل و القصص الصافّات و الزخرف .

هيكتور: إنهم من الحمق بحيث لا يستخدمون قواهم.

شونفير: لا تخدع نفسك إنهم يستخدمونها في حين أننا نقتل ما فينا من القوى لنبقى دوماً في خدمتهم حتى إنَّ علّمنا بأنّهم وُجدوا لخنق طموحنا.

ساهم أيضاً بإقصاء الطموح عن تطلُّعاتنا .

(انتهى الاقتباس من الحوار)

الغالب السياسي في العالم العربي اليوم مقسوم بين فكر «شونفير» الثائر الطموح إلى تغيير الأوضاع والانتقال بها إلى ما يحقق الاستقلال الكريم. وبين فكر «هيكتور» اليائس.

فالهيكتوريون تعطلت من حاستهم السادسة قوى الطموح ونوازع الإحساس الوطني و القومي و الشعور بالهوان وأضحت لا ترى الحياة إلاّ من خلال الغرائز الرخيصة التافهة.

أمّا الشونفيريون فهم الذين صمموا ألاّ يموتوا قبل أن يحققوا الأهداف القومية مقتنعين بأن ما ينتشر في عالمنا العربي من جهل ودونية وتخلف، وإن كان متعدِّد الأسباب- فإنَّ أهمها جميعا الأسباب الشخصية.

فالخطوة الأولى والأهم على الطريق الصحيح هي أن يتغلغل العربي في نفسه ليرى حقيقة واقعه الاجتماعي.

بذلك لا بسواه تظهر الحاجات الاجتماعية الحقيقية مقرونة بوسائل تحقيقها.

بذلك لا بسواه تزول المصدات التي كانت تحول بيننا وبين الطموح إلى الأفضل .

بذلك لا بسواه نعلم أن أهم أسباب كوارثنا هي دفن نفوسنا في رغباتنا....

منذ قرون امتلأنا بالمعاني الفارغة .

تضخُّم ورم الغيبية و التجمد على الماضي.

ففيما كان نهر الحياة يسير بلا توقف مترافقاً مع أبناء الحياة لبثنا على ما كان عليه الأجداد مع أننا ننتمي إلى زمن غير زمنهم وأن مئات السنين تفصلنا عنهم مئات من السنين كان لها فكرها و وسائلها وعاداتها وقناعاتها التي هجرها زماننا عجيب أمرنا وعجيبة هي مشاعرنا.

منذ زمن ليس بالقصير و الرياح القارسة تهبُّ علينا من كل جانب حتى أسقطت الأوراق عن أغصاننا وأصبحنا عراةً حتىَّ من ورقة التوت ومع ذلك فإن هذا العري الذي يراه أبعد الناس في أبعد الأقاصي لا نحس به ولا نراه .

جميع الأمم مرّت في الزمن الهيكتوري.....

ظل عقلها على مقاسه فكراً وعادات وشرائع حتى إذا تجاوزته الحاجات أركزته بمزيد الاحترام في النعش و أودعته في جيب التاريخ.

أمَّا نحن الذين نعيش معهم في هذا الزمن لا تزال عقولنا في الزمن الهيكتوري.....

صحيح:

إنَّ حرب الجنوب وغزة مع إسرائيل حقَّقتا في أيام ما عجز عنه العرب في عقود.

وصحيح:

أنَّ الاستعمار مُني بالاندحار في العراق و أفغانستان.

وأنَّ آلاف الطلعات بالطائرات وآلاف الأطنان من القنابل وآلاف البيوت و الجسور والمنشآت قد تهدمت وأن ملايين القنابل قد زرعت وآلاف المواطنين قتلوا وآلافاً تشردوا وآلافاً أصيبوا بالعاهات.

ولكن القوى الاستعمارية الأميركية والصهيونية عادت بخفي حنين .

صحيح: ذلك جميعه ولكن مهلاً لنقرأ الواقع جيداً.

لقد تأكد للدخيل من خلال تجاربه في الساحات العربية أن الجدل بالطيارات والدبابات و القنابل العنقودية و الفوسفورية إذ يؤدي إلى زيادة التدمير يؤدي- في الوقت ذاته – إلى الكراهية وتأجيج نيران الحقد:

لأنَّ الكلام الأخير الحاسم هو للشعب لا لسواه.

بعد أن لاقى الاستعمار ما لاقاه في العراق و لبنان وغزة وأفغانستان رأى أن يغيِّر الأسلوب تغييراً نوعياً.

نعم: ظل الهدف واحداً وهو إضعاف هذه البلدان كي يسهل التحكم بها ولكن بدلاً من التضحية بالجنود والآليات في تلك الساحات لتطلق المؤامرات ولتشتعل الحرائق التي يكون وقودها أبناء البلاد و موقدوها من الأبناء أيضاً ويكفي لهذه المهمة أن تفتح صنابير المال ومخازن الأسلحة و وسائل الإعلام على مصاريعها كافة أمام العملاء والتابعين.

فالشعب العربي عنده الاستعداد الكامل للتذابح.

وهكذا نشروا بيننا : «الفوضى الخلاقة» و«الربيع العربي».

فالفوضى الخلاقة تنحصر مهمتها في زلزلة الاستقرار.

وهي إذ وصَفوها بالخلاقة فلا تخلق غير التدمير و التشتت والفوضى وهذا هو المخلوق الذي يريدها الاستعمار أن تلده.

أمَّا الربيع الذي عشناه في تونس وليبيا واليمن ومصر والعراق وسورية.

فقد برزت ورودهُ رؤوساً مقطوعة وأنفاسه دماءً مهدورة.

لذلك:

كان ربيعاً حقيقياً لمطامع الاستعمار وتنفيذاً لأهدافه.

وكان جحيماً حقيقياً للوطن والمواطنين.

- ربيع تونس الذي أطاح بـ «ابن علي» تحول إلى خريف بين الثوار الذين مازالوا يتقاتلون حتى الآن.

- وفي ليبيا لم تنتظر الأطماع نضج الربيع الليبي بل تقاطرت من كل صوب فاعتلى المنبر في طرابلس «كاميرون» و«ساركوزي» و رفعا معاً يدي مصطفى عبد الجليل زعيم الربيع العربي الليبي فتعالت أصوات الجماهير اعترافاً بفضل الرئيس الذي لن تنساه ثورة ليبيا تعبيراً عن الخلق العربي الأصيل وعرفاناً بالجميل أهدي إليهما النفط الليبي على طبق من الاقرار بالفضل.

- وربيع مصر الذي أطاح بـ «مبارك وأبنائه» وحولهم إلى السجن والإذلال.

- وما جرى في العراق و اليمن وما يجري اليوم في سورية.

إضافة إلى الساحات الدامية و البنايات المهدمة و المؤسسات المهشمة ثمة أمرٌ أخطر وأشد وأدهى هو «الوحدة» التي أفقدها الربيع العربي بريقها.

لقد تقلصت فتركت إلى الزمن جمعُ الأقاليم تحت جناح الأمة واكتفت بأن ضم كل إقليم خاصرتيه على حدوده ولكن ذلك- على ضآلة شأنه القومي- لم يكتف به سادة الربيع العربي فعمدوا إلى تقطيع كل إقليم إلى جذاذات فقيرة القوة والنشاط.

فالعراق: يجب أن تقوم فيه الدول الثلاثة «شيعشتان» و«سنستان» و«كردستان»

وليبيا: التي فصلوا شرقها عن غربها.

واليمن: التي تعاني اليوم من محاولة عدن للاستقلال عن الوطن.

ومصر: إذ تنتظر قيام دولة الأقباط فيها.

والفلسطينيون: الذين اندلعت بينهم نيران الخصومة فانقسموا بين «فتح» و«حماس».

وسورية: التي رسمت في مخططهم بدولها العديدة الطائفية.

فالشرق الأوسط الكبير الذي ولد من رحم الدبلوماسية الأميركية- الصهيونية يحملق في منطقتنا العربية لكي يؤمن القيادة و التفوق و التقدم لإسرائيل ولكي يضمن لشركاته ومصانعه استنزاف الموارد و المواد الأولية من دون أن تؤثر فيها أو عليها ردات فعل داخلية.

ربيع: نعم ربيع.

ولكنه ليس عربياً، بل هو أمريكي صهيوني.

يطبق في بلداننا على مبدأ «النار تأكل بعضها»

فالطائفية: التي لم تمارس الحياة على أساسها في أي إقليم عربي منذ عشرات القرون تتصدر اليوم واجهة التصرفات وليس السياسية فحسب بل الإجرائية أيضاً في الساحات و الشوارع و الفنادق و المدارس و المطاعم حيث ارتفعت يافطات التقسيم على أساسها.

وحيث الذبح على الهوية صار علناً ويستند على فتاوى من رجال الدين [11]

وذلك الذي ينحني على ذبيحته البشرية ويردد وهو يقطع الشرايين «سبحان من حللك على الذبح»

من هذا الذي تسبحه أيها القاتل؟ و الله يقول:

«ومن قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً.....»

(المائدة٥/٣٢)

حتى لو كانت تلك الذبيحة لا تقول بجميع مقالاتك فإن الفصل في يد الله يوم الدينونة كما قال وهو أصدق القائلين.

«إنَّ الذين آمنوا و الذين هادوا و الصابئين والنصارى والمجوس و الذين أشركوا إنَّ الله يفصل بينهم يوم القيامة إنَّ الله على كل شيءٍ شهيد» (الحج٢٢/١٧)

و الإقليمية: التي هي في عرف الأمم بعض التكوين في الدول.

إذ يظل الإقليم جزءاً من الدولة مشاركاً أساسياً في وحدتها ملتزماً بقوانينها ودستورها.

ولكنه لم يعد عندنا كما يجب أن يكون.

حيث استقل كل إقليم» بدستوره» و«قوانينه» و«تمثيله الدبلوماسي» و«جيشه» و«نهجه الثقافي»

حتى الإقليم نفسه الذي هو- في جوهره- تآكل قومي يخضع الآن هو الآخر للتآكل حيث قضى الاستكبار العالمي أن تتساقط جوارحه مثل الجسد الذي أصيب بالجذام.

و الشعوب: التي دخلت في المركَّب القومي مثلما تدخل الجوارح في تركيب الجسد تشتكي مع كل شكوى تصدر عن شقيقاتها تسعد وتشقى بما يقع على الجسد من سعادة وشقاء

تحول ائتلافها اليوم إلى اختلاف والتحامها إلى افتراق

وانبرت مجاهرةً ومجاهدةً في خصوصيات الجنس و التاريخ واللغة والثقافة والعادات.[12]

وبعد:

إلى متى نظلّ دون البلوغ.

إن ممَّا يذبح النفس هذا الزمن الطويل الذي عشناه خلاف الطبيعة.

فالطبيعة قضت أن يصير الطفل فتى ثم رجلاً صاحب قرار ليس صيرورة فيزيولوجية فقط بل فكرية وثقافية وسياسية أيضاً: ولكن حتى طفولتنا الفكرية، تدهورت إلى أن صارت في الحضيض.

فمثلاً:

- جميع العرب: في جميع بقاعهم وعلى اختلاف نظمهم الإقليمية متفقون أنَّ العدو الأبدي القريب هو «الصهيونية» المتمثلة في دولة إسرائيل وأن العدو البعيد هو الغربان «الأميركي والأوروبي» ومع هذه المعرفة الأكيدة.

نجد أن أكثر الأقاليم العربية عاشت وتعيش مع إسرائيل حالة «التطبيع» في «السياسة والاقتصاد» في «السلم و الحرب»

وأنَّ الاقتراب – حتى بالكلام- مع إسرائيل الذي كان من الكبائر و الزنى القومي صار اليوم مع التمثيل السياسي سياسة يدافع عنها علناً من دون حياء.

- الفيتو: حقٌ محصور بالدول الخمس تحددت حالة استخدامه في مواجهة الدول التي تنتهك القوانين الدولية وحقوق الإنسان.

فما باله في اليد الأميركية بواباً على باب المصالح الإسرائيلية في بلادنا[١٣]

- القرار الأممي-٢٤٢- الذي حدد الدولة الفلسطينية على نصف مساحة فلسطين ونص على كمال سيادة تلك الدولة وحقها في الجيش و الإدارة و القوانين والعلاقات وعاصمتها القدس الشرقية.

ولكن اليوم:

- لا : للقدس.

و – لا: للعودة إلى حدود ١٩٦٧م.[١٤]

و – لا: للدولة الفلسطينية إلا على مِزَق جغرافية لا رابطة بينها ممنوعة من استقلال القرار و التسلح والتمثيل الخارجي وقرار الحرب و السلم.

- حتى المسجد الأقصى عكفوا على الحفر تحته بحثاً عن آثار يهودية مزعومة حتى غدا تحته- غربالاً من الأنفاق.

العلل التي اقتحمت الجسد العربي كثيرة.

فلو استعرضتها نصّاً وتحليلاً لضاق المجال ولكن، ولكونها معلومة لدى الجميع اكتفيت بالأمثلة منها.

كنّا ولفترة قصيرة بهيرة اعتقدنا أن حروب «تشرين» و«الجنوب» و«غزة» وانتفاضات شعب الأقاليم على طغاته هي تباشير «ضرس العقل» في الفك العربي- الضرس الذي اقتلعته الظروف منذ قرون عدة.

ولكن خاب أملنا.

إذ ما لبثت الذراع الاستعمارية أن طوقته و منعت عنه الهواء.

فصار مسيرنا على الأيدي بدلاً من الأرجل.

وبدأ التدجين يفعل فعله هنا و هناك وهنالك.

أقاليم أعلنت جمهورية النظام وتبعيته للاستعمار.

وأقاليم أعلنت سلفية النظام وتبعيته للاستعمار.

والانتصارات التي حققتها الحروب امتص الاستعمار إيجابياتها حتى غدت قشوراً .

أليس من المحزن ؟

أن يعلن الشرق و الغرب عن فشل إسرائيل وأميركا في حرب الجنوب في الوقت الذي يُصرُّ فيه بعض سياسي لبنان على أن المقاومة فشلت؟

أليس من المحزن أن يتدهور حكام إسرائيل وقادتها العسكريون عن الكراسي بسبب ذلك الخذلان وتبقى إلى الآن أصوات في لبنان تتحدث عن الخسارة المنكرة التي سببتها تلك الحرب ؟

نعم:

وإن كان ذلك مؤلماً فنحن- في نظرهم- عالم الأطفال.

وما نزال كتلك الراحلة التي وصفها صاحبها بقوله:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها وحتى سامها كلُّ مُفلِس

الهوامش

١- أقصد: العالم الغربي الذي يصف نفسه «بالعالم الديموقراطي»

٢- الأنيار جمع مفرده «نير» وهو الخشبة التي توضع على عنق الثور.

٣- أبو جهل: هو عمرو بن هشام بن المغيرة قتل في بدر كان عدو النبي أقنع «أبا لهب» بعداء النبي حيث أمر ابنيه «معتّب و عتيبة» بطلاق بنتي النبي «رقية و أم كلثوم» واسمه «عبد العزّى بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف عم النبي كني (بأبي لهب) لجمال وجهه وتورد خديه كأنما فيهما لهب يشتعل نزلت في حقه وحق امرأته الآيات الخمسة الأولى من سورة «المسد» رقم (١١١) والمتوكل: هو جعفر بن المعتصم الخليفة العباسي العاشر جاء في ص١٢٢- من مروج الذهب إذ تفاخر بامتلاكه ثلاثة آلاف سرية وطئهن جميعاً .

٤ - قال علي: ما رأيت نعمة سابغة إلا وإلى جانبها حقٌ مضيعٌ.

وقال: لو كان الفقر رجلاً لقتلته بسيفي.

٥ - من الحديث الذي أجراه لبيت السباعي ونشر في الانترنت.

٦ - القصة هي «حياة إيلمر» وتولستوي عاش بين ١٨٢٨- ١٩١٠ م .

٧ - كتاب «هكذا تكلم زرادشت» للفيلسوف الألماني نيتشه الذي عاش بين ١٨٤٤-١٩٠٠ و الذي نادى بالإنسان الأعلى وإرادة القوة وكان من مؤسسي العرقية الجرمانية.

٨ - حوريب- جبل في سينا تجلى فيه الرب لموسى وسلمه الوصايا (خروج ٣/١-٥).

٩ - الرذيل: هو الدُّون من الناس في منظره وحالاته وقيل هو الرديء الدون و الثوب الرذيل الثوب الوسخ الممزَّق والرذيلة ضد الفضيلة. (ابن منظور)

١٠ - الملأ= الرؤساء: أشراف القوم و وجوههم الذين يرجع إلى قولهم هذه الكلمة دلت في القرآن ثلاثين مرة على وجوه القوم ورؤسائهم بدءاً من الآية ٢٤٦- حتى الآية ٨٣ من يونس.

١١- حينما أردى غولدشتاين برشاشه ثلاثين مصلياً في المسجد الأقصى وقال إنه بذلك: قدم صلاة للرب. وحينما بدأ اليهود يزورون قبره مثلما تزار قبور القديسين .

قلنا: ذلك تعصب طائفي لا يرضى عنه أي نبي ولا ينص عليه أي دين ولكن ما يجري عندنا اليوم لا يقل في الشراسة والكفر عما فعله «غولدشتاين»

١٢ - اللغة الكردية و العلم الكردي ارتفعا على جثة اللغة العربية و العلم العراقي.

١٣ - أسقطت به الولايات المتحدة أكثر من خمسين قراراً من الأمم دينت بها إسرائيل لاختراقها القوانين الدولية وحقوق الانسان.

١٤ - السنة التي صدر فيها القرار حيث صدر بعد الحرب.

تكامل الوظيفة التربوية والثقافية للمؤسسات التعليمية

د. محمد قاسم عبدالله ⚫

هناك اتجاه في الوقت الحاضر، للتشديد المتصاعد على وجهة النظر الثقافية، في إطار التربية والتنمية، وقد كانت التربية في الماضي تكديساً للمعلومات بشكل أساسي، أما الآن فهي نظام لتعليم الحياة، يسمح للإنسان بالوصول إلى كامل تفتحه ووعيه. وتشمل الثقافة في معناها الواسع، البيئة الطبيعية أو البيئة الاصطلاحية التي يخلقها الإنسان لنفسه، أو ينشأ فيها، ووسائل العمل المتعددة التي يستخدمها للسيطرة على هذه البيئة وتغييرها على هواه، أو للتكيف معها. الطبيعة البشرية وشخصية الفرد كل متكامل لايمكن فصل جوانبها العقلية والانفعالية، والجسمية، والأخلاقية والثقافية. وتهدف التربية إلى تنمية شخصية المتعلم من جوانبها كافة.

علاقة التربية بالثقافة

في مقاربة إشكالية العلاقة بين التربية والثقافة ومظاهرها الدلالية والوظيفية من خلال التركيز على الفعل التربوي (التدريس) والفاعل المعرفي (المدرس) كوسيط تربوي pedagogical media-tor لنقل الثقافة/الثقافات للمتعلمين في تعليمنا العام والعالي على حدّ سواء، تظهر

⚫ أستاذ الصحة النفسية وعميد كلية التربية - جامعة حلب.

وظيفة المؤسسة التعليمية في نقل وتعزيز الثقافة - أيّ ثقافة - وحفظها والتي كانت - ومازالت- تشكل إحدى الإشكاليات التربوية الحيّة والحرجة؛ لكونها ترتبط أولاً بعمق وفاعلية المحتوى الدراسي من جهة، ورغبات وتوقعات الجمهور (الأسرة/ المجتمع/الوطن) من جهة ثانية، وبجوهرية وثقافة المعلمين والمتعلمين من جهة ثالثة. وإذا كان نجاح أي فعل تربوي - قديماً وحديثاً- في نقل الثقافة وتعزيزها يتوقف في الأساس على رضا المجتمع فيما يدرّس، وقناعة المعلمين بما يدرسون، واعتراف المتعلمين بقيمة وأهمية ما يدرّس لهم، فإنَّ التشكيك في القيمة الثقافية لمضامين الفعل التربوي الراهن وأهدافه يمثل المبرر الأساس والمشروع لما يوصف غالباً بأزمة التربية. (جميل عبد المجيد، ٢٠٠٥م).

بين التربية والثقافة علاقة تلازمية تكاملية تغذيان الواقع نفسه وتعيدان صياغة الفعل والمنتج، بحيث يتعذر تحقيق أحدهما من دون استثمار الآخرى. فإذا كانت الثقافة تمثل المضمون الفعلي للتربية والمبرر الواقعي الحيّ لوجودها وممارستها، فإنَّ التربية تشكّل في المقابل الأداة أو الوسيط البيداغوجي الحاسم والفعّال في نقل الثقافة وجعلها خطاباً ثم ممارسة جماعية قابلة للنقل والتلقين.

وبالمقابل، فإنَّ التربية تمثّل الانعكاس - التقريبي على الأقل- والمنتج الطبيعي المنتظر للثقافة؛ ويمكننا بعبارة أخرى -نظرياً على الأقل- القول بأنه كلما كانت الثقافة المجتمعية أكثر عمقاً وتنوعاً، كلما كانت التربية أكثر تألقاً وأمكن قياساً. فكلا الشقيقتين تغذي الأخرى وتتغذى عليها.

من هنا تظهر العلاقة الوثيقة بين الثقافة والتربية. فإذا كانت التربية تهتم بتنمية شخصية المتعلم من جوانبها كافة في المؤسسات التعليمية فإن المدرسة هي المؤسسة التربوية الثانية بعد المنزل والأسرة في تنشئة المتعلم وتنمية شخصيته من الناحية الاجتماعية والثقافية. (سمر روحي الفيصل ٢٠١٠م).

يظهر تكامل الوظيفة الثقافية والتربوية للمؤسسات التعليمية من خلال:

- إن التعليم عملية تجدد الحياة وتنميها من خلال خبرات الفرد.
- يشترك الفرد بكليته (كشخصية متكاملة: سمات انفعالية، وعقلية، وسلوكية..) في عملية التعلم.
- يتضمن المنهج التربوي جميع الخبرات المؤثرة في شخصية الفرد وخاصة تلك الخبرات الناتجة عن تفاعل البيئة الطبيعية والاجتماعية والثقافية.
- الاهتمام بالنشاط الحر والتعبير عن الذات، والإفادة من الخبرات واستغلال

المعارف والمهارات باعتبارها وسائل تعليم مهمة.

- الاهتمام بميول المتعلمين واهتماماتهم أثناء التعلم.

يسعى التعليم وراء الوعي.. يريد أن يكون المتعلم واعياً،أن يكون مثقفاً و بذلك يسعى جاهداً إلى تكسير الجمود الدراسي، وضغط المقررات الأكاديمية، يضحي من أجل تحقيق إنسانية التلميذ... من هنا و من قلب هذا الهدف انبثقت الأنشطة الثقافية داخل المؤسسات التعليمية. فماهي الأنشطة الثقافية؟ تاريخها، دورها، واقعها و آفاقها؟

إنَّ تاريخ الأنشطة الثقافية داخل المؤسسات التعليمية، كحقل يؤطر الفعل الثقافي.. يعرف طابعاً خاصاً، بالنظر إلى الجمود الذي عرفته طويلاً بسبب غياب الدراسات الجادة في هذا الميدان، بحيث ظلت المؤسسات التعليمية و لسنوات طويلة خاضعة لمناهج التربية التقليدية، نظراً لغياب فلسفة تربوية واضحة و غياب الحوار مع الأطر المسؤولة، حتى تحولت المؤسسات إلى شبه سجون يدخلها التلميذ و يغادرها تاركا وراءه ما تعلمه من معارف، لن يحتاجها في حياته اليومية (داخل الأسرة، مع الأصدقاء، في الشارع......) فالأنشطة الثقافية هي مجموعة من العمليات و أشكال التدخل التربوي، التي يتم بها تسيير و توجيه و ضبط التواصل بين الأفراد أو تسيير مهام و أعمال يقومون بها، بحيث أنَّ الأنشطة الثقافية تصب في حقول مختلفة (تنشيطية، تربوية، ثقافية......)

وتستدعي هذه الأنشطة الثقافية منشطين لتداولها حيث يعمل المنشط على:

- بث روح المبادرة.
- خلق دينامية تلاميذية تهدف إلى نشر الوعي و تكسير الجمود الثقافي الكلاسيكي الذي تعرفه المؤسسات التعليمية.
- شحذ الفكر و بث روح الإبداع.
- تشجيع المبادرة و المنافسة بين التلاميذ.

ثم إنَّ العمل الثقافي لم يعد محصوراً في (مسرح، موسيقى، رياضة بدنية.....)، بل تعدى ذلك.. فلم يعد عملاً موازياً بل أصبح العمل الثقافي في قلب العملية التعليمية، يدعمها و يخلق فضاءات عديدة لإغنائها و تعميقها، الأمر الذي لم يتحه العمل الرسمي داخل الفصل بحيث ظهرت مجلات (حائطية، خطية، مطبوعة...)، وأنشطة ثقافية على شكل (حوارات، ندوات، أمسيات...). كلها تهدف إلى:

- تنمية ثقة التلميذ في مؤهلاته الشخصية و طاقته الإبداعية.

- جعـل التلميذ أكثر انفتاحـاً و قابلية لخلـق علاقات ودية مـع الآخرين، و قدرة علـى الانخراط في العمل الجماعي و إبداع صيغ جديدة لترقية أدائه في مجال تنشيطي معين.

لكـن الواقع الملاحـظ أنّ دور الأنشطة الثقافيـة في المؤسسـات التعليمية يقتصر على جمعيـات يؤطرها فعاليـات تعليمية، (كالتعـاون المدرسـي و جمعيـة الأنشطة الاجتماعية و التربوية..). لكن هل هي فعلا قادرة على خلـق فضاء ثقافي؟ هل تستطيع إنتـاج عمل ثقـافي جاد؟. تسعـى الأنشطة الثقافيـة المتكاملة مع العملية التعليمية إلى أن تحقـق هـذه الغايات التي تعـد المتعلم المثقف والمبدع والقادر على مواجهة الحياة، مـع التطور المعرفي والثقـافي الذي تفرضه العولمة والتغـيرات المتلاحقـة في مجتمعنا المعاصر.

(عبد الرؤوف حامد، ٢٠٠٤م)

التربية الثقافية للمتعلمين

يشـكل التغـير الثقافي مشكلـة هامة للمربـين في عصرنـا الحاضـر، فالمعارف والمخترعـات التي توصـل إليهـا الإنسان في هـذا القرن، تفـوق إنجازاته بكاملها في القرون الماضيـة، ومنذ أن وجد الإنسان في هـذا الكوكب، والمشكلة هـذه أشد حدة في المجتمعـات المتقدمـة منهـا في المجتمعات النامية، وخاصة أنّ الأطفال أخذوا يستقون علمهم من التلفـاز، الذي هو أحدث وأسرع في إحضار المعلومات من المدرسة.

وعلى الرغم من ذلك، فإن المدرسة تؤدي دوراً مهمـاً، يساوي ذلك الـدور، أو الأدوار التي تقوم بهـا المؤسسات الأخرى كالعائلة، والعمـل، ورفاق اللعب وغـير ذلك، وهناك مـن يعتقد بأنّ دور المدرسـة أهم بكثير من أدوار المؤسسـات الأخـرى، ولا سيمـا أنه يقوم بالإشراف عليها أناس تخصصوا بهذه العملية وهنا يـبرز دور التربية الحديثة في تغيير ثقافة المجتمع وتطويرها.

والأطفال لا يشكلون جمهوراً متجانساً، بـل يختلفون باختلاف أطـوار نموهم، لذا قسمت مرحلة الطفولة إلى أطوار متعاقبة، هـي مرحلـة الميـلاد، ومرحلـة الطفولة المبكرة، ومرحلة الطفولة المتوسطة، ومرحلة الطفولة المتأخرة، وقـد ترتب على ذلك أن توفرت للأطفـال في كل طور ثقافة فرعية خاصة، ومـن هنا أتت أهميـة البحث عن التربية الثقافية للطفـل، بحيث تتوافق مع خصائـص الطفـل وحاجاتـه، في كل طور من أطـوار حياته. وسنحـاول الإجابة عن التساؤلات التالية:

ما هي خصائص الثقافة ووظائفها؟

ماهـي مكونـات الثقافـة، والتربيـة الثقافية؟

ما دور وسائط ثقافة المتعلمين؟ التربية والأنشطة الثقافية في المدرسة؟

أولاً. خصائص الثقافة ووظائفها:

تتصف الثقافة، بعدة خصائص تعطيها طابعها النوعي المميز كهوية اجتماعية، كما أنَّها تقوم بالعديد من الوظائف التي تؤدي إلى تماسك المجتمع في توجهاته الكبرى، وقولبة الأفراد كي يصبحوا أعضاء فيه، يعيشون ويتصرفون تبعاً لتلك التوجهات.

والثقافة هي في المقام الأول نسق أو نظام، يتكون من مجموعة مترابطة، من طرق التفكير والإحساس والتأثير، وأي تغيير في جانب منه، يؤدي إلى تغيير الجوانب الأخرى. ولكل مجتمع خصوصياته في ممارسة تراكيب هذا النظام او القوة الفاعلة فيه، وهو ما يؤدي إلى ذلك التنوع الكبير في الثقافات من ناحية، وإلى عناصر المشاركة بين بعضها من ناحية ثانية. وأبرز التراكيب الثقافية هي:

١- التقنيات (التكنولوجيا): وهي تشمل كل الآلات والأدوات التي يستخدمها الإنسان في الزراعة والصناعة، وفي وسائل الحرب، وتمتد إلى تقنيات الجسد.

٢- التركيب اللغوي أو الرمزي: ويتمثل في اللغة المحكية والمكتوبة والإشارات والرموز. والتي اعتبرها البنيويون أساس الثقافة، إذ نظروا إلى التفاعلات والممارسات في بعدها الرمزي كله.

٣- التركيب الاجتماعي: الذي يشمل العادات والتقاليد والعلاقات على أنواعها: الحقوقية، والاقتصادية، والسياسية، والقرابة والروابط المختلفة، وإن التركيب الاجتماعي أبطأ تطوراً من التركيب اللغوي والتقنيات، وهي بدورها تتفاوت في سرعة تطورها.

٤- التركيب المعتقدي والأخلاقي: هو جميع أشكال المعتقدات والبنية الأسطورية لدى المجتمع.

٥- التركيب الجمالي: وهو يشمل الفنون والآداب والتعبير، من خلال الشكل واللون والإيقاع، ويندرج هذا التركيب في جميع التراكيب الثقافية، وهو يتطور بسرعة لارتباطه بالتقنيات واللغة، أكثر من ارتباطه بالمجالات الاجتماعية والمعتقدية.

ومن خلال تفاعل هذه التراكيب فيما بينها وفي وتيرة تطورها، ينتج النموذج الثقافي الذي يحدد السمات الثقافية المميزة للمجتمع، وهو يدخل في سلوك الأفراد فيوجهه وينمطه، وهكذا فمعرفة النموذج الثقافي تساعد على توقع سلوك الأفراد في تركيب ثقافي معين، ويعيش الأفراد هذا النموذج كطريقة في الوجود، وتعتبر مثالية

وسوية ومعيارية، أي إنها تشكل المرشد والضابط لسلوكهم وتوجهاتهم.

خصائص التربية الثقافية:

يمكن أن نحدد الخصائص التالية للتربية الثقافية للمتعلم:

١- تتجه إلى الطفل الفرد، لكنها تسعى لأن تكون شاملة للجماعة كلها، ومن ثم فهي فردية وجماعية في آن معاً.

٢- متكاملة، تضع أمامها حاجة شخصية الطفل العربي إلى النمو العقلي والاجتماعي والانفعالي والجسدي، وحاجتها إلى روح الجماعة والعمل المشترك، وإلى التدريب على المحاكمة والنقد والتحليل والتركيب والتعبير الشفوي والكتابي.

٣- تساعد الطفل على التعامل طواعية مع الوسط المحيط به، فيتأثر به ويؤثر فيه، يكيّفه ويتكيف معه، مما يساهم في تجانس المجتمع وتضامنه، وقدرته على التقدم.

٤- لا تهمل عموميات الثقافة، كالعادات والتقاليد والتاريخ وأنماط السلوك وطرق التفكير، التي يشترك فيها الأفراد في مجتمع الطفل، ويتميزون بوساطتها عن المجتمعات الأخرى. وتسعى إلى التركيز على المحور الثقافي لهذه العموميات، وخاصة القيم والمشاعر والمعلومات والمهارات التي تهيّئ للمجتمع وسائل الاستقرار والحيوية.

وظائف التربية الثقافية والتنشيط الثقافي:

١- الوظيفة الاجتماعية: إنّها الوظيفة الأساسية للتربية الثقافية للطفل، فالثقافة لا تنتقل بطريقة فطرية موروثة من الآباء إلى الأبناء، أو من فرد إلى آخر في المجتمع، فالطفل يولد من دون شخصيته، ثم تتكون شخصيته خلال تفاعله مع المحيط الخارجي، في الأسرة والمدرسة والمجتمع، ويؤدي التعليم والتقليد إلى خلق مركب ثقافي في شخصيته، وهذا المركب الثقافي يتكون من القيم والعادات وأنماط السلوك، التي تعني الأفكار والمشاعر والتصرف في المواقف المختلفة.

٢- الوظيفة النفسية: إنّها وظيفة (القولبة) لأفراد المجتمع، أي اكتساب هؤلاء أساليب التفكير والمعرفة وقنوات التعبير عن العواطف والأحاسيس ووسائل إشباع الحاجات العضوية والنفسية الاجتماعية، وهو ما أصبح يدل عليه بمصطلح (التطبيع الاجتماعي) أو (التنشئة الاجتماعية).

وغاية هذه الوظيفة مساعدة الأطفال على التكيف مع الثقافة، واكتسابهم لهويتهم الاجتماعية الثقافية، ومن هنا تكتسب أهميتها الكبرى في تثقيف التلميذ.

ثانياً- التربية والبيئة الثقافية:

هناك أسس عدة يمكن أخذها بعين الاعتبار، عند طرح العلاقة بين التربية والبيئة الثقافية، ومن هذه الأسس:

١- المؤسسة التربوية عامل من عوامل التثقيف:

لا بد للجيل الصغير في كل ثقافة من الإلمام بالعناصر الثقافية، كالمعتقدات والقيم والأنماط السلوكية، التي يعيشها أهله وأفراد المجتمع من حوله، ويمكن أن تسمى عملية الإلمام هذه التثقيف. فمنذ أن يولد الطفل، حتى يصبح راشداً، وهو يحاول الإحاطة بالعناصر الثقافية التي تحيط به، مما حدا بالمربين اعتبار العملية التربوية عملية مستمرة، ما دام الإنسان حياً.

٢-التربية عنصر ثقافي:

وهي الجزء الرسمي لعملية التثقيف، وعلى الرغم من اشتراكها في بعض العناصر مع ثقافات أخرى إلا أنّها لا بد أن تكون متأثرة بالثقافة المحيطة، ولا سيما أنّ العلم الذي يشرف على التربية، يكون حاملاً لغالبية القيم والمعتقدات السائدة في تلك الثقافة، والتربية - في تلك الثقافة، في أي ثقافة- تكون عبارة عن الجزء المصقول من العناصر الثقافية، وخاصة في الثقافات التقليدية، حيث تكون المدرسة بثقافتها وبتركيبها الاجتماعي أكثر رسمية وتقدماً، مما هو عليه الحال في المجتمع، أمّا في الثقافات المتقدمة فتكون المدرسة أقرب بثقافتها وبتركيبها إلى المجتمع المحيط بها، مما هي الحال في المجتمعات النامية.

٣- التربية ناقلة للتراث الثقافي:

منذ القدم وأهم وظيفة للمدرسة، هي نقل التراث الثقافي، من الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة، والمحافظة على هذا التراث، إلا أن المدرسة لا تقوم بنقل هذا التراث كاملاً سالماً من دون إضافة أو تعديل، فهي تنقله بعد أن تجري شيئاً من التعديل، وبعد أن تضيف العناصر الجديدة التي وصل إليها الجيل الحاضر، وتتمشى هذه الإضافات والتعديلات، عادة، مع روح العصر، وتتناسب مع ثقافة الأجيال الحاضرة.

٤-التربية والتغيير الثقافي:

يعتبر التغيير الثقافي موضوعاً مهماً للمربين في عصرنا الحالي، فالمعارف والمخترعات التي توصل إليها الإنسان في العقود الأخيرة، تفوق إنجازاته في القرون الماضية، والمشكلة أشد إلحاحاً في المجتمعات المتقدمة والنامية على حد سواء، خاصة وأنّ التلاميذ يكتسبون معارف وسلوكيات من التلفاز والإنترنت وغيرها من وسائل

الاتصال، والتي تعتبر أسرع من إحضار المعلومات من المدرسة وأكثر تأثيراً.

رغم ذلك تؤدي المدرسة دوراً مهماً يساوي إن لم يَفُقْ أدوار المؤسسات الأخرى كالعائلة، والعمل، ورفاق اللعب.. إلخ من هنا يبرز دور التربية الحديثة في ثقافة المجتمع، وأهمية النشاط الثقافي للتلاميذ.

خصائص التربية الحديثة:

ويحسن بنا ذكر خصائص التربية الحديثة، لأنَّ التربية في وقتنا الحاضر يمكن أن تكون أداة فعالة في تطوير ثقافة المجتمع وتغييرها نحو أي اتجاه، بحيث يخدم أغراض المجتمع ومتطلباته. وهذه الخصائص هي:

١- الاهتمام بالطفل ونموه الجسمي والعقلي والوجداني والاجتماعي: وكان هذا الاهتمام نتيجة لتقدم علم النفس وتجاربه، وتقدم التربية التجريبية، فتجارب علم النفس أخذت تطبق في حجرة الدراسة، وتتخذ أساساً لتجارب أخرى تربوية، كقياس مواهب الأطفال وذكائهم ونموهم، وبذلك أخذت التربية تقترب من العلوم التجريبية، ويزاولها المربون وفقاً لأسس ضابطة، كلها مستمدة من الطفل الذي هو موضوع التربية.

٢- احترام شخصية الطفل: فقد أحاطته التربية الحديثة بالثقة والطمأنينة، وأشعرته بشخصيته وفرديته، وذلك بتمكينه من التعبير عمَّا في نفسه بكل أنواع التعبير: كالكلام، واللعب، والرقص، والغناء، والتمثيل، والرسم، والأشغال.

٣- التعليم عن طريق اللعب والتجربة والممارسة: وقد كانت التربية التقليدية تعتبر اللعب مضيعة للوقت والمجهود، وتحول بين الأطفال وبينه، أمَّا التربية الحديثة فترى أنه ضروري لنمو الفرد الجسمي والعقلي، وأنه ميل طبيعي له غايته التربوية العظيمة.

٤- التعليم عن طريق العمل والخبرة الشخصية: ويرجع هذا المبدأ إلى جعل المدرسة صورة من الحياة ولا يخفى ما في هذا المبدأ من تشجيع الاعتماد على النفس، وتنظيم عملية التفكير، وتنمية روح التعاون مع الجماعة، والعناية بأسلوب العمل، أكثر من تحصيل المعرفة نفسها.

٥- خلق الجو الاجتماعي لنمو الطفل وتكامل شخصيته: وذلك لأنَّ المدرسة الناهضة جزء من المجتمع، أو هي مجتمع صغير، فهي إذن تمكن الطفل من أن يعامل زملاءه ورؤساءه بالروح الطيبة، التي تخلقها هذه المدرسة، روح الاحترام والأخذ والعطاء، ومعرفة الحقوق والواجبات، وتنفيذ القوانين عن رغبة وإخلاص، وأداء الواجب للواجب عينه.

٦- العناية بصحة الجسم والعقل: وذلك

بإعداد المدرسة الصالحة لنمو الجسم نمواً طبيعياً، وفهم الناحية الوجدانية والنزوعية عند الطفل، وتوجيهها توجيهاً صحيحاً يتخلص به من العقد النفسية بقدر ما يمكن. (فاخر عاقل، ١٩٨٦م، انطون رحمة، ١٩٩٢م).

ثالثاً- أهمية ثقافة التلاميذ:

تهدف الخطة الشاملة للثقافة ، كما وردت في التقرير النهائي، الذي وضعته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والذي يمثل الإستراتيجية الثقافية العربية في مقوماتها ومحاورها، إلى بناء نظرية ثقافية متكاملة، تشكل إطاراً مرجعياً للسياسات الثقافية العربية، انطلاقاً من تحديد المنظور المستقبلي و الرؤية الواضحة لنوع الإنسان وشكل المجتمع المرجو.

ذلك أنّ الثقافة في هذا المنظور ترتبط بالهوية العربية، حيث تمثل روح الأمة وأصالتها من ناحية، كما ترتبط بالمستقبل نظراً لدورها في التنمية الشاملة، ووظيفتها في صناعة المجتمع وصوغ ملامحه وهويته وتماسكه من ناحية ثانية، فهي تشكل بذلك ركن البناء الحضاري وأساس تماسك الأمة، وهي تربط الماضي بالحاضر والمستقبل صانعة بذلك الهوية المميزة للأمة العربية في انفتاحها العالمي.

ولكي تقوم الثقافة بهذه الوظائف،لابد لها من الاستناد إلى المبادئ الرئيسية التالية:

حق الفرد في اكتساب الثقافة والتعبير عنها باعتباره غاية كل تنمية.

شمولية عملية التخطيط للتنمية، حيث تشكل الثقافة ركناً أساسياً فيها، ذلك أن التطوير الاقتصادي والاجتماعي لا يتم إلا بالتخطيط الثقافي، الذي يحدد الأهداف المستقبلية للأمة.

بما أنّ الثقافة هي الزاد الفكري والروحي للجميع، فلا بد لها من أن تكون ديمقراطية وجماهيرية إنتاجاً واستهلاكاً.

قومية الثقافة ووحدتها عربياً، كإطار يعطي الخصوصيات القطرية كل غناها.

دينامية الأصالة والمعاصرة، والخصوصية العربية والانفتاح العالمي.

مسؤولية المؤسسات الرسمية والشعبية في التخطيط الثقافي الشامل، وفي ترجمة هذه الخطط إلى برامج منفذة فعلياً (مصطفى حجازي، ١٩٨٨م).

تنبع أهمية ثقافة التلاميذ من خلال:

- وظيفتها الأساسية، في تحويل المولود الجديد من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي، وتبدأ هذه العملية قبل ميلاد

الطفل وتستمر بعده حتى الممات. إلا أنّ الثقافة بما هي تنشئة اجتماعية تحتل مكانة هامة جداً، خلال سنوات الطفولة وصولاً إلى سن الرشد، فخلال هذه السنوات الحاسمة تتم عملية الانتماء الاجتماعي بخصائصها وديناميتها الأساسية، كما تتشكل الهوية الذاتية التي يلعب المحيط الاجتماعي بمختلف مثيراته ووسائطه الدور الحاسم فيها، كما أنّ الثقافة لا تقتصر على تكوين الهوية، بل تتعداه إلى تكوين الشخصية بمجملها وتحدد السلوك وتوجهاته وذلك من خلال عمليات النمو، في مختلف أبعادها العاطفية والمعرفية والاجتماعية والسلوكية والجمالية.

ثقافة التلاميذ ليست مجرد عملية ارتقاء فكري وتهذيب للحواس، بل هي إعداد للمستقبل وصناعة له من خلال أجيال الغد، هذا المستقبل رهن بعملية التنشئة ومدى العناية التي تعطى لها ونوع التوجهات الأساسية التي تتخذها، ولذلك فلا مبالغة في القول بأن مدى تقدم المجتمع يرتبط بمدى أهمية النظرة إلى الطفولة والتعامل معها وإعدادها.

إنّ الهوية الوطنية وصناعة المستقبل تبينان لنا أهمية ثقافة الطفل وطرحها على أسس علمية وهذا أحد السبل الكبرى للحفاظ على استمرارية الثقافة ودورها، ليس من خلال تقوقعها، بل من خلال تجديدها وإغنائها وبث الدينامية في مقوماتها الأساسية، ويزداد إلحاح هذه القضية مع تصاعد حملات الغزو الثقافي وعمليات التغريب.

ويتحدد مصدر هذا الإلحاح، في قابلية الطفولة والناشئة الكبيرة للتغيير الثقافي والتأثيرات بالتيارات الجديدة والتجاوب السريع معها، وصولاً إلى تبنيها، فالطفولة لا يمكن أن تبقى في فراغ أو تعثّر أو تضارب ثقافي، إذ إن ذلك يفتح السبيل أمام تسرّب البدائل التي يقدمها الغزو الثقافي، وهي لا تخدم أهداف الانتماء والهوية الوطنية والإعداد لصناعة المستقبل، بل هي ترمي إلى زعزعة الروابط بالأصالة وتقطيع أوصال التاريخ وصولاً إلى الصهر الثقافي والاتباع. وبذلك تتجلى أهمية ثقافة الطفل والتربية الثقافية للتلاميذ، في الدفاع عن الكيان من ناحية، وفي صناعة المصير من ناحية ثانية، مما يجعل الجهود مبررة في هذا المضمار.

رابعاً- وسائط ثقافة الطفل:

إنّ الثقافة تؤثر في الطفل من خلال مؤسساتها المختلفة، وبعض هذه المؤسسات لها أثرها التربوي المقصود، أي إنّ مهمتها الرئيسية هي تربية الطفل وإعداده الإعداد

المناسب لعضوية المجتمع، الذي يعيش فيه، ونذكر من هذه المؤسسات: الأسرة والمدرسة إلا أنَّ معظم المؤسسات الثقافية الأخرى كالصحافة والمجلات والإذاعة والتلفاز وغيرها، تتجه إلى الكبار والصغار معاً، أي إنَّ تأثيرها يبدأ منذ طفولة المواطن، ويستمر خلال مراحل نموه وحياته.

وتقسم هذه الوسائط إلى:

الوسائط المكتوبة: وتتضمن أدب الأطفال من قصص وحكايات، وكذلك المجلات والمعاجم ودوائر المعارف العلمية والتاريخية، وكتب السِيَرّ والتراجم.

الوسائط المسموعة والمرئية: وتتضمن المسلسلات والحكايات والبرامج التي تعرض في الإذاعة، وكذلك برامج التلفاز على اختلافها: تربوية، وتعليمية، ووثائقية، وترفيهية، ومغامرات - وتاريخية، وبوليسية.

الوسائط المجسدة: من مسرح أطفال، ومسرح دمى، على اختلاف موضوعاتها ومستوياتها.

الفنون الجميلة: وتتضمن الموسيقى والأغاني للأطفال وكذلك الفنون التشكيلية.

الوسائل التربوية والألعاب: وهي تضم تشكيلة كبيرة من الأنشطة المعرفية: حساب، رياضيات، علوم، تاريخ، جغرافيا، علوم الطبيعة والحياة، ألعاب فكرية، وألعاب مهارية.

وتتكامل هذه الوسائط في وظائفها، وفيما يحمله كل منها إلى الطفل من دلالات ومؤثرات، وفيما تلعبه في نفسية الناشئة وقضاياها الوجودية من أدوار، وهي تشكل في مجموعها شبكة تحيط بالطفل وتستوعبه، مما يجعل دورها في تحديد عالمه وتوجهاته يفوق كل تصور أو نظرة سطحية.

ويؤدي الوسيط الثقافي دوراً حيوياً في إيصال الإنتاج الثقافي إلى الأطفال ويصبغ الوسيط الجيد العمل الأدبي بصبغة خاصة، تتفق مع طبيعته التي تميزه عن غيره من الوسطاء، وهو في هذا يضفي على العمل الأدبي ألواناً من التشويق، تجعله أكثر اقتراباً من نفوس الأطفال، وتجعلهم أكثر حرصاً عليه، وسعياً وراءه، كما تجعل تأثيره في نفوسهم أعمق وأبقى.

وتقودنا معرفة وسائط الثقافة، إلى الحديث عن دلالات الموهبة الثقافية عند الأطفال، بغية الاستفادة منها في التعامل مع الوسائط الثقافية التي تتمثل في النقاط التالية:

القدرة على تحليل المقروء والمسموع ونقده وتذوقه.

القدرة على استعمال اللغة العربية الفصحى في الاتصال بالآخرين شفوياً

وكتابياً، في وضوح الأفكار ودقتها وصحتها وتنظيمها.

القراءة السليمة المعبرة.

القدرة على الإحساس بالجمال وتذوقه في النصوص.

التفوق على الأقران في لون من ألوان النشاط اللغوي أو الأدبي أو الثقافي.

ولا شك في أن وسائط ثقافة الطفل بأنواعها المختلفة، تساهم في رعاية الأطفال وتنشئتهم، من خلال احتضانها الإنتاجي الثقافي للموهوبين فجميع الوسائط ووسائل الإعلام مطالبة بمتابعة هؤلاء الأطفال، الذين يكتبون، ويبدعون، وإضافة لذلك أرى أن الأسرة والمدرسة والمجتمع، هي مصادر الرعاية للأطفال الموهوبين ثقافياً، لأن هؤلاء الأطفال هم رجال المستقبل، وعماد المجتمع في التقدم والازدهار. (جميل عبد المجيد، ٢٠٠٥م).

التربية الثقافية والمستقبل:

لقد استقر رأي العلماء، على أن التربية عملية تنصرف في جوهرها إلى إعداد الطفل إعداداً يؤهله لكي يكون فرداً صالحاً نافعاً لنفسه ولمجتمعه ويتسع مفهوم التربية ليشمل ثلاثة مجالات، هي:

تنمية الجسم تنمية سليمة عن طريق الرعاية الصحية الشاملة والمستمرة، وتهذيب النفس بما ينطوي عليه من رقي في المشاعر والوجدان والتمسك بالقيم الخلقية، وتثقيف الفكر وتحصيل المعارف بما يؤكد وجود الفرد برؤية صالحة نافعة، لليوم والغد الأفضل.

وإنَّ الاهتمام بالتربية الثقافية للتلاميذ، يعني الاهتمام بالواقع والمستقبل معاً، وإنَّ قضية المستقبل ليست فصلاً جديداً في كتاب التاريخ، يبدأ من خواء، بل إنَّ المستقبل هو الحصيلة التراكمية لما يتتابع من الأحداث، وعمليات التغير النابعة من المجتمع أو الوافدة عليه. وحين نحاول استشراف مستقبل الوطن العربي ، فإنَّ علينا أن ندرك أنَّها ستكون ثمرة ما نفعله منذ الآن، وحتى ذلك التاريخ.

من خلال الأسس التالية، التي يجب أن تقوم عليها التربية الثقافية للتلاميذ، ندرك أهمية ثقافة المتعلم ودورها في التخطيط للمستقبل كما شدد المفكر العربي قسطنطين زريق (١٩٨٢م).

تأصيل الهوية الثقافية، مع اهتمام خاص باللغة العربية.

التأكيد على التحصين الثقافي من أجل إطلاق طاقات النمو عند التلاميذ.

اعتماد مبدأ قومية التخطيط لثقافة الطفل وشموليته، والتنسيق بين جميع مجالاتها ووسائطها.

قيام هذا التخطيط على دراسات عملية تتناول جميع جوانب حياة الطفل، وتقوم على تنسيق جهود المختصين في مختلف وسائط ثقافة الطفل.

العناية الخاصة بإعداد الخبراء الفنيين والتقنيين في مختلف مجالات ثقافة الطفل وتربيته.

الاهتمام بأدب الأطفال، والخدمات المكتبية، والنشر والتوزيع، ومسرح الطفل، ووسائل الترفيه، ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة.

وخلاصة القول: إنَّ التربية الثقافية للطفل، تطرح بكل بساطة، وكل خطورة، قضية الثروة البشرية المستقبلية، وتتجه الأنظار حالياً إلى التربية الثقافية للطفل بغية تنمية الثروة البشرية المستقبلية على أسس صحيحة، فالتربية الثقافية عملية حياة كاملة، تأخذ منها وتعطيها وتعكس التغيرات الثقافية وتدعمها وتثبتها، وتعمل على استقرارها، وهي وسيلة المجتمع إلى إحداث التغيير المطلوب، في الإنسان والمجتمع على السواء. (مصطفى حجازي، ١٩٨٨م)

عقبات تصطدم بها التربية الثقافية والتنشيط الثقافي للتلاميذ:

بينت بعض الدراسات أنَّ هناك عدة صعوبات تصطدم بها التربية الثقافية للتلاميذ وعملية التنشيط الثقافي منها:

- غياب فضاء ملائم لممارسة الأنشطة.
- تدني المستوى الدراسي للتلاميذ (الانقطاع المبكر).
- عوائق خارجية (الإدارة، الإشراف...).
- غياب موارد علمية، غياب الدعم المادي و المعنوي، غياب الأطر المسؤولة عن الإشراف على العمل الثقافي.
- حرمان التلاميذ من إمكانيات ثقافية هم في أمس الحاجة إليها.

إذا كانت الممارسة التربوية الفعلية تبعا لنظام الأكاديميات أصبحت أكثر تقنينا، وضبطاً للتلاميذ من حيث نوعية المعلومات المفترض تقديمها للمتعلمين، والفروض والامتحانات الدورية، إضافة إلى كثافة المقررات الدراسية الشيء الذي يحول دون التوسع في القضايا الفكرية التي تقدمها الموارد الدراسية، خاصة وأن المؤسسة التعليمية تعتبر المجال الوحيد لتكوين الفرد وجدانيا ومعرفيا و سلوكيا.

إنَّ العمل التنشيطي في حالة غيابه يترك فراغاً، و ما ينجم عنه من تغييب لفضاءات ملائمة للتنفيس عن التلميذ، وتلبية حاجاته، و تفجير طاقاته الإبداعية، و هذا يؤدي إلى تدني مردودية المؤسسة التعليمية معرفياً و تربوياً. لذلك لابد من إخراج المؤسسة من

عزلتها و ذلك بتطبيق الأنشطة التالية:

- خلق برامج للدعم و التقوية في مختلف مواد الأنشطة (علمية، ثقافية..).

- تنظيم معارض، زيارات، مسابقات، ندوات. وحوارات و..

- ترك الباب مفتوحاً في وجه كل أنواع المبادرة الجادة على مستوى الأنشطة الثقافية.

(جميل عبد المجيد، ٢٠٠٥م)

المراجع

١- أنطون رحمة (١٩٩٢م) التربية العامة. منشورات جامعة دمشق.

٢- أحمد أبو هلال (٢٠٠٥م) الأنثربولوجيا الثقافية.

٣- الخطة الشاملة للثقافة العربية، الكويت (١٩٨٦م).

٤- سمر روحي الفصيل (٢٠١٠م) ثقافة الطفل العربي.

٥- فؤاد شاهين (١٩٨٠م) علم الاجتماع ومفهوم الثقافة، مجلة الفكر العربي، العدد ١٤، الكويت.

٦- حسن شحاتة (١٩٩٠م) النشاط المدرسي. الدار المصرية اللبنانية، مصر.

٧- لينا كيلاني (٢٠١٢م) مسرح الطفل بين السنوغرافيا واستلهام التراث. مجلة المعرفة. العدد ٥٩١.

٨- فاخر عاقل (١٩٨٦م) التربية ، دار العلم للملايين: بيروت.

٩- عبد الرؤوف حامد (٢٠٠٤م) إدارة المعرفة والإبداع المجتمعي. دار العين للنشر: مصر.

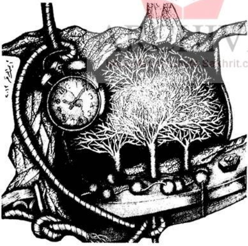
١٠- جميل عبد المجيد (٢٠٠٥م) الأنشطة الإبداعية للأطفال. دار صفاء: عمان.

١١- قسطنطين زريق ١٩٨٢م) نحن والمستقبل. دار العلم للملايين: بيروت.

١٢- مصطفى حجازي (١٩٨٨م) ثقافة الطفل العربي بين التغريب والأصالة. منشورات المجلس القومي للثقافة العربية. الرباط.

التقدم العلمي ودوره في إطالة العمر

✲
إبراهيم سلوم



في أواخر التسعينيات في القرن الفائت طالعتنا صحيفة «لوموند» اليومية الفرنسية في زاويتها العلمية بمقال مثير للجدل تحت عنوان: «وداعاً للشيخوخة وأهلاً بالشباب المتجدد». وفي هذا المقال تشير الصحيفة إلى أن الحياة لا تترك للمرء أي خيار سوى الرضوخ لمسيرتها المبرمجة التي تبدأ بالطفولة مروراً

✲ مترجم وباحث سوري.

العمل الفني: الفنان أيمن الدقر.

بالشباب وتنتهي بالشيخوخة، وأن لكل مرحلة من هذه المراحل سماتها الخاصة بها ولاسيما مرحلة الشيخوخة التي تُفسّر دوماً من خلال العلائم الدالة عليها: كظهور التجاعيد على الوجه، والدوائر السوداء تحت العيون، وفقدان مرونة الجلد وذوبان العضلات. إضافةً إلى العامل النفسي الذي يتجلى لدى الشخص المسنّ بالإحساس بالقلق والخوف من تداعيات وطأة العمر عليه جسدياً ونفسياً. ويزداد هذا الخوف لدى البعض كلما أطال النظر إلى الصور الفوتوغرافية التي التقطت له وهو في ريعان الشباب حين كان يبدو بمنظر حسن يتناقض ومنظره الحالي، أو كلما نظر إلى المرآة وشاهد على وجهه ما يقوم به الزمن من حتٍّ ونخر. ولقد عبّر عن هذه المخاوف الكاتب والشاعر الفرنسي جان كوكتو (١٨٨٩-١٩٦٣م) حين قال: «في كل يوم يمرّ أراقب الموت في المرآة وهو يقوم بعمله». ثم تلاه السينمائي الأمريكي «وودي ألان» الذي اعتبر «أنَّ الحياة هي مرضٌ مميت ورثناه عن آبائنا. أنا لا أريد الخلود بفضل ما أنجزته من روائع فنية بل أبغي الخلود بألا أموت أبداً». وتفادياً لهذا الخوف بادر العلماء في مجالي الطب والبيولوجيا إلى اكتشاف وسائل تخفف من حدته، وتضمن الحفاظ على الشباب من خلال اللجوء إلى العمليات التجميلية أو الترميمية، أو الحقن بمادة البوتوكس وما شابه ذلك. ففي فرنسا لوحدها تمّ صرف مبلغ قدره زهاء ٤ مليارات يورو خلال عشر السنوات الماضية من أجل كبح جماح الزمن. ففي كل عام يقوم أطباء التجميل بوضع أكثر من ٨٠٠٠ حقنة من البوتوكس في بعض أعضاء الجسم لدى بعض المسنين من النساء والرجال لإعطائهم الشعور بأن منظرهم ما زال جميلاً ولائقاً، في حين يتهافت البعض الآخر على عيادة أطباء الجراحة التجميلية المختصين بالأذن والأنف والحنجرة أو الوجه والأسنان لترسيخ فحوى مقال الصحيفة المذكورة: «وداعاً للشيخوخة وأهلاً بالشباب المتجدد».

وعلى حين غرة، عادت الصحيفة الفرنسية (لوموند) نفسها ولكنْ بنسختها الشهرية المسماة «لوموند ديبلوماتيك» الصادرة لشهر كانون الأول في العام ٢٠٠٩ لتنشر مقالاً جديداً فريداً من نوعه بعنوان: «سنكون خالدين بحلول عام ٢١٠٠»، وفيه تتحدث كيف أنَّ الإنسان في نهاية القرن الحادي والعشرين سيشهد الخلود البيولوجي بفضل التقدم العلمي محققاً بذلك حلمه الكبير بالخلود، وكيف يتبارى اليوم علماء البيولوجيا والهندسة الوراثية من أجل إيجاد ترياق ناجع لعلاج الشيخوخة واستخلاص إكسير الحياة للوصول إلى

الخلود البيولوجي، معللةً ذلك بأن الإنسان يسعى منذ بدء الخليقة لتحقيق حلمه الكبير بالخلود. وقد مضى لاهثاً في البحث عن بعض أنواع الغذاء أو اقتناء بعض الأعشاب الطبية لبلوغ هذا الهدف المرجوّ. والتاريخ القديم يذكرنا بالملك ميداس (٧١٥ ق.م) ملك فريجيا القديمة الواقعة في منطقة الأناضول الشمالية بين بحر إيجه والبحر الأسود عندما كان يشرب شراباً هو مزيج من عصير العنب المخمّر بالبيرة وعسل النحل، وهي مادة قيل إنها تطيل الحياة إلى مالا نهاية، ويعيش في قصر تحيطه حديقة مليئة بكل أصناف الورود في منطقة مقدونيا يقيناً منه بأن هذا النمط من الحياة سيكتب له الدوام في الأرض.

وفي ملحمة جلجامش وهي ملحمة سومرية بابلية الإنتاج نقرأ بأن جلجامش حاكم مدينة أوروك السومرية، كان عملاقاً طويل القامة مفتول العضلات، جميل المنظر ولكنّ ثلثا صدره إله والثالث الآخر إنسان. وفي أحد الأيام طلبت منه الربة عشتار أن يتزوجها فرفض. ونتيجةً لرفضه هذا ذهبت عشتار إلى والدها وشكت له أمرها فغضب الأب على جلجامش وأرسل له ثوراً لتجف الأرض تحت قوائمه وينحبس المطر. في هذه الأثناء تنبأت العرافة لجلجامش بأن هناك شخصاً يعيش مع الوحوش والظباء يدعى (أنكيدو) ويمكن لهذا الأخير أن يساعده على قتل الثور الذي عاث في الأرض فساداً. يبحث جلجامش عن أنكيدو إلى أن التقى به وشكا له أمره، فتعاون الاثنان على قتل الثور وتمكنا أخيراً من قتله. لكنّ موت الثور أصاب أنكيدو بمرض عضال مات على أثره. وهنا يسيطر الخوف على مشاعر جلجامش الذي بدأ يخاف من الموت، وما كان منه إلا أن ذهب إلى جده (أبيشاليم) ليقول له: جداه، لماذا أنت خالد، فيجيبه الجد: لقد خدمتُ الآلهة عندما أركبت في سفينتي كل الكائنات الحية، وبودي أن أعلمك يا جلجامش بأن هناك عشبة يمكن لها أن تمنحك الخلود وقد تجدها في قعر البحر. وعلى الفور وضع جلجامش في رجله حجراً ثم سقط في ماء البحر إلى أن وصل إلى القاع، وهناك شاهد «عشبة الحياة» التي قام باقتلاعها والصعود بها إلى اليابسة. وعندما أراد يوماً أن يستحم في بركة ماء ترك العشبة على حافة البركة، فجاءت أفعى تناولت العشبة وهربت بها. اغتم جلجامش لهذا الحدث بعد أن يئس من العثور على عشبة الحياة فمات كمداً.

ليس هناك أدنى شك بأن الحياة البشرية وحياة كل المخلوقات على كوكب الأرض تمرّ بالعديد من المراحل لكنها تنتهي جميعها إلى نهاية واحدة لا مناص منها. والفترة الزمنية

ما بين البداية والنهاية نطلق عليها تسمية العمر، وهو يطول ويقصر ويختلف مداه من مخلوق لآخر... فبعض الحشرات لا تعيش سوى بضع ساعات أو أيام. الفأر قد يعيش لسنتين في أفضل الأحوال. الكلب ١١ عاماً، والقطة ٧ أعوام. الحصان ٢٥ عاماً، والفيل ٦٠ عاماً. وهناك بعض أنواع السلاحف الذي يعيش ١٩٠ عاماً. زاحف التوتارا (Tuatara) النيوزلندي قد يعيش لـ٢٠٠ عام. حيتان الرأس المقوس (Bowhead whale) قد تعيش لـ ٢٢٠ عاماً. أسماك الكوي اليابانية (Koi) الزاهية الألوان قد تعيش لـ ٢٤٥ عاماً. بعض أنواع المحار تعيش لأكثر من ٤٠٠ عام. وهناك بعض أنواع أشجار الصفصاف (Bristlecone pine) قد يصل عمرها إلى ٥٠٠٠ عام. وتوجد بكتيريا تدعى (bacillus permians) عمرها ٢٥٠ مليون عام، وفي الآونة الأخيرة تمكن العلماء في الولايات المتحدة من إعادتها للحياة عام ٢٠٠٨ بعد استخراجها من صخرة كلوريد صوديوم كان قد عُثر عليها في داخل كهف في المكسيك.

لكن هل هناك مخلوق لا يموت؟ هناك قنديل بحر عجيب يدعى «هايدروزون»، واسمه العلمي (Turritopsis nutricula)، هذا الكائن البحري الصغير هو المخلوق الوحيد على وجه الأرض الذي أحتال على الموت واستطاع خداعه. فحين يصل هذا الحيوان إلى مرحلة الشيخوخة التي يليها الموت عادةً عند جميع المخلوقات يقوم هذا القنديل «المحتال» بعكس مراحل حياته ليعود أدراجه إلى مراحلها الابتدائية، وهي مرحلة تعرف باسم البوليب (polyp)، ثم يبدأ بالنمو مجدداً حتى يصل إلى سنّ الشيخوخة وهكذا دواليك. وهذه العملية المعقدة يمكن أن تستمر وتتكرر بشكل غير محدود لدى هذه القناديل العجيبة، أي إنها «خالدة» بيولوجياً بكل معنى الكلمة. لكنّ كل هذا لا يعني بأنها لا تموت، فهذا الكائن غالباً ما يتعرض للافتراس من قبل كائنات أخرى وبالتالي فهو يموت أيضاً مثل الآخرين. إنَّ العلماء الذين درسوا هذا القنديل البحري يقولون بأنه يستخدم آلية معينة لإعادة تدوير حياته، وذلك عن طريق تحويل خلايا جسمه من نوع وشكل إلى آخر، وهي آلية يطلق عليها تسمية (transdifferenciation)، ويمكن ملاحظتها على نطاق محدود لدى بعض أنواع الزواحف كالسَمَنْدل (salamander) الذي بإمكانه تعويض وإعادة بناء بعض أطراف جسمه في حالة تلفها أو فقدها. وهناك نطفة الحياة التي بدأت بمخلوق واحد هو الخلية الواحدة التي كانت تسبح في البرك والمستنقعات، والتي

لا تعرف الموت كما نعرفه نحن. فقد كان الموت لا يدركها إلا بوقوع حادثة خارجية كأن يجف المستنقع أو يلتهمها مخلوق أكبر منها أو تنزل عليها صاعقة. لقد كان مسلحاً ضد الموت، وكان ينمو لا ليشيخ ويهرم بل إلى طفولة جديدة فينقسم عندما يبلغ غاية نموه ويصبح مخلوقين. وكثيراً ما كانت تتكيس هذه الخلية بحيث لا يؤثر فيها الحرّ ولا الصقيع، وهذا ما نصادفه في أكياس الأميبيا ضمن مخابر التحليل الطبية. ولقد عُثر على مثل هذه الخلية في أواخر القرن الفائت في القطب الشمالي وتعود إلى أكثر من ١٢ ألف عام، وتمكن العلماء من زرعها فأعيدت ثانيةً إلى الحياة.

والسؤال الذي نود طرحه الآن هو ماذا عن الإنسان، وكم بإمكانه أن يعيش؟ وهل يمكن أن يصبح خالداً على غرار بعض المخلوقات الحيّة التي جئنا على ذكرها آنفاً؟ لو عدنا إلى الوراء قليلاً لوجدنا أن متوسط عمر الإنسان قبل قرنين من الزمان لم يكن ليتجاوز الثلاثين عاماً، وكانت نسبة الوفيات مرتفعة جداً، ولم يكن غريباً أن يموت الناس في ريعان شبابهم. ففي فرنسا تشير الإحصائيات إلى أن متوسط العمر في عهد نابليون بونابرت (مطلع القرن التاسع عشر) لم يكن يتجاوز الـ ٤٠ عاماً. أمّا اليوم فمعدل عمر الإنسان في الغرب أصبح يناهز الـ٨٥ عاماً وذلك بفضل التقدم العلمي الذي شهده القرن الفائت. وطبقاً للسجلات الرسمية فإنَّ أغلب معمري العصر الحديث هم إما أمريكيون أو أوروبيون أو يابانيون لأنّ دولهم اهتمت منذ زمن بعيد بتوثيق ولادات ووفيات سكانها. وهكذا سُجّل بأنّ أطول عمر عاشه الإنسان في العصر الحديث مدوّن باسم الفرنسية جان كالمنت (Jeanne Calment) التي ماتت عام ١٩٩٧ عن عمر يناهز الـ ١٢٢عاماً و١٦٤ يوماً. وهذه السيدة الفرنسية المذكورة عاشت طويلاً، وعاصرت أحداث قرنين من الزمان فقدتْ خلالها زوجها وابنتها الوحيدة وحفيدها الوحيد وكل من تعرفه من الأقارب والأصدقاء لينتهي بها المطاف وحيدةً في دار للعجزة. والطريف في الأمر هو أن جان كالمنت عاشت بمفردها ومن دون مساعدة ورعاية من أحد حتى سنّ الـ ١١٠، وكانت تقود الدراجة الهوائية حتى سنّ الـ١٠٠، كما إنّها كانت تدخن السجائر منذ سنّ الـ ٢١ ولم تترك هذه العادة السيئة إلا في سن الـ١١٧عاماً. وفي يوم الجمعة الواقع في ٢١ كانون الثاني من العام ٢٠١١ توفيت الأمريكية السوداء ميسيسيبي وين، التي كان يطلق عليها لقب «سويتي»، وهي من أطول الأمريكيين من أصول أفريقية عمراً، عن عمر ناهز الـ ١١٣ عاماً. وتشير

الإحصاءات إلى أنَّ شخصاً واحداً من بين كل مليون في الدول الصناعية الكبرى يعيش حياة مديدة لتصل إلى ١١٠ أعوام، يقيم نحو ٦٠٪ منهم في الولايات المتحدة، إضافة لقرابة ٣٠٠ آخرين موزعين بأنحاء متفرقة حول العالم، مع الإشارة إلى أن ٩ من كل ١٠ هم من النساء. ويقول روبرت ينغ الباحث الأمريكي في «مجموعة أبحاث علم الشيخوخة» واستشاري في موسوعة «جينز للأرقام القياسية»: «إنَّ والديّ وين وُلدا إبان فترة العبودية، فوالدها من مواليد ١٨٤٤، ووالدتها من مواليد ١٨٦٠. ويُشار إلى أن وين لم تتزوج مطلقاً وعاشت مستقلة حتى بلوغها سن ١٠٣ سنوات، بنمط معيشي أهّلها لدخول «نادي النخبة»، الذي يضم كل من تتجاوز أعمارهم ١١٠ أعوام فما فوق. والجدير بالذكر أن سرّ العمر المديد والعيش حتى بلوغ سنّ ١١٠ أعوام يكمن في السلوك الإيجابي والاستقرار العاطفي والجسدي وفي تعاطي القليل من العلاجات الطبية خلال فترة الحياة. لقد كان معظم هؤلاء المعمرين يقومون بكل شيء باعتدال، ويتمتعون بلياقة بدنية مكّنتهم من السير حتى بلوغ سن ١٠٥ سنوات. ويذكر أن أكبر معمر للبشرية في العالم، وفي زمننا الحاضر كان الياباني جيرومون كيمروا المولود في عام ١٨٩٧، والذي توفي في حزيران من هذه السنة ٢٠١٣ بعمر ١١٦ سنة. ومما يثير الدهشة هو أنه في أواخر العام ٢٠١٠ دخل عجوز فرنسي عمره ٩٥ سنة وعجوز أنثى عمرها ٩٤ سنة في موسوعة «جينز» حيث تزوجا في دار للعجزة بمدينة مونبلييه الفرنسية».

بالأمس كانت هناك أبحاث جدية حول إطالة عمر الإنسان عن طريق معرفة وظائف أعضائه التشريحية. وقد نجح العلماء في تحقيق نتائج مذهلة حين اكتشفوا أنَّ الغدة الصنوبرية التي تفرز هرمون الميلاتونين هي التي تقود أوركسترا غددنا جميعاً، وهذه الغدة تقع في عمق الجمجمة وهي التي تقرر متى نشيخ ونموت. لذا، فالمحافظة على جعلها فتية هي الوسيلة المثلى في قلب عملية التشيخ، ولاسيما أنّها تساعد جسمنا على مدّه بالأوكسجين لكون هذا العنصر جوهرياً في تزويدنا بالطاقة. وكانت النتائج مذهلة أيضاً عندما اكتشفوا أن المرء حين يصل إلى الـ٦٥ عاماً يفقد ٥٠٠ غ سنوياً من النسيج الدهني، و٥٠٠ غ من النسيج الجاف المؤلف من العضلات والعظام، مما يدل على أنه في قلب عملية التشيخ. من هنا اقتضت الضرورة على كل إنسان بلغ هذا السنّ أن يتناول البروتين والدهونات الموجودة في اللحم الأحمر بمعدل ٢٠٠ غ في الأسبوع، أمّا الكحول فيُسمح بـ٣٠ غ و١٥ غ

للنســاء، والملح بمعدل ٦ غ يومياً، كما يجب تناول الشـوكولاته السوداء واحتساء الشاي الأخضـر لأنّ الامتناع عن كل هذه العناصر ضار بالصـحة ويسرّع باقتراب الشيخوخة. كذلك لم يهمل العلماء العامل النفسي عندما أوضحوا بأن تناول الجزر يجعل المرء هادئاً ولطيفاً ويحبه كل الناس، أما إذا تناول الخس فيحصل على مواد مهدئة طبيعية لأنه يعالج الأرق ويهدئ الأعصـاب وهو مسـكن للألم ومنوّم. ولقد كان الرومان يدخنون أوراقه في حروبهم لتحصل أجسادهم على ساعات من الهـدوء والراحة خلال المعارك وذلك عملاً بتوصـية أكبر الأطباء الأقدمين وأشـهرهم الطبيـب اليوناني أبقراط الـذي كان يقول لمرضاه: «اجعل طعامك يكون هو دواؤك».

وفي زمننا الحاضر أصبحت الشيخوخة علمـاً قائماً بذاته. وهناك اليوم العديد من الدول والمؤسسات العلمية التي تنفق الملايين لتفـادي مخاطر هذا السـبب الوجيه الذي يجب أخذه بالحسـبان وهو أن الشيخوخة تسـلب البشرية أفضـل علمائها ومفكريها الذين وصـلوا إلى قمة إبداعهم ونضوجهم الفكـري نتيجة تراكم التجـارب والخبرات عبر السـنين. ولهذه الأسـباب مجتمعة يرى العلماء أنّ القضاء على الشيخوخة أو الحد من آثارها السـلبية سيكون له عظيم المنفعة على الإنسانية جمعاء.

في السـابق سادت مقولة تقول: لكل داء دواء إلاّ الشـيخوخة. لكـنْ كمـا رأينا فإن الأبحاث العلمية تفنـد اليوم هذا الاعتقاد السـائد منذ آلاف السنين حين أظهرت أنّه بالإمكان إطالة عمر الإنسان بعد أن استطاع العلمـاء إطالـة عمـر الديـدان والفئران والجرذان بشكل كبير عن طريق اتباع نظام غذائي معيّن، أو اسـتخدام عقاقير جديدة. وبحسـب العالم «أندريه بارتكه» من جامعة إيلينـوي الأمريكية فقد تمـت إطالة عمر الفئران بنسـبة ٢٠٪ وغيرها من الحيوانات بفضـل العناية البيطرية التي تُقدم لها في البيوت أو في حدائق الحيـوان. فمثلاً كان الكلب يعيش وسطياً كما ذكرنا آنفاً ١١ سنة، والقطة ٧ سـنوات في العام ١٩٨٢. أمّا اليوم فيعيش الكلب ١٥ سـنة، والقطة ١١سـنة، والحصان ٣٠ سـنة، حتى الفيل كان يموت في عمر الـ٦٠سـنة عندما تصـبح الأسنان الطاحنة لديه غير قادرة على طحن الأوراق ومـن ثم عجنها لتكون قابلة للبلع، أما اليوم فهو يعيش ٧٠سنة بفضل الطبيب البيطري الذي يعمل على ترميم أسـنانه. كان الأسد يعيش ١٢سنة، وحالياً نراه يعيش في حدائق الحيوانات أكثر من ٢٠سنة، وكل ذلك ناجم عـن العنايـة الطبيـة والتصـوير الطبقي المحوري حيث تكلف الصورة (٢٥٠) يورو في المشافي البيطرية في دول الغرب الأوروبي.

وفي مطلع القرن الحادي والعشرين تمكن فريق من الباحثين المتخصصين في علم التشريح العضوي بجامعة (ليريدا) الإسبانية من تأخير معدل شيخوخة الخلايا عن طريق بعض التعديلات الجينية التي أجروها على فئران المختبرات حيث تمكنوا من إطالة عمرها بنسبة تصل إلى ٤٠٪، أي أنه في حالة نجاح هذه التجارب على الإنسان فإن عمره سيطول ويزداد، مما يفتح الأمل أمام إطالة عمر الإنسان إلى ١٥٠ عاماً من دون مشاكل. وأجريت الدراسة التي نشرتها مجلة (الأكاديمية الوطنية الأمريكية للعلوم)، على ذبابة الفاكهة المعروفة علمياً باسم (دروسوفيلا ميلانوجاستر) التي تعيش فترة لا تتجاوز الشهر الواحد، وبعد التوصل إلى جينة التخمر لدى هذه الذبابة تمكن العلماء من إطالة عمرها ليصل إلى ٩٠ يوماً. وقال الباحثون إنّهم وجدوا عدداً مدهشاً من الجينات الجديدة التي يشترك بها البشر وذبابة الفاكهة هذه، مما جعل أحدهم يقول: «نحن لسنا سوى ذبابة ضخمة من حيث الجوهر. وذبابة الفاكهة هذه هي أعقد كائن حيّ يتم رسم خريطة جينية له حتى الآن. وإذا ما تم نقل هذا الاكتشاف إلى عالم البشر فإنه سيساعد في فَهْم الكثير من الأمراض البشرية وتطور طبيعة الإنسان. إنّ التجارب التي أجريناها هي الأولى من نوعها التي قلصت بالفعل من عملية تقدم العمر والشيخوخة لدى ذبابة الفاكهة كمرحلة أولى، وهو ما يعني أن سرّ إطالة العمر لم يعد سرّاً عصياً بل تحوّل إلى شيفرة مفهومة على هيئة جينات يمكن نقلها إلى الإنسان بتطور تقنيات العلاج الجيني، أو يتم التحكم في تعبيراتها بالعقاقير المحفزة، أو المثبطة حسب الطلب. ويبدو أن العلماء قد حققوا كشفاً مهماً في مجال الهندسة الوراثية والتعرف على الجينات التي تسبب مرض المفاصل وأمراض القلب، والزهايمر، وانحناء الظهر والسرطان مثل الجينة ب-٢١ التي تنتج بروتينات تترسب عادة في أدمغة المصابين بمرض الزهايمر وبالأمراض الأخرى الآنفة الذكر، ما يؤدي إلى إنتاج عقاقير لعلاجها لدى المسنين وتمكينهم بنفس مستوى القدرات الذهنية التي يتمتع بها صغار السن، ووفقاً لهذا السيناريو سيطول عمر الإنسان بنحو ٢٠ عاماً بين أعوام ٢٠١٠ و٢٠٣٠م».

ولكن أكثر الإنجازات الواعدة الآن تأتي من قِبَل الباحثين الذين اكتشفوا طريقة حقن الخلايا الجذعية الأولية للإنسان -وهي خلايا الأجنة، وبعض خلايا النخاع العظمي التي لديها القدرة على إصلاح واستبدال أي نسيج في جسم الإنسان- في مخّ المصابين بالسكتة الدماغية؛ مما يؤدي إلى

علاج الأضرار التي تصيب المخ أو الأمراض التي تتسبب بفقر الدم وتتطلب عملية نقل دم متكررة لإبقاء المريض حياً مثل الإصابة بمرض (بيتاتلاسيميا). ففي يوم ٩ شباط ٢٠١١ نقلت وكالة الصحافة الفرنسية نبأ طبياً مفاده: «وُلد في يوم ٢٦ كانون الثاني من العام ٢٠١١ في أحد مستشفيات منطقة باريس «طفل شاف» يدعى «أموت» نتيجة عملية إخصاب في الأنبوب بعد تشخيص جيني مزدوج قبل زرع الجنين. وأتاحت عملية التشخيص الجيني المزدوج التأكد من أن «الطفل الشافي» غير مصاب بمرض بيتاتلاسيميا مثلما هو الحال لدى إخوته الثلاثة المصابين بهذا المرض لوالدين من أصل تركي هما في الثلاثينات من العمر ويقيمان في جنوب فرنسا. وعلى هذا النحو سيتيح تطابق الأنسجة زرع دم لأحد إخوته الأكبر سناً من حبله السري الذي تم الاحتفاظ به عند ولادته لأنّه واهب ملائم له. وهو أوّل طفل من هذا النوع يولد في فرنسا بوزن ٣,٦ كغ عند ولادته وفي صحة جيدة جداً، بحسب رأي الطبيب الفرنسي «رينيه فريدمان» الذي أشرف على كل هذه العملية، والذي أطلق على «الطفل الشافي» تسمية أخرى هي «طفل الأمل المزدوج». لا شك أن مثل هذه العملية في المستقبل قد تقلب جوانب كثيرة من مسألة المرض والشيخوخة عند الجنس البشري.

وإذا كان الإنسان قد نجح في إطالة عمره بنسبة الضعف أو الضعفين خلال قرن واحد من الزمان، فالعلماء اليوم لم يعودوا يتحدثون عن إضافة عدة عشرات من السنين فقط بل ظهرت بالفعل أفكار ونظريات حول كيفية جعل الإنسان خالداً إلى أبد الدهور. بعضها قد تبدو في نظرنا اليوم مجرد أفكار خيالية مستحيلة التطبيق كما كان أسلافنا يعتبرون السيارة والطائرة والحاسوب من أمور الخيال العلمي البعيدة المنال، أو كما كنا قبل ثلاثين عاماً فقط لا نتخيل ولا حتى في الأحلام بأنه سيأتي يوم نحمل فيه الهاتف ونتكلم بواسطته أثناء مشينا في الشارع ومن دون أن نجرّ خلفنا سلكاً طوله مئات الأمتار. لا بل الأدهى من ذلك كله هو أن نستمع للموسيقى ونشاهد الأفلام بوساطة هذا الهاتف الصغير! .. فهذه الأمور كنا لا نراها إلا في أفلام الخيال لكنها أصبحت اليوم واقعة علمية نعيشها يومياً. وحسبنا أن نتمعن جيداً بمقال جريدة «لوموند ديبلوماتيك» الشهرية بعنوان: «سنكون خالدين بحلول عام ٢١٠٠» لنعرف حقيقة ما يجري من أبحاث جدية يقوم بها العلماء من أجل خدمة الإنسان وتأمين العيش الرغيد والمديد له. ففي صيف عام ٢٠٠٩ اجتمع ٤٠ عالماً في جامعة الفرادة الأمريكية

(university of Singularity) التي يتألف ملاكها من ١٢٠٠ عالم وباحث وطالب، والتي يترأسها عالم الكومبيوتر الأمريكي «راي كورزويل» الذي يُعدّ أحد رواد دراسات الآفاق المستقبلية. وكان بين الحضور جورج سموت الحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء في العام ٢٠٠٦، ورجل الفضاء دانيال باري، وعلماء آخرون مختصون بالرياضيات والطب وأبحاث الفضاء. وقد دار البحث في هذا الاجتماع حول تفحّص «قانون مور» الذي يحمل اسم مكتشفه «غوردون مور». ففي العام ١٩٦٥ تنبأ غوردون مور مؤسس شركة «انتيل» للمعالجات الميكروية التي تُعد أكبر شركة موردة لمنتجات السيليكون بتوقعات حول المستقبل عُرفت تحت اسم قانون مور. وبحسب هذا القانون فإنّ عدد الترانزيستورات على الشريحة يتضاعف تقريباً كل عامين. وقد أدت هذه الملاحظة إلى بدء دمج السيليكون مع الدوائر المتكاملة من قبل أنتيل، مما ساهم في حفز الثورة التقنية في شتى أنحاء العالم، وهذه الزيادة الفائقة لأعداد الترانزيستورات أدت إلى المزيد من الأداء الحاسوبي حيث شرع الحاسوب يقوم بملايين العمليات في الثانية الواحدة، مما سيغرق من الآن فصاعداً الكون بذكاء خارق.

والجدير بالذكر أنّ هذه الجامعة تقع في وادي السيليكون بولاية كاليفورنيا، وهي فريدة في موقعها وتخصصاتها ومناهجها الدراسية ومتميزة بطلابها وأعضاء هيئة التدريس فيها وأيضاً بشركائها مثل: شركة غوغل ووكالة ناسا. وقد أصبحت هذه المنطقة مشهورة لأنّها تضم العديد من القطاعات الاقتصادية المتطورة تكنولوجياً، وفيها مجموعة كبيرة من كبرى شركات التقنية وذلك بفضل البنية التحتية الفائقة التطور والطاقات البشرية الاستثنائية التي تتميز بها هذه المنطقة. وهي جامعة تعرف من اسمها، أي إنها تتفرد بإعداد وتأهيل جيل جديد من قادة المستقبل المدركين جيداً للتغيرات العلمية والتكنولوجية المتسارعة، كالبيوتكنولوجيا (التقنية الحيوية)، والناتو تكنولوجيا (التقنيات متناهيات الصغر)، والذكاء الصناعي، والروبوتات، والجينات، والتفاعل معها وتوجيهها لمواجهة التحديات والمخاطر الكبرى التي تواجه البشرية. وهذا التقدم الهائل يعني الفرادة، أي حدوث تغيير جذري بالغ العمق والتأثير من شأنه تغيير كل ما يشكل طبيعة الجنس البشري. ثمة تقنيات متداخلة يجب استخدامها لصياغة حاضر ومستقبل عالمنا، أي خلق وضع مستقبلي شاذ غريب لا يخضع لأي قاعدة أو قانون من قوانين التطور والتغير، فهي حالة تتصف بتغيراتها المفاجئة

وتحولاتها السريعة المتلاحقة اللامتناهية، أي إن البشرية تقترب من عصر حيث يسمو فيه البشر فوق البيولوجيا، أي عصر يكون خلاله المرء متزوداً بالمعرفة، وفي يده وسائل اتصال تفوق التلفون واللاسلكي والبريد الإلكتروني. ثم تأتي الهندسة الوراثية ويمكن للإنسان أن يبدّل نفسه وليس فقط أجزاء منه كالكبد والكلية والقلب والقرنية لأنّها عمليات أنجزت في القرن العشرين بل يمكنه تجديد بنيته بشكل كامل.

وخلال هذا الاجتماع تحدث رئيس الجامعة «راي كورزويل» قائلاً: «إن المئة عام القادمة ستعادل ليس فقط قرناً من حيث التقدم التقني بل عشرين ألف عام من التقدم المماثل لما نشهده في عالم اليوم. وسوف يكون الحاسوب هو أحد بواكير هذا التقدم التقني الذي سيطرأ عليه تطور هائل في نهاية أعوام العشرينيات من القرن الحالي. وماذا يعني كل ذلك؟ إن المستقبل سيكون واعداً باكتشافات جديدة مرتبطة بدورها بوجود تسارع في التقنية لدرجة الفرادة. وهذه الفرادة ستغمر الكون بذكاء مجرد من أصوله البيولوجية ومن الدماغ البشري. وعلى هذا النحو سيكون بمقدور هذه الجامعة ليس القضاء على الجوع الذي يهدد مليار إنسان فوق الأرض بل حلّ كل أوجاع الإنسانية. وهناك المسألة الأهم وتتمثل في إطالة عمر الإنسان إلى الأبد من خلال استغلال تكنولوجيا النانو (Nanotechnology) أي من خلال صنع روبوتات فائقة الصغر بإمكانها المرور عبر الأوعية الدموية بسهولة لتعثر على الفيروسات والجراثيم المسببة للأمراض ولتفتك بها في الحال، أو لتساهم في إصلاح وترميم الأنسجة التالفة وجعلها فتية وحيوية، بمعنى التوصل إلى وضع حد للشيخوخة تحت هذه المعادلة: الخلود البيولوجي. أي جعل الإنسان خالداً بحلول عام ٢١٠٠. حبذا لو عشنا المئة عام القادمة حتى نرى تقدم التكنولوجيا وكأنه ضربٌ من الخيال. ومن أجل تحقيق هذا الهدف بالخلود البيولوجي فإنّ ذلك يتطلب اتخاذ إجراءات تمهيدية تسبق ذلك ويجب تطبيقها من الآن فصاعداً. وتقتضي هذه الإجراءات قبل كل شيء خلق نظام غذائي جديد واستخدام معايير جديدة، وتنقية البيئة من التلوث وذلك من خلال الاعتماد على الطاقة البديلة التي لا تلوث الجو مثل: استخراج الكيروسين من الإشنيات والبكتيريا، أو النفط من الحبوب كالقمح والذرة البيضاء أو الطاقة الكهربائية من الشمس ومن الرياح.

وبالنسبة لاتباع نظام غذائي جديد فقد توصل العلماء إلى أدلة علمية جديدة تؤكد العلاقة بين النظام الغذائي والشيخوخة. لقد

أثبتت تجارب العلماء في جامعه «ويسكنسن» الأمريكية أن تناول الوجبات التي تحتوي على سعرات حرارية أقل يساعد على الحفاظ على الشباب ويؤخر أعراض الشيخوخة لأنّ تخفيض كمية الغذاء يؤثر على بعض الجينات المرتبطة بظاهرة الشيخوخة. وقد بحث العلماء وظيفة (٦٣٤٧) جينة لدى مجموعتين من الفئران. إحداهما اتبعت نظاماً غذائيّاً وفيراً، والأخرى اتبعت نظاماً مخففاً بنسبة (٢٤٪).. واكتشفوا أن الجينات المسببة للشيخوخة تميزت بشكل ملحوظ لدى المجموعة التي اتبعت نظاماً غذائيّاً وفيراً، بينما لم يطرأ أي تغيير على الجينات لدى المجموعة التي اتبعت نظاماً غذائيّاً مخفّفاً. ووصف العلماء تلك النتائج بأنّها تساعد على التوصل إلى علاج لتقدم السن، وما يصاحبه من أمراض، فيما إذا أجرينا تغييراً في نمط غذائنا الذي تعودنا عليه منذ آلاف السنين فمنذ غابر الزمان والإنسان يتغذى باللحوم ومنها اللحم الأحمر الذي بدأ يلقي بمخاطره على القلب وعلى عمل الغدد. ونتيجةً لذلك يعتقد علماء اليوم بأن الحشرات ستكون بديلة عن اللحم الأحمر الذي تعودنا على تذوقه في أطباقنا اليومية وذلك نظراً لكونها مصدراً غنياً بالبروتين والمعادن. وعمّا قريب ولا غرابة في ذلك من أن نأكل قالب حلوى محشواً بدودة الطحين أو دودة الدقيق. قد يعتقد البعض منا بأن هذا أمر مثير للقرف والاشمئزاز لكنه شرّ لابد منه مستقبلاً، هذا فيما إذا ما أردنا الحفاظ على صحة سليمة. وفي المستقبل سنرى واجهات المخازن مليئة بالزنابير والذباب ودود الخشب والخنافس. وقد أثبتت التحاليل المخبرية بأن هناك ١٢٠٠ نوع من هذه الحشرات بدأت تُؤكل في مطاعم آسيا وأوروبة. وبحسب وكالة الأمم المتحدة للتغذية والزراعة (الفاو) فإنّ عدد سكان الكرة الأرضية سيكون في العام ٢٠٥٠ ما يناهز الـ٩مليارات نسمة، في حين أنّ المساحة القابلة للزراعة فوق كوكبنا سوف تقل وتنحسر تدريجياً. لذا، فإن تربية الحشرات ستكون أسهل بكثير من تربية الحيوانات. فالحشرات إضافةً إلى كونها غنية بالبروتين وفقيرة بالدهون إلا أنّها لاتتطلب المزيد من الأعشاب ومن المراعي مثل الغنم والبقر والجاموس وبقية أنواع المواشي. فمع ١٠كيلوغرامات من الأعشاب نستطيع أن نحصل على ٨كغ من الحشرات، بينما لا تعطينا هذه الكمية من الأعشاب سوى كيلو غرام واحد من لحم الماشية. زدْ على ذلك أن الحشرات تطلق القليل من غاز الميتان خلافاً للهاث البقر أو لروثه الذي يحتوي بكثرة على غاز الميتان الذي يشارك في ظاهرة الاحتباس الحراري. وحالياً

تجري شركة «إيرباص» الصناعة الطائرات دراسات حول إمكانية استثمار هذا الغاز المنبعث من نفايات الحيوانات كوقود إضافي في تحركاتها التي تفوق سرعتها سرعة الصوت.

وفي قمة «كوبنهاغن» التي عقدت في أواخر العام ٢٠٠٩ من أجل إيجاد حل لظاهرة «تلوث البيئة» طرح العلماء شعاراً: «تناولُ القليل من اللحم ومشتقات الحليب مفيد جداً للبيئة»، وذلك بعد أن تبين أن المواشي كالغنم والبقر والجاموس تطلق من أنفاسها وكذلك من روثها غاز الميثان المضّر جداً بالصحة والبيئة. لذا فإن وجبة طعام مؤلفة من ٢٠٠ غ من اللحم و٢٠٠ غ من مشتقات الحليب تعادل من حيث إطلاق الغازات الضارة بالصحة والبيئة رحلة مداها ٥٠٠ كم بالسيارة وذلك نتيجة ما ينجم عنها من غازات تحتوي على ثاني أكسيد الفحم وسواها من الغازات السامة. واليوم نرى أن تربية المواشي بقصد الحصول على لحمها تغطي ٧٠٪ من الأراضي الصالحة للزراعة، و٩٪ من المياه الصالحة للشرب في العالم، مما يضع الكوكب الأرضي مستقبلاً في حالة من العجز والإنهاك، وكذلك الإنسان تحت عتبة الخطر نتيجة استهلاكه اللحوم الحمراء التي تعود عليها منذ قديم الزمان، والتي أصبحت لا تخلو من مخاطر جمة على صحته وعافيته. وعلى العكس فإنّ الحشرات لا تسيء إلى الجسم البشري ولا تلحق به الضرر جراء أكلها. كما أنّ الحشرات لا تنقل أمراضاً إلى الإنسان الذي يستهلكها خلافاً لبعض الحيوانات مثل الطيور والخنازير حين بدأنا نسمع بوباء الطيور والخنازير. والسؤال لماذا لا نأكل الحشرات بشكل علني ومكشوف؟ يقول عالم الحشرات الهولندي «أرنولد فان هونس»: «بعد دراسة أجريناها تبين لنا بأن كل واحد منا يأكل سنوياً، ومن دون علم منه، قرابة ٥٠٠ نوع من الحشرات المخفية في مربى المشمش أو التوت، وحتى في الخبز. وحالياً هناك ٥٠٠نوع من الحشرات تستهلك في المكسيك، و٢٥٠نوعاً يستهلك في أفريقيا، و١٨٠نوعاً يستهلك في الصين حيث تعتبر الحشرات من الأطباق الشهية في المطاعم الصينية ومرغوبة من قبل الجمهور. حالياً أصبح بمقدورنا إنتاج ١,٢ طن من دودة الطحين وبيعها للحيوانات الموجودة في حدائق الحيوانات، منها نسبة ٢٪ صالحة للاستهلاك البشري. ولقد بعنا منها في العام ٢٠١٠ زهاء ٩٠٠كغ مقابل ٣٠٠كغ في العام٢٠٠٩». وبالحديث عن محبي تناول الحشرات قدم موقع «سي إن إن» أبرز الأماكن على مستوى العالم التي تتناول الحشرات: فلتناول دودة النكش يجب زيارة أستراليا، ولتناول الصراصير فإن أفضل مكان

هو لاوس، أما دودة الخيزران كأفضل وجبة لتناولها هي تايلاند، والحشرات يتم تناول في هولندا كالجنادب واليعاسيب والنمل، أمّا العقارب والجراد فتعتبر بكين عاصمة محبيها، كما أن زيارة لكوريا الجنوبية تتيح للمرء أن يتناول دودة القز. ومما يدعو إلى الدهشة والاستغراب هو أن التقرير الأخير الذي أصدرته لهذا العام ٢٠١٣م الأمم المتحدة بعنوان: «كلوا حشرات من أجل تدعيم الأمن الغذائي» دعت فيه مديرة وحدة السياسات الاقتصادية إيفا أورسولا مولر التابعة لمنظمة الأغذية والزراعة (فاو) إلى تربية الحشرات على نطاق واسع لكونها عنصراً غذائياً أقل كلفة وأفضل بيئياً. فالحشرات غنية بالبروتينات والمعادن مشيرة إلى أنّ هناك ملياري إنسان في العالم بدؤوا بأكلها، وهذه الحشرات موجودة بكثرة في البر والماء والهواء وتتناسل من دون انقطاع، ولها تأثير بسيط في البيئة خلال كل دوراتها الحياتية، ويوجد لدى مديريتنا ٩٠٠ صنف من الحشرات التي تؤكل. زدْ على ذلك أن تربيتها سهلة ويمكن لها أن تتم في النفايات الغذائية من دون أن تكون هناك حاجة إلى تزويدها الدائم بالماء.

في الحقيقة توجد في عالم اليوم الكثير من الاكتشافات والنظريات والفرضيات حول إطالة عمر الإنسان، وهناك أناس صاروا يؤمنون بأن البشرية ستتمكن في المستقبل القريب من تحقيق العديد من الأمور التي قد تبدو لنا مستحيلة الآن، لذلك صرنا نسمع عن أشخاص يجمدون أجسادهم في الجليد بعد الموت على أمل أن يتمكن العلماء في المستقبل من إعادتهم إلى الحياة، وهذه التقنية يطلق عليها اسم (Cryonics)، وهي تكلف في أمريكا مبلغاً قدره ٨٠٠٠٠ دولار لتجميد الرأس وحده، و١٥٠٠٠٠ دولار لتجميد الجسم بكامله.

وهناك فئة من العلماء تدعو إلى تطبيق تجربة الاستنساخ على الجنس البشري بعد أن أثبتت نجاحها على صعيد الحيوان مثل استنساخ النعجة «دولي» والفئران والأحصنة والخنازير والعجول والذئاب.. إلخ، وذلك من خلال نظرية (Mind-to-computer uploading)، وهذه الفئة تعتقد بأنّ الإنسان في المستقبل سيصل إلى مرحلة من التطور العلمي بحيث يصبح بإمكانه نَسْخ ذاكرته بصورة كاملة من دماغه إلى داخل الحاسوب أو إلى رقاقة إلكترونية. وبعد الموت يتم استنساخ هذا الإنسان مجدداً ويتم تحميل ذاكرة حياته السابقة إلى دماغه عند ولادته الثانية أو في سنوات مبكرة من حياته الجديدة فيستعيد بالتالي جميع خبراته السابقة. وبالطبع فإنّ طفلاً أو شخصاً كهذا لن يحتاج للذهاب

إلى المدرسة ولا إلى تعلم الرياضة وقيادة السيارات والتعامل مع الناس والقانون .. إلخ، لأنّ جميع هذه الأمور ستكون مخزنة في دماغه، بل إنَّ إنساناً كهذا يمكن أن يتحول إلى نابغة لأنه سيحظى بالعديد من الخبرات المتراكمة.. وبهذا يمكن استنساخ أينشتاين وغيره من العباقرة لعدة مرات متكررة مع الاحتفاظ بذاكرتهم كاملة.. والسؤال: كيف سيصبح حال العالم آنذاك ؟

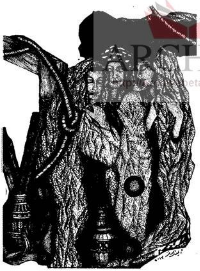
الخلاصة: في الواقع إنّ ما يقوم به العلماء من تجارب وأبحاث مثمرة لإطالة عمر الإنسان وجعله خالداً بحلول العام ٢١٠٠ يتجاوب ونزعة الإنسان إلى الخلود. فمنذ أن وُجد الإنسان على ظهر الأرض وهو يبحث عن الأسباب التي تمكنه من الخلود رغم أن الحياة قد لا تحتمل أن نبقى فيها طويلاً لعدم التوافق بين الإنسان ومسيرتها المضنية، ولكنها رغبة الخلود الكامنة في أعماق النفس البشرية التي تبقى هي الأقوى. ومن لبّ هذه الرغبة جاءت أقدم عقيدة بشرية حول مفهوم الروح والحياة ومبدأ الثواب والعقاب في الآخرة، وكل هذا طمعاً بالخلود الذي لم يكن ممكناً على الأرض بل في ملكوت آخر هو ملكوت السماوات. وعلى الرغم من كل هذه الأبحاث لإطالة عمر الإنسان من الناحية البيولوجية إلا أنه سوف لن يكون بمنأى عن الموت العرضي الذي يأتيه من خلال الحوادث الناجمة عن الغرق، والحروق، والحروب، وضربة الصاعقة أو التهامه من قبل حيوان مفترس.. إلخ مثلما كان يحصل مع الخلية الأولى التي هي منشأ الإنسان التي كانت منذ مليار سنة لا تعرف الموت إلا من خلال تعرضها لصاعقة أو التهامها من قبل فريسة أقوى منها.

المراجع

- صحيفة «لوموند ديبلوماتيك» الشهرية الفرنسية، تاريخ كانون الأول ٢٠٠٩م.
- صحيفة «لوريان لوجور»، تاريخ ٢٠١٠/٥/٩م.
- صحيفة «لوريان لوجور»، تاريخ ٢٠١٠/١/١٢م.
- مقال بعنوان «شباب دائم في القرن الحادي والعشرين»، إعداد: د بدر غزاوي.
- جريدة «لوموند» اليومية الفرنسية تاريخ ٢٠٠٩/١٢/٢٣م.
- جريدة «الديار» اللبنانية، تاريخ ٢٠١٣/٦/١٦م.

كُلُّهم حولي

❁
سليمان العيسى



لم يَزَلْ في بَلَدي لِلْكَلِمَةْ
سِحْرُها..
كانت حياتي كَلِمَةْ
الصبايا والشبابْ
والحكاياتُ العِذابْ
كُلُّهمْ حولي.. لأجل الكَلِمَةْ
وأُغَنّي.. وأنا بعضُ حُطَامْ
إنَّما الشِّعرُ كلامْ
هو بين اللّهِ والأرضِ نِداءْ
يَصِلُ الأرضَ بأسرار السماءْ
الصَّبايا والشَّبابْ
والحكاياتُ العِذابْ

❁ شاعر الطفولة والعروبة الكبير.
العمل الفني: الفنان أيمن الدقر.

كُلُّهم حولي.. وأهلاً بالطفولةْ!
نَثَرتْ «نيلوفرٌ» حولي الطفولةْ

كيف لا أُورِقُ أشعاراً وألحاناً جميلةْ؟!

● ● ●

يد

على هامش لوحة..
للرسام المبدع الصديق حيدر اليازجي

أيَدٌ؟ أم عالَمٌ من فِتْنَةٍ؟
كُلُّ عِرْقٍ كادَ فيها يَصْدَحُ
ريشَةُ المُبْدِعِ.. مَرَّتْ فوقَها
فإذا الخَطُّ.. بَيَانٌ يُفْصِحُ
إصْبَعٌ.. هذي التي تَحْنُو على
أُخْتِها.. أم نَشوةٌ؟ أم فَرَحُ؟
أوْشَكَتْ.. تعزفُ لي أُغْنِيَةً
أنَا في اللَّحْنِ بِصَمْتٍ أسْبَحُ

● ● ●

هَذِهِ يا شاعري..
لَيْسَتْ يَداً
مِنْ كُرومِ اللهِ
هَذي قَدَحُ

● ● ●

أنتَ مُنْتَه..

قيلَ لي:
أنْتَ مُنْتَه
خفتَ اللحنُ
والوَتَرْ
قلتُ
للدهرِ أنتمي
ونشيدي
هو القَدَرْ

● ● ●

تمرّد

لا يَهدأنَّ بكَ الطَّوافُ..
ولا تُنيخَنَّ الركابا
الومضةُ الخضراءُ.. ما بَرِحَتْ
مَشيبَكَ والشبابا
في آخِرِ الدنيا سؤالٌ
كُنْ له أنْتَ الجوابَا

غـــربة

شعر: باكير محمود باكير ✿

تحية إلى روح الشاعر الكبير
محمد الماغوط



دروبُ الحزنِ والمنفى
وقلبٌ يحملُ الغربهْ
وتاريخٌ من الترحالِ في
الدّنيا
بلا ثمنٍ
دخانُ التبغِ والمقهى
بلا مأوى... مع المأوى
وغرفةُ سجنكَ المملوءِ بالعطنِ
ضياعٌ في فيافي الصمتِ
والرّفضِ

✿ أديب وشاعر سوري

وأرصفةُ التسكّعِ في دمشقَ
تعدّ خطاكَ
تسمعُ نبضَ قلبكَ في
نداءِ الروحِ للأعلى... وللأسمى
مع البدنِ
وحبّاتٌ من المطرِ الشّتائيِّ
الذي يهمي على مهلٍ
فيمنعُ نشوةَ الوسنِ
ولفحُ البردِ... عصفُ الريحِ
بين أزقّةٍ سمراءَ موحشةٍ
تدورُ... تدورُ
في دوّامةٍ حيرى
وتعرفُ موسمَ الآلامِ فيكَ
وأنت مسكونٌ بهاجسِ شعبكَ
المرهونِ بالشّجنِ
تسافرُ في خطوطِ الطّولِ
ترحلُ في خطوطِ العرضِ
تعبرُ في شطوطِ الرّفضِ
تكتبُ لوحةَ الهمّ التي ملأتْ
زوايا الدربِ والحاراتِ والأكواخَ
وانثالتْ في وجهِ الزّمانِ
الموحشِ العفنِ
عشقتَ الدّربَ يا ماغوطُ
وهو يقودُ للغربةْ

عشقتَ الدربَ تمشيهِ بلا هدفٍ
وتسكنُ بيتكَ المملوءَ بالورقِ
وتحفرُ فوقَ كلِّ سطورها
السوداءِ
رفضَ الظلمِ والقلقِ
وتدفعُ كلَّ خاطرةٍ من الحنقِ
تدقُّ الصمتَ والتعتيمَ
عبرَ مساربِ الزّمنِ
فدربُكَ موحشٌ كالليلِ
في بيداءَ مقفرةٍ
تجوسُ العمرَ
تبحثُ في زواياهُ
عن المألوفِ والمعروفِ
والمسحوقِ والمنتوفِ حتى الجلدِ
والمسلوبِ بالكفنِ
ضياعٌ أنتَ... أم لُقيا...؟
حنينٌ أنتَ... أم رفضٌ..؟
وبحثُكَ دائبٌ كالنملِ
بين مفارقِ الطرقِ
وبين متاعبِ الفقراءِ
تبحث عن مصيرِ التائهِ المكدودِ
والمصلوبِ في دربٍ بلا سكنِ
وجدتَ بقيّةَ الإنسانِ...؟
وجدت بقيّةَ المحمولِ

والمشلوحِ في دربٍ بلا هدفٍ..؟
وجدتَ ندوبَ آلامِ المُعذَّبِ...؟
حيثُ لم تبرح
تنزُّ بجلدهِ المهزوزِ
مثلَ غصونِ لبلابٍ بوجهِ الريحِ
لاتقوى على شيءٍ
ويأخذُها جنونُ العصفِ
والإعصارُ يعبثُ في تأوّدِها
ويسلبُ قوّةَ البدنِ
مضيتَ..
وأنت تبكي قصّةَ الإنسانِ
يحملُ فوق منكبه
شعارَ المجدِ - حريّةً -
ورُحتَ تبثُ أحرفَها مع المحنِ
مضيتَ...
وحُزنكَ المحفورُ في آلامِ أمّتنا
مع الوهنِ
وعُدتَ إلى سلميةَ
أيّها المتشردُ المحكومُ بالغربة
وعدتَ إلى مدينتكَ التي فرحتْ
بتاجِ الغارِ فوق جبينكَ العالي
ولكنْ كنتَ محمولاً
ولم تعلمْ...
بما لاقيتَ من فرحٍ ومن حزنٍ

ألا يا أيّها السكّيرُ..
والعربيدُ
والقدّيسُ... والمصلوبُ
عند جدارِ أمّتنا
مضيتَ...
وأنت تبكي ملءَ جوفِ الصّمتِ
تضحكُ فوق كفِّ الموتِ
تسخرُ من قداساتٍ مُزيّفةٍ
تحجُّ لها الأباطيلُ
وتنشرُها كما الأثوابُ
في الشمسِ
وتكتُبها بكلِّ جراءةٍ في السرِّ
والعلنِ
حضرتَ حكايةَ المأساةِ في غضبٍ
وفوق تعفّنِ الدّرنِ
أخاديداً...
على وجهِ الظلامِ الحالكِ المُضني
وأشعلتَ الشموعَ فلا
رياحُ الظلمِ تُطفئُها
وصُغتَ نشيدكَ المتمرّدَ المنشودَ
ضدَّ القهرِ والألمِ
ليبقى خالداً يُشدى
يُعبّرُ عن ضميرِ الجيلِ
موصولاً بلحنِ ربابةِ الوطنِ.

مـــرداد

عبد النبي حجازي ✪



رن جرس البـــاب فتحته طالعني مرداد قادمــاً بلاموعــد كالعادة، حيــاني بإيماءة ودحــرني بكتفــه ودخــل قبــل أن أقول له مجاملاً «أهلاً وسهلاً» ورفع عقيرته مستأذناً «ياالله» إلى غرفة الضـيـوف، وجلس فاتحاً يديه ماداً رجليه قائلاً «كالعادة شاي بإبريق صغير وكأس صغيرة» أحضرت الشاي فركز الصينية وتناول الإبريق وصبّ كأساً ورفعها يســتطلع الشــفافية والكثافة بشغف وهزّ رأسه معبراً عن الرضى.

يرشف مرداد الشــاي من الكأس بكلتا شــفتيه، يشــنّف أذنيه بخريــره قائلاً «كم يسعدني هذا الخرير» وكالعادة اكتفيت بكأس واحــدة فملأها من جديــد، وحلف وأغلظ

✪ أديب وروائي وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

الحلف يجبرني أن أشربهـا، أعترض قائلاً «لايُكرم المـرء في محلّه» فيتغاضى. ويفرغ الإبريق فيقول مازحاً «صلّح» أي «جدد» على طريقة مطاعم الفول الشعبية في دمشق، تهيئ زوجتي الإبريق من جديد وتنقر الباب وتناولني الصينية فيقول«سلمت يداك أيتها السيدة المحترمة» لكنها تتوارى في الداخل متجاهلة ثناءه.

وتطول الجلسة وتتنحنح تحاول الخروج فيسـألك إلى أين؟ أنا ماعندي شغل مستعدّ أن أسليك طوال النهار، ويحين موعد الغداء فيقول لك «أنا لايهمني الغداء ولا نوع الطعام المهم المؤانسة» ويقول لك «رب أخ لك لم تلده أمك»

قالت لي زوجتي اليوم رن جرس الباب وماإن فتحته وإذا بمرداد تقدم خطوة وقال:

- عفواً.
- عفواً أنت، زوجي ليس هنا.
- أنتظره حتى يعود. نحن أخوة.
- بإذن الله ولكنه لن يعود حتى المساء.

فلبث يفكر قلت له:

- عفواً عندي جاراتي.

مرداد كلما التقيت به على سبيل المصادفة في أي مكان وأي زمـان يعاتبني أنني مقصر معه وأنني غير منصـف، هو يتمنى اللقاء بي ولا يراني أسأل عنه مرة واحدة.

ذات يوم أحسست بالملل فغادرت البيت إلى بوابة الصـالحية ورحت أمخر عباب الزحام. أصـوات مختلطـة تطرق أذنيـك، وناس من مختلف الأعمار والأشكال يروحون ويغدون يجذبون عينيك من حيث لاتشعر فلا تستطيع أن تحلم أو تفكر فقادتني قدماي عَرَضـاً إلى المقهى الذي قلما أروده ووجدت نفسـي بين مجموعة من الأصدقاء أدهشـهم حضوري وتعرفت إلى شاب يجلس متحفزاً لا أذكر أنني رأيته من قبل قالوا اسمه (مرداد) فتوقعت أن أباه كان يحب ميخائيل نعيمة، وهذا ماقربني منه للتوّ لقد تأثرت بالكتاب وأكثر ما أعجبني فيه من طروحات «إن جدولاً عكراً يسـتطيع أن يعكـر جدولاً آخر، ولكن أنى لجدول عَكر أن يُعكر البحـر! إن البحر يتلقاه ضـاحكاً، فيأخذ أوحاله ويفرشـها في قاعه ثم يعطيه ماءً زلالاً بدلاً منها»

قلت خلال أحاديث متفرقة «سأسافر بعد أيام لدبي لزيارة أخي بيد أنني أحسسـت أن مرداد يفتح أذنيه جيداً».

في اليوم التالي طرق مرداد بابي، وما إن جلس حتى سألني:

- أتعرف دبي؟
- هذه أول زيارة.
- وأنت؟
- لا ولكنني أعرف كل شيء.
- وراح يصـفها لي وكأنهـا تعرض على شريط سـينمائي أمام عينيـه ويشرح لي عمّا

يمكن أن أشتري وينصحني ألا يغرر بي أحد، فقاطعته:

- ولكن أخي مقيم فيها.

- أخوك؟ أتراه يستطيع أن يترك عمله ويتجول معك؟ أنا على استعداد تبرعاً لوجه الله ولا أريد إلا مرضاتك كيف لا وأنت صديق حميم؟

- ولكن أين تقيم؟

- مع أخيك.

- ليس عنده سوى غرفة واحدة وسرير واحد

- أنام على الأرض أنت تعرف أنني متواضع ومستعد أن أعد طعام الإفطار والغداء والعشاء حتى لا يلوّث أحدكم يديه.

- وبطاقة الطائرة؟.

- من يدفع أجرة راكب يدفع أجرة اثنين.

واسترسل مرداد بالحديث والكلمات تنسلُ من فمه سلسة كمذياع. حاولت التغاضي لكنه عندما ينهي فقرة يسألني «فهمت مني؟ سمعت؟ ما رأيك؟» وينتظر اعترافاً صريحاً بالموافقة لا بالإيماء ليتابع وإلا أعاد السؤال.

صار مرداد شيئاً فشيئاً جزءاً من حياتي يقاسمني يوم العطلة حتى إذا جاءني ضيف يحف به مرحباً

ويقدم له الضيافة ويلحّ عليه ويقحم نفسه بيننا يناقش ويقدم النصائح هامساً في أذني أنه يريد أن يسلي الضيف حتى لايمل مسترسلاً بحكاياه (المثيرة) ونكاته التي لايضحك لها غيره وآرائه التي يمجد بها نفسه.تقول له«غداً صباحاً أنا مضطر أن أغادر البيت لعمل هام» فيأتيك مبكراً ويقول «مستعد أن أذهب معك أراعيك وأسليك وإن لم أنفعك فلن أضرك».

ذات يوم طرق بابي ودخل كعادته وسألني:

- هل تناولت طعام الإفطار؟

- ليس بعد.

- وماذا تنتظر؟

- أريد أن أعرفك أكثر يامرداد صرنا صديقين ماذا تعمل؟ أين تعيش؟.

فأطرق قليلاً ثم قال متباهياً «أنا قافز»

ماذا تعني؟

. اعرفها كما تشاء.

قلت له وأنا «قافز» واصطحبته إلى الباب، فتحته ودفعته الى الخارج. وقلت حاسماً:

- ثق يامرداد أنك لو اقتربت من بابي أو من حينا لجمعت الناس عليك لعلهم ينجدونك من تحت قدمي، وصرخت بشراسة:

- أغرب عن وجهي.

واختفى مرداد.

مازال القمح نائماً يا أبي

• غادة فطوم



أطرق هاني رأسه حزيناً حين طلب من أبيه مرافقته إلى الحقل بعد أن سمع إجابته، غداً تكبر وترافقني كلّما شئت، يجب أن تبقى في المنزل حتّى يشتد عودك.

أبي أرجوك، أريد أن أراك وأنت تعمل.. أرجوك. أريد مصافحة الشمس مثلك، ألم تقل لي بأنّك كلّ يوم تصافح الشمس، وتأخذ منها ما شئت من الدفء لتنثره على مساحة الحقل.. حتّى يتلوّن بلونها..

● أديبة وشاعرة لها أكثر من مجموعة قصصية وشعرية منشورة.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

اسمــع يا هاني، أعدك أن ترافقني يوماً ما، لكن هذه الأيــام لن آخذك، فلديّ عمل كثير، لهذا عليك أن تقف عند رغبتي، وتبقى مع والدتك حتّى موعــد الغداء، تأتي معها نــأكل معاً وتعود وهكذا أكون قد حققت لك ما طلبت، اتّفقنا؟ يجيــب هاني اتّفقنا لكن لماذا تأخذ سامي. وأنا أبقى في المنزل..؟

يــودّع الأب هاني ووالدته بعد أن أمسك بيد سامي قائلاً هيا يا بني لقد أخّرنا هاني، هذا ضريبته زيادة في التأخير مساءً. هذا ما حدّث به الأب ابنه.

في المنــزل تلتفت الوالــدة إلى عملها.. وتباشــر بترتيــب المنــزل ورفع المائــدة إلى مكانهــا. أمّا هاني فيجلــس على المصطبة محدّثاً نفسه: كلّ يوم سامي.. كلّ يوم سامي، وأنا.. لا يأخذني.

تناديه والدته: هاني مع من تتحدّث؟

يجيبهــا: أتحــدّث مع نفســي، ومع من سأتحدّث إذا كنت لوحدي؟

دقائق مــرّت، يدور هاني مكانه ثمّ ينزل إلى فسحة ترابيــة أمام المنزل، يجمع بعض الأحجار. ويضعها على المصطبة ثمّ يجلس بمحاذاتها ويبــدأ ببنائهــا. وكان كلّما رفع الأحجار فوق بعضها تسقط، ويعود لصفّها طبقات من جديد.

تناديه والدتــه، ألن تشرب كأس الحليب الذي تركته على المائدة..؟

لا.. لــن أشــرب. أريــد أن أذهــب إلى الحقل..

تجيبه والدته: حــين أنتهي من تحضير طعام الغداء، وزوّادة والدك وأخيك، نذهب سوية. موافق..؟

لا لســت موافقــاً. أنت دائمــاً تعزينني بهذا، ثمّ يأتي سامــي ويأخذ الزوادة وأبقى أنا هنا...

هاني أنــا أعدك ومازلــت عند وعدي، اليوم أنا وأنت سنذهب لنرى والدك وسامي وهما يحصدان الحقل..

يركــض باتجــاه والدته، أحقاً يــا أمّي ستأخذينني معك...؟ تجيبــه والدته طبعاً وغلاوتك عندي سآخذك.

فرحة هاني لا توصف.. بدأ يغني ويرقص لكــن والدته لا تفهم كلمة مما يغني، لا تعلم من أين سمع بهــذه الأغاني وكيف حفظها. لكنّه يغنّــي وحسب، حتّى لو كان الغناء غير مفهوم..

بعــد ساعة مــن الوعد.. هيــا يا هاني أجاهز أنت؟؟

يبــدأ بالوثــب والركض والغنــاء. نعم جاهز، أنــا جاهز، أنا وأمي... سنذهب إلى الحقل.. تناديه والدته هيّا بني هيّا...

تتّجــه والدتــه إلى الحقــل، تعبر دروب القرية. وهاني يمسك بيد والدته تارة وتارة يتركهــا، لكنّــه لا يبتعد كثيراً عنهــا ليعود

وتعانق أصابعه أصابع والدته بحب وحنان.
يمسك يد والدته يقبّلها مرّة وأخرى شكراً لك أمّي لأنّك ستأخذينني إلى الحقل ثمّ يقبّلها ثانية، ما أطيب هذه اليد!! ترد عليه الوالدة بقبلة عميقة ليده الطرية.. تجتاز والدته الطريق الترابي، وعلى جانبيه يرى بعض الحيوانات الّتي تخص أهل القرية.. وكل ما مرّ من أمام حيوان ما.. يسألها أمّي ما هذا.. تجيبه.. هذه بقرة أبي كنعان.. ياه ما أجملها!!

دعيني أقترب منها.. فقط أمسح لها جبينها..

تأخذه والدته وتدعه يقترب منها، لكن ما إن يقترب أكثر ويرى حجم البقرة، حتى يخاف ويعود يتمسّك بوالدته أكثر وأكثر ويفضّل عدم الاقتراب..

وهكذا حتّى اقتربا من الحقل.. لكن خلال رحلة السير لم يترك شيئاً إلاّ وتعثّر به ووالدته ترفعه عن الأرض.. ويتابعا سيرهما..

تنفّست والدته الصعداء بعد أن وصلا الحقل، فقد كانت مرافقة هاني متعبة بعد يوم عمل شاق في المنزل..

ومن بعيد شاهد والده وسامي يعملان من دون كلل.. ثمّ بدأ بالصراخ هي سامي.. أبي.. سامي، أبي. يترك أخوه ما بيده ويركض إليه ليصحبه إلى المساحة الّتي أنهيا الحصاد فيها.

هنا يقف هاني منادياً والده: أبي أريد أن أصافح الشمس. يضحك والده من كلّ قلبه ويتّجه نحوه، هيّا هاني إلى حضن بابا.

يرفعه والده عن الأرض ويمد يديه باتّجاه السّماء. هيّا يا هاني صافح الشمس. وبكل ثقة يحاول القفز من يدي أبيه ليصافح الشمس.

ثمّ يسأله والده هل صافحتك يقول هاني لا.. لم تصافحني.. لمَ لا تصافحني؟

بعد وصول والدته واجتيازها المسافة الّتي تركها هاني وركض باتجاه والده..

تحدّثه قائلة اسمع يا هاني: الشّمس تصافح في الصباح أمّا في المساء فتكون قد تعبت وتريد أن تنام، لهذا لن تصافحك.

لا ليس صحيحاً. انظري هي هناك لكنّها لا تمد يدها لي.. هاني هيّا ولدي لنأكل طعام الغداء ثمّ نعود إلى المنزل قبل المغيب.

أنا لا أريد الطعام. أريد أن ألعب.. تجيبه هنا لا يمكنك اللعب، هنا للعمل فقط. بلى.. هنا نستطيع اللعب أنا وسامي.

يبدأ باللعب مع أخيه بعد أن يأخذ كل واحد منهما لفافة من الخبز جهزتها لهما الوالدة.. يركض ويعود إلى أبيه ليسأله أبي ما هذا؟ يسأله أبوه أين؟ فينتبه إلى أنّ هاني

يشير إلى تلك السنابل الواقفة كأنّها تحيي هاني.. يجيبه إنّها سنابل القمح... يكمل سامي قائلاً هذه اللّفافة الّتي بين يديك هي من هذه الحبات ينظر هاني باتّجاه سنابل القمح ضاحكاً.. مغنّياً:

«يا حبايه شو كبيرة...»

ثمّ يكمل ويدندن أغنية غير مفهومة وكأنّه طبّق لحنها على مقاسها...

لعب هاني كثيراً مع أخيه سامي.. ولشدّة تعبه أخذ الأرض وتمدّد عليها.. ثمّ بدأ يجلس وينام قائلاً انظر يا أبي السنابل تنام معي.. وتستيقظ معي.. (تنام-تفيق-تنام-تفيق) ضحك الوالدان كثيراً، وسعدا لسعادة هاني وسامي.. تصرخ والدته هيّا هاني حان وقت العودة.

عاد هاني مع والدته إلى المنزل وقد كان التعب بادياً عليه بعد يوم من اللعب والشقاوة.. وقبل مغادرته الحقل، لاتتأخّر أبي أنت وسامي سأنتظركما وأمّي..

يضحك الأب مع سامي حاضر لن نتأخر، لكن لا تتعب والدتك في السير.

ما إن يصل هاني المنزل، حتى يتّجه باتّجاه غرفة الجلوس.. ووالدته تتّجه للمطبخ لوضع الأواني والقيام بعملية تنظيفها كي تصنع الطعام في اليوم التالي، ومن المطبخ تحاول أن تحدّث هاني لكن هاني لا يجيب. تستفقده فتجده يغطّ في نوم عميق.. تطبع قبلة على جبينه، ثمّ تأتي بمنشفة مبلّلة تمسح له يديه.. وقدميه.. وتصلح نومته..

طلع الصباح على العائلة باكراً فقد توجّه سامي وأبوه باكراً إلى الحقل، وكأنّ صوتاً ما يصرخ عليهما بالإسراع إلى الأرض فسنابل القمح تناديهما لتتعانق مع قبضته لتزداد نضارة وحياة.

وتأخذ الحبّ من تلك القبضة الحنون الّتي تعطيها طاقة تتحرّر منها لتركن جانباً منتظرة من ينقلها للملايين.

يصل سامي مع أبيه إلى الحقل لكن المفاجأة تصعقهما. هناك من أخذ مكانهما في الحقل.. فقد كانوا خمسة رجال ملتحين منظرهم مقزز.. أسنانهم صفراء شعورهم طويلة مع ذقونهم.. ينظر إليهم والد سامي مستغرباً ماذا يفعلون في أرضه.. يصرخ أحد الملتحين بهما هيّا تابعا عملكما وإلاّ..

يجيبهم سامي ما لك أنت وأرضنا؟؟

يضحك بفجور أرضكم.. ها ها..؟ عليك أن تنسى أيّها الطفل عليك أن تنسى. محاولاً أن يقترب منه لكن سامي ينهره ليبعده عنه..

يخاطبه والد سامي ماذا تريدون يا رجال؟ أنتم ترون أنّنا وولدي نقوم بعملنا ولانزعج أحداً.. ولا يوجد أحد لمساعدتنا سوى الله وهمّتنا ماذا تريدون؟؟

أتعرف مـاذا نريد.. نريـد هذا القمح كله.. لا نريد أن نأخذه بل نحرقه..

وأنت من سيساعدنا. يصعق الوالد ممّا سمع.. يفرك عينيه أحقيقةٌ ما يمرّ به ويتلى على مسامعه! وهو الّذي لم يصب أحداً بأذية يوماً ما...

يصرخ سامي هي أنت مجنون.. لابدّ أنّك مجنون.. نحن أصحاب القمح نحرقه؟

يصفع أحـد الرجال سامي فيقع أرضاً، هنا يهجم والده عليه مدافعاً عن ولده، لكنّ رجلاً آخر يضربه بكعـب بندقية يحملها.. فيقـع أرضاً ويغمى عليـه. هنا يعود سامي ويهاجم الرجل الّذي اعتدى على أبيه فينال نصيبـه بضربـة أخرى على رأسـه فيأخذ الأرض كوالده..

وهنا يبـدأ الرجال بإضرام النار بالقمح المحصـود.. والقمح المنتصـب الّذي ينتظر كفيهما ليعانق ويصافح الشمس..

خلال ذلك يصل رجـال القرية وبعض ممّـن رأى المشهـد يهرعون لإخمـاد النار المشتعلة في الحقل وإنقاذ سامي ووالده.

ينتشر الخبر في القرية البعيدة عن مكان الحصيـدة ربع ساعة سـيراً على الأقدام.. هنا تركض الوالدة وهاني.. كانت الأم تدور بهـا الأرض وكأنّ المسافـة باتت أطول ممّا تتوقّـع.. تصل أخيراً لتجـد أهل القرية قد ساعـدوا الوالد على النهوض. أمّا سامي فمـا زال مستلقياً علـى الأرض. هنا يصل هاني مسرعاً نحـو أخيه يخاطبه هيا قم يا سامي.. لكن سامـي لايستجيب لنداء أخيه وأبيه ولا لصياح والدته.

هاني يصرخ هيّا قم يـا سامي قم.. نام سامي نومته. ينظر هـاني نحو أبيه. أيقظ القمـح يا أبي فحين يستيقظ القمح يصحو سامي ويعود.. ليصافـح الشّمس.. ويعانق القمح.

أبي!! أبي!!

القمح مازال نائماً يـا أبي أيقظه حتّى يعـود سامي.. أيقظه يا أبـي.. يترك هاني المكان ويقترب من أبيه متسائلاً بعد أن أمسك بيد والدته الّتي سقت الأرض بدموعها..

أبي أيستيقظ القمح يا أبي؟؟.

العقل العربي والحصار الإعلامي والثقافي..!!

د. تركي صقر ◘



في السنوات الأخيرة بات المشهد الثقافي العربي مقلقاً للغاية نتيجة الارتدادات الفكرية الكبيرة إلى الوراء والتراجع إلى ما قبل عصر التنوير أيضاً وزاد من قتامة المشهد تفشّي ظواهر فكرية وثقافية متعددة ومتناقضة مع امتداد ما أطلقوا عليه «الربيع العربي» في أكثر من دولة عربية وأخذت ظاهرة الفكر الظلامي والخرافي تنتشر وتطغى على سواها من ظواهر هذا الربيع بسبب الإمكانات الهائلة التي وضعت تحت تصرفه وخصوصاً الآلة الإعلامية الأسطورية التي سخرت له.

◘ باحث وناقد ودبلوماسي سابق.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ودارت عجلات هذه الآلة بسرعة فائقة على صعيد الفضائيات والمواقع الإلكترونية بأعدادها اللا محدودة لتشغل مساحات واسعة من الفضاء الإعلامي العالمي وتحاصر العقل العربي والإسلامي وتلتف حلقاتها حول عنقه حتى لتكاد تخنقه وتلقيه في مهاوي العتمة كي يبقى عاجزاً عن الإبداع وقاصراً يجتر أسوأ صفحات الماضي ولاينتج إلا الأفكار الظلامية الاستئصالية التي لاتلغي الآخر فكرياً وسياسياً فحسب وإنما تعمل على تصفيته لمجرد الاختلاف معه أيضاً.

وعليه لانتجاوز الواقع إذا قلنا إنَّ المستهدف الأوَّل من هذه التحولات هو العقل أي العقل العربي بحيث يغدو مطية للآخرين يحقق لهم المنافع بدلاً من أن يحقق المكاسب لنفسه..

يقول الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت بفطرية العقل، وكونه أعدل الأشياء قسمة بين معشر البشر، ويؤكد في مؤلفه الشهير «مقال عن المنهج»: العقل هو أحسن الأشياء توزعاً بين الناس (بالتساوي). إذ يعتقد كل فرد أنه أوتي منه الكفاية، حتى الذين لا يسهل عليهم أن يقنعوا بحظهم من شيء غيره، ليس من عادتهم الرغبة في الزيادة لما لديهم منه. وليس براجح أن يخطئ الجميع في ذلك، بل الراجح أن يشهد هذا بأن قوة الإصابة في الحكم، وتمييز الحق من الباطل، وهي في الحقيقة التي تسمى بالعقل السليم أو المنطق، تتساوى بين كل الناس بالفطرة.

وكذلك يشهد بأنَّ اختلاف آرائنا لا ينشأ من أنَّ البعض أعقل من البعض الآخر، وإنَّما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا في طرق مختلفة، ولا ينظر كل منا فيما ينظر فيه الآخر، لأنه لا يكفي أن يكون للمرء عقل، بل المهم هو أن يُحسن استخدامه..(١)

ومن هذه النظرة يتضح دور الثقافة في حسن استخدام العقل حتى إنَّ المفكر العربي محمد عابد الجابري قصد بـ«العقل العربي» جملة المبادئ والقواعد التي تقدمها الثقافة العربية الإسلامية للمنتمين إليها كأساس لاكتساب المعرفة، وتفرضها عليهم كـ«نظام معرفي»، أي كجملة من المفاهيم والإجراءات التي تعطي للمعرفة في فترة تاريخية ما بنيتها اللاشعورية..(٢)

لقد تزايد اهتمام الباحثين والمستشرقين والرحالة في الغرب بدراسة العقل العربي والإسلامي، منذ بداية القرن التاسع عشر ولايزال هذا الاهتمام إلى الآن، وبالطبع فإنَّ هذه الدراسات ليست بقصد تجديد هذا العقل ومعالجة سلبياته وتعظيم إيجابياته، أو لإعادة بنائه ليتوافق مع طبيعة العصر، ولكنها غالباً بقصد خدمة مصالح الدول الكبرى ومساعدتها على وضع الإستراتيجيات والخطط لسياسات الهيمنة

السياسية، والغزو الثقافي، وفتح الأسواق، واستنزاف الثروات، والسيطرة على المواقع الإستراتيجية وفرض التبعية على العالم العربي والإسلامي.

قد نفهم لماذا يهتم الغربيون بتشريح العقل العربي والإسلامي، ولكن من الصعب أن نفهم لماذا التقصير من جانب الباحثين العرب والمسلمين في التعمق في هذه الدراسة، وهي البداية الطبيعية والأساس لمشروع النهضة والتحديث إن كان ثمة مشروع لذلك، أو كانت هناك إرادة لإعداد مثل هذا المشروع.

وما من شك أنّ تشريح العقل العربي من قبل الدارسين والمستشرقين الغربيين ليس هدفه تخليص هذا العقل من أمراضه وإنما هدفه الأوّل احتواء هذا العقل وحشوه بالفكر الظلامي وتحويله إلى أداة لخدمة مشاريعهم في المنطقة وماكان الفكر الظلامي ليتحول إلى سلاح فتاك عابر للحدود لولا تسخير وسائل إعلام متعددة وخاصة فضائيات بحسابات مفتوحة تروِّج لهذه الثقافة العمياء على قاعدة التحريض الديني والمذهبي والطائفي وبث الكراهية والبغضاء بين أبناء المجتمع الواحد وصولاً إلى التحارب الداخلي لتنفيذ مخططات تقسيمية تمهد لعودة الاستعمار إلى المنطقة عن طريق القوة الناعمة الإعلامية وبحروب بالوكالة لاتسفك نقطة دم واحدة من جندي غربي فالاقتتال الداخلي بوساطة الإعلام الفتنوي أرخص أنواع الحروب وأكثرها مردوداً للمخططات الصهيو أمريكية الجديدة..

وعندما نمعن النظر في حال الأمة العربية والأحداث التي تمر بها نجد أنَّ حصار العقل العربي في الوقت الراهن يأتي من جانبين، والجانبان يجعلانه يقع بين فكي كماشة لافكاك منهما الأول: غزوه بثقافة الصورة أو مايسمى الثقافة الإلكترونية والثانية: استلابه بالثقافة الأصولية..

إنّ كلاًّ من الثقافة الإلكترونية والأصولية تشكلان مشروعاً لتشكيل أساليب التفكير والمعرفة والسلوك والتفضيلات والمواقف والنظرة إلى الذات والكون والمرجعية الجماعية، وصولاً إلى توحيد المنتمين إليها في فئة اجتماعية خاصة بهم وكيان ينتمون إليه. فالثقافة الإلكترونية ليست مجرد متعة وتسلية، كما أنَّ الثقافة الأصولية ليست مجرد دعوة أو التزام.

من هنا يبدو القول بالحصار الثقافي صحيحاً. ذلك أنَّ الشأن الثقافي مع تهاوي حدود الزمان والمكان أصبح من قضايا الإنسانية الكبرى، كما هو قضية وطنية في المقام الأوّل. لأنَّ لكل مجتمع ثقافته ووسائطه. والمجتمع هو في الأصل حالة

حضارية. وبالتالي فثقافة المجتمع هي التعبير عن حالته الحضارية.[٣]

ولا أحسب أنّ أحداً ينفي أننا نعيش عصر الصورة وأنّ للصورة قدرة هائلة على التأثير في عقول الناس وأنّ ثقافة الصورة في قوة تأثيرها وانتشارها تمثل فرصة غير مسبوقة في تاريخ البشرية للإعلام والتوعية والتثقيف وكسر حواجز العزلة، وربط الإنسان بالكون، وتفتيح الآفاق الفكرية على شؤونه وقضاياه..

إنّ ثقافة الصورة قوامها ثنائي: اقتصاد السوق والمعلوماتية، وتلاقي هاتين القوتين خلق وضعاً يتمتع بقوة هائلة يمتد نفوذها كونيّاً إلى نسف حدود الزمان والمكان، وبالتالي وبسبب تفاعلهما الوظيفي تأسست العولمة: عولمة السوق وتغطية الكرة الأرضية بشبكة معلوماتية، فهذه الثقافة صارت لها فلسفتها، ومن أبرز مبادئها التنافس والتبادل من دون قيود أو حماية. أي عولمة الإنتاج والتوزيع، وتعويم العملات الوطنية.[٤].

بعد هذا يبدو مشروعاً السؤال لماذا شاعت ثقافة التكفير مع هبوب رياح الربيع العربي.. في وقت انتظر فيه الناس أن تهب من ثنايا هذا الربيع رياح تنعش براعم التقدم وثقافة التجديد والإبداع لا أن يغرق العقل العربي بالفكر السلفي القائم على التخلف والانحطاط واجترار الماضي السقيم وصب الاهتمام على أفكار التعصب والتطرف ونبذ أفكار الرحمة والتسامح.. ونرى هنا أنّ الأسباب عديدة لانتشار ثقافة التكفير في ظل مناخات مايسمى الربيع العربي ومنها:

١- دفعت القوى الغربية بأصحاب العقول المتطرفة لركوب موجة احتجاجات التغيير في الشارع العربي لكي يكون التغيير إلى الوراء وليس إلى الأمام وكان مهندس هذه العملية برنارد هنري ليفي سليل الأفكار التلمودية المنتشرة في أمريكا والغرب وأحد أكبر دعاتها في العالم وهو الذي وجد في الفكر الوهابي ذي النشأة المشبوهة ضالته المنشودة لكي يقود تياراً عالمياً يكون فيه التيار التكفيري السلفي المتطرف بديلاً للإسلام المحمدي مدعوماً بأحدث ماتوصل إليه الإعلام الحديث من ثورة رقمية وشبكات تواصل اجتماعي تلف الكرة الأرضية وتتحكم بها في النهاية الأصابع الصهيونية واليمين الأمريكي..

٢- سخروا لهذه الموجة الظلامية إعلاماً متخصصاً تزاوج معها وسعى إلى شرعنة أفكارها بل تأصيلها بحجج واهية تهدف إلى بث الفرقة بين المسلمين وتحريض بعضهم على بعض من (قنوات فضائية ومحلية. وصحف. ومجلات. ومواقع وشبكات تواصل..إلخ)، يعمل - رغم تناقضه- لمصلحة الكيان الصهيوني، ويحظى بدعمه

وتأييده ولو بطرق غير مباشرة، مما يعني أنه فتنة خبيثة تسقى بماء واحد..

٣- ولذلك تراه يقدم كل خبر -وإن كان سياسياً بحتاً- بنكهة طائفية تحريضية على هذا الطرف أو ذاك لأنَّ دوره يتمثل في تحويل مختلف التناقضات السياسية إلى معارك ذات طابع طائفي.

٤- تلاعبوا بالشعارات التي تدغدغ عواطف الجماهير إلى أن انتهت يافطات الحرية والديمقراطية والسلمية والمواطنية والتعددية والمدنية في ظل الربيع العربي والتي سوَّقوا لها عبر آلة إعلامية كونية أسطورية إلى حاضنات ظلامية تكفيرية استئصالية لاتؤمن ولاتعمل إلا تحت عنوان واحد وحيد من ليس معنا فهو ليس ضدنا وحسب وإنَّما هو كافر دمه وماله وعرضه حلال شرعاً بل ويتوجب جز رأسه وافتراس جسده وأكل كبده والتهام قلبه وشيّ لحمه.. فلا اعتراف بالآخر حتى لو كان من عباقرة الدنيا أو من ملائكة السماء أو من أولياء الله الصالحين..

٥- نبتت وترعرعت في الأرض العربية طبقة انتهازية حصّنت نفسها بالفكر التكفيري المتطرف بدعوى الإصلاح حتى تفشّى القتل على الهوية والمذهب، ما أدى إلى غرق الأوطان في الشجن والحزن. فأصبحت الأجساد تتساقط كأوراق شجر تقصفها رياح الخريف المغبرّة، ويختلط صوتها مع نعيق البنادق التي تحصد الأجسام بلا هوادة أو شفقة، وتعلو الأرواح كالياسمين على أكف الزمان، وبذلك يطوي الموت الأبدان في منعطفات العنف وضراوة الصراعات، وحروب الهويات الدينية، التي تحركها منابع الجهل والتخلف من طائفية وشوفينية ترفض التعايش مع الآخر المختلف معها..

٦- تكريس ثقافة الصورة والثقافة الأصولية وكلاهما يشتركان في العديد من الأوجه، ولو أنهما تعارضتا في الاتجاه. وتدور أوجه الاشتراك حول حصار الإنسان أملاً في وصول كل منهما إلى التحكم فيه على طريقتها. فثقافة الصورة تقوم راهنا بتنميط الأجيال في الاتجاه العبثي أو المتعي. أمَّا الثقافة الأصولية فهي تتوسل مدخلاً مقابلاً للوصول إلى النتيجة ذاتها، وذلك من خلال اختزالها للمستقبل، حيث تتقوقع في الماضي الأسطوري متكرة بذلك للحضارة وقضاياها.. [٥]

وعليه ليس مستغرباً أن يشبه كثير من الكتاب والباحثين هذا الفكر الظلامي الشديد التعصب والتطرف وكراهية الآخرين بالفكر التلمودي بل بات بعضهم يعتبره امتداداً لهذه الثقافة الدموية التوراتية باعتبارها غريبة عن مجرى الفكر الإسلامي

الأصيل وما حمله رسول الله محمد «صلى الله عليه وسلم» الذي جاء ليتمم مكارم الأخلاق ويكون رحمة للعالمين..

إنّ التلموديين هم أساتذة التكفير قديما وحديثا في العالم بأسره فقد ظلوا خارج حدود التاريخ ولهذا جاء فهمهم للحياة وقيمها والمصطلحات التي يتداولها البشر ويناضلون من أجلها، جاء فهمهم معكوساً أو أرادوه معكوساً فقالوا: «إن (حرية، مساواة، إخاء) ليست إلا السلاح الذي نعدّه لهدم العالم.. لذا على الشعوب نفسها أن تركّز على السلوكية التلمودية في التاريخ، وهي بالتحديد ما كانت ولن تكون إلا سلبية ومعادية لحقوق الشعوب وحرياتها.. وعلى هذه الشعوب ألا تنتظر من معتنقي التلمود إلا زرع الفتن والخوف والتخويف وصناعة الأزمات وتقسيم المجتمع أي مجتمع إلى فئات وتحويلها إلى قوى متصارعة لدرجة الحروب الداخلية المدمّرة للبنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وليس هناك حركة تتلاقى مع هذا التيار لتمزيق الوطن العربي أكثر من الوهابية التي تحولت إلى زرع الفتن والانقسامات..

إنَّ ما يحدث على الساحة في الدول العربية والإسلامية نابع من الثقافة التكفيرية للجماعات الوهابية المتطرفة، فممارسة العنف من بعض الجماعات التي تدّعي الإسلام وتقوم بهتك الحرمات وقتل الأنفس البريئة والتي حرم الله قتلها وسفك الدماء الطاهرة على أرض المسلمين من دون وازع من دين أو ضمير، نابع من السياسة التي يمارسها أصحاب العقول المتطرفة والتي هدفها تحويل ديار المسلمين إلى مرتع للتكفيريين (٦)

ولمن لايعلم فإنّ النظرية المفضلة المطبقة لدى أصحاب الثقافة الظلامية الوهابية تعتمد شعار كَفِّرْ ولاتفكِّرْ فقد غيبوا الوعي والبصيرة والتبصُّر واستخدموا عقيدة فهم النصوص وفق هواهم.. لكي يوقفوا العقل والتفكير ووصل بهم الأمر إلى تكفير والدي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وقالوا إنّهما في النار وعندما كفروا أبوي رسول الله أصبح الأمر سهلاً عندهم بتكفير أي إنسان يخالفهم..

إنّ مشكلة التكفير هي في الذهنيّة التي تقدّس عمليّة شلّ التفكير عبر التنظير للجمود والوقوف فقط عند نتاج الماضويين، سواء سمّيناهم بالسلف الصالح أو المشهورين أو بالإجماع أو ما إلى ذلك؛ لأنّ هذه العناوين تشير إلى توافق علماء أو فقهاء على آراء معيّنة في حقبة زمنيّة ما، قد تطول أو تقصر، ولكنّها تبقى -في حقيقة الأمر- تعبيراً عن خصوصيّات المُنتجين لهذه الآراء، أو عن خصوصيّة تلك الحقبة الزمنيّة التي تفرض

تأثيرها في من فيها، من حيث الاهتمامات أو الذهنيّة أو المنهجيّة..

من المؤسف حقاً أن يتمكن هؤلاء من فرض الحصار على العقل العربي وأن يكبلوه بمخلفات الماضي المظلم ولعلَّ أخطر الأمور أن يتوارث الإنسان أبشع ما في ماضيه وأكثر مايتنافى مع العقل والمنطق والواقع.. وفعلاً فقد توارث بعضهم ركاماً بشعاً من القيم المدمرة التي أدت إلى عسكرة عقله، وتكونت لديه الرغبة في صناعة الموت، وتكريس العنف، والاستهانة بدماء الأبرياء العُزّل، حتى شاعت ثقافة الموت والقتل، فأصبح هذا الكائن مفعماً بالضغائن، مدجّجاً بقسوة الملتاثين والمجانين وذوي العاهات الأيديولوجية والقلوب الميتة.

إنّ هذه الثقافة الصماء حاصرت العقل العربي من كل الجهات فأوصلتنا إلى مانشاهده كل يوم على شاشات الفضائيات من انفجار السيارات المفخخة، حيث تتناثر أشلاء الأجساد في بعض المدن العربية المضطربة، والشعب يذوق الألم، والفقر، واليتم، والبؤس، والضنك والشقاء. وأضحت كرامة أفراده تُداس بالنعال، وباتت مفردات حياته ماهي إلا التفرقة، والقتل، والعنصرية. فكيف نشأت هذه الآفات التي خلّفت الفساد وهو قرين الاستبداد والتصحر الفكري والجدب الثقافي..!!

حقيقة إننا نقف حيارى إزاء مسائل عديدة يثيرها هؤلاء، وكيف لانشفق على أمتنا من شعوذاتهم ومباركتهم للتخلف الذي مازال ضارباً جذوره في شرائح واسعة من مجتمعاتنا العربية والإسلامية؟؟ فهؤلاء طمسوا الجانب النيّر المتسامح من الإسلام، فشوّهته ثوابتهم التي لا تقبل الجدل ولا القراءة العصرية، ولا تفسيرات الشرّاح والمجتهدين، ورفضوا الثقافة المتقدمة والتكنولوجيا المتطورة التي أنتجت المطبعة والكهرباء والسيارة فالطيارة وأخيراً وليس آخراً الإنترنت..!

وهم يريدون أن يعودوا بنا إلى البادية بمطايا الإبل، ويرون أننا بهذا التخلف ينبغي أن نسود العالم، عالم اليوم، وأن الغرب سينهار مع حضارته المادية، وسيحكم الإسلام عموم العالم، وبالطبع هم الخلائف الحقيقيون والوارثون المؤهلون لإدارة شؤون البلاد والعباد.

وإذا كان غير المتابع منا لمسيرتهم قد يأخذه خطابهم المغلف بآيات من المصحف الشريف، فإنّ ممارساتهم المنفرة تكذّب دعواتهم، فضحايا هذا الفكر التكفيري بالآلاف من الأبرياء عموماً..

فالفكر السلفي التكفيري يشوه الإسلام ويعمل على إغراقه بالتفسيرات الأشد

تطرفاً والأكثر تعصباً مما يجعل ملايين المسلمين بلا مستقبل أمام العلم والتكنولوجيا والعولمة والحداثة والحرية والديمقراطية، وسوف تذروا رياح التطوير والتغيير هذا الفكر العقيم كما عصفت من قبل بدعوات وبرامج عديدة لم تلائم لغة العصر فتوارت واختفت.

وقد يسأل سائل ماهو الحل ونرى أن الحل يكمن أولاً وأخيراً في فك الحصار الإعلامي والثقافي عن العقل العربي وهذا يتطلب كما قالت الكاتبة السعودية الدكتورة عزيزة المانع: ضرورة فتح باب الاجتهاد والتحرر من الاعتقاد بأن ما قاله السلف وما نصّوا عليه في هذا الباب أو ذاك، كافٍ لمواجهة كل مشكلة تبزغ في هذا العصر.

بيد أن الاجتهاد يحتاج إلى أئمة مفكرين وليسوا مجرد (حُفّاظ) تابعين يرددون ما قاله فلان أو فلان، فمن أولى قواعد الاجتهاد القدرة على التأمل بحرية في النصوص الدينية والمعطيات الشرعية الأصلية ووضع منهج بحث يستنبط الحقائق بمنظور جديد مستقل، بعيداً عن التقليد والسير على خطا من سلف، فما قال به السلف هو مما يسترشد به ولكن ليس هو القول الفصل في كل شأن، فالسابقون وإن بلغوا شأناً عظيماً في العلم، تظل معرفتهم محصورة في نطاق ما كان متاحاً لهم من معلومات في عصرهم، وربما لو أنهم عاشوا في زمننا هذا لقالوا قولاً غير الذي قالوا به في زمنهم السابق..(٧)

لقد أدرك أعداء هذه المنطقة أن تغييب العقل العربي وحصاره بالغيبيات والخرافات لابد وأن يفضي إلى التعصب والحقد الطائفي ويغلق على ذَويه نوافذ السمع والبصر والفؤاد، ويجعلهم يفقدون القيم الدينية والإنسانية كلها، ويندفعون تحت تأثير أتفه الذرائع، ليقتلوا ويذبحوا ويقطعوا الرؤوس ويمزقوا الأجساد ويشقوا الصدور ويأكلوا القلوب وينبشوا القبور ويفعلوا ما لم يخطر ببال الشياطين.

لذلك حريٌ بنا أن ندعو كل قلم شريف وكل حريص على هذه الأمة أن يسهم في فضح تلك الأفكار المسمومة.. وكم هو نافع لحاضرنا ومستقبلنا أن نستبدل التحريض على الكراهية، وشحن أسلحة الموت والدمار؛ بالحوار والنقد البناء، والانصراف إلى ما يصلح شأن المجتمع ويمكنه من التعايش رغم الخلاف والعيش على الرغم من التباين والاصطراع.. ودوماً كانت الفتنة أشد من القتل وأعلام الفتنة وإشاعة ثقافة التكفير اليوم أخطر وأشد فتكاً من الرصاص والبارود..!!

المصادر

١- رينيه ديكارت، ترجمة محمود الخضيري، مقال عن المنهج، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م)، ص٦٩-٧٠.
٢- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩م).
٣- كتاب حصار الثقافة - بين القنوات الفضائية والدعوة الأصولية للدكتور مصطفى حجازي، ص ١٩.
٤- المرجع السابق نفسه، ص٣٧.
٥- المرجع السابق نفسه، ص١٥٣.
٦- أمين معرفي.. ثقافة التكفير جريدة القبس الكويتية عدد ٢٠١٣/٦/٢٣م.
٧- عزيزة المانع العلمانية والسلفية.. حصار العقول جريدة عكاظ عدد ٢٠١٣/٤/٣م.

ثقافة للهيمنة

د. خلف الجراد

لقد أصبح من المعترف به على نطاق واسع في الأوساط الأكاديمية العالمية والدراسات السوسيولوجية المتخصصة بالشؤون الثقافية، أنَّ الرأسمالية العابرة للحدود القومية تقوم في موازاة أنشطتها الاقتصادية والتجارية والمالية، بتوزيع سلعها الثقافية حول العالم، بطرق وأشكال وتقنيات مختلفة. حيث إنّه نتيجة لعمليات الدمج المتواصل للثقافات القومية في نظام اقتصادي رأسمالي عالمي تنشأ ثقافة رأسمالية جامعة.

وكان ماركس قد وصف بصورة فطنة وبليغة هذه العملية الرأسمالية المعقدة والفعالة جداً والخطيرة بـ«المدفعية الثقيلة» الثقافية. ويعد المفكر الاجتماعي الأمريكي اليساري هربرت شيللر واحداً من أبرز المنظِّرين العالميين لمسألة الربط الجدلي بين النظام الرأسمالي العالمي والهيمنة الثقافية- الإعلامية على الشعوب والمجتمعات[1]. وعلى مدى سنوات عدّة، أكد شيللر وبالوثائق الدقيقة أنَّ النظام الرأسمالي العالمي ومن خلال وكلائه الرئيسيين- الشركات العابرة للقوميات - يعمل بلاهوادة على دمج كل المجتمعات في نطاقه.

أديب وباحث وسفير سابق، وعضو المجلس الأعلى للإعلام.

ووفقاً لشيللر، فإنَّ القوة السياسية- الاقتصادية للشركات العابرة للقوميات، وانتشارها العالمي، تصاحبها حملة أيديولوجية لإعادة تعريف «الثقافة العالمية»، استناداً إلى رؤية وتوجهات وأهداف هذه الشركات.ويرى شيللر أنَّ المؤسسات الإعلامية العابرة للحدود القومية، مندمجة تماماً في النظام الرأسمالي العالمي، ولها دور وظيفي في توسعه، حيث إنَّها تقدم من خلالها صورها ورسائلها والمعتقدات والمنظورات التي تخلق وتعزز ارتباطات جماهيرها بالوضع الذي توجد عليه الأشياء في النظام ككل[٢].

وهكذا، فإنَّ ماتناقشه هنا هو ليس فقط أنَّ الرأسمالية توجه وتشكل الاقتصاد السياسي العالمي، ولكنها-خلال هذه العملية- تحدد مكونات وتوجهات الثقافة العالمية بمجملها، وذلك عبر توزيع المنتجات الإعلامية المسلّعة (commercialized) والتي تحتوي على روح وقيم رأسمالية الشركات والنزعة الاستهلاكية.ويتم ذلك في صورة كلية ثقافية- «أسلوب حياة» و«نهج تنموي» تتبعه الدول النامية[٣].

ويؤيد هيرمان وماكيزني بشكل قوي مؤلفات شيللر الريادية في هذا المجال، حيث يشير كتابهما المعنون بـ«وسائل الإعلام العالمية»، الصادر في العام ١٩٩٧م وعنوانه الفرعي «المبشرون الجدد للرأسمالية العالمية»، إلى أدلة قاطعة على مسألة التركيز والاندماج المتسارع للسيطرة على الأنظمة والمؤسسات الإعلامية العالمية وامتلاكها بأيدي عدد قليل من الشركات الرئيسة العابرة للحدود القومية، مثل تايم وورنر، وديزني، ونيوز كوربوريشن، وفياكوم، وبرتلزمان...إلخ. ويؤكدان أنَّ قوة المؤسسات الإعلامية العابرة للحدود القومية «ليست اقتصادية أو سياسية فقط، ولكنها تمتد إلى افتراضات وأنماط تفكير أساسية.. ويرتكز استقرار النظام إلى حد ليس بالقليل على القبول واسع النطاق لأيديولوجيا مؤسسية عالمية»[٤].

وأشارا في موضع آخر إلى: «أنَّ الغزو الحاسم للأنظمة الإعلامية العابرة للقوميات، هو التطبيق العملي (للنموذج التنموي) (الرأسمالي).. القائم على الغزو الاقتصادي الممزوج بتوجهات أيديولوجية تخدم هذا النهج وأهدافه.كما أنه يجتذب الدولة موضع النقاش إلى فلك مصالح القوى المهيمنة وهذا هو الشكل الإمبريالي الجديد، الذي حل محل الطرق الاستعمارية الأكثر ابتذالاً، وفظاظة، وقدماً..»[٥].

ولهذا لم يجد الدكتور جون توملينسون مفراً من الاعتراف بأنَّ هذا النوع من التحليل النقدي الصارم يمتلك أدلة قوية

على مسألة «قوة ونفوذ الرأسمالية العابرة للحدود القومية في العالم المعاصر» وقد صنّف الكتّاب والمفكرين الأمريكيين المناوئين للفكر الليبرالي الجديد وللنظام الرأسمالي العالمي وأدواته الممثلة بالشركات عابرة الحدود القومية(في المجال الاقتصادي والإعلامي على حد سواء)، من أمثال شيللر وهيرمان وماكيزني وآخرين، ضمن «التقليد الماركسي الجديد الواسع»[6]، القائم على استقراء نظرية ثقافية من الأدلة التجريبية القومية المتوافرة في الاقتصاد السياسي.

وهو إذ لايستطيع إنكار وجود البنى والأنماط الرأسمالية المتماثلة في إطار العولمة ولا قدراتها الاندماجية، ولا «نجاحاتها» النسبية، كمنظومة تحاول أن تهيمن على النظام الاقتصادي العالمي، إضافة إلى اعترافه بصحة تشديد شيللر على الطريقة التي نظم بها هذا النظام الاقتصادي، وشكّل بها جزءاً كبيراً من الحياة الثقافية الحديثة في إطار معايير تجارية محددة، إلا أنّ اعتراضه يقوم على ميل شيللر والتيار المؤيد له إلى المبالغة في مسألة «تسليع التجربة الثقافية في المجتمعات الحديثة»، مشككاً بوجود ثقافة عالمية واحدة «متجانسة» ومهيمنة آخذة في الظهور[7].

الدليل الأكثر وضوحاً على صحة هذه المقاربة، يتمثل في «تنميط» أو «نمذجة» (standardization) السلع الثقافية حول العالم، كالموسيقى والأفلام وأنواع محددة من الملابس (يطلق عليها وصف «الماركات العالمية») والأطعمة، وصولاً إلى طرازات معمارية متطابقة في قارات ومناطق مختلفة من العالم. حيث لايمكن تجاهل حقيقة أنّ ثمة أساليب وعلامات تجارية، وأذواقاً، وممارسات سلوكية فردية وجماعية معينة جرى تعميمها إعلامياً واستهلاكياً على خلفية العولمة الرأسمالية(الأمريكية خاصة)، إلى أن صارت تتمتع اليوم بذيوع عالمي، ودلالة زائفة على «التحضر» و«الثقافة الرفيعة» و«روح العصر». بل إنّ المفارقة العظيمة في هذا الشأن هي أنّ المطارات الدولية، تلك البوابات التي يفترض أنها تعكس التنوع الثقافي الكوني، أصبحت تشكل مثالاً صارخاً على «القولبة الثقافية» الفجة، فهي شبه متماثلة في جميع أرجاء العالم. وتقدم أنماطاً متسقة من الأثاث، و«المطبخ الدولي» ومجموعة كاملة من العلامات التجارية الدولية المألوفة في متاجر الأسواق الحرّة المعفاة من الرسوم الجمركية[8].

ويعترف عدد من الباحثين الغربيين أنّ رزمة من العلامات التجارية العالمية «الماركات» والرموز الثقافية الجماهيرية صارت صيغاً مبتذلة للتنميط الاستهلاكي ولهيمنة الشركات عابرة القوميات: كوكاكولا،

ماكدونالدز، كالفين كلاين، مايكروسوفت، ليفانز، دالاس، «الآي بي.إم»، مايكل جاكسون، نايكي، «سي.إن.إن»، مالبورو، أرنولد شوارتزينغر، دالاس...إلخ، إلى حد «أن بعضها أصبح مرادفاً للهيمنة الثقافية الغربية ذاتها»، كما يؤكد كل من Ritzer (١٩٩٣)، Barber (١٩٩٥)، Ritzer and Lizka (١٩٩٧).

ولكن المدافعين الأشداء عن وحدة الثقافة العالمية بمعناها الرأسمالي، يرفضون تماماً الاعتراف بأطروحة «الإمبريالية الثقافية»، لأنها، كما يقول جون تومسون «تتجاهل الملاءمة التفسيرية التي تمثل جزءاً أساسياً من تداول الأشكال الرمزية»[١٠]. حيث إنَّ الثقافة، لاتنتقل بهذه الصورة أحادية المسار.

ودائماً ماتشتمل الحركة في مابين المناطق الثقافية/الجغرافية على التفسير، والترجمة، والتحول، والتكيّف، واكتساب الخصائص الثقافية للسكان الأصليين، حيث تجلب الثقافة المستقبلة مصادرها الثقافية الخاصة لمهاجمة «الواردات الثقافية»[١١].

وفي الأغلب يقدم مثل هذا النقاش التبريري تحت عنوان «التبادل الثقافي الحر» أو «الملاءمة الثقافية التكيفية النشيطة»، التي تركز على ما يسمى «الجمهور النشيط»[١٢] و«الأقلمة المحلية» للسلع العالمية الشهيرة، كما يؤكد هويس (Howes) في مايتعلق بشركة «كوكاكولا»، حيث يقول[١٣]:

«لا يوجد منتج مستورد، بما في ذلك (الكوكاكولا)، محصن تماماً ضد اكتساب الصفة المحلية» (creolization). وفي الواقع، نجد أنه كثيراً مايربط بين «الكوكاكولا» وبين معانٍ واستخدامات تنتمي إلى ثقافات معينة تختلف عن تلك التي تخيّلها المصنّع.

ومن بين هذه المعاني والاستخدامات المروجة، أنها قد تخفف التجاعيد (في روسيا)، وأنَّ بإمكانها إحياء شخص ميت في (هاييتي)، وأن بوسعها تحويل النحاس إلى فضة في (بربادوس)..كما تضفي أيضاً الخصائص الثقافية الخاصة بالسكان الأصليين على شراب «الكوكاكولا»، من خلال مزجه مع مشروبات أخرى، مثل الرام في منطقة البحر الكاريبي، لعمل مشروب «كوبا ليبري» (Cuba Libre)، أو مع مشروب «أغوادينتي» (Aguadiente) في بوليفيا لتحضير مشروب «بونشي نيغرو» (Ponche Negro). وأخيراً، فإنه يبدو أنه ينظر إلى مشروب «الكوكاكولا» على أنَّه «منتج محلي» في كثير من الأماكن المختلفة، وهذا يعني أنك غالباً ماستجد أشخاصاً يعتقدون أنَّ هذا المشروب نشأ في بلدانهم، وليس في الولايات المتحدة الأمريكية[١٤].

والواقع أن لعبة التركيز على «الملاءمة المحلية» للسلع والمنتجات الغربية (الأمريكية على وجه التحديد) ذات العلامات (الماركات)التجارية الشهيرة، يشكل تكتيكاً رأسمالياً مدروساً، يغلف التمييط والهيمنة الاقتصادية والثقافية المنتجة في مراكز التطوير الصناعي في الولايات المتحدة وكبريات الشركات متعددة الجنسيات المنتشرة في بقاع العالم المختلفة، ثم تتم عمليات التسويق والترويج، بناءً على دراسات الأسواق وطبيعة الجمهور المستهلك، وبسيكولوجية الاقتناء والمحاكاة وغير ذلك من تقنيات علم النفس الاستهلاكي.

وهو ما دفع عدداً من أنصار العولمة الاقتصادية والثقافية، وفي مقدمتهم جون توملينسون للاعتراف الصريح بأنَّ نسبة كبيرة من الممارسات الثقافية في العصر الحديث قد «سلّعت»، وتحولت إلى أشياء تباع وتشترى.. بل إنَّه من المؤكد أنَّ نشاط التسوق نفسه قد أصبح الآن إحدى أكثر الممارسات الثقافية شعبية في المجتمعات الغربية، حيث إنَّ «عنصر التسوق» موجود و«مبرمج» حتى في الأكثر الأعم من الأنشطة الترويجية المعاصرة. وهكذا، فإنَّ التصميمات الداخلية للمتاحف، وصالات عرض الأعمال الفنية، والمنازل الفخمة، والمواقع التراثية، وحتى المتنزهات والحدائق العامة تقوم كلها الآن بتوجيه الزوار إلى محطة نهائية terminus (الهدف النهائي) في أحد المتاجر، الذي يمكن فيه، بصورة ملموسة بدرجة أكبر، إعادة شراء التجربة(التي حوّلت بالفعل إلى سلعة) في شكل هدايا تذكارية، وألعاب ومناشف، وقمصان، و«تي شيرتات»، وأحذية رياضيّة معينة، وملصقات إعلانية، وأفلام فيديو، وبطاقات بريدية، وما إليها. وتؤدي أندية كرة القدم الآن دوراً كبيراً في بيع الملابس والأحذية الرياضية بالتقسيط لمشجعيها، وتغيّر الخطوط الخاصة بفريقها بشكل مستمر للمحافظة على الطلب.

وحتى نشاط ترويجي بسيط مثل المشي قد أصبح ممارسة مسلّعة، حيث تختبر علاقتنا به تتصل بشراء بعض المعدّات، والكتب الإرشادية، والمجلات، والاشتراك بأندية مخصصة لهذه الغاية، وما إلى ذلك من أساليب وطرائق، تتجدد بصورة مستمرة[١٥].

ويمكن النظر إلى المركز التجاري في «ويست إدمونتون»، إضافة إلى «مراكز التسوق العملاقة» (Mega-mall)، الأخرى، مثل «مول أوف أمريكا» في مدينة «مينيا بولس» على أنَّها تجسيد واضح لهذه العملية الخاصة بالتسليع الثقافي، التي تجمع بين الملامح التقليدية لمراكز التسوق والملامح الخاصة بمدن الملاهي، ومن هنا

جاء الوصف الهجين المركّب «الماكديزنية» (McDisney Fiction)، الذي اشتقه كل من رتيزر وليسكا لنشر.

بل إنَّ جون أوري وصف هذا النوع من مراكز التسليع الثقافي الاستهلاكية بـ«المعبد النهائي للنزعة الاستهلاكية السطحية، والهزل، والسعي وراء الملذات»، حيث يقول[16]: «إنّه ميل مربع واحد يكتظ بأكثر من ٨٠٠ متجر، وبحيرة داخلية تقع على مساحة ٢١٥ فداناً، مزودة بأربع غواصات صغيرة مخصصة للأعماق، مع نسخة من سفينة شراعية إسبانية قديمة، ودلافين، وملعب صغير للغولف يشتمل على ١٨ حفرة، إضافة إلى ٤٠ مطعماً، ومتنزه مائي تبلغ مساحته ١٠ أفدنة، إضافة إلى نسخة مقلدة من جادة باريزيان (Parisian) التي تعود إلى القرن التاسع عشر (من المؤكد أن هاوسمان Haussman لن يكون مرتاحاً في قبره إذا شاهد ذلك)، وشارع نيواورلينز الذي يحتوي على نوادٍ ليلية، وفندق يعرض مجموعة متنوعة من الغرف الخاصة، التي تتبع أنماطاً معينة مثل هوليوود والطراز الروماني والبولينيزي».

وتطرح أمثلة مشابهة مجموعة واسعة من الأسئلة والشكوك حول الأهداف النهائية لما يسمى «الاستهلاك البصري» أو «المزج الثقافي-الاستهلاكي»، الذي يجسد عملية معقدة من تسليع الثقافة، خدمة لاقتصاد السوق الاستهلاكي المعولم (عبر ترويج ماركات محددة في شتى بقاع العالم)، والتي يمكن قراءتها وتحليل عناصرها ومكوناتها ومراميها ضمن منظور أوسع وأعمّ، وهو «الإمبريالية الثقافية»، كما أنه يدفع بفكرة «الثقافة الرأسمالية» إلى ماهو أبعد من مسألة المساجلات الفكرية أو التقسيمات الأيديولوجية المعتادة، نحو رؤية موضوعية تقوم على مبدأ الاعتراف بوجود إستراتيجية رأسمالية عالمية تقودها الولايات المتحدة وكبريات الشركات الاحتكارية عابرة القوميات ليس للهيمنة الاقتصادية على الأسواق العالمية وحسب، وإنما لاستخدام الوسائل والعناصر الثقافية، من أجل ترسيخ هذه الهيمنة، عبر تنميط النزعة الاستهلاكية وتعميم ممنهج لمراكز التسوق ذات المواصفات والعلامات التجارية الخاصة، في جميع أنحاء الكرة الأرضية.

وإذ يزعم أنصار الليبرالية الجديدة والعولمة والأمركة أنَّ القضية كلها لاتتعدى «المثاقفة» أو التبادل الثقافي بين مجتمعات مختلفة الثقافات، لكنها تعيش في عصر واحد، وتستخدم الأدوات والتقنيات العصرية والاستهلاكية ذاتها..إلخ، وبناء على ذلك فإنَّ ردوداً واسعة وعميقة جاءت من شتى بقاع العالم لتدحض هذه الأزعومة

وتفضح مرتكزاتها، وتبين تهافتها النظري والعملي بآن معاً.

وتكفي الإشارة في هذا السياق إلى أنّ معظم النقاشات الفكرية والتخصصية حول هذه المسألة أصبحت تدور حول الثقافة الأحادية الرأسمالية العالمية، في حين تركّزت أطروحة «المثاقفة» أو «التفاعل الثقافي» في نسبة محدودة من الإعلاميين الغربيين ومن يدور في فلكهم من الليبراليين الجدد في «العالم الثالث».

ولم يعد اليوم أي باحث موضوعي يشكك بعدم المساواة أو عدم التكافؤ الاقتصادي والثقافي والإعلامي السائد في العالم، وفي حقيقة «التسليع» والتدفق الإعلامي «التثقيفي» الهائل، الموجه من الطرف الأقوى إلى الطرف الأضعف في هذه المعادلة المختلة. الأمر الذي دفع كثيراً من المنظرين والباحثين السوسيولوجيين في الغرب، للتحذير من أن هذا «الطوفان» و«الإغراق» الموجّه نحو «العالم الثالث»، إنما يشكل تهديداً صارخاً لثراء وتنوع الممارسات الثقافية. وهناك قدر واسع من التشكيك في عدد الدوائر والأوساط الأكاديمية حول الأهداف الحقيقية الكامنة وراء مقولة «الثقافة العالمية» من أساسها. ولهذا فإنّه لايمكن قبول هذه الأطروحة من دون تحفظات، لأننا لانستطيع أن «نتعامل مع العالمية من موقع حيادي».

إن الذي بإمكانه التعامل معها حيادياً، هو فقط من يستطيع أو يطمح أو يحلم بأن يكون نداً لها، أي هم الأقطاب المحتملون المقابلون للولايات المتحدة، التي لاتزال أحادية القطب في الاقتصاد والسياسة والثقافة.. لذلك علينا أن نأخذ موقفاً نقدياً انطلاقاً من موقفنا المتدني كعالم ثالث بالنسبة إلى هذه الثقافة الهجومية التي هي الثقافة العالمية»[١٨].

والحقيقة، فقد أصبحت الشعوب والمجتمعات كافة تعيش اليوم مشروعاً ثقافياً رديفاً أو موازياً أو لاحقاً لنظام الهيمنة الاقتصادية والاحتكارية الرأسمالية العالمية، يتحكم في مكوناته وعناصره وأساليبه القطب الأمريكي الواحد، عبر إستراتيجية كونية-تقنية شاملة، تلتهم المسافات المكانية والتاريخية والخصوصيات القومية، فتضع بذلك العالم كله أمام خيار وحيد لاثاني له، وهو الانضواء تحت مظلة النظام الرأسمالي العالمي، ومفرزاته المختلفة، وفي مقدمتها مايسمى زوراً «الثقافة العالمية»، المتسربلة بثياب «التحديث» و«الحداثة» و«الحرية الفردية» و«الإنسان العالمي» و«العصرنة» و«الليبرالية الجديدة». وهو مايجب أن يدفعنا إلى الانخراط في جبهة

عالمية تتكون من جميع الشعوب والمجتمعات والقوى والفئات والشرائح المضادة للهيمنة الرأسمالية وأيديولوجية العولمة، التي يحتكر الغرب أحدث أشكالها العلمية والتقنية والإعلامية والترويجية، المهددة لمصائرنا جميعاً.

في حين أنَّ الحيادية أو اللامبالاة تجاهها، أو التغاضي عن تحركاتها وفعالياتها وأعمال ممثليها، ووكلائها المحليين وأنشطتهم الفكرية والعملية والإعلامية.. خطرٌ، يمكن أن يؤدي في النتيجة إلى كوارث هائلة، ليس أقلها فقدان استقلالنا وضياع هويتنا الحضارية والثقافية والقومية تحت أقدام الغزاة الجدد القادمين من وراء المحيطات، تؤازرهم عناصر محلية مستلبة فقدت الوعي والطريق والبوصلة الهادية.

الهوامش

١- انظر: هربرت أ.شيللر (Herbert. I. Schiller)، المتلاعبون بالعقول، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة(الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، ١٠٦، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٦م.

٢- المصدر نفسه، الفصل السابع، توجيه العقول في بعد جديد من قانون السوق إلى السيطرة السياسية المباشرة، ص ١٩٠-٢٢١.

3- Herbert.I.schiller. Transational Media and National Development. In.K.Nordenstreng and H.I.Schiller (eds), National Sovereignty and international Communication. Norwood, N), Ablex, 2131-.

٤- انظر: د.جون توملينسون (John Tomlinson)، العولمة والثقافة: تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان والمكان، ترجمة: د.إيهاب عبد الرحيم محمد، عالم المعرفة (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، ٣٣٤، آب/أغسطس ٢٠٠٨م، ص١١٣-١١٤.

5- Herman E.S.and R.W.McChesney 1997, The Global Media. London.Cassel.P.154.

6- Golding, P.and Harris (eds):Beyond.Cultural Imperiqalism:Globalization, Communication and the new international order.London:Sage 1997.

٧- المصدر نفسه، ص ١٣٣-١٥٧.

8- Hamelink, C.J:Cultual Autonomy in Global Communication. New York:Longmans, 1983.

9- Ritzer, G.and A.Liska: «McDisneyization and Post-Tourism».In C.Rojek and J.Wrry (eds).Touring Cultures.Transformation of travel and theory.London.Routledge, 1997, P.96109-.

10- Thompson, J.B:The Media and Modernity.Cambridge:Polity Press, 1995, P.167.

11- Appadurai, A:DisJuncture and Difference in the Global Cultural Economy.In Featherstone (ed), Global Culture.1990, P.295310-.

12- Morley, D.: Family Television.London: Comedia Routledge, 1992.

13- Howes, D(ed): Cross-Cultural Consumption:Global markets, Local realities.London: Routledge, 1996.

١٤- المصدرنفسه، ص٦.

15- Ritzer, G.and A.Liska, 1997, P.103

وانظر أيضاً: د.جون توملينسون، العولمة والثقافة، ص ١١٨-١١٩.

16- Wrry, J.Tourism, Europe and Identity. In J.Wrry.Consuming Places.London:Routledg, 1995, P.123.

17- Blackwell, T.and J.Seabrook: The Revolt against Change.London:Vintage, 1993.

١٨- فهمية شرف الدين، «نحو تأصيل ديمقراطي للثقافة العربية»، ورقة مقدمة إلى ندوة مجلة «الفكر العربي المعاصر»، الفكر العربي المعاصر، السنة ١٣(٤)، العدد ٧٠ (تشرين الأول/ أكتوبر- كانون الأول/ ديسمبر١٩٩٢م)، ص٢٢.

ستندال وتصوير الذات..

ترجمة: هبة الله الغلاييني *



ما من شيء يهب له ستندال نفسه، وهو أكثر المحافظين على ذواتهم في الأدب غيرة، بصورة كاملة، لا لإنسان، ولا لمهنة، ولا لمنصب. وحينما ينشئ كتباً وروايات وأقاصيص ومؤلفات في علم النفس، فإنما يسجّل نفسه وحدها في هذه الكتب: فهذا الهوى أيضاً يخدم متعته الخاصة على سبيل الحصر. وذلك أنَّ ستندال، الذي يفخر في ذكرياته بأنَّ أعظم عمل في حياته أنه «لم يأت قط عملاً لا يمتّعه»، لم يكن فناناً على وجه الدقة إلا بمقدار ما يخدم الفن غرضه الأخير: متعته، سروره، متعته الذاتية.

* كاتبة ومترجمة سورية.

وإذن، فقد يخطئ خطأ فادحاً كل أولئك الذين يلتمسون لدى ستندال نفسه تناولاً جدياً لفنه، لأنه كان قد أصبح في تلك الأثناء أديباً له شأنه: يا إلهي، وأنى يتهيّأ لهذا المتعصب للاستقلال أن يستسلم، ليعد واحداً من الأسرة الأدبية، أديباً محترفاً، على أن تنفذ وصية ستندال لم ينقش هذا التقييم الأدبي المبالغ فيه، في الحجر، إلا بعناد كامل وتحريف متعمّد لإرادة ستندال الأخيرة. فهو يحفر في المرمر: «عشتُ Visse، أحببتُ am>o، كتبتُ scrisse» على حين كانت الوصيّة تقوم على تسلسل آخر بصراحة: «أحببتُ am>o، كتبتُ scrisse، عشتُ visse» ذلك لأنَّ ستندال الوفيّ لمبدئه المفضّل أراد بهذا التسلسل أن يكون معلوماً إلى الأبد أنه قدّم الحياة على الكتابة، فقد كان الاستمتاع يبدو له أهم من الإبداع، ولم تكن صناعة الكتابة كلها شيئاً سوى مهمة تكميلية مسلّية من أجل تفتّح ذاته، فهي وسيلة ما، من الوسائل الكثيرة الباعثة للنشاط في وجه الملل. وإنَّ المرء ليسيء المعرفة به إذا لم يعرف: إنَّ الأدب لم يكن عند هذا المستمتع المغرم بالحياة إلا شكلاً عارضاً من أشكال التعبير عن شخصيته، ولم يكن شكلاً حاسماً بحال من الأحوال.

ولا ريب أنّه قد أراد، وهو إنسان شاب، وقد وصل باريس منذ عهد قريب، جامداً جموداً مثالياً، أن يغدو ذات مرة أديباً أيضاً، أديباً مشهوراً بالطبع، ولكن أي فتى في السابعة عشرة لا يريد ذلك؟ فهو ينحت في تلك الأيام بضع مقالات فلسفية، ويكتب في مسرحية هزلية شعرية لم تكتمل أبداً، ثم ينسى الأدب نسياناً كاملاً طوال أربعة عشر عاماً، فهو جالس على صهوة الحصان أو إلى المكتب، وهو يتنزّه في الشوارع المشجّرة، ويغازل النساء المحبوبات عبثاً على نحو كئيب، ويعنى بالرسم الزيتي والموسيقا عناية أكبر بكثير من عنايته بالكتابة. وفي عام ١٨١٤م، في لحظة شحّ المال، حين يستاء لاضطراره إلى بيع خيوله، يلفق على عجل، وباسم غريب، كتاب «حياة هايدن»، أو يسرق، بالأحرى، النص بوقاحة من مؤلفه الإيطالي كارباني المسكين الذي يضج ويجأر بالشكوى من هذا السيد المجهول بومبيه الذي يرى أنه قد تعرّض للنهب من قبله فجأة إلى هذا الحد.

ثم يعيد كتابة تاريخ للرسم الزيتي الإيطالي بطريقة التجميع بالطريقة ذاتها، من كتب أخرى، ناشراً فيما بين الفصول بعض النوادر، وهو يرتجل بضعة كتب، فهو يتخذ اليوم صورة مؤرخ الفن، وغداً صفة الباحث في الاقتصاد القومي (مؤامرة ضد الصناعيين)، وبعد غد صفة الباحث في جماليات الأدب «راسين وشكسبير»، وسرعان

ما تبيّن له عند هذه المحاولات التي جاءت بطريق المصادفة، أنّ الكتابة ليست صعبة على الإطلاق، فحين يكون المرء على جانب من الذكاء، وتنطلق الأفكار برشاقة على شفتيه، فليس هناك في الحقيقة إلا فرق ضئيل بين الكتابة والحديث، على أنّ الفرق يغدو أقل بين الحديث والإملاء.

على أنه لا يُقبل على العمل إقبالاً أشدّ إلا في عامه الأربعين. فلماذا؟ ألأنه غدا أكثر طموحاً، وأكثر حماسة، وأكثر ولوعاً بالفن، لا على الإطلاق، بل لمجرّد أن يغدو عندئذ أكثر بدانة، لأنه يُصيب - ويا للأسف! - نجاحاً أقلّ لدى النساء، ويشحّ ماله إلى حد كبير، ويتسع لديه الوقت الزائد، الوقت الذي لا يمكن ملؤه، إلى حد كبير، وعلى وجه الإجمال، لأنه يحتاج إلى البدائل: (ليدفع عن نفسه السأم) فمثلما يحلّ الشعر المستعار محل الشعر الكثيف الأشعث بالأمس، تحلّ الرواية الآن محل الحياة عند ستندال، فهو يستعيض عن تناقص المغامرات الواقعية بأحلام مصنوعة شتى، بل إنه يجد الكتابة في آخر الأمر مسلّية، يجد نفسه نديماً أكثر إمتاعاً وأخصب فكراً من كل أولئك الثرثارين في الصالونات.

أجل إنّ كتابة الروايات هي بالفعل متعة سارة جداً ونظيفة ونبيلة، على ألا يأخذها المرء مأخذ الجد أكثر مما ينبغي، وألا يكدّر باله بالجهد والطموح شأن هؤلاء الأدباء الباريسيين، كما أنّها جديرة بامرئ أنانويّ، إذ إنّها لعبة ذهنية أنيقة غير ملزمة يجد فيها الرجل الطاعن في السن جاذبية تزداد شيئاً فشيئاً. على أنّ المسألة لا تقتضي بعد ذلك جهداً بالغاً، فهو يملي رواية في ثلاثة أشهر، من دون مسودّة، على أي ناسخ رخيص، أي إنه لا يضيع كثيراً من الجهد والوقت. وهو يستطيع فوق ذلك أن يستمتع بالتهكّم على أعدائه بطريقة خفيّة، وأن يسخر من وضاعة العالم، وهو يستطيع أن يبوح بأدقّ خلجات نفسه من وراء قناع، من دون أن يفصح عن نفسه، وذلك بأن يدفع بها صوب فتيان أغراب.. وفي وسع المرء أن يكون متحمساً من دون أن يفضح نفسه، وأن يحلم وهو طاعن في السن كما يحلم الفتيان من دون أن يتولاه الخجل من نفسه.

وعلى هذا النحو يتحوّل إبداع ستندال إلى استمتاع، ويتحول شيئاً فشيئاً إلى أكثر ضروب الافتتان بالذات خصوصية وخفاء عند المستمتع الخبير. غير أنّ ستندال لم يخامره قط إحساس بأنّه يصنع فنّاً عظيماً أو تاريخاً أدبياً على الإطلاق. وهو يعترف لبلزاك بصراحة: «لقد كنت أتحدث عن أشياء كنت أهيم بها، ولم أفكر قط بفن كتابة الرواية»، فهو لا يفكّر بالشكل، ولا بالنقد، ولا بالجمهور، ولا بالصحف، ولا بالخلود،

وإنما يفكّر، من حيث هو أناني محض، أثناء الكتابة، في نفسه وفي متعته.

وفي النهاية، في وقت متأخر، كل التأخر، في حوالي الخمسين من عمره، يقوم باكتشاف غريب: وهو أنَّ المرء يستطيع أن يكسب المال بالكتب، وهذا ما يبعث فيه شعوراً بالارتياح: ذلك لأنَّ المثل الأقصى عند هنري بيل يظل دائماً الوحدة والاستقلال.

وإنَّها لمتعة متأخرة بلا ريب، قادمة مع حمرة شفق المساء، وقد أحدقت بها سحائب الاستسلام. وذلك لأنَّ أدب ستندال يبدأ في وقت متأخر لا يتيح له أن يحدد لحياته وجهة إبداعية، بل ينهي موته البطيء ويضفي عليه الجو الموسيقي.

وهناك مقولة مشهورة لـ«ستندال» يقول فيها:

«من أجل معرفة الإنسان يكفي أن يدرس المرء نفسه ذاتها، ومن أجل معرفة الناس لابد للمرء أن يعاملهم».

ويضيف على الفور أنه لا يعرف الناس إلا من الكتب، وأنَّ كل دراساته قد تناول بها نفسه وحدها، فهو يوجهها دائماً لترتدّ على نفسه وحدها، ولكن المدى الكامل للنفس البشرية متضمن في هذا الطريق الذي يدور حول فرد.

أمَّا المنهج الدراسي الأوَّل في مراقبة الذات، فينجزه ستندال في طفولية. فحين تتولى عنه أمه التي ماتت في وقت مبكر، والتي أحبها حباً جارفاً، لا يرى حواله إلا ما هو عدائي وغريب من الوجهة الفكرية، ويضطرّ إلى إنكار ذاته، وإخفائها حتى لا تلفت نظر أحد ويتعلّم في وقت مبكر، بهذا التنكّر الدائم «فن العبيد» في الكذب.

فحين يحشر في الزاوية يستغلّ وقت استيائه ونقمته للتنصت على الأب والعمّة والأستاذ وكل معذبيه وحاكميه، وتصقل الكراهية نظراته فتبلغ بها حدة لاذعة، ويغدو ذا دراية في منطق علم النفس قبل أن يكون ذا دراية في دراسته للعالم ودراسته الموضوعية، عن طريق المقاومة التي تلجئه الحاجة إليها، وعن طريق القسر الصادر عما يتعرّض له من إساءة الفهم.

أمَّا المنهج الدراسي الثاني لذلك المثقف ثقافة سابقة لأوانها على نحو بالغ الخطورة فيستغرق زمناً أطول، بل يستغرق في الحقيقة حياته بأسرها، وذلك هو الحب. فالنساء يصبحن مدرسته العليا، والناس يعرفون منذ عهد طويل -وهو نفسه لاينكر الواقعة الكئيبة- أنَّ ستندال لم يكن بطلاً في ميدان الحب، ولا غازياً، وكان أبعد ما يكون عن الدون جوان الذي كان يحلو له في العادة أن يتنكّر في زيّه. وهو يضطر إلى الاعتراف بقوله: «لقد كنت أشقى بالحب شقاء يكاد يكون دائماً»؛ بل يضطر كذلك إلى الاعتراف:

«بأنه قلّ من ضباط الجيش النابليوني من أصاب من النساء عدداً قليلاً مثله». وقد أورثه مع ذلك أبوه عريض المنكبين وأمه ذات الدم الحار شهوانية شديدة الإلحاح «طبعاً نارياً» ولكن على الرغم من أن طبع ستندال يختبر كل واحدة بصبر نافذ ليرى أهي (ممكنة النوال) بالقياس إليه، فقد ظل عمراً من الزمان فارس حب ذا شخصية بالغة الكآبة، فهذا المستمتع النموذجي بالمتعة المستبقة يتفوق، وهو بعيد عن مرمى النيران، بإستراتيجيته الشهوانية، (حين ينأى عنها يغدو جريئاً ويتسم بالمقدرة على الإقدام على كل شيء) وهو يدوّن في يومياته مقدّراً بدقة حتى الساعة التي سيردي فيها رتبه الراهنة (أنا خليق أن أنالها بعد يومين). ولكن الكازانوفا المدعي، لايكاد يدنو منها حتى يتحوّل على الفور إلى طالب ثانوي خجول، وتنتهي الهبّة الأولى للعاصفة في العادة (وهو نفسه يعترف بذلك) بجمود داخلي للرجل أمام المرأة سلسة القياد، فهو يغدو (رعديداً ومخبولاً) حين يفترض أن ينشط للمغازلة والمعابثة، ويغدو ساخراً حين يجدر به أن يكون رقيقاً، وعاطفياً في لحظة الهجوم.

وجملة القول إنه يفوّت أجمل الفرص ويضيّعها بالحسابات وضروب الإحجام. وكذلك فإن هذا الرومانسي المجانب لعصره يعمد، مرة أخرى، بدافع الحرج، وبدافع الخوف من أن يبدو عاطفياً رقيقاً، أو أن يغدو مغفلاً إلى إخفاء رقّته تحت ستار الفروسية المتمثلة في الخشونة الفظّة الصاخبة والصراحة القوزاقية.

ومن هنا جاءت حالات (إخفاقه) لدى النساء، وهي التي تمثّل هذا اليأس الخفي في حياته، ذلك اليأس الذي جهر به الأصدقاء آخر الأمر. وليس هناك شيء كان ستندال يتوق إليه طوال حياته، كل هذا التوق الشديد، مثل انتصارات الحب الملموسة «لقد كان الحب دائماً بالقياس إليّ أعظم الشؤون، أو بالأحرى: الشأن الوحيد». وهو لا يبدي مثل هذا القدر من الاحترام الحقيقي تجاه أحد، لا تجاه فيلسوف، ولااتجاه أديب، بل ولا حتى تجاه نابليون، كما يبديه لعمه جانبون، أو ابن عمه العسكري دارو، اللذين أصابا عدداً لايحصى من النساء من دون أن يستعملا أية وسائل فنية سواء أكانت ذات سمة فكرية أم ذات صلة بعلم النفس- أو ربما كان ذلك لانعدام تلك الوسائل، ذلك لأنّ ستندال ينتهي شيئاً فشيئاً إلى إدراك مفاده وهو أنّه ما من شيء يعوق النجاح الإيجابي لدى النساء إلى حد كبير مثل أن يلزم المرء نفسه بالإحساس إلزاماً شديداً، وهو يقنع نفسه آخر الأمر بقوله:

(ولا يحقّق المرء نجاحاً لدى النساء

إلا حين لا يبذل من الجهد من أجل نيلهن أكثر مما يبذل من أجل كسب جولة في لعبة البلياردو).

ولم يفكّر في مشكلة على مدى أطول وبصورة أكثر حدّة مما فكّر بهذه. وهو يدين بتشريحه الذاتي هذا العصبي القائم على سوء الظن، والمنطلق من الشهواني، بهذا بالذات يدين (وهو معه) لنظرته الكاملة في شبكة أحاسيسه ذات الخيوط الأكثر دقة. فما من شيء ربّى فيه النزوع إلى علم النفس، كما يروي هو ذاته، بهذا القدر، مثل حالات الإخفاق الغرامي، والعدد الضئيل لغزواته (التي يحددها على الإجمال بست أو سبع) ولو أنه أصاب التوفيق في الحب كالآخرين لما ألجأته الحاجة قط إلى التنصّت بهذه المثابرة على النفس النسائية وعلى أدق انبثاقاتها وألطفها.

لقد تعلّم ستندال اختبار نفسه عن طريق النساء، وهنا أيضاً يتعلّم ضرباً من الانكفاء الملاحظ فيجعل منه خبيراً كاملاً.

أما هذه المراقبة المنهجية للذات عند ستندال تؤدي بعد ذلك، بصورة مبكرة، خلافاً للمألوف إلى تصوير الذات، فذلك أمر له سبب آخر خاص وغريب إلى أقصى الحدود، وذلك أنه كان لستندال ذاكرة رديئة - أو بتعبير أفضل- ذاكرة عنيدة جامحة جداً، وهي على أية حال ذاكرة لا يُعتمد عليها، ولذلك لا يطرح قلم الرصاص من يده أبداً فهو يدوّن، ويدوّن بغير انقطاع على هامش مايطالع، وعلى أوراق حرّة، وعلى الرسائل، وقبل كل شيء في يومياته. ويؤدي خوفه من أن ينسى أحداثاً هامة فينقطع بذلك استمرار حياته.

وقد حلّ ستندال هذه الغرابة في ذاكرته بوضوح تنبؤي، كما فعل بكل شيء يعود إليه. إذ قرّر أول الأمر أنّ قدرته على التذكر مفرطة في الأنانية، «أنا أفتقر افتقاراً مطلقاً إلى الذاكرة بصدد ما لا يهمّني».

ومن أجل ذلك لا يحتفظ إلا بالقليل جداً مما يقع خارج المجال النفسي، فليس هناك أرقام، ولا تواريخ، ولا وقائع، ولا أمكنة، وهو ينسى من أهم الأحداث التاريخية كل التفاصيل نسياناً كاملاً، وهو لا يذكر في صدد الحديث عن النساء أو الأصدقاء (حتى مع بايرون وروسيني) متى لقيهم، ولكنه يقرّ بهذه النقيصة بغير تفكير مع بعده عن إنكارها: (لست أدّعي حب الحقيقة إلا فيما يمسّ عواطفي).

فهو لا يكفل الحقيقة الموضوعية إلا ما دام إحساسه يتعرّض للإصابة، وهو (يحتجّ) بصراحة في أحد مؤلفاته، بأنه (لا يتجاسر أبداً على تصوير واقع الأشياء، بل يصوّر الانطباع الذي تخلّفه فيه). «لست أدّعي

رسم الأشياء في ذاتها، وإنما أرسم أثرها عليّ». وإذن، ما من شيء يبرهن على نحو أكثر وضوحاً أنّ الأحداث في حد ذاتها لن توجد على الإطلاق بالنسبة إلى ستندال، بل توجد بمقدار ما تحدث مفعولها في الإثارة النفسية: حينذاك تبدأ بلا ريب هذه الذاكرة الشعورية أحادية النظرة بصورة مطلقة، وذلك بحدّة لا مثيل لها.

عند ذلك يتذكّر ستندال، الذي لايتأكد على الإطلاق من أنه تحدث في يوم من الأيام إلى نابليون، ولا يدري أيتذكر عبور ممر سان برنار العظيم حقاً، أم يتذكر مجرد نقش على النحاس، هذا الستندال نفسه يتذكّر اللفتة العابرة لامرأة، أو وقع نغم، أو حركة ما، بوضوح الماس وجلائه، طالما أنه تعرّض للإثارة منها في أعماقه ذات مرة.

فحيثما يظلّ الشعور منتحياً جانباً تتراكم طبقات الضباب المظلمة بلا حراك في الغالب على مدى عشرات السنين، على أن ما هو أغرب من ذلك أن الشعور حين يغدو بدوره مفرطاً في الحدّة نجد القدرة على التذكر عند ستندال قد انتابها التدهور أيضاً.

فهو يكرّر مئات المرات، وبوجه خاص، في أكثر لحظات حياته توتراً، عند وصف عبور الألب، والرحيل إلى باريس، وليلة الحب الأولى ما يقرره بقوله: (ليس لديّ ذكرى بهذا الصدد بعد، فقد كان الإحساس مفرطاً في الحدّة. وإذن، فذاكرة ستندال لا تكون قط، خارج هذا المجال المحدود الضيق من الشعور، ذاكرة لا حيز فيها (أنا لا أحتفظ إلا بما هو صورة إنسانية، أما فيما وراء ذلك فأنا لاشيء)، فالانطباعات المنطوية على توكيد للجانب النفسي هي وحدها التي تصمد بوجه النسيان عند ستندال. ومن أجل ذلك لا يقدر هذا المتمركز على ذاته بصورة قطعية إلى أقصى الحدود أن يكون قط شاهداً على العالم في السيرة الذاتية، إذ إنه لا يستطيع في الحقيقة أن يرجع بتفكيره إلى الوراء، بل المسار الفعلي للأحداث في الطريق الالتفافي الذي يمرّ بالمنعكس في نفسه، وليس بصورة مباشرة، وهو (يخترع حياته)، وبدلاً من أن يعثر على الحقائق يخترعها ويتصورها تصوراً شعورياً من ذاكرة الشعور، وعلى هذا تصلح سيرته الذاتية لشيء روائي كما أنّ رواياته تصلح لشيء من قبيل تصوير الذات. فهو يبدأ بالفعل صورته الذاتية بمجرد خطوط عريضة وملاحظات جاءت بطريق المصادفة، في تلك اليوميات (Journal) الدفتر الذي ظل يمسكه عشرات السنين، والذي يخصصه بالبداهة للاستعمال الخاص فحسب، ولم يكن هناك أول الأمر إلا التدوين، وإثبات الخلجات الصغيرة ما دامت ساخنة، وما دامت تنبض

في يده مضطربة كقلب طائر أسير! وكان عليه ألا يدعها ترفرف بجناحيها هاربة، وأن يمسك بكل شيء ويحتفظ به، وألا يكله إلى الذاكرة، إلى هذا النهر المضطرب الذي يجرف كل شيء في مسيره ويجري به! وألا يخجل من ترتيب أشياء لا طائل تحتها، مجرد عبث طفولي للحواس، في ألوان متعددة، في الصندوق الكبير.

ومن يدري فربما كان أحب الأشياء إلى الرجل البالغ أن ينحني على المثير للفضول والمبتذل من قلبه الضائع، ومن أجل ذلك تعدّ الغريزة التي تحمل الفتى على جمع هذه الصور الخاطفة الصغيرة من صور الشعور وحفظها بعناية، غريزة عبقرية، إذ إنّ الرجل الناضج، وعالم النفس الخبير والفنان المتفوّق سيرتّبها فيما بعد ترتيب الخبير، وهو ممتن لها، تلك السيرة الذاتية التي يسميها «هنري برولار» هذه الإطلالة المتأخرة الرائعة الرومانسية، على طفولته.

وفي الواقع فإنّ رواية (هنري برولار)، وكذلك رواية (هدايا الأنانويّ التذكارية) التي تعد استثنافاً لها، تعنيان إذا ما نظرنا إليهما من الوجهة الفنية البحتة، إنجازاً أميناً يتسم بالتردّد والالتباس، فكلاهما يتّسم بالتعجّل الشديد من هذه الناحية، وكلاهما قد طُرح باستخفاف وبغير خطة، فكل ما يخطر ببال ستندال يلقي به في الكتاب بسرعة البرق سواء أتلاءم مع ذلك الموضع أم لم يتلاءم.

ومثلما هو الحال في كتب الخواطر عنده بالضبط يتجاور المتسامي إلى الحد الأقصى مع السطحي الضحل إلى الحد الأقصى، والجماعات المنحرفة مع الموظفين ذوي العلاقة الحميمة إلى الحد الأقصى، ولكن هذه العفوية بالذات، وهذه الرواية التي تفيض من القلب إلى القلم مباشرة، ينمّان عن أشكال شتى من الصدق يعدّ كل منها وثيقة للنفس، لها فعل يفوق فعل المجلد الضخم..

فالاعترافات العائدة إلى ذلك النوع الحاسم، كذلك الذي يشاع حول ميله الخطير إلى أمه، وحول كراهيته الهمجية القاتلة، لأبيه، ومثل هذه اللحظات التي تتسلل عند الآخرين بجبن إلى زوايا العقل الباطن ولا تجرؤ على الخروج طالما تيسّر لرقيب وقت لحراستها:

هذه الأشياء الحميمة إلى الحد الأقصى يجري تهريبها - ولا يمكن التعبير عن ذلك بطريقة أخرى - في ثانية من الغفلة الأخلاقية المصطنعة عمداً، وعن طريق هذا المنهج العفوي في علم النفس، ومؤداه أن ستندال لا يدع أبداً وقتاً لأحاسيسه لتتجمد عند (الجميل) و(الأخلاقي) عن طريق هذا فحسب، بل أمسك بتلك الأحاسيس فعلاً

حيث تكـون شائكـة إلى أقصــى الحدود، وحيث تتواثب وتصيــح هاربة من الآخرين الذين هم أقلّ لباقة وأشدّ بطئاً.

إنّ هذا الإهمال، وهذه اللامبالاة حيال الشكل وهندسة البناء، وإزاء العالم من بعده، والأدب والأخــلاق والنقد، كل ذلك بالذات، مــع ما في هذه المحاولة مــن استمتاع ذاتي وخصوصيــة رائعــة، يجعلان مــن (هنري برولار) وثيقة نفسية لا مثيل لها.

وقــد كان ستندال يريــد في رواياته أن يكون فناناً على أية حال، أما ههنا فليس إلا إنسانــاً وفرداً يدفعه الفضــول نحو نفسه. وتمتــاز صورته الذاتيــة بجاذبية لاتوصف، تتمثـل في الفقـرات المبتسـرة وفي حقيقة المرتجـل العفويــة، ولا يبلغ المــرء بمعرفة ستندال النهاية قط من خلال عمله، ولا من خلال سيرته الذاتية، ومــا يفتأ المرء يحسّ بما يغريــه من جديد باستجــلاء غموضه، وبفهمه مــن خلال المعرفــة، وبمعرفته من خلال الفهم. وعلــى هذا النحو تتابع نفسه المتشحــة بألــوان الغسق، الحــارة الباردة، المرتشفة من جانب العصب والفكر، إحداث تأثيرها حتــى اليوم باندفاع حار، في الحيّ، وفي حين كان يصــوّر نفسه ذاتها، كان يقوم بتصوير متعة الفضول وفن الرؤية النفسية عنده في جيل جديــد، ويعلمنا جميعاً المتعة المتألقة المتمثلة في توجيه السؤال إلى الذات والإنصات إليها.

المراجع

1- LA chartreuse De parme – By standel 1998.

٢- الأحمر والأسود، تأليف: ستندال.

فيزيكا ساكرا (الطبيعة المقدسة)

من أعمال يوهان جاكوب شويختسر ١٦٧٢-١٧٣٣م

المهندس: ملاتيوس جبرائيل جغنون ⚫

كيف يمكن للطبيعة أن توصف بالقداسة؟؟؟!!!

من يتأمل الطبيعة على مستوياتها المتدرجة كافة بين الكون الكبير Macro Cosmos بأفلاكه ومجراته اللامتناهية في الكبر والكون الصغير Micro Cosmos بذراته وجزيئاته والنظام الكوني الواحد الأزلي البالغ الدقة - والذي لا يقبل الخلل أو الانحراف - والذي يجمع الكونين في وحدة متكاملة لاتتجزأ بكافة المخلوقات ابتداءً من المستوى الكوني اللانهائي وانتهاء بالمستوى الأرضي بمادته الكوكبية الخالية من الحياة إلى صنوف الحياة في مملكة الفونا Fauna (مملكة الحيوان) والفلورا Flora (مملكة النبات)، أقول من يتأمل ويدرس أسرار هذه الأكوان والمخلوقات سيصل إلى حافة الذهول والعجز عن تفسيرها أو حتى فهمها.

كل ذلك سيقود هذا الدارس المتأمل إلى طرح السؤال الذي لم تستطع الفلسفات ولا العلوم التهرب منه وهو: هل هذا الكون وُجِدَ هكذا بالمصادفة ومن دون صانع أو خالق مدبر؟ وإذا كانت الإجابة المنطقية المباشرة عن هذا السؤال هي أنّه لا بد من صانع. وهذا الصانع اللامحدود وغير المدرَك وغير

⚫ أديب وباحث وعضو الجمعية الكونية السورية.

المحسوس الذي يعجز العقل البشري، الذي هو واحد من مصنوعاته، أن يستوعب صانعه، لأنَّ الوعاء الأصغر المحدود جداً لا يمكنه أن يستوعب الوعاء الأكبر اللانهائي بلا مقارنة.

وإذا كنا، نحن البشر، لا يمكننا أن ندرك هذا الصانع، فإننا نستطيع، ولاشك، أن نستنتج وجوده. فالمنظور إنما هو ظلال لغير المنظور والمحسوس ظلال لغير المحسوس والمُدرَك ظلال لغير المُدرَك. والطبيعة، بمستوياتها كافة التي ذكرناها في صدر هذه المقدمة، ليست إلا تجليات لهذا الصانع، أو الخالق. وهذه الطبيعة، التي تحمل بالضرورة، ظلال الخالق وبصماته المحسوسة بالنسبة لنا، كيف يمكن لها أن لا تحمل صفة القداسة؟

موضوع بحثنا سيتركز على استعراض بعض اللوحات المختارة بعناية من أعمال الطبيب وعالم التاريخ الطبيعي السويسري «يوهان جاكوب شويختسر» من مدينة «زيورخ» بعد التعريف به. هذه الصفحات التي صدرت من ضمن مؤلَّف مصوَّر ضخم يحمل عنوان «فيزيكا ساكرا» اللاتيني الذي لا نجد ترجمة له إلى العربية أفضل من «الطبيعة المقدَّسة».

من هو يوهان جاكوب شويختسر؟ (الصورة ١)

تمثل هذه الصورة الطبيب وعالم التاريخ الطبيعي السويسري يوهان جاكوب شويختسر. وقد اختارها شويختسر وهو في سن التاسعة والخمسين ليقدِّم نفسه إلى قرّاء المجلّد الأول من عمله «فيزيكا ساكرا»، والصورة هي من أعمال الفنان «يوهان هولد هايديغر» Johann Huld Heidegger.

تتلمذ شويختسر في حداثته على يد «يوهان كريستوف ستورم» Johann Christoph Sturm (العالم الذي تُنسَبُ إليه إعادة علم «التاريخ الطبيعي» إلى مكانته التي كان يشغلها في ألمانيا سابقاً) وذلك في جامعة ألطدورف Altdorf قرب مدينة نورنبرغ. ثم انتقل لاحقاً إلى مدينة أوتريخت Utrecht حيث قام بتقديم أطروحته. ثم عاد إلى ألطدورف في عام ١٦٩٥م لمتابعة دراساته في الرياضيات وعلم الفلك. ولدى عودته إلى زيورخ أصبح طبيب الأبرشية وقيِّماً حافظاً لمجموعة القطع الفنية هناك.

قام شويختسر برحلاته الاستكشافية في جبال الألب خلال العشرية الأولى من القرن الثامن عشر برعاية وإشراف سلطات مدينة زوريخ. وفي عام ١٧١٠م عيِّنَ أستاذاً

للريلقسيات في كلية كارولينوم Carolinum في زيورخ.

ما هي الـ «فيزيكا ساكرا»؟

كانت «الفيزيكا ساكرا» إحدى أفخر الأعمال في التاريخ الطبيعي التي نُشِرَتْ خلال القرن الثامن عشر من وضع الطبيب وعالم التاريخ الطبيعي يوهان جاكوب شويختسر. وكان هذا العمل تتويجاً لأعمال هذا العالم السويسري كافة الذي لم يتفوق عليه إلا أعمال العالم كونراد غسنر Conrad Gesner.

وقد تكوَّنَ هذا المؤلَّف الضخم من أربعة مجلدات تقع في ٨٠٠ صفحة جميعها مصوَّرة بطريقة الحفر على ألواح النحاس مما يُعتَبَر من أروع أمثلة الحفر التي وصلتنا من أعمال حقبة الباروك. وقد تميَّزَ هذا العالم بإيمانه الراسخ بخالق الكون وقدراته اللانهائية في إبداع خلائقه، الأمر الذي حدا به أن ينطلق من قراءته في الكتاب المقدس ليستشهد عموماً بقدسية هذه الخلائق التي هي ليست، في نظره، إلاّ تجليات لعظمة الخالق. ولذا، فقد أُطلِقَ على المؤلَّف اسم «الطبيعة المقدسة» Physica Sacra فيزيكا ساكرا باللاتينية. وقد تميزت أعماله بالتوصيف العلمي المفصل والدقيق للأشياء التي كان يقدمها لنا في لوحاته، وهذا ما ميَّزَ أعماله عن سواها. فمثلاً، نجد الفصل المخصص للأذن «أداة السمع» يبدأ بعبارة « الأذن، من خلق الله» وفيه وصف تشريحي دقيق لهذه الأداة وتفسير لوظائفها وأمراضها.

وهناك فصل خصصَهُ شويختسر لعلم المستحاثات Palaeontology. هذا الحقل الذي برع فيه أكثر ما برع حيث حقق أعظم منجزاته. وفي هذا الفصل، نجده يتبع خطا من سبقوه من أمثال نيكولاوس ستينو Nicolaus Steno وجون وودورد John Woodward ، فكان بمقدوره، وإياهم، أن يكتشف آثار طبعات الكائنات الحية في المستحاثات التي كان يقتني أهم وأوسع مجموعة منها في عصره، وكان يُجْري مقارنات بين العينات التي بين يديه مع الحيوانات والنباتات المعاصرة لزمانه في محاولة ليثبت نظرياته.

وطبقاً لما كان شائعاً في أيامه فإنَّه أَرْجَعَ تشكل الأحافير أو المستحاثات إلى كارثة كونية هي الطوفان. وقد اشتُهِرَ شويختسر أيضاً كأحد روّاد دراسة الجغرافيا الطبيعية لجبال الألب في كتاب أفرده خصيصاً لهذا الهدف تحت عنوان Naturgeschichten des Schweizerlandes أي التاريخ الطبيعي لسويسرا تم نشره في زيورخ عام ١٧٠٦م حيث ضَمَّنَ كتاب فيزيكا ساكرا بعضاً من فصوله.

كما أسهم شويختسر إسهاماً كبيراً في تقدُّم حقل آخر من العلوم وهو علم الأرصاد الجوية Meteorology. فقد جهد بغير كلل وأرسى قدراً كبيراً من المعلومات التي مهدت السبيل إلى المراقبة المستمرة والمنتظمة لتغيرات الجو وتسجيلها في مرصد غوتهارد Gotthard. وليس هذا وحسب، بل كان مؤسساً لعلم يقع بين الأرصاد الجوية والجغرافيا الطبيعية، وهو علم دراسة الجموديات Glaciers أو الجبال الجليدية.

وخلاصة القول إنَّ فيزيكا ساكرا تمثل مسحاً شاملاً بالغ الأثر لمعارف شويختسر في العديد من حقول العلم: الطب والبيولوجيا (علم الأحياء) والجغرافيا والجيوديزيا (علم تضاريس الأرض) وعلم المستحاثات (الأحافير) وعلم الأرصاد الجوية والتاريخ وعلم المسكوكات النقدية (أو العملات) والفلسفة واللاهوت.

أخيراً نذكر أنَّ الطبعة الأولى من فيزيكا ساكرا صدرت باللاتينية في أربعة مجلدات بين عامي ١٧٣١ و ١٧٣٥م.

سنقوم، فيما يلي بتقديم مجموعة مختارة بعناية من لوحات الحفر Engravings على النحاس التي تلامس أهم العلوم التي تعرض لها شويختسر في كتابه مع تعليق توضيحي موجز يرافق كل لوحة حسب الحال.

• اللوحة ١: الماعز وكرشته (جهازه الهضمي من دون الأمعاء).

• اللوحة ٢: الحشرات والعناكب.

• اللوحة ٣: أزهار الجليد ونُدَف الثلج. هذه الظواهر ليس لها تفسير فيزيائي، غير أنَّ شويختسر يشير إليها بعبارة فلسفية هي «كنوز الهواء» حسب تعبيره ويعتبرها أعلى قيمة بما لا يقاس من «كنوز الأرض» من ذهب وأحجار كريمة.

• اللوحة ٤: الطبقات الجيولوجية قرب بحيرة لوزان. يربط شويختسر تشكل هذه الطبقات المتراصة بغطاء مائي سابق، وهي نظرية جريئة لا تخلو من الإلهام بالنسبة لعصره. ونقرأ تعليقه باللاتينية على هذه المشاهد «آثار الكارثة الكونية».

• اللوحة ٥: تنضوي هذه اللوحة تحت علم الأحافير أو المستحاثات التي حظيت من شويختسر باهتمام بالغ كونه أحد كبار مؤسسي هذا العلم. وكما ذكرنا في متن هذا البحث، كان شويختسر يمتلك مجموعة واسعة من المستحاثات وما زال القسم الأكبر من هذه المجموعة محفوظاً إلى اليوم واللافت هنا دقة إخراج رسومات هذه المستحاثات إلى الدرجة التي يمكن معها تحديد اسمها ونوعها بكل موثوقية ومن دون أي خطأ بالنسبة لعلماء الأحافير اليوم. وتتوسط اللوحة طُبعةٌ أحفورية على بلاطة

صخرية من أونِنجن Oehningen تعود لسمندل عملاق.

• اللوحة ٦: وردة وزنبقة على خلفية جبلية شاعرية يؤطِّرُها زخرف باروكي يعكس ذوق القرن الثامن عشر.

• اللوحة ٧: البنية التشريحية للنبات. على الرغم من أن شويختسر لم يكن باحثاً في علم النبات، فإنه كان يمتلك معرفة عميقة بتشكيلة واسعة من النباتات وبنيتها المورفولوجية.

• اللوحة ٨: الليل والنهار. الشمس والقمر والأرض وأطوار الكسوف الشمسي والخسوف القمري واضحة جلية في هذه اللوحة التي تنضوي تحت علم الفلك.

• اللوحة ٩: القرش ذو الرأس المطرقة. يعلق شويختسر على هذا المخلوق بما يلي: «هو معروف باسم «هايجائينا فرم زيغوس» Hygaena From Zygos عاتق الميزان (لتعامد رأسه المعترض على جسمه بما يُذَكِّر بعاتق الميزان). أمَّا الألمان فيسمونه Schlegelfinsch نظراً لشبهه بالمطرقة .... الرعب يضرب قلوب جميع ركاب البحر حين يبصرون هذه السمكة بفكيها الفاغرين والصفوف الخمسة لأسنانها التي تستخدمها أثناء هياجها الشديد لتمزق البشر والأسماك الكبيرة.»

• اللوحة ١٠: الهيكل العظمي والجهاز العصبي والجملة العضلية. هذه اللوحة تدخل ضمن اختصاص شويختسر كطبيب.

• اللوحة ١١: تشريح العين البشرية ووظائفها. تبهرنا هذه اللوحة التي هي من صلب اختصاص شويختسر الطبيب بدقة تنفيذها وبتكوينها المثير للدهشة الذي يتعرض لتفاصيل تشريح عضو البصر كافة.

• اللوحة ١٢: القلب البشري. تعكس لنا هذه اللوحة المتسمة بالفخامة والدراماتيكية. وعلى مقدمة المشهد في إطار اللوحة نشاهد تفاصيل القلب والأوعية الدموية. ويثير فضولنا بشكل أكبر وجود مضخة في أسفل المشهد في محاولة من شويختسر لتوضيح دور القلب كأداة لضخ الدم وتوزيعه على أنحاء البدن كافة.

الصورة ١: الطبيب وعالم التاريخ الطبيعي يوهان جاكوب شويختسر.



اللوحة ٣: أزهار الجليد ونُـدَفُ الثلج.



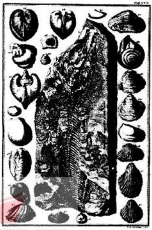
اللوحة ١: الماعز وكرشته.



اللوحة ٤: الطبقات الجيولوجية قرب بحيرة لوزان.



اللوحة ٥: الأحافير أو المستحاثّات



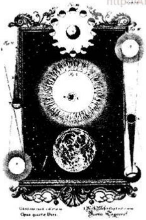
اللوحة ٦: وردة وزنبقة



اللوحة ٧: البنية التشريحية للنبات



اللوحة ٨: الليل والنهار



اللوحة ٩: القرش ذو الرأس المطرقة.



اللوحة ١٠: الهيكل العظمي والجهاز العصبي والجملة العضلية



اللوحة ١١: تشريح العين البشرية ووظائفها.



اللوحة ١٢: القلب البشري



أهمية التفاؤل والتشاؤم في حياتنا

د. معمر نواف الهوارنة*



من المؤكد أن التفاؤل يلعب دوراً بعيد المدى في حياتنا النفسية وفي تصرفاتنا، وفي علاقاتنا بغيرنا وفيما نقوم بوضعه من خطط للاضطلاع بها في المستقبل القريب والبعيد. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنّ جميع المناشط الإيجابية في حياتنا سواء أكانت فكراً أم عملاً

* باحث وعضو هيئة تدريسية في جامعة دمشق.

إنَّمـا ترتبط على نحـو أو آخر بما يعتمل في جهازنـا النفسي من تفاؤل. ولعلنا نضيف إلى هذا أيضاً أنَّ جميع ما يمكن أن يصيبه الفرد أو تصيبه الجماعات أو الدول من نجاح أو ما يمكن أن تضطلع به من مهام، إنَّما يعتمد على مدى الإحساس بالتفاؤل.

إنَّ احتمالات النجـاح واحتمالات الفشل تعتمد على ركيزتين أساسيتين: الأولى -ركيزة موضوعية، والثانية-ركيزة نفسية. والركيزتان لا تنفصـلان الواحـدة منهما عـن الأخرى تماماً، بل تقـوم بينهما وشائج متينة لا سبيل إلى الانفكاك منها.

لاشك أنَّ ما يدور في خلدنا من أفكار وما يشيع في قلوبنا مـن مشاعر لما يؤثر إلى أبعد حد في إدراكنـا للواقع الخارجي، حيث يعمل شوقـك الشديد للماء وقد استبد بك العطش بعد أن زاغـت رجلاك عن الطريـق السليم فتهت في الصحراء، إلى ترجمة كل ما تشاهده بأنه بحيرة ماء عذبة مع أن ما يقع عليه بصرك ليسـ من الماء في شيء بل هو سراب واختلاق اختلقته لنفسك بسبب تفاؤلك الوهمي الذي لا يرتكز على أي أساس من الواقع.

فليسـ من المحتم أن يفُضـي التفاؤل إلى نجاح أو إلى تحقيق الرغبة أو سد الحاجة، كما أن توافر الإمكانيات الموضوعية بغزارة وتنوع لا يكفي وحده لبلوغ الأهداف وتحقيق النجاح في الحياة. وبتعبير آخر فإنه إذا لم يتوافر القدر المناسب من التفاؤل، فإنَّ الشخص لايستطيع أن يخطو أية خطوة تقدمية في حياته.

والواقـع إنَّ أية عملية كائنة ما كانت مما ترغـب في النهوض بـه، إنَّما تكـون بحاجة إلى إعداد كميـة مناسبة من الطاقة الحيوية المناسبـة لإنجازهـا. علـى أن تلـك الطاقة الحيوية - وهـي خامة واحـدة هي الخامة البيولوجيـة - تتلبس بصيـغ متباينة بعضها جسمـي وبعضهـا وجـداني وبعضها كلامي وبعضها اجتماعي.

ومما يقعد بالمرء عن حشد الطاقة اللازمة للقيام بالأعمال وإنجـاز المهام البسيط منها والمعقد عـدم توافر القدر الكافي من التفاؤل في سبيل تحقيق الأهداف التي ينشد تحقيقها. فالطالب الذي يترسـم الرسوب أمام ناظريه لايستطيع أن يبذل جهداً عقلياً في الاستيعاب التحصيلـي بل إنَّه لايـكاد يستطيع الجلوس إلى مكتبـه للاستذكار، ومهمـا حثه الوالدان والأصدقـاء، فإنَّه لايستطيـع أن ينفض عن نفسه ذلك الخمول الذهني، أو قل لا يستطيع أن يعـد الطاقـة النفسيـة اللازمـة لقيامه بالاستذكار ومجاراة زملائه المجتهدين.

فالمخ يصدر أوامره إلى الجهات المختصة بالجسـم لتجهيز الطاقة المطلوبـة وإحالتها إلى الصيغ المطلوبة سواء كانت صيغاً جسمية أم صيغـاً وجدانيـة أم عقليـة أم كلامية أم اجتماعية. بيد أنه لكي يتسنى للمخ أن يصدر

مثل تلك الأوامر بإعداد الطاقة اللازمة للإنجاز، فإنَّه يكون بحاجة إلى دافعية وجدانية معينة، وتلك الدافعية الوجدانية هي ما نسميه بالتفاؤل.

ولا تقتصر أهمية التفاؤل على ما يتسنى للمرء إنجازه من أعمال، بل تمتد تلك الأهمية إلى ما يمكن أن ينشأ من علاقات بينه وبين الآخرين، أو ما يمكن أن يصدر من أحكام، سواء أحكام الناس على المرء، أم الأحكام التي يصدرها المرء على نفسه. وما ينجم عن ذلك من شعور بالسعادة أو الشقاء. ولا شك أنَّ كل إنسان يصدر بدوره أحكاماً على الآخرين كما يصدرون أحكاماً عليه.

فالمتفائل يحظى بأحكام من غيره عليه تشجعه على دوام التعامل معهم بثقة وارتياح، كما أنَّه يصدر أحكاماً على الناس تكون غير مشوبة بالشكوك والهواجس. وهكذا تجد أن المتفائل يسعد بالآخرين ويسعدهم في الوقت نفسه، بل إنَّه يسعد بنفسه وبالعالم المحيط به، إنَّه يسعد بالحاضر والمستقبل، بل إنَّه يتمتع بنظرة مفعمة بالرضى إلى الماضي. وأكثر من هذا فإنَّ المتفائل يتخذ من تفاؤليته نقطة انطلاق إلى المستقبل أكثر نجاحاً وإشراقاً من الحاضر. ذلك أن النجاح يفضي إلى تفاؤل أكثر، بل إنَّ التفاؤل نفسه يتزايد ويكثر في وجدان وحياة الشخص المتفائل.

أهمية التشاؤم في حياتنا:

على الرغم من أننا لا نود أن نتخذ من التشاؤم فلسفة لنا في الحياة، فإننا لانستطيع مع ذلك أن ننكر الدور الذي يلعبه التشاؤم في حياتنا، سواء حياتنا العقلية أم حياتنا النفسية أم حياتنا الاجتماعية.

إن التفاؤل والتشاؤم مقومان أساسيان من مقومات حياتنا لا يمكن أن تخلو حياة أي شخص من أي منهما ولكن بنسب متباينة. فإذا ما رجحت كفة التفاؤل على كفة التشاؤم كان الشخص متفائلاً. وعلى العكس فإذا ما رجحت كفة التشاؤم على كفة التفاؤل كان الشخص متشائماً.

وعلى هذا فإنَّه مهما بالغنا في رغبتنا في أن نكون متفائلين، فلابد أن يكون للتشاؤم دور ولو بسيط في حياتنا. فمهما زعمت من تفاؤل تستهديه في حياتك وفي علاقاتك بغيرك، فأنت لا بد متشائم على نحو أو آخر في جانب ما من جوانب حياتك وفي بعض المواقف أياً كانت تلك المواقف.

وثمة في الواقع فرق جوهري بين ما تقتنع به من جهة، وبين ما توسوس به نفسك ويعتمل في أعماق حياتك الوجدانية وفي أغوار نفسك من جهة أخرى. فالكثير مما نعلنه على الملأ بأنه ما نقتنع به ونؤمن به كذلك في الوقت نفسه، ما هو في الواقع سوى اقتناع ذهني لا يرتبط بوشائج متينة وعميقة بما يشكل تماسك

كياننا الوجداني. فلقد تعلن لأصدقائك أنك رجل متفائل وأنك تنبو عن التشاؤم كل النبو. ولكن المتفحص لحالتك والمتتبع لسلوكك والمحلل لما تقوله ولما يصدر عنك من حركات وتصرفات يتأكد جلياً أنك من أكثر المتشائمين تشاؤماً. فليس كل ما يقال يكون حقيقياً، بل وليس كل ما نقتنع به يكون واقعاً في نطاق إيماننا ومن صلب شخصياتنا.

والواقع أن ثمة أفضالاً كثيرة للتشاؤم علينا في تكويننا الأخلاقي والديني. ففي الطفولة عندما يقال للطفل إن الذي يسرق أو يكذب يلقى عذاباً في جهنم، وأنَّ جهنم شيء مروع حيث يلقى الشخص العذاب الأليم، فإنَّ هذا يعد من التشاؤم بالنسبة لما يمكن أن يحمله المستقبل من أحوال. وأكثر من هذا فإنَّ الطفل أو الراشد إذا ما اقترف خطيئة، فإنه قد يندم. ومعنى الندم في الواقع هو أن ينظر الشخص إلى الماضي الذي عاشه بنظرة تشاؤمية. وعلى هذا فإنَّ إحساسك بمستواك الروحي أو الأخلاقي وما أنت عليه أو ما تستحقه حالياً من احترام أو احتقار إنَّما هو إحساس ذو علاقة وثيقة للغاية بكل من التفاؤل والتشاؤم. فالشخص الذي يرغب في الانتحار بعد اقترافه لخطيئة أو بعد أن يحس بأنه قد صار في وضع مهين لا يحتمل، إنَّما هو في الواقع شخص ينظر بنظرة تشاؤمية إلى واقعه الراهن.

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقرر أن تجنب الشخص للخطأ أو الخطيئة أو السلوك غير المستحب إنَّما هو في الواقع نتيجة مترتبة على النظرة التشاؤمية إلى ما يمكن أن يقع لو أن الشخص قد وقع في الخطأ أو الخطيئة أو سلك السلوك غير المستحب.

إذا قلنا إنَّ التفاؤل كالنور يهدينا في سلوكنا، فإننا نقول من جهة أخرى إنَّ التشاؤم كالظلام نحذره حتى لا تتزلق أرجلنا في نطاقه فنضل وتتعثر أقدامنا في غياهبه بغير أن نعرف لنا هادياً يهدينا أو حامياً يحمينا من مغبة ما تردينا فيه.

وللإحساس بالتشاؤم لدى بعض الأشخاص فاعلية تنبؤية حريّة بالدراسة وإن كانت تقع في نطاق الغيبيات. والحري بنا ألا نغض النظر عن كل ما هو غيبي خوف أن نتهم بأننا نؤمن بالخرافات.

ذلك أن اقتصار الإيمان على نطاق المحسوسات فحسب إنَّما يجعل من الإنسان نصف إنسان وليس بإنسان كامل. فنحن لسنا مرتبطين بعالم المحسوسات فحسب، بل تعتمل في أنحائنا الداخلية مقومات روحانية ما تزال مستغلقة على فنون العلم الطبيعي. فلدينا قدرة تنبؤية تحتدم لدى البعض منا وتخبو لدى البعض الآخر.

ومنا من يحس بالتشاؤم فيقول لك إنَّ

شيئاً ما خطيراً أو كريهاً أو غير مستحب سيقع. وما أن يمر وقت يقصر أو يطول حتى تترجم المشاعر التشاؤمية لديه إلى واقع فعلي في حياة ذلك الشخص. وقد يمكن تفسير بعض مايحدث في ضوء العوامل النفسية البحتة، كما قد يعجز التفسير عن تقديم ما يثبت أن ثمة ارتباطاً بين ما يحدث وبين ما سبق أن أحس به الشخص.

ويقول البعض إن القدرة التنبؤية في بعض الحالات التشاؤمية تكون مصحوبة في الوقت نفسه بالقدرة على تجنب الخطر أو الشر أو الخطأ. ومن ثم فإن التشاؤم التنبؤي يكون بمثابة تحذير للشخص حتى يتجنب بعض المخاطر أو بعض المواقف الحرجة.

يقول أحد الذين نجوا من كارثة انهيار أحد المنازل على سكانها إنه وجد نفسه فجأة لايطيق البقاء بشقته لحظة واحدة وكأن كابوساً يخيم على رأسه، أو كأن جنياً يقوم بخنقه، فقام منقبضاً وارتدى ملابسه تاركاً أهله بالمنزل من غير أن يعرف الوجهة التي يتجه إليها. كل ماكان يلح عليه وقتئذ هو ضرورة الخروج بسبب إحساسه المحتدم بالانقباض والإحساس الغامض بأن شيئاً سوف يقع. وبعد أن خرج من البيت وقد بعد عنه بضعة أمتار سمع صوتاً هائلاً ورأى بيته المكون من ستة طوابق ينهار على من فيه ويتبدد أشتاتاً مستحيلاً إلى كومة هائلة من التراب.

في الواقع يجب التأكيد مرة أخرى على أن التفاؤل والتشاؤم صنوان لايفترقان لدى كل شخص مع الفارق في كمية كل منهما واشتداد فاعليته في حياته وسيادته على أنحاء شخصيته.

المراجع

١- أسعد، يوسف ميخائيل(ب.ت)، التفاؤل والتشاؤم، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

2- Kosslyn, Stephen M.. & Rosenberg, Robin S.: Fundamentals of Psychology; the brain, the person, the world, Second edition, pearson educatin, Inc, (2005).

جدل الذات والموضوع

أسعد طرابية ⊛



الجدل كلمة يونانية تعني لغوياً فن الحوار، ولقد كان سقراط من أوائل الذين أدخلوا مفهوم الجدل على الفلسفة إذ كان يعتمد على توجيه الأسئلة للآخرين ويفحص أجاباتهم وينقدها، ويكشف المتناقض فيها.

ثم تابع أفلاطون أسلوب سقراط الجدلي، فألف كتبه الفلسفية على شكل حواريات تعتمد على إتقان فن طرح الأسئلة والإجابة الدقيقة عنها.

⊛ أديب وباحث وعضو الجمعية الكونية السورية.

العمل الفني: الفنان أيمن الدقر.

لقد أصبح الجدل مع أفلاطون منهجاً فكرياً، يستخدمه الفيلسوف للانتقال من المحسوس إلى المعقول، أي الجدل الصاعد، ومن المعقول إلى المحسوس، أي الجدل النازل. يمكننا الجدل من تنظيم المعارف وتصنيفها، وهو المدخل الرئيس للعلوم كافة إنه يساوي المنطق عند أرسطو الذي يعتبره مدخلاً لجميع العلوم فنحن لا نستطيع الدخول لعلم من العلوم من دون المعرفة الدقيقة بالطرائق والمناهج التي تسمح بالولوج إلى صلب تلك العلوم.

ولكن القفزة المعرفية التي عمقت مفهوم الجدل أتت مع الفيلسوف الألماني هيغل، الذي استطاع نحت قوانين الجدل وتطبيقها على الطبيعة والمجتمع والفكر، يقول هيغل: مادام الفكر جدلياً فالواقع جدلي، لأنّ الواقع هو محطة حقيقية من محطات تطور الفكرة المطلقة الجدلية.

يعدُّ مفهوم الذات والموضوع من المفاهيم الأساسية في التفكير الفلسفي، فالذات تعني الكائن الإنساني العاقل المفكر، أمّا الموضوع فيعني الموجود القابل للمعرفة، سواء أكان الموضوع: الطبيعة أو المجتمع. ولا يمكن للمعرفة أن تشق طريقها للظهور إلا بعد هذه العلاقة الجدلية بين الذات والموضوع.

تبدأ المعرفة الفلسفية بالسؤال، فكان السؤال الرئيسي الذي طرحه الفلاسفة كيف تتم المعرفة؟ وجاءت الإجابات متعددة فمنهم من يقول تحصل عملية المعرفة عن طريق الحواس، ومنهم من يقول عن طريق العقل. وقد تضمن السؤال الفارق النوعي بين جوهرين، جوهر الذات الإنسانية المفكرة وجوهر الطبيعة المادية، فكيف لجوهرين متمايزين أن تتعرف على بعضها البعض.

تدارك المسألة العالم الفلكي غاليليو فنبه إلى الترابط القائم بين الذات العارفة وموضوع المعرفة عندما قال: إنَّ الصفات التي نعرف بها الأشياء ليست كلها في الأشياء بل منها ماهو في عقولنا، فإذا نظرنا مثلا إلى التفاحة فإنَّ شكلها الكروي وثقلها وتركيبها صفات في البرتقالة نفسها أمّا لونها الأصفر وطعمها فصفات ابتكرها الجهاز الإدراكي الإنساني.

كان لرأي غاليليو هذا تأثير كبير إذ أحدث شرخا في مرآة الفكر الفلسفي فقد انشطر لاتجاهين اتجاه عقلي يمثله ديكارتوسبينوزا وليبنتز وفيما بعد كانط واتجاه تجريبي يمثله جون لوك وباركلي وديفيد هيوم. قبل البدء بالحديث عن هذين الاتجاهين لابد من المرور على الفيلسوف الإنكليزي فرنسيس بيكون الذي نحت أسس الفلسفة التجريبية.

يقول بيكون: لقد أجدبت الفلسفة لمدة طويلة لأنّها كانت تحتاج إلى طريقة

جديدة لتمحيصها. كما أنَّ خطأ فلاسفة اليونان الكبير هو أنَّهم صرفوا وقتا كبيرا في النواحي النظرية، والقليل من الملاحظة والبحث العلمي، ولكن الفكر ينبغي أن يكون مساعدا للملاحظة لا بديل عنها.

بعد ألفي سنة من تخريط المنطق وفرمه بآلة أرسطو المنطقية، سقطت الفلسفة التي تقوم على الجدل والحوار من دون إقامة البرهان التجريبي، على الفلسفة أن تبدأ بفتح صفحة جديدة وتتنكر لماضيها الميتافيزيقي.

تبدأ الخطوة الأولى بتطهير العقل من أوهامه، لقد تبرمج عقلنا على الخطأ، وأوّل هذه الأوهام: أوهام القبيلة وهي أوهام طبيعية لدى عموم البشرية، فقد زعم الإنسان متوهماً أنه مقياس الأشياء على لسان الفيلسوف اليوناني السفسطائي بروتاغوراس، ولكن العكس هو الصحيح.

ثم إنَّ عقل الإنسان يعكس ذاته على الأشياء ويشوهها، فأفكارنا تشبهنا إنّها صور عن أنفسنا وليس عن الأشياء، فالطامة الكبرى تظهر عند إيمان العقل بأمر ما عن طريق التسليم به أو الشعور باللذة نحوه، إذ يقوم العقل بإجبار كل شيء آخر لتأييد هذا الإيمان، على الرغم من وجود الأدلة الكبيرة القاطعة المغايرة له.

وثاني هذه الأوهام كما يسميها بيكون هي أوهام الكهف فلكل شخص كهفه الخاص به، يعمل من خلاله عل حرف أضواء الطبيعة وتغيير لونها وهذا الكهف هو طبعه كما كونته الطبيعة، فبعض العقول تنزع إلى التحليل، وترى وجه الخلاف والتباين في الأشياء أينما وجدت و وبعض العقول بطبيعتها تركيبية تميل إلى البناء والتركيب وترى أوجه الشبه بين الأشياء. ينتمي العلماء إلى الفئة الأولى، وينتمي الفلاسفة والشعراء إلى الفئة الثانية.

وثالث هذه الأوهام هي أوهام السوق التي تنشأ من اجتماع البشر مع بعضهم البعض، فالناس يتخاطبون مع بعضهم البعض عن طريق اللغة التي فرضت كلماتها عليهم، فاللغة جيش من الكلمات المستعارة تفرض سطوتها وجبروتها على البشر، وتحركهم وفق ضرورة منطقها.

ورابع هذه الأوهام هي أوهام المسرح، وخصوصا أوهام الفلاسفة، فجميع الأنظمة الفلسفية التي نتلقاها عن الفلاسفة من وقت لآخر ليست سوى روايات مسرحية.

يريد فرنسيس بيكون أن يخلص العقل من الأوهام العقائدية، وبعض الاستنتاجات التي تعمي البصيرة وأن نضع كل القضايا المسلم بها على مبضع النقد موضع الفحص والملاحظة والتجربة

أراد ديكارت (أبو الفلسفة الحديثة) أن

يجد علماً يتصف باليقين الذي تتصف به العلوم الرياضية ولتحقيق هذا الهدف وضع ديكارت أربع قواعد رئيسية في كتابه مقالة في المنهج وهذه القواعد هي:

١. قاعدة البداهة والوضوح: يجب أن تتصف الحقائق بالوضوح التام في عقلي، الأمر الذي ينفي إمكانية أي شك فيها.

٢. قاعدة التحليل: أي أن أقسّم كل فكرة صعبة إلى أجزائها البسيطة لإزالة كل غموض في معناها، كي أتمكن من حلها على أحسن وجه.

٣. قاعدة التركيب: أن أعيد وضع أفكاري وفقا لترتيب منطقي يبدأ من البسيط إلى المركب ومن الأسهل إلى الأصعب.

٤. قاعدة الإحصاء: وفيه أقوم بإحصاء تام ومراجعة شاملة لجميع الأفكار التي حللتها وأعدت تركيبها كي أتأكد أني لم أغفل شيئا.

توضح هذه القواعد الأثر المركزي للذات، فالذات هي الخصم والحكم، هي التي تحلل وتركب وتحصي وتتيقن. فالذات كلية القدرة ،هي مقياس الحقيقة وليس الوجود هو المقياس، لذلك يشك ديكارت بكل شيء ولا يثق بتلك الحقائق التي تصل عن طريق الحواس ولكنه لا يشك إنه في هذه اللحظة يشك، ولحظة الشك لحظة معرفية، وهنا يصل إلى يقين يتسم بالبداهة والوضوح العقلي، وهو وجود الذات المفكرة، وقد عبر عن هذا اليقين بمبدأ الكوجيتو الذي يقول أنا أفكر إذاً أنا موجود.

بعد أن يكتشف ديكارت مبدأ الكوجيتو يثبت على قدرة العقل فقط في الوصول إلى الحقيقة، وإنَّ أعدل الأشياء قسمة بين الناس هو العقل فالبشر يختلفون في كيفية استخدامه فقط، وهنا تأتي أهمية المنهج الذي ينظم معارف العقل ويخضعها لموازين دقيقة.

إنَّ العقل عند ديكارت يحتوي بطبيعته على أفكار فطرية تمثل معارف يقينية أولية تتأسس عليها كل معرفه لاحقة.

لقد أعطى ديكارت للذات الفاعلية الوحيدة في عملية المعرفة وأنكر أثر الموضوع في إقامة معرفة حقيقية صادقة.

يبدأ لوك الكتاب الأول من «المقال عن العقل البشري» بانتقاد موقف الفلاسفة القائلين بالأفكار الفطرية أي بسبق وجود الأفكار الفطرية على التجربة، ولو كان هذا صحيحا حسب لوك لأمكن للبدائيين والمتوحشين والأطفال والعامة والمجانين أن يعرفوا قانون الذاتية أو التناقض.

والواقع أنهم لا يعلمون شيئا ومع ذلك فإنّهم يستطيعون أن يفكروا تفكيرا صحيحا. نستنتج من محاكمات لوك إنّه ينكر الأفكار

الفطرية لكنه لا ينكر القدرات الفطرية التي تجعلنا نفكر تفكيراً صحيحاً.

إنّ الذات ليست هي الفاعل الوحيد في عملية المعرفة كما يقول ديكارت، فالإنسان يولد وعقله صفحة بيضاء خالية من أي معانٍ أو أفكار، وعندما تبدأ عملية الإحساس تنتقش على العقل الانطباعات الحسية ويأخذ في تكوين أفكار عنها، فالإحساس سابق على التفكير. وهو الطريق الوحيد إلى المعرفة، وليست أفكارنا، وإلا لما استطعنا إقامة المعرفة على أساس موضوعي، بكلام آخر: المعرفة تتكون من مجموعة من العمليات تبدأ بالتجربة والتي تتكون من الانطباعات الحسية نتيجة اتصال الحواس بالموضوعات الخارجية وتنتهي بالعمليات العقلية التي يجريها الذهن على الانطباعات الحسية والتي تشمل التركيب والمقارنة والتجريد.

التركيب: يعني تركيب مدركات بسيطة بفكرة واحدة.

المقارنة: هي المقارنة بين فكرتين لتكوين ما يسمى بالعلاقة.

التجريد: هو التقاط ما هو متشابه ومشترك بين مجموعة من الأفكار البسيطة عبر إغفال الفروق الجزئية لإدراك المفهوم العام.

نستنتج من عرض لوك لكيفية تكوين عملية المعرفة بأنه وعلى الرغم من إعطائه الموضوع المكانة الأساسية في عملية تركيب المعرفة، لم يغفل أثر الذات فالذات تكتشف العلاقات وتكون المفاهيم العامة.

يبدأ الفيلسوف الإنكليزي جورج باركلي (١٦٨٥-١٧٥٣م) بطرح قضيته بشكل جريء، إذ يقرر إن المادة غير موجودة ولا يوجد إلا الذوات الشاعرة، والأشياء هي فقط كيفيات الذوات، أي مجرد إحساسات. وبموضع آخر لا يقضي على وجود المادة القضاء الكامل.

إنّ مشروعه قائم على إحالة الأفكار إلى أجسام وليس العكس، فقد اعترف بالمادة جوهراً ولكنها داخل حقل العقل، فعندما ندرك الوجود يتحقق الوجود دفعة واحدة.

يريد باركلي أن يقول لا وجود لجوهر مادي وراء الصور الحسية، وهو لا يميل للقول بوجود الشيء لأنّ مفهوم الشيء يوحي إلى الذهن بأنه حقيقة قائمة بذاته خارج الذهن مستودع الإمكانيات، بل يميل للقول بمفهوم الصورة التي تخلق العالم.

إذا قررنا بوجود شيئاً ما يعني أنَّ عقلاً بالضرورة قد أدركه. هذه الطريقة في فهم الوجود أثارت حفيظة الشاعر التركي العظيم ناظم حكمت، فبعث رسالة وهمية يرد فيها على باركلي تقول الرسالة: «إلى باركلي العظيم يا أسقف القرن الثامن

عشر، ألسْتَ أنت القائل بان التفاحة المكورة الحمراء هي من صنع ذاتك ولا تقول بأنك عندما تضاجع ابنة الخمار إنما تضاجع ذاتك».

لم يوافق ديفيد هيوم جون لوك في النتائج التي توصل إليها حول اثر الذات في المعرفة وقد أراد أن يحصر عمل الذات في الأثر السلبي الذي يمكن أن تؤديه، فقام بالتفرقة بين الانطباعات التي ينطبع بها الإنسان انطباعاً مباشرا حين يحس شيئا بإحدى حواسه... الخ وبين ما تخلقه تلك الانطباعات عند صاحبها من صور ذهنية وذكريات.

إنَّ الفرق واضح بين من يعاني من لذع الحرارة الشديدة. وحين يستعيد ذلك الرجل نفسه ما قد عاناه من لذع الحرارة، فالذكرى لا تبلغ من القوة والوضوح ما بلغه الانطباع الأول.

إذن يمكن التمييز بين إدراكاتنا العقلية على أساس الوضوح وقوة الأثر. ونريد أن نطلق اسم الانطباعات على أكثرهما وضوحا وأقواهما أثراً. ونطلق اسم الأفكار على أقلهما وضوحا وأضعفهما أثراً، فالسمع والرؤية واللمس وكذلك الحب والكراهية والرغبة والإرادة تكون انطباعات حين تكون جلية واضحة عميقة الأثر أثناء مباشرتها وممارستها، ثم تكون هي نفسها أفكارا حين نستعيدها فيما بعد باهتة اللون خافتة الصوت ضعيفة الأثر.

لا يوجد فكرة واحدة لا يمكن إرجاعها إلى الانطباعات التي خبرناها، إنَّ الفكر حر طليق يُنشئُ لنفسه ما شاء من الصور، وإنّما الخبرة المباشرة مقيدة بزمان ومكان محددين، مقيدة بما هو واقع الآن وهنا.

بالخبرة أنقل ما هو كائن فعلاً، بالفكر أجاوز حدود مكاني.

يحدد هيوم ملكتين للعقل لكي تحصل المعرفة ألا وهما:

١. الذاكرة: تقوم بالاحتفاظ بالأفكار وفقا للترتيب الذي دخلت عليه إلى العقل، فالعقل يحتفظ بفكرة الترتيب الزمني الذي يجعل البرق سابقاً على الرعد.

٢. المخيلة: تقوم بالتصرف بالأفكار بشكل حر وبوساطتها يقوم العقل بتكوين أفكار مركبة من الأفكار البسيطة المحفوظة في الذاكرة.

أرسل خيالك ما شئت، وصور لنفسك حصاناً يتحلى بالفضيلة مثلا، فأنت ما تزال في حدود خبراتك، رأيت الحصان وعرفت ماذا من الفعل يكون فاضلاً، ثم الفت بين الخبرتين. إنّ أفكارنا والتي هي إدراكات خافتة تحاكي انطباعات ناصعة.

إذا رفض هيوم الأفكار الفطرية التي قال بها ديكارت، ورفض كذلك عملية التجريد

التي يقوم بها العقل بحسب ما يقول لوك. وانتهى إلى أنَّ التجربة هي المصدر الوحيد للمعرفة وذلك من خلال تأثير الموضوعات في الذات عن طريق الحواس، أمّا أثر الذات فهو اثر سلبي ينحصر في تلقي المعطيات الحسية على صور انطباعات والاحتفاظ بها على صورة أفكار وترتيبها ونقلها من البسيط إلى المعقد.

كان لدراسة هيوم في طبيعة العقل البشري تأثير مهم في كانط فقد قال: لقد أيقظني هيوم من سباتي القطعي.

أراد كانط أن يظهر إمكانيات العقل الخالص ويضعه فوق المعرفة غير اليقينية التي تنقلها الحواس، فالعقل بطبيعته وتركيبه يمكنه الوصول إلى بعض المعرفة دون الاعتماد على الحواس. يقول هيوم: إن عقولنا ليست سوى أفكارنا المتابعة المتعاقبة ولا يجوز أن نقطع برأي يقيني، لأنَّ المعرفة حسبه تأتي عن طريق أحاسيس منفصلة مختلفة وهذه السلسلة لا تقدم تتابعاً ضرورياً يجعلك على يقين للأبد.

يرد كانط على هيوم قائلا: ماذا لو وجدنا في أنفسنا معرفة ليست مستمدة من التجربة الحسية، معرفة نجزم بصحتها قبل التجربة، فالمعرفة الرياضية ضرورية ومؤكدة ٢ + ٢ = ٤، هذه الحقائق تستمد نوعها الضروري من تركيب عقولنا الفطري.

إنَّ عقل الإنسان عضو يحوّل ضروب التجربة الكثيرة المشوّشة وغير المنظمة إلى وحدة الفكر المنظم المرتب.

يميز كانط في عملية المعرفة بين الحساسية والذهن والعقل وهذه الثلاثية تقابل الحس السامي والتحليل السامي والمنطق السامي.

إنَّ الأحاسيس هي المادة الخام التي تبدأ بها المعرفة وهذه الأحاسيس متفرقة لا تكون معرفة ولكن إذا اجتمعت هذه الأحاسيس المختلفة في المكان والزمان، في التفاحة مثلا (الرائحة في الأنف، والطعم على اللسان، والضوء على شبكية العين، والضغط على الأصابع) إذا اجتمعت حول الشيء (التفاحة) يؤدي هذا الاجتماع إلى إدراك ذلك الشيء ويتحول إلى معرفة.

إنَّ الألوف من البواعث والحوافز والمؤثرات الحسية تضرب أطراف الأعصاب ولكننا نختار من الإحساسات الواردة ما يتناسب مع غرضنا في تلك اللحظة، فالأم النائمة لجوار طفلها لا تسمع الضوضاء ولكنها تهب من نومها لمجرد حركة خفيفة من ولدها.

إنَّ الإحساسات خدم لنا تنتظر دعوتنا، ولا تأتي إلى أذهاننا إلا إذا احتجناها.

فالعقل هـو الذي يقوم بالتوجيه والاختيار، العقل يرتب الإحساسات التي ترد من العالم الخارجي حسـب مكانها وزمانها، إنَّهما أي الزمـان والمكان وسيلتان لـلإدراك الحسي مسلم بهما بالاستدلال العقلي، لأنَّ التجربة المنظمة تفترض وجودهما وبغيرهما لا تنمو الإحساسات إلى إدراكات حسية.

إنَّ قوانـين الزمان والمـكان هي قوانين الرياضيات (مطلقـة وضرورية) إنها ليست مجـرد احتمال فلن تجـد مستقيما لا يكون أقصـر بعد بـين نقطتـين، لقـد تمَّ إنقاذ الرياضيات من شك هيوم ولكن هل نستطيع إنقـاذ بقيـة العلوم ؟ هنا ينتقل كانط إلى التحليل السامي لحل هذه المعضلة.

مثلمـا تنظـم الإدراكات الحسيـة الإحساسات حـول مفهومي الزمان والمكان في الحس السامي،

تنظـم الإدراكات العقليـة الإدراكات الحسيـة (الحوادث والأشيـاء) حول أفكار السبب والوحدة والعلاقة المتبادلة والضرورة في التحليل السامي.

إنَّ التحليـل السامـي هو الـذي ينقل المدركات الحسية لـمدركات فكرية، فالعقل هو الـذي ينسق وينظـم التجربة الحسية.

لقـد أعاد كانط للعقل مكانته بعد أن سلبها منه هيوم.

يستحيل أن نعرف حقيقة الشي الأصلي لأنَّ الإنسـان لا يعـرف إلا مايصادفـه في تجربته، إننا نجهل ماهية الأشياء وحقيقتها المستقلة عـن إدراك الحواس إننا لا نعرف عن الأشياء إلا كيفية إدراكنا لها.

إنَّ مهمـة المنطـق السامـي هو محض شرعنـه العقل والتخلص مـن دائرة الحس الظاهـري والدخول في عـالم الأشياء بذاته الـذي لا يمكننا معرفة شيء عنه عن طريق العقل.

عندما يحاول العقـل أن يقرر فيما إذا كان العـالم محـدوداً أو لا نهائيـاً من حيث المكان وقع العقل في تناقض وإشكال ورفض كل الفرضيتين.

وعندما يطرح السـؤال على العقل هل للعالم علة أولى أجاب العقل بالإيجاب والنفي معا،

بالنفـي: لأنَّ العقل لا يمكن تصور علة أولى لا علة لها.

بالإيجاب: لأنه لا يستطيع تصور سلسلة لا نهاية لها.

لم يـر الناس في كانط إلا مجـرد أستاذ

فلسفة ولكنهم كانوا يحيونه عند ساعة خروجه المحددة تحية الصداقة ويضبطون ساعاتهم.

طلب من هيغل أن يجمل فلسفته بكلمة واحدة فأخرج عشر مجلدات، يقول هيغل: إن الفكرة تكون فارغة إذا تجردت من العلاقات والصلات.

إنَّ حركة الأفكار هي نفسها حركة الأشياء لأنَّ تصميم الكون عقلي، فحركة العقل من وحدة إلى تعارض ومن تعارض إلى وحدة. إذاً الكون والأفكار ينبثقان من نفس القانون.

فالمبدأ القائل بأنَّ الحقيقة معقولة هو مبدأ محافظ، لأن كل شيء إلى زوال، فكما إنَّ الوحدة هي هدف التطور، فالنظام هو مخبر الحرية.

لم يستطع الفلاسفة التجريبيون والعقلانيون أن يتوصلوا إلى الاتفاق حول علاقة الذات والموضوع في تركيب المعرفة، ويعود ذلك إلى تباين المناهج التي اتبعها كلا الاتجاهين.

اعتمد العقليون على منهج تأملي يفترض أنَّ الذات تمتلك بشكل مسبق ملكات المعرفة وأدواتها ونظروا إلى الموضوع على أنّه مجرد ظاهرة محايدة تقوم الذات بتطبيق عملية المعرفة عليها.

أمّا التجريبيون فقد نظروا إلى موضوع المعرفة أي المادة على أنه جامد ومنعزل عن غيره من الموضوعات وأن الذات ليست سوى مرآة ينعكس فيها هذا الموضوع، فهي ذات أثر سلبي يتأثر ولا يؤثر ولم ينتبهوا إلى النسيج المتشابك من العلاقات التي تربط بين الموضوعات في الواقع.

أمّا المنهج العلمي الحديث فإنه يقيم العلاقة بين الذات والموضوع بشكل مختلف، إذ يؤكد الفلاسفة العلميون على أنَّ أثر الذات لا ينحصر في تركيب المعرفة فحسب، وإنَّما في إعادة إنتاج موضوعاتها، وأنَّ وجود الموضوعات مستقل عن وجود الذات.

إنَّ العلاقة بين الذات والموضوع هي علاقة جدلية في المنهج العلمي، تنشأ نتيجة تأثير متبادل بينهما، وليس نتيجة تأثير طرف واحد فحسب، فالموضوع هو أساس المعرفة ولكنه ليس موضوعاً ثابتاً، بل يتشكل ويتحول نتيجة الفعل الذي تحدثه فيه وعندما يتحول ويتطور، فإنّه يعود ليؤثر في الذات من جديد، فيغني أفكارها ويطور مفاهيمها.

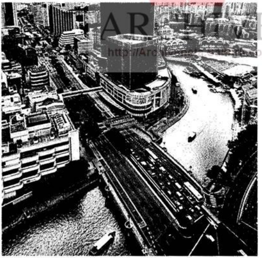
أمّا الذات فبعد أن تغتني بتجربة الموضوع فإنّها ترتد إليه من جديد، فتؤثر فيه وتعيد صياغته وتشكيله لذلك تبقى عملية المعرفة مستمرة متطورة لا يمكن تحديد نهاياتها أو حصر حدودها.

المراجع

• ويل ديورانت. قصة الفلسفة. إصدار مكتبة المعارف- ط ٦. بيروت: (١٩٩٨م).
• حامد خليل. مشكلات فلسفية. منشورات جامعة دمشق. دمشق: (١٩٩٥-١٩٩٦م).
• زكي نجيب محمود. نافذة على فلسفة العصر. كتاب العربي. الكويت: (١٩٩٠م).
• عبد الرحمن بدوي. موسوعة الفلسفة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
بيروت: (١٩٨٤م).
• إيسايا برلين. عصر التنوير. ترجمة فؤاد شعبان. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق (١٩٨٠).
• قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية. تاريخ الفلسفة الحديثة. منشورات جامعة دمشق: (١٩٩٨-م١٩٩٩).

سنغافورة تتحول مجدداً..

د. خير الدين عبد الرحمن ٭



حققت سنغافورة، تلك المدينة /الجزيرة/ الجمهورية الاستوائية الصغيرة، التي لاتتجاوز مساحتها ثلاثمئة وستين كيلومتراً مربعاً فقط، ولا يتجاوز عدد سكانها ثلاثة ملايين نسمة، نمواً ملفتاً وسريعاً في مجالات التعليم والتكنولوجيا والاقتصاد والطب والاستثمارات والصناعة والتجارة وغيرها

٭ باحث وأديب ودبلوماسي سابق.

رغم افتقارها للموارد الطبيعية كالنفط والغاز وخامات المعادن الثمينة، اللهم سوى غابة صغيرة من أشجار المطاط. ونجحت في توحيد شعبها وتأهيله ثقافياً وسلوكياً وسياسياً وإنتاجياً على الرغم من تعدد أصوله

الإثنية وانتماءاته الدينية وثقافاته ولغاته.

نقف هنا عند إحصائيات بريطانية قالت أنّ عدد سكان سنغافورة كان ربع مليون نسمة قبل مئة سنة، وتحديداً في العام ١٩١١م. أمّا اليوم فيتمثل التنوع العرقي والثقافي لسكان سنغافورة بتعايش ثمانية وأربعين عرقاً في تلك الجزيرة الصغيرة، يتحدثون أربعاً وخمسين لغة، ويدينون بديانات عدة، ويتوزعون عرقياً بالنسب التالية: أصول صينية (نحو ٧٥٪)، أصول ماليزية (نحو ١٤٪)، أصول هندية (نحو ٨٪)، أصول عربية يمنية وعمانية (نحو ٢٪)، أصول أوروبية وسواها (نحو ١٪).

سبق أن اشترى الكابتن الإنكليزي كوك، مكتشف أستراليا، جزيرة سنغافورة من جوهر، سلطان الملايو (ماليزيا) مقابل خمسمئة جنيه إسترليني! اعتبر السلطان جوهر آنذاك - كما توهم القيصر الروسي الذي باع ألاسكا للولايات المتحدة بحفنة دولارات لا تبلغ ما يستخرج من أرض ألاسكا حالياً في يوم واحد - أنه قد أبرم صفقة رابحة بتخلصه من جزيرة مهجورة تعيش الوحوش المفترسة فيها، مما جعل الناس يطلقون عليها اسم سنغافورة، أي جزيرة الأسد. أمّا كوك فقد أرادها في البدء لإقامة مستودعات التموين اللازمة لسفن أسطول بلاده على أرضها.

ولم تلبث شركة الهند الشرقية التي أنشأتها بريطانيا واجهة لإدارة مستعمراتها أن عينت توماس ستامفورد رافلز مندوباً لها في الجزيرة.

كان رافلز من دهاقنة الاستعمار البريطاني، ولعله أكثرهم ثقافة وذكاء وحنكة،وقد ظل حاكماً للجزيرة حتى سنة ١٨٢٣م. تضاعف عدد سكان الجزيرة خلال حكم رافلز، فقد ارتفع من ستة آلاف نسمة عند وصوله إليها ليبلغ أكثر من أحد عشر ألفاً عندما غادرها. فقد أدرك رافلز أهمية موقع هذه الجزيرة على مفترق طرق التجارة البحرية في بحر الصين الجنوبي،واستذكر تنافس ملوك سيام وجاوة وسومطرة وحتى تشولا في الهند عليها منذ القرن الثالث عشر. لذلك أنشأ فيها ميناءً حراً سرعان ما ازدهر. وبعدما ظلت سنغافورة لقرون مجرد قرية صغيرة لصيادي السمك تخضع لسلطان إمبراطورية ماجاباهيت الاندونيسية عبر مضيق ملقا، قفزت تنمية الجزيرة قفزة كبيرة عندما أدخل إليها هنري رايدلي زراعة

المطـاط سنــة ١٨٨٨م، وإذ بأشجار المطاط تغطي سبعة أثمان مساحة أرضها بعد ثماني سنوات فقـط، وأصبح المطـاط محصولها الأول والمجزي.

لكن ازدهار سنغافورة الكبير بدأ يتحقق مـع تكاثـر منشـآت الصناعـات الدقيقة والتكنولوجية والـوكالات التجارية وتجارة الترانزيـت والمؤسسات الماليـة فيها، بحيث تحـول اقتصاد هذه الجزيـرة الصغيرة إلى واحد من أقوى اقتصاديات العالم.

بعدمـا فصلتها بريطانيا عـن ماليزيا (الملايـو) في ١٩٦٥/٨/٩م، على الرغم من نتيجة الاستفتاء الذي اختار أهل سنغافورة عبره في أيلـول ١٩٦٣م الوحدة مع ماليزيا. وقـد احتفظت بريطانيا آنـذاك بمئة ألف جندي من قواتها في سنغافورة.

وقد تعامل قادة سنغافورة بنجاح وحنكة غـداة استقلالها عن التـاج البريطاني سنة ١٩٦٥م مع التحديات الجمة، وأهمها صغر مساحة البلاد وندرة الموارد الطبيعية وبقاء قوات بريطانية وقلة السكان، إذ كان عددهم آنـذاك أقل مـن مليون نسمــة. فأصبحت سنغافورة في فترة قصيرة مركزاً عالمياً رئيساً للتجارة والمال والصناعة وتكرير البترول.

وهكذا، بفضل حسن التخطيط والتربية المجتمعية السليمـة وتوحيد الشعب وتعزيز التزامـه بالنظام والقوانـين واحترام القيم الأخلاقيـة والأمانـة في التعامـل والعلـم والجديـة الفائقة في العمـل، صار السكان -وعددهـم حالياً نحو ٥.٤ مليون نسمة - من أغنى مجتمعات العالم، حيث يبلغ متوسط دخـل الفرد السنغافـوري أكثر من ٣٠ ألف دولار أميركي، أي ما يماثل المستوى السائد في بريطانيا وفرنسا وألمانيا.

لقد قرر قادة سنغافـورة المستقلة إيلاء أهمية قصوى للدستـور والقوانين والتعليم وأرسوا نظامـاً سياسياً جعل سنغافورة بلداً ديمقراطيا يتمتع سكانــه بحرية العبادة في ظل قوانــين تساوي بــين المواطنين وتعتمد مبدأ الاستحقاق والجدارة أساساً للتوظيف والترقيـة. واهتـم أولئك القـادة بتحديث التعليـم وتعميمــه ورفع المستـوى الثقافي للمجتمع بأسره. وأدرك السنغافوريون عشية الاستقـلال أنــه ليس أمامهــم سوى وحدة الصفــوف والوفاء لبلدهــم، والعمل الجاد المخلــص لضمان حياة كريمــة. وقد اعتاد أبرز بناة نهضــة سنغافورة، لي كوان يو، أن يلخص تجربته بقولــه إن بناء الإنسان كان جوهــر اهتمامه ومحور برنامجــه، استناداً إلى حكمة صينية قديمة تقول: «يحتاج نمو نبتة قمح إلى سنة واحدة، ويحتاج نمو شجرة إلى عشر سنوات، أمَّــا نمو الإنسان فيحتاج إلى مئة سنة». ثــم يضيف قائلاً: اختصرنا هذه المدة بالجد والنشـاط واحترام حقوق

الإنسان والقانون والنظام والتركيز على العلم والثقافة والفنون، والحرص على وضع الشخص المناسب في الموقع المناسب وإقناع المواطنين بأنَّ الحياة تستحق العناء والتضحية من أجل سعادتهم ومن أجل أبنائهم.

هنا نقف أمام أحد جوانب النهضة الباهرة في سنغافورة. فبينما يحتفل العالم بيوم الكتاب في ٢١ نيسان من كل عام، تفرض تجربة سنغافورة مع الكتاب نفسها نموذجاً فذاً يستحق التمعن. ازدادت أهمية هذه التجربة بعدما كادت جائحة العولمة تنقل سنغافورة من حالة نجاح نادرة المثال في فترة قياسية إلى حالة تناقضها سعياً إلى تجديد النجاح بمعايير جائحة الأمركة الفاسدة. لكن الكتاب تدخل مرة أخرى.. وهذه هي الحكاية:

في العام ٢٠٠٧م، وبعدما تجاوز الثمانين من عمره بسنتين، قال مهندس وقائد معجزة نهضة سنغافورة الاقتصادية والاجتماعية، زعيم حزب العمل الشعبي لي كوان يو، مؤسس دولة سنغافورة ورئيس وزرائها لسنوات عديدة منذ انتخابه سنة ١٩٥٩م: «إنَّ العالم يتغير بسرعة وبقفزات واسعة إلى حد أن صارت لاس فيغاس نموذجاً للاقتداء»! تعجب المثقفون قبل غيرهم: كيف يتحول الرجل الذي قاد سنغافورة وجعلها أنموذجاً لنجاح التنمية الباهر وقدوة في عملية بناء الإنسان والمجتمع المنتج المنظم المبدع المثقف الذي تمكن من اقتحام التحديث وريادته في فترة قياسية إلى عجوز تبهره عاصمة القمار واللهو العابث الأمريكية لاس فيغاس إلى حد جعله يدعو إلى اتخاذها تقلدها سنغافورة بالذات، وهي التي صار نجاحها الباهر حلماً لكل مجتمع جاد في السعي إلى التقدم؟!

لم يخف الرجل في تصريحه عدم احترامه سلبيات لاس فيغاس ومثالبها التي لا تحصى، فقال:» أكره كازينوهات القمار، لكن العالم يتقدم ويتغير...لاس فيغاس مدينة القمار والرذيلة والجريمة، هي أيضاً مدينة السياحة المتكاملة، فيها كل ما يبهر العين ويطرب الأفئدة ويملأ المعدة ويسعد العقل ويمتع الجسد.. دعونا نجرب.. بشرط أنْ نراعي كون مدينتنا السياحية المتكاملة خالية من الدعارة، ونظيفة من المخدرات وعصابات الجريمة المنظمة وشبكات غسيل الأموال». قال الرجل هذا من دون أن يخفي حذره الشديد من المجازفة الخطرة، وربما المدمرة، التي يتضمنها اقتراحه الذي أطلقه قبل بدء انتكاس جائحة العولمة. فقد اعترف بأنَّه غير قادر على الجزم بنتائج دعوته إلى تحويل سنغافورة من معجزة الازدهار الاقتصادي الناجح المبهرة إلى تقليد مدينة

الموبقات لاس فيغاس. قال الرجل مجدداً بترف من استطاع أن يجعل لبلده رصيداً هائلاً من الثروة والنجاح، بما يكفل لها تعويض فشل التغيير المقترح: «لست متأكداً من نجاح هذه التجربة في سنغافورة.. ولكن لماذا لا نجرب؟».

طرحت دعوة لي كوان يو بإلحاح وعلى نطاق واسع تساؤلاً مشروعاً: هل فسد العالم إلى حد يجعل سنغافورة تتحول من نمط راق في التقدم والتنمية المتكاملة والانضباط والعدالة والنظافة المادية والسلوكية إلى نمط الملذات المتكاملة الرخيصة في قيمتها والباهظة في تكلفتها؟

رد الرجل المحنك نفسه بالإيجاب قائلاً: «نعم، الدنيا تغيرت إلى الحد الذي يبرر النظر في احتمال تحولنا إلى نمط لاس فيغاس». واعترف الرجل بأن إعادة بناء سنغافورة وتغيير بنيتها التحتية لن يكون سهلاً، فسنغافورة دولة غنية، وإعادة بناء دولة غنية على نحو جذري أصعب بكثير من إعادة بناء دولة فقيرة أو فاشلة. كما أنَّ من الصعب أيضاً تغيير العادات الاجتماعية، وخاصة في مجتمع تسوده تقاليد شرقية، بعدما تعود الناس على الجدية المفرطة والانضباط الشديد والمغالاة في النشاط الإنتاجي، حتى أنجزوا مجتمع الرخاء المتوازن والتنمية الشاملة التي تكفل ارتقاء المجتمع والوفرة الاقتصادية وارتفاع مستوى التعليم وتوفر أفضل الخدمات الصحية والاجتماعية والثقافية.

لن يكون يسيراً فرض منظومة أخلاق مدينة الملذات على شعب نمت فيه تيارات أخلاقية متشددة وخاصة بين السكان المسلمين، حيث يتميز المجتمع السنغافوري بالأخلاق الطيبة والتكافل الاجتماعي والصدق والاحترام المتبادل والنظافة المذهلة والاحترام الشديد للقانون والنظام وانخفاض مستوى الجريمة إلى أحد أدنى مستوياتها في العالم. لهذا لا تشكل سنغافورة أنموذجاً لنجاح التنمية الاقتصادية والاجتماعية فحسب، وإنما تشكل حالة شاذة في عالم نخره الفساد وتعاظم فيه التخريب الأخلاقي الذي تمارسه قوى الإفساد وتياراته. لعل هذا ما جعل لي كوان يو يقدم على دعوته الجديدة المغامرة إلى حد المقامرة قائلاً بصراحة: «إذا سمحنا لروابطنا بالعالم أن تضعف، فالمؤكد أننا سنعود إلى ما كنا عليه قبل عام ١٩٦٥م. ستعود سنغافورة قرية صيادين. لقد نجحنا في إقناع الناس عندنا بضرورة الوصول إلى ما وصلوا إليه من تقدم، مع أنَّه لم يكن لديهم نفط أو غاز. لذلك عملوا وأنتجوا وتقدموا وحققوا الهدف في فترة وجيزة».

المشكلة الآن، هي أنَّ أهل سنغافورة أغنياء، أي أنَّهم أقل حماسة واستعداداً لبذل الجهد والتضحية لتحقيق قفزة جديدة نحو

التغيير والتقدم كما فعلوا عندما كانوا فقراء. هؤلاء وغيرهم في المجتمع من التيارات والأفراد ممن يقاومون التقدم يحتاجون من يجرهم جراً إلى المستقبل».

استعرض جميل مطر اقتراح لي كوان يو في مقالة عنوانها (لاس فيغاس المدينة الفاضلة، الخليج، ٢٠/٩/٢٠٠٧م)، فلخص أهم مبررات المجازفة بالدعوة إلى هذا التحول كما يلي:

١- لم تعد مواصفات المواطن السنغافوري الذي صنعته تجربة تحديث سنغافورة صالحة لمسايرة تطورات العصر والتقدم التكنولوجي والثورة المالية وثورة الاتصالات وأمواج العولمة.

٢- نمط سنغافورة في التنمية، وربما النمط الآسيوي بشكل عام الذي حقق قفزة الاقتصاد في جنوب شرق آسيا منذ الثمانينات لم يعد مناسباً لاحتياجات الاقتصاد العالمي، وخاصة جانب الخدمات والدور المتنامي لصناعة السياحة.

٣- انحسرت منظومة القيم والأخلاق الآسيوية، وهي المنظومة التي ساهمت في تعزيز خطط التنمية في آسيا وكانت حديث علماء الاقتصاد والأخلاق والسياسة على امتداد عقدين من الزمن. وضرب لي كوان يو المثل بأحفاده. فقد اكتشف أنهم لا يجيدون اللغة الصينية وهي اللغة الأم ولغة العائلة الممتدة ولغة التراث والقيم والأخلاق، وفقدوا في الوقت نفسه المستوى الرفيع للغة الإنجليزية، لغة الإنتاج والعمل، وفقدوا الاهتمام بالقيم الكونفوشية، على عكس جيل آبائهم أي أبناؤه. نستطيع الآن وبالنظر إلى حال أطفالنا في منطقتنا العربية أن نتفهم شدة اهتمام لي كوان يو بهذا الأمر، إذ كانت منظومة القيم الآسيوية وخاصة قيم احترام المراتب والنظام والسن الأساس الذي شيدت سنغافورة عليه مشروع نهضتها.

٤- انشغلت أمريكا بالشرق الأوسط، ولم تعد تجد الوقت الكافي لآسيا وخاصة دول جنوب شرق آسيا. لقد تسببت العراق في نزف موارد أمريكا وأضعفت قدرتها على الانتباه ورسم خطوط لسياسة طويلة الأجل في جنوب آسيا، وتكاد تكون سلمتها إلى الصين. ويؤكد لي في هذا الشأن ما يردده آخرون من الزعماء في جنوب شرق آسيا، إذ قال: «إنَّ الصين هي التي ترسم الآن خطوط المستقبل في جنوب آسيا، وتضع قرارات إستراتيجية ستؤثر حتماً على علاقاتها بدول هذه المنطقة وبالتوازن العالمي».

لكنَّ قراراً آخر قد سبق اتخاذه قبل سنوات طويلة أطلت ذكرى نجاحه تلفت النظر إلى إنجازاته الهائلة الماثلة للعيان. بل قل تجددت روحه، فحفز على البحث عن سبيل مختلف إلى إشباع رغبة التغيير في سنغافورة على نحو أكثر جدوى وأقوى

رسوخاً من الاقتداء بمدينة القمار واللهو الأمريكية لاس فيغاس. ذلك هو قرار الوثوق بالثقافة وسيلة للتغيير، وبالقراءة سبيلاً إلى إعادة صياغة المجتمع وبنائه في فترة قصيرة جداً. لقد كانت الحاجة الملحة هي تعزيز روح الوحدة الوطنية بين مواطني سنغافورة المنحدرين من أعراق مختلفة، والذين تتباين أنماط معيشتهم وثقافاتهم وعاداتهم نتيجة شدة نزوعهم إلى الاحتماء بالجذور. راهنت النخبة بنجاح على القراءة لتعزيز ثقافة موحدة، فأطلقت مبادرة توحيدية عنوانها: (اقرئي يا سنغافورة). تمّ اختيار اثني عشر كتاباً آنذاك ليقرأها السنغافوريون على مدى عشرة أسابيع، ومن ثم يتحاورون بشأنها. وقد أعطت هذه المبادرة أكلها، حيث أوجدت اثني عشر موضوعاً ليتناقش الناس حولها. وأدى الحوار الواسع في سياق تلك المبادرة إلى تقارب سريع بين المجموعات العرقية والدينية والثقافية المتباينة التي تشكل المجتمع السنغافوري، فخف الجذب الذي كان يمارسه الانتماء الإثني في اتجاهات متعاكسة، وحل محله مزيد من تعزيز التعارف والاندماج الوطني التوحيدي بفضل الحوار. كان طبيعياً أن تتطور المبادرة بعدما حققت نجاحاً ملحوظاً.

تضاعفت مثلاً العناية بالتعليم والثقافة لتعزيز فكرة المواطنة ولتسريع التنمية البشرية الشاملة، فوضعت الحكومة خطة للبنية التحتية للمكتبات العامة بغرض تشجيع القراءة بدأتها عام ١٩٩٢م وانتهت في عام ٢٠٠٠م بنجاح كبير، مما أدى إلى تأسيس مجموعة كبيرة من المكتبات العامة وتزويدها بأحدث التقنيات، وهي تلقى إقبالاً شديداً من الروّاد، وخاصة من الأجيال الجديدة. كما تمت إقامة مزيد من المسارح المجانية الراقية التي تعرض مسرحيات عالمية ومحلية وأعمال تراثية، وانتشرت إلى جانبها المتاحف ومعارض الفنون في كل الأحياء.

تمّ أيضاً اعتماد التعليم متعدد اللغات جزءاً من إستراتيجية التعددية الثقافية، من أجل رفع السوية العلمية والمعرفية للمواطنين.

من طرائف نجاح الثورة التعليمية والثقافية والعلمية في سنغافورة ذات العدد الصغير جداً من السكان، الذي يماثل عدد سكان مدينة صغيرة، أنّ هجرة مواطنيها المتعلمين لا تثير أي قلق، لا شعبياً ولا حكومياً، على نحو ماتسببه هجرة العقول في البلدان الأخرى، ففي مقابل كل سنغافوري يغادر بلده يأتي أربعة عشر شخصا معظمهم من الخبراء والمؤهلين تأهيلاً عالياً ليحلوا محله بصفة دائمة!

وما كان للبعد التعليمي والثقافي في المعجزة التنموية السنغافورية أن ينجح لو لم تعاضده أبعاد أخرى تكاملت معه،

في ظل معايير وقيم تمّ الالتزام الصارم بها حكومياً وشعبياً، فنقلت تلك المدينة / الجزيرة/ الدولة الصغيرة إلى مصاف أكثر الدول تقدماً ورقيا ونظافة وعدلاً ورخاء في العالم.

من أبرز هذه المعايير والقيم اعتماد معيار العدالة القائمة على الكفاءة والقدرة والفاعلية، بعيداً عن المحاباة والتحيز لأي اعتبار أو سبب، والتطبيق الصارم لمبدأ تكافؤ الفرص والتنافس النظيف والتعيين عبر لجان متخصصة تتميز بالصدق والنزاهة وتخضع للمراقبة والمتابعة الدورية شعبياً وحكومياً. لقد نجح تضافر الجهد الحكومي والشعبي والقضائي والحزبي في التضييق على منافذ الفساد الإداري، وتسهيل تجنيس الناجحين من الأجانب المقيمين، سواء كانوا خبراء أو فنيين أو رجال أعمال.

من قال أن القراءة تتراجع عالمياً، أو أن الثقافة النظيفة تذوي؟

عندما تتوافر قيم أصيلة وإرادة قوية وإيمان راسخ وحسن تخطيط وثقة بالذات واطمئنان عام إلى نزاهة القائمين على التغيير، تصبح القراءة أسرع وسائل النهوض، وتصبح الثقافة ضمانة مستقبل رخاء ونجاح لأجيال وأجيال!

عسى أن يقترب يوم يستجيب فيه ثلاثمئة مليون عربي لنداء برنامج «اقرؤوا يا عرب»، تمرداً على فضيحة راهن القراءة العربية المهين، فلدى العرب من مقومات الوحدة ومبررات النهوض أكثر بكثير مما كان لدى الذين وحّدهم نداء: اقرئي يا سنغافورة!.

القانون... مرآة حضارة الشعوب

منيب هائل اليوسفي *

نعتقد نحن الذين درسنا القانون أنَّه كما أنَّ الفنون والآداب والثقافة يجب أن تكون مشاعة بين كل أهل التخصصات والمهن والمواطنين الآخرين، فكذلك يجب أن يكون الأمر بالنسبة للقانون.. وليس معنى ذلك أن يعرف كل مواطن مواد القانون المدني والجنائي والتجاري وغيرها ..كما يعرف عبد الوهاب وأم كلثوم وفيروز، ولكن أن يعرف «فكرة القانون» وما هو «القانون» وجوهر القانون، ذلك أنَّ الناس حتى المسؤولين في معظم الحالات يظنون أنَّ أي ورقة مرت بالمراحل التشريعية



المختلفة حسب نظام كل بلد، أي من حاكم فرد أو من مجلس قيادة أو من برلمان أو استفتاء شعبي حتى «تصبح قانوناً» جديراً بهذا الاسم الجليل، وهذا غير صحيح، ومن

* محام وكاتب وباحث في الشؤون القانونية.

هنا يعتبر هذا الحديث انطلاقاً للحديث عن مشكلة أخرى هي، الشرعية في العالم العربي على اختلاف ألوانها، وفي الحقيقة هي أعمق مشكلة يواجهها العالم العربي في البحث عن صيغة لحياته حاضراً ومستقبلاً، ولأذكر القارئ بأن «الشرعية» قد تكون وراثية أو جمهورية انتخابية أو ثورية، ولكن هناك شروط هي التي تضفي على هذه «الأشكال» وتتلاءم مع كل مجتمع وتراثه وتكوينه وحاجته الطبيعية في الاستمرار، وفي التغيير بما يلائم ظروفه في المرحلة التي يعيشها و«التشريع» غير «الشرعية» وإن تشابهت الكلمتان.

من أفلاطون إلى باكونين: والتشريع الذي هو القانون، لا يهمنا هنا تفاصيله، ولكن يهمنا فكرته، فلا حياة لأي مجتمع من دون قانون ما فهو موضوع يهم الجميع وأبسط الناس وأقلهم معرفة يعيش من خلال «قوانين» من دون أن يعرفها..

كما أنَّ «القوانين» التي تحكم حياة الناس ليست كلها «مكتوبة» في مواد، كما يتصور الناس أنَّ أول «مجتمع» إنساني. بل «جماعة» إنسانية وجدت على الأرض ما كانت «تجتمع» إلا على «القانون» أو مجموعة من الأعراف والتقاليد والسلوكيات متعارف عليها.. تتبعها الأغلبية ومن يعصيها يكون خارجاً عليها.

وعندما نجد أنَّ أصل كلمة «الخليع» في اللغة العربية منذ الجاهلية ذلك الذي «خلعته» قبيلته عنها وتخلت عن حمايته إزاء القبائل الأخرى.. لأنه خرج عن قيم وأعراف وسلوكيات قبيلته، ففي أكثر المجتمعات بدائية كان هناك قانون، وبغير ذلك ما قامت مجتمعات أصلاً، حتى المجتمعات التي تؤمن بالجن والشعوذة وتعبد الشمس أو النار أو المطر أو تقدس رئيس القبيلة، فتعطيه الحق في مئة زوجة أو في كل نساء القبيلة، كالحال في أواسط أفريقيا. كل هذا لم يمنع أن يكون كثير من كبار المفكرين العقلانيين من أعداء فكرة القانون ذاتها، أو أي فكرة شيء من هذا القبيل.. فمن أفلاطون صاحب الجمهورية المثالية التي هي قانون عفيف ،إلى «باكونين» و«كروتبكين» زعماء المذاهب الفوضوية في القرن التاسع عشر.. الذين بشروا باختفاء الدولة أي باختفاء القانون.

كان والدي المرحوم المحامي الأستاذ هائل منيب اليوسفي يقول دائماً بأنَّ القانون يدخل في نسيج حياتنا اليومية من لحظة أن نستيقظ إلى اللحظة التي نأوي فيها إلى فراشنا، نتعامل مع القانون لحظة نخرج فيها من دارنا.. إلى لحظة العودة إليها، نتعامل مع القانون منذ الولادة إلى اللحظة التي نموت فيها، لا بل أكثر من ذلك، نتعامل

مع القانون قبل الولادة، ونتعامل معه بعد الموت، وكان تساؤله ألا يحكم قانون الإرث حقوق الجنين وهو في بطن أمه إن كان ذكراً أو أنثى..؟ (وللذكر مثل حظ الانثيين) (سورة النساء الآية ١٧٦) ألا تهيمن الوصية بأحكامها بعد وفاة صاحبها..؟ فالقانون صفة ملازمة للإنسان قبل أن يولد وإلى ما بعد أن يموت.

في حقيقة الأمر لا يمكن لنا أن نتصور مجتمعاً بلا قانون سواء أكان معاصراً أو بائداً حتى الإنسان البدائي.. إنسان الغابة كان له قانون، حين يصف المتحدثون، وضعاً متخلفاً يقولون يحكمه قانون الغابة، الغابة التي يأكل القوي فيها الضعيف يحكمها (القانون). حتى اللصوص والخارجون عن القانون يحكم العلاقات فيما بينهم (قانون) إذ إنهم يقتسمون الغنيمة وفق قانون يسود بينهم، كل شيء في الكون يحكمه قانون، حتى الذرة التي فيها الإلكترون الذي يدور حول النيترون، يحكمه قانون.. الأجرام السماوية والأفلاك ومنظومة الكون كلها يحكمها قانون (وكل في فلك يسبحون) (سورة يس، الآية ٤٠).

الباحثون في العلوم الاجتماعية وجدوا أنَّ أصدق سلم في مقياس الحضارات المعاصرة أو حتى البائدة هو احترام القانون، فلا شيء يصلح أن يكون مقياسا لحضارة الإنسان مثل احترامه للقانون، فاحترام القانون هو مقياس حضارة الشعوب.

وما زالت صيحة «جان جاك روسو» تدوي في الآفاق حين قال: إنَّ الشر بدأ في العالم كله حين وضع أوَّل إنسان أوَّل علامة على قطعة أرض وقال «هذه ملكي» فمنذ تلك اللحظة بدأت الحدود والقيود، وبدأت الصراعات وولدت القوانين، وأنَّ الحل هو العودة إلى الطبيعة حين لم يكن هناك نص مكتوب.

وقد لعبت هذه الصيحة دوراً كبيراً في قيام الثورة الفرنسية وتأثر بها وما زال مفكرون كثيرون بطرق شتى، ولكن هذه الصيحة كانت «أوَّل» رد فعل تراكم «قوانين» ظالمة صارت سدوداً في طريق تقدم البشرية.

لأن هذه «العلامة» الأولى التي وضعها أول إنسان على قطعة أرض وقال هذه ملكي، تحولت عبر القرون عسف أمراء الإقطاع وإلى رقيق الأرض.. إلى آخره وكانت ثانياً «مستحيلة»، لأنَّ العالم الذي تقدم بعد عصر النهضة وازدحم وعرف المدن الكبيرة، والعلاقات المعقدة لم يكن ممكناً أن يعود إلى حياة الرعاة من جديد.

والغريب أنَّ فكرة إلغاء الدولة وإلغاء

القانون يلتقي عندها أقصى اليسار وأقصى اليمين، فالفوضويون، وهو مذهب له فلسفته وتنتمي إليه فيما أعتقد منظمات مثل «الألوية الحمراء». في إيطاليا، يرون أن «الدولة» هي مصدر كل شر لأنَّ الدولة للأقوياء، ولو اختفت لساد العدل.

والمحافظون المتطرفون، يرون أيضاً أنَّ الدولة هي مصدر كل شر وأنّه كلما تركت الدولة الناس وشأنهم، فسوف يسود قانون آخر عكسي يؤمنون به وهو: أن يكون البقاء للأقوى، وإن هذه هي سنة الكون!

ومنذ البداية وكما ذكرت وبشكل تلقائي، لم يجتمع ناس في جماعة إلا حول «قانون» أو «عرف» غير مكتوب له وظيفة القانون نفسها، ولكن منذ بداية نشوء الفكر وقيام الحضارة كان هناك تفريق بين قانونين يتحمس كل فريق من أهل القانون لأحدهما: القانون الطبيعي والقانون الوضعي.

وكان طبيعياً أن يبدأ الفكر الإنساني بالانتماء إلى القانون الطبيعي، فقبل الرسالات السماوية، وقبل العلم كان الإنسان متأثراً في كل نواحي حياته بالطبيعة، وبقوى غيبية لايدركها وبالتالي لا بد أن يكون هو نفسه جزءاً من هذه الطبيعة. إذن، فالقانون السليم، (مكتوباً أو غير مكتوب) في البداية هو المستمد من الطبيعة، وغايته يجب أن تكون محاولة تحقيق أكبر درجة من الانسجام بينه وبين الطبيعة.

ومع تقدم الإنسان البطيء، أدرك أن هذا ليس «عدلاً» وأن إحدى غايات أي قانون لابد أن تكون تحقيق درجة من العدل، ومع ذلك فقد امتدت فكرة القانون الطبيعي عبر القرون، فأخذ بها الإغريق ولكن من زاوية «عقلية»: فأهم دور للإغريق في الحضارة هو تقديسهم للعقل الذي ظل مؤثراً إلى الآن، وبالتالي قالوا: إنَّ هذا الكون (بالتحليل العقلي) لابد وأن له منطقاً أوجده، وقوة خلقته، وقانوناً يسيره، فالإنسان إذاً عليه أن يتلاءم مع هذا الكون، ولكن من منطلق التحليل العقلي، لا الاكتفاء بالظواهر كما فعل البدائيون، لقد حاولوا فهم ما وراء هذا العالم، وما هي «فكرته» الأساسية؟ وأنَّ القوانين التي يضعها الإنسان يجب أن تحاول الاقتراب من الفكرة المثالية الكامنة وراء هذا الكون والقوانين التي تحكمه والتي يمكن معرفتها بالعقل المجرد.

فالطبيعة هي أمر واقع، وهي المقياس الذي يجب استخدامه في معرفة ما هو طبيعي وما هو غير طبيعي، وتنوع العزف على هذه النغمة الأساسية ابتداء من أفلاطون وأرسطو إلى من جاؤوا بعدهما، ولكن مع عصر النهضة في أوروبة، لم يعد لدى الإنسان سلاح واحد فقط وهو العقل

المجـرد، فقد ظهر العلم، ومع العلم، ظهرت «التجربة» وبدأ عصر الشـك الذي جسـده «ديكارت» بل وضع الشك في مقـام عالٍ حين قال: (أنا أشك إذن فأنا موجود..!) أي جعل الشك معيار الوجود.

في هـذه المرحلة الجديدة ظهـر النوع الثاني بعد القانـون الطبيعي «وهو القانون الوضـعي» والفكرة واضـحة من الاسم، إذ علينـا أن نبحث (علميـاً وفكرياً) عمّا هو موجود، وما هو طبيعي ولكن ليس علينا أن نعتـبره مثلاً أعلى إلا عـن طريق الخرافة، لا عن طريـق العقل المجرد. فالطبيعة فيها الخير والشر، وليس صـحيحاً أنَّ الإنسـان طيـب وخيّر بالسـليقة والأصـل. فقد قتل قابيل أخاه هابيل، وبالتالي يجب أن «يضع» الإنسـان قوانينه ويقلل الشـر ويزيد الخير ويعالج الأدواء المولودة مع الطبيعة، وقد كان من فرسـان هذه القضـية «كانط» و«لوك» و «هيوم».. وغيرهـم كثيرون، وقال «كانط» قولاً شـهيراً في هذا الأمر: (إنَّ هناك ماهو كائن بالفعل، وهناك مايجب أن يكون..).

وبالتالي فـإن على الإنسـان أن يتدخل فيما هـو كائن ليقترب بـه إلى ما يجب أن يكون، ألسـنا نروِّض الأنهـار التي تغرق الناس بفيضاناتها ؟ و ألسنا نقاوم الأمراض والأوبئة..؟

إذن، علينـا أن نروض المجتمعـات البشرية.. بالقانون «الوضـعي» الذي سيطر منطقه وما يزال.

ولكن كان هناك تيار وسط لم يجد تعارضاً حاداً بين الطبيعي والوضـعي، بل حاول أن يجعلهما متكاملين في طلب الحياة الأحسن، وأيـاً كان منبـع هذا التيـار، ففي تقديري أن منبعـه الأكبر هو الرسـالات السـماوية والأديان.. فالأديان تعطي «الطبيعة» مادية وبشريـة قيمة كبـيرة، لأنَّها مـن خلق الله سبحانه ولكل شيء حكمة، الخير والشر على السواء. إذن، فهناك احترام كبير للإبقاء على الصلة بين الإنسـان مهما بلغ علمه وعقله، وبين الطبيعة، وبالتـالي فالقانون الطبيعي سـيظل دائماً له حكمة ولـه نفع وله مكان، والانسلاخ عنه مستحيل.

وفي الوقت نفسـه نزلت الأديان بأحكام تقترب وتبتعد عن القوانين، ولكن فيها قدر من القانون بعضها وضع مجرد قيم أخلاقية طالـب بها البشر فهي قانـون (والفرق بين القانون والأخلاق قضـية كبيرة سـبق وأن تحدثـت عنها في عجالة سـابقة نشرت في هذه المجلة الغراء تحت عنوان (هل القانون يصـنع الأخـلاق) ولكنها في هـذا المجال قانون، وبعضهـا - الإسـلام بالذات - نزل بالقيـم والأخلاق، ولكنه أضـاف إضـافة هائلة مختلفة نوعياً لا كمياً إلى بند ما يعتبر قانوناً، فقد نزل مقنناً لأشـياء كثيرة تنظم

حياة الإنسان، بل و تنص على العقوبات، ففي مجال كالزواج والطلاق والإرث مثلاً، نظمها تنظيماً شاملاً محدداً، ومع ذلك فهو لم يلغ العقل ولم يحرم الإنسان من حق التفكير والاجتهاد على ضوء نصوصه، وتغيير التفكير والاجتهاد وتطويره من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان.

فهو إذن قوة كبرى في ساحة الأخذ بالقانونين معاً، الطبيعي والوضعي أو الطبيعي والإلهي والوضعي، وفي ساحة الأخذ بمنطلق الحث على التكامل والانسجام بينها حين يضع الناس قوانينهم مفصلة، ولعلي أسرفت في هذه المقدمة التاريخية التي لا بد منها في تصوري لكي نقترب من موضوع فكرة القانون كما يجب أن نفهمها في حياتنا المعاصرة، والتي ينقص مجتمعنا إدراكها والتي تكمل فكرة «الشرعية» لأنَّ التشريع ووضع القوانين، هو ترجمة الشرعية وأسلوبها في ممارسة شرعيتها.

ومادمت في معرض الحديث عن الشريعة والتشريع، فقد يسأل البعض وماذا عن شأن شرعية السلطة..؟ أقول: إنَّ المعيار واحد، فالسلطة حقيقة موجودة وتتخذ أشكالاً شتى، ولكن شرعيتها ليست في مجرد وجودها، فهذا معيار شكلي والاقتصار عليه يؤدي إلى المهالك لأنه يؤدي إلى الانفصام بين المجتمع والسلطة التي يفترض أنها تمثله، والتعريف المأخوذ به في كتب العلوم السياسية هو أن شرعية السلطة توجد إذا كانت السلطة تمثل الإرادة العامة والعقل العام والمزاج العام بنسبة كبيرة تشارف الأغلبية في المجتمع، فهو إذاً معيار موضوعي لا شكلي.

الشكليات ليست الأساس، فدستور غير ملائم لهذه الشروط، وبرلمان لا يمثل هذه الإرادة العامة والعقل العام والمزاج العام، ووزارة منتخبة من هذا البرلمان.. كل هذا لا يوجد الشرعية فما أسهل فرض الدساتير وتزوير الانتخابات وتزوير الاستفتاءات، فالشكل شرعي، ولكن الجوهر غير شرعي، الشيء نفسه ينطبق على القانون.. وهذه هي فكرة القانون.

لا بد في فهمي وقناعتي أن يكون في القانون جزء نابع من طبيعة المجتمع، كما ينبع الماء من مصدر طبيعي، ولا بد أن يكون جزءاً من الطبيعة البشرية لمجتمع ما، كالماء الذي هو جزء من الطبيعة الجيولوجية، فكل مجتمع له جيولوجيا في تراثه وبيئته وتاريخه وتكوينه النفسي وقيمه السلوكية والدينية والأخلاقية.

ولابد أن يكون القانون فيه أيضاً جزء وضعي، ولكنه لا بد أن يكون وضعيا بالشروط والتعبيرات السابقة، معبراً عن

الإرادة العامة والعقل العام والمزاج العام للنسبة الغالبة في المجتمع، لأن الإجماع شبه مستحيل..حتى في «الشرعية الثورية» التي تأتي لتحطم شرعية وتقيم شرعية جديدة والتي تستهدف تغيير المجتمع لابد لكي تنجح أن تكون رد فعل لمشاكل حقيقية وآتية بحلول تعبر عن العقل العام والضمير العام والإرادة العامة لأغلبية المجتمع، بصرف النظر عن شكل التعبير الذي قد يكون ركيكاً أو بليغاً ولكن شرط البلاغة أساسي في موضوعية التعبير.

إذن، فحين نتحدث عن سيادة القانون فهذا عنوان عام جميل، لكن لا يجب الاستسلام له «مهما أحيط بشكليات القوانين، من توقيعات وإقرارات واستفتاءات كلها جريحة ومجرحة بشكل أو بآخر.

وقبل أن أختم هذه العجالة أقول: سيادة القانون هنا نكتة، وهذا سرّ ردّ فعل الشعوب حين لا تطيع في أغلبيتها القوانين وتقابلها بسلبية هائلة أنها تخضع لها بحكم القوة، لا بحكم احترام القانون، والخضوع على العكس يعلّم الناس عصيان القانون، ولكنها لا تطيع إلا القوانين المعبرة عن الإرادة العامة والضمير العام، يطيعها حتى المخالف لها، ومن حقه أن يدعو إلى تغييرها وهو يفعل ذلك سلمياً، ذلك أنه يعرف أنه ولو خالفها فهي تعبير عن ضمير عام وإرادة عامة، ولا سبيل أمامه إلا أن يقنع الضمير العام والإرادة العامة بأن يتغيرا.

هذه الفجوة بين «روح القانون» المتصاعدة من هذه الينابيع، وبين «القوانين» النابعة من السلطة والقوة وحدهما.. هي الفجوة الثانية بين الشرعية واللاشرعية، وهي السبب في الزلازل والبراكين المفاجئة، والنهايات العنيفة، و الأخاديد التي تشقق المجتمع الواحد وتقطع سبل الحوار والتطور البناء المطرد، وهو أمر إدراكه مسألة حياتية ومصيرية للأمة العربية وهي في مرحلة انتقال حضاري متلاطمة الأمواج، لا يعصمها من الغرق في دواماتها إلا هذه الشرعية الموضوعية بكل مستوياتها وكافة وجوهها.

ما هو العنف؟

د. ماري شهرستان ●

أصبح المجتمع البشري مشبعاً جراء استخدام كلمة «عنف»، لأنّها تستخدم بشكل مستمر لوصف كل أشكال الصراعات المدنية والعسكرية في العالم.

في الممارسة تظل كلمة «عنف» بالمفرد وليس لها محتوى دقيق ومسبق التحديد. إنّها لاتفيد في وصف أحداث لإضفاء نوع من التمييز عليها بل على العكس من ذلك تستخدم لتجريد الأحداث من أهليتها ومكانتها، فالعنف هو أمر مدان. كما أنَّ تفاقمه مقلق لدرجة تم فيها اعتباره علامة من علامات العصر: فكرة العنف التي تجتاح العالم هي جزء من مشهد انحطاطي للحاضر الذي نعيشه.

تنقل لنا شاشات الفضائيات صخب الحفلات الدموية التي تجري في كل بقاع على الأرض، من اعتداءات قاتلة، إلى مؤامرات اجرامية دامية، إلى مجازر جماعية، وجرائم دنيئة... من تفجيروحرق وتدمير وصولاً إلى حوادث خطف وتعذيب، وشتائم وإهانات: هذه الوقائع هل هي أعراض لتوحش العالم؟ أم استعادة العنف الذي قد يجتاح المجتمعات الإنسانية قاطبة؟

● أديبة ومترجمة سورية.

مواجهات غدت منذ نهاية الحرب الباردة أقل عقائدية وأكثر دينية أو عرقية - إثنية، لكنها لم تتغير أبداً لا بالعدد ولا بالشدة. صراعات تترك لنا جبالاً من الأنقاض، وركاماً من الجثث وفي بعض الأحيان مواكباً من الناجين[٢].

لكن وإن كان بعض من الواقع يدل على عكس هذه العروض، ألم تشهد المجتمعات الديمقراطية تراجعاً تاريخياً للعنف؟ هذه نظرية يدعمها ويؤيدها المؤرخون واختصاصيو علم الاجتماع بالأرقام والمعطيات المسندة وحتى اختصاصيو علم النفس التطوري فقد أيدوها مؤخراً.

الحوادث العنفية الخاصة، والسلوكيات العنيفة والاعتداءات على الأشخاص هي أمور في تراجع ثابت. وبالمقابل، في مجتمعاتنا الهادئة، لم تكن الحساسية تجاه العنف في الماضي بهذه القوة. أمّا اليوم فتتم إدانة العنف، ويلاحق، ويتم رفضه واستنكاره وفضحه من قِبَل الناس، كما يتم العمل على الوقاية منه لمنع حدوثه، مقدمين بذلك رؤية كبيرة للظاهرة، كما هي الحال في حوادث الاعتداءات الجنسية.

لقد ظل الاغتصاب والشذوذ الجنسي الممارس على الأطفال لفترة طويلة من التاريخ البشري ممارسات لا تشكل أية فضيحة. أمّا في النظرة المعاصرة فقد أصبحت لا تطاق ولا تحتمل[٣].

غير أننا وفي مفارقة واضحة نشهد أيضاً بزوغ ظواهر تتسم بعنف فائق وكأنّها أتت لتهز قناعاتنا: إنّها ممارسات بعض الزمر، وابتزازات واغتصابات دامية لعصابات أشرار مافيوية، كما شهدنا تقتيلاً جماعياً ينفِّذه فرد واحد، وينبغي ألا ننسى المجازر والإبادات التي ملأت القرن العشرين بكامله حتى آخر عقد منه...

كيف نفسِّر هذه الاحتدامات العنيفة بحدها الأقصى؟

عندما نحاول فهمها نكون قد سرنا خطوة أولى باتجاه محاربتها.

من أرمينيا إلى ألمانيا النازية، إلى البوسنة ورواندا... المجازر الجماعية التي لطخت القرن العشرين تفسَّر بالفعل الإرادي للقتلة، وذلك وفق المؤرخ دانييل غولدهاغن. فعندما نفهم هذه التفلتات الغرائزية والهيجانات العنيفة بحدها الأقصى، نكون قد عملنا عملاً وقائياً كي لا تحدث بعد ذلك أبداً[٤].

في عام ١٩٩٦م كان دانييل غولدهاغن[٥] أستاذ التاريخ السياسي في جامعة هارفرد، قد نشر كتاباً أحدث تأثيراً كتأثير القنبلة.

في كتاب «جلادو هتلر المتطوعون» يؤكد أنّ المجازر المرتكبة خلال الهولوكوست لم تكن فقط نتيجة لقرار السلطات النازية بل كانت أيضاً فعلاً واقعياً لمواطنين من

«الألمان العاديين» من الرجال والنساء الذين شاركوا في إبادة اليهود بملء إرادتهم. ذلك لأن مناهضة السامية «الإلغائية» التي كانت كامنة عند عدد كبير من المواطنين الألمان، صنعت من الهولوكوست مشروعاً قومياً، وهذا طبعاً وفق غولدهاغن.

لقد أثار الكتاب جدالات حادة في الولايات المتحدة الأمريكية وفي ألمانيا. وكان مجمع المؤرخين يفضل البحث ضمن أسباب المجازر عن تجريم القادة وعن مسؤولية الجهاز الحكومي في النظام الشمولي أكثر من البحث عن مسؤولية الشعب. لقد حقق هذا الكتاب في الوقت نفسه نجاحاً مكتبياً هائلاً حيث بيع منه أكثر من ٥٠٠٠٠٠ نسخة في ألمانيا وفي الولايات المتحدة الأمريكية.

في عام ٢٠١٢م، نشر غولدهاغن كتاباً جديداً تحت عنوان: «أسوأ من الحرب. مجازر وإبادات جماعية في القرن العشرين (فايار[٦])». وهو وإن شملت أطروحته مجموع الإبادات الجماعية التي لطخت القرن العشرين، غير أنه استمر في دحض التفاسير التقليدية مثل الخضوع للسلطة، والضغط الاجتماعي، أو «إلزامية الشر» لشرح التصرفات السيئة لمرتكبي المجازر الجماعية.

يتألف الكتاب من ٧٠٠ صفحة، مستنداً إلى حصيلة عشر سنوات من البحوث، والاستقصاءات التي أجراها المؤلف نفسه مع الضحايا ومع المجرمين في راوندا وكمبوديا وفي البوسنة وغواتيمالا أو في دارفور...

– قد نتساءل، لماذا نشهد مثل هذا الاحتداد في إرادة حل طلاسم آليات[٧] هذه الأزمنة الفظيعة، وهذا الجزء الظلامي من البشرية؟

كانت حصيلة الإبادات الجماعية في القرن العشرين أكثر من ١٠٠ مليون قتيل، وفق هذا المؤرّخ (المصوَّب الحر). لذلك من الضروري فهم الآليات التي تعمل أثناء القتل الجماعي، إذا أردنا أن نتوصل في المستقبل إلى القدرة على تجنب تكرار مثل هذه الفظائع، حتى لو كان ذلك على حساب معاينات متعبة...

والسؤال المطروح: ما الذي يدفع الناس إلى القيام بالذبح وحتى على التفنن في فظاظة غير مطلوبة منهم؟

لأنَّ القتلة يعتقدون بأنَّ الضحايا يستحقون مصيرهم. ففي أذهانهم، مايفعلونه هو قضية حق وشأن ضروري. هذا ما يقولونه في أغلب تصريحاتهم. فبالنسبة إليهم، الناس الذين يقومون بقتلهم هم أعداء ومصدر تهديد لشعبهم وإثنيتهم، ومجموعتهم وأراضيهم أو أمتهم.

نجد ذلك عند الهوتو، وفي حالة الأتراك ضد الأرمن، والألمان خلال الفترة النازية،

والأندونيسيين، والخمير الحمر، والتوتسي في بوروندي، والصرب...

كانت الاعتداءات الإلغائية أو الإبادات، هي فعل غالبية عظمى من دون أن تكون مجبرة على ذلك. في كل المجازر الجماعية، وجد القادة أشخاصاً راغبين بقتل الضحايا المستهدفين. حتى لو كان هناك بعض الأفراد الاستثنائيين الذين رفضوا القتل، إجبارهم على ذلك لم يكن ضرورياً لأنه كان هناك عدد كبير وكافٍ من الناس المستعدين للقيام بذلك.

وما نلاحظه هو أنَّ القتلة يقومون غالباً بأكثر مما يطلب منهم. يطاردون ويعذبون ويقتلون بحماسة وحيوية وبروح المبادرة. في ألمانيا النازية، كان هناك أفراد متطوعون على الدوام لتنظيم حركة «اصطياد اليهود» بالعنف والقساوة التي نعرفها.

كان الهوتو ينظمون «بعثات صيد» برفقة كلاب لإخراج التوتسي من الأحراج والخنادق أو من البيوت التي كانوا يختبئون فيها. وفي شهادة أحد التوتسيين الناجين يقول: «انقضوا علينا مدججين بكل ما يملكون من أسلحة، سواطير وسهام، وعصي...، وقتلوا الناس ومزقوهم إرباً وحولوهم إلى لحم هرئ واقتطعوا أجزاء من أجسادهم».

- ما هي الدوافع والمحركات لما يسمى «العقيدة الإلغائية؟».

تبدي المجازر الجماعية تنوعات هامة في الدوافع وفي التطور والسيرورة التي تنتجها رغم أنَّ فيها بعض السمات المشتركة.

يوجد ثلاثة محركات تؤدي إلى اعتبار أنَّ الضحايا يستحقون الموت والإلغاء: الكره، والعقائد أو الأحكام السلفية تجاه الآخر، وهي محركات يمكن أن تُدمَج مع بعضها بعضاً. يمكن للكره أن ينجم بكل بساطة عن صراعات واقعية حقيقية، عن الحروب على سبيل المثال، عندما يشعر الناس أنهم مهددون من قبل عدو. فمثلاً، خلال الحرب العالمية الثانية أثارت الهجمات اليابانية عداوة عميقة عند الأمريكيين. والأسلوب الذي كان اليابانيون يعاملون به السكان المدنيين شكل في الرأي العام الأمريكي صورة عن هذا الشعب مجردة من الإنسانية لدرجة بات يُعتقَد أنَّهم لا يرقون إلى مستوى بشري، وهذا ما قاد الأمريكيين إلى الاستنتاج بأنَّ أي عمل ضد هذا العدو المقيت هو عمل مسموح به. في الولايات المتحدة الأمريكية كانوا ينعتونهم بالقردة والصبيان المشاغبين والجرذان والأوباش.... وبعد ذلك حصلت الاعتداءات النووية على اليابان، والتي هي بالنسبة إلى إبادة جماعية. ٨٥٪ من الأمريكيين أيدوا قرار الرئيس هاري ترومان[(٨)]، و٢٣٪ منهم كانوا يعتقدون أنَّ

هــذه الاعتداءات لم تكن كافيــة وأنه ينبغي القيام بالمزيد منها.

إنَّ تأثـير الأيديولوجيات وسلطانها على العقـول قد أدمـى عصرنا أيضـاً. عندما يصبـح الشبـاب عقائديـين كمـا في حال الديكتاتوريـات الشيوعية على سبيل المثال، فالغالبية العظمى تتفق فكرياً على أنه ينبغي «تطهير» المجتمع وإبادة أعداء الطبقة.

مجَّد الخمير الحمر شعب الخمير (وهم مجموعة إثنية يشكلون الأكثرية العظمى في كمبوديـا) وذلك بغرسهـم الحقد في عقول المراهقين والفلاحين من الذين كانوا قليلي التربيـة تجاه كل شخصـ يعترض على بناء دولة الخمير الشيوعية.

يبقى هناك طريـق آخر يؤدي إلى إلغاء الآخرين: وهي الأحكام السلفية القوية. إنَّها معتقـدات ومشاعر وردود أفعال ناجمة عن المذهبية الدينية، وهي التي دفعت بالشعوب التركيـة إلى إبـادة الأرمن غـير المسلمين، والذين ينظر إليهم علـى أنَّهم شعب خبيث يعتنق إيماناً وممارسات دينية كافرة ونجسة. فـكان الأمـر بالنسبة إلى الأتـراك «حرب مقدسـة». حرَّكت السلطـات التركية الكره العميـق عند الشعوب المسلمـة كي يتمموا مخططهم باستئصـال الدولة الأرمنية. كما أننـا نجد هذه البغضـاء متجذرة بعمق في الأحكام الدينية خـلال الحرب التي جرت في يوغسلافيـا السابقـة بـين الصـرب والبوسنياك.

العنصرية هي بالتأكيد جزء هام من هذه الأحكام السلفية التي تقود إلى تجريد العدو من إنسانيته. فحالة ألمانيا النازية مثال واضح يبـين كيف أن حكماً سلفياً مدنياً (مناهضة السامية)[9] قد تم تنشيطه ليؤدي إلى القتل الجماعي. وقـد أورد غولدهاغن في كتابه شهـادة لرجل ألماني عضـو في كتيبة شرطة شارحـاً فيها: «لم يكن اليهـود بالنسبة إلينا كائنات بشرية، بل مجـرد كيانات بيولوجية كانت تهدد العالم وكان ينبغي إزالتها».

نعـود ونجد هذا الوصـف، أي تجريد العدو من إنسانيتـه، في حرب راوندا. لقد صرَّح قاتل من الهوتو واسمه إيلي نغارامبه[10] قائـلاً: «لو كنـا نعتقد بـأنَّ التوتسي كانوا كائنات بشرية لما قتلناهـم!» وأضاف «هذا المعتقد الذي يجرد الآخر من إنسانيته أدى إلى إفسـاد الفكر والروح وإلى قساوة القلب وإلى التصرف بعنـف وغضب تجاه شخص يترجى أن تبقيه على قيد الحياة».

- ونتساءل هـل يوجد هناك أمثلة على أشخاص رفضوا القتل في حالة الهولوكوست وحالة مذبحة التوتسي في راوندا؟

نعـم بـكل تأكيـد، هنـاك العديد من الأمثلة. لنأخذ مثـال ألمانيا النازية، يمكننا ملاحظة أنَّه في البلاد المحتلة لم يجد الألمان

على الدوام دعماً من المجتمع لمساندة مشروعهم الإبادي. لقد شوهدت هذه الحالات المقاومة للألمان في الدانمارك على وجه الخصوص، وفي فرنسا لكن بطريقة أكثر تنوعاً واختلافاً.

لم تكن هذه الحالات رهناً بدرجة شدة قساوة الاحتلال الألماني، بل بدرجة انتشار وطبيعة مناهضة السامية المحلية نفسها. ففي ألمانيا نفسها، ليس لدينا أي مثال لحالة ألماني أرسل إلى السجن أو إلى المعتقلات أو تم إعدامه لأنّه رفض قتل اليهود، وهذه حقيقة تاريخية. الذين لم يشعروا بأنّهم قادرون على القيام بهذه المهمات كان يتم تحويلهم بكل بساطة إلى وظائف أخرى. غير أنّ الغالبية العظمى اختارت أن تقتل اليهود. طبعاً لم يكن باستطاعة احدالرفض ومعاملة النازيين على أنّهم مجرمون، أو نعت هتلر على أنّه قاتل، إنما كان باستطاعتهم فقط القول أنه بالنسبة إليهم كانت المهمة قاسية جداً وتفوق مقدرتهم وطاقتهم على القيام بها...

في راوندا، كانت الأمور أقل تنظيماً. لكن عندما يتم دفع ضريبة يومية لقادة البعثات، كان يتم الإعفاء من المشاركة بالقتل. كذلك الأمر بالنسبة إلى الحالة التي كانت تتم فيها الملاحقات في الأحراج، لا أحد كان يذهب للتحقق ممّا كانوا يقومون به...

- نأتي الآن على ذكر القادة. هل هم مسؤولون عن المذابح الجماعية؟

ينبغي أن يكون هناك حركة سياسية أو إرادة دولة لإطلاق حملات المذابح. لا يستيقظ الناس في صبيحة ذات يوم ويقررون الذهاب لإبادة ألوف البشر. لكن ما نلاحظه، هو أنه عندما تقر دولة ما برنامجاً للإبادة ضد مجموعة ما تكون موضع كره أو موضع أحكام سلفية عرقية من قبل السكان، يصبح الموضوع سهلاً جداً سواء في إثارته أو في تطبيقه وسيرورته.

مهما يكن من أمر حجج القادة (التي تستند غالباً إلى خيار سياسي منطقي: اكتساب أراضي أو سلطة)، يظل دورهم بكل تأكيد أساسياً وحاسماً. إنه بأمر أو بتشجيع من سلطة ما تحتدم الكراهيات وتتفلت الغرائز وتنطلق المذابح، مانحة القتلة شعوراً بالرضا عما يفعلون وبالإفلات من القصاص.

لكن الموضوع ليس كما يتم عرضه غالباً عن السلطة، أو عن ضغوط تمارس من قبلها. القادة لا يستطيعون الحصول على التزام طوعي من قبل أتباعهم إلا بشرط أن يكون هؤلاء مستعدين للقيام به. كانت هذه حالة محمد طلعت والأتراك، وحالة هتلر والألمان، وحالة سلوبودان ميلوسيفيتش والصرب، وحالة قادة الهوتو وشعب الهوتو.

إذا كانت المعتقدات القتّالة الإجرامية موجودة، عندها لن يكون القادة سوى محرِّك لنقل المشاعر والنوايا الشعبية.

إنّه من الهام جدّاً الإشارة إلى هذا البعد السياسي للإبادات، كي نتجنب حصول مثل هذه المذابح في المستقبل.

– هناك ملايين من البشر كانوا ضحايا المذابح الجماعية في القرن العشرين. كيف يمكننا وضع حد لها؟ هل يمكننا ملاحظة تقدم ما في السياسة الدولية؟ هل لدينا مؤشرات تعطينا قبساً من الأمل في القرن الواحد والعشرين؟

في عام ١٩٩٤م، في راوندا، شهدنا مذبحة راح ضحيتها مليون توتسي. عندما بدأ الهوتو عملياتهم في القتل، كانت إدارة كلنتون، والحكومات الأوروبية والأفريقية، والأمم المتحدة تعرف فوراً وبالتحديد ما كان الهوتو يفعلون. راوندا هي أحد البلدان الأفقر في العالم، كان المجرمون يقتلونهم بضربات السواطير والعصي، وكان إيقافهم من السهولة بمكان ...

على الرغم من ذلك يعتقد غولدهاغن أنه لو حصلت مثل هذه المجزرة اليوم، سيكون هناك صحوة للضمير أكبر بكثير من السابق وسيكون هناك تدخلات.

يبدو وكأن هناك إحساساً أكبر بالمسؤولية قد بزغ في المجتمع الدولي منذ عشرين عاماً تقريباً، وفي البلدان الغربية بشكل رئيسي. الحديث هنا ليس عن الحروب الأهلية التي تتقاتل فيها مجموعتان متعاديتان، لأنَّ الموقف في هذه الحالة هو أكثر تعقيداً، وإنّما الحديث هو عن الإبادات الجماعية المنهجية حيث تقتل النساء والأطفال والرجال بأشنع الطرق، وفي قرية بعد قرية ومنطقة بعد أخرى.

يعتقد المؤرخ غولدهاغن أيضاً أنَّ إقامة المحكمة الدولية كان لها تأثير لشي القادة الذين تخول لهم نفوسهم إثارة مجازر جماعية. هناك إذاً خطوات إلى الأمام وتقدم نحو الأفضل، هذا أكيد، لكنها لاتزال غير كافية على الإطلاق.

من الأسباب التي تجعلنا نتأمل، هي في النشر السريع للمعلومات على المستوى العالمي بفضل الأقمار الصناعية وكل وسائل الاتصالات الحديثة التي تذيع الخبر بشكل فوري تقريباً.

لكن ينبغي الاستمرار بالضغط للتحرك حالما يظهر تهديد ما بأنّ هناك مذبحة ستشهد النور... كل البلاد المتقدمة عندها

مقدرة على الضغط والنفوذ ومن مسؤوليتهم ألا يتكرر هذا التاريخ المظلم من القرن العشرين.

- يعلم السيد غولدهاغن أنَّ كتبه ليست على الدوام مرحَّباً بها. قد يلومونه على مفهومه الواسع لما يسميه «إبادة» أو «قتل جماعي».

بالنسبة إليه، يرى أن من واجبه الإشارة إلى هذه الحقائق حتى لو أنّها قد تكون مزعجة بالنسبة إلى الكثيرين. كتابه السابق حول مسؤولية الألمان في الهولوكوست، قد أزعج الكثيرين لأنّه كشف النقاب عن فترة غير مجيدة من التاريخ الألماني وعن موقف وتصرف الشعب. لكن قد تم قبوله الآن بشكل جيد من قبل الاختصاصيين.

هناك العديد من الأمريكيين قد صُدموا لأنَّه في كتابه الأخير ذكر بأنَّ الرئيس ترومان هو جزار جماعي. أن تقذف بقنبلتين ذريتين على اليابان هو بالنسبة للمؤرخ عملية إبادة جماعية. فهو، أي ترومان، كان يعلم مسبقاً ماذا سيحصل، أي سيتسبب بموت ألوف من السكان المدنيين، من شيوخ وأطفال ليس لهم أية علاقة بالحرب.

فوفق هذا المؤرخ، ينبغي أن ننظر إلى هذه الحقائق ونضعها نصب أعيننا إن نحن أردنا يوماً ما أن نساهم في منع حدوث مجازر جماعية.

تبقى المجتمعات المدنية اللاعنفية حائرة وقلقة وتتساءل يائسة كيف يمكن وضع حد للعنف وكيف يمكن وصل الخيوط التي تربط أعضاء المجتمع البشري مع بعضهم بعضاً؟

هل يمكن إبعاد الصراع عن العنف وحصره بوسائل وآليات تتيح للمتنازعين أن يعبِّروا عن أنفسهم ضمن حدود احترام الآخر؟ هذا ما فعلته الإلهة «آتينا» عندما أسَّست العدالة. لكن الإلهة ذهبت إلى أبعد من ذلك: لقد توصلت إلى تحويل القدرة المدمِّرة للشرِّيرين إلى قوة بناءة ساهمت في ازدهار المدينة[11].

الهوامش

١- لوران موشيلي Laurent Mucchielli، العنف Violence : de quoi parle-t-on ? العلوم الإنسانية، العدد ٢٤٧، نيسان ٢٠١٣م.

٢- كزافييه دولا فيغا Xavier De La Vega، نزع فتيل العنف Rompre la chaîne de la violence مجلة العلوم الإنسانية العدد الاستثنائي رقم ٤٧ لشهر كانون الثاني – شباط ٢٠٠٥م.

٣- العنف: مفارقات عالم قد هدأ: Violence : les paradoxes d'un monde pacifié، عن مقالة

صـدرت في العدد الشـهري رقم ٢٤٧ من مجلة العلوم الإنسانية لشهر نيسـان ٢٠١٣م. للكاتبة الفرنسية مارتين فورنييهMartine Fournier.

٤- «كيـف نفهـم المذابح» - عبر أسـئلة موجهـة إلى الباحث دانييـل جونا غولدهاغـن Daniel Jonah Goldhagen، جمع وتقديم مارتين فورنييه Martine Fournier ومارتا زوبر Martha Zuber عن مجلة العلوم الإنسانية العدد الشهري ٢٤٧ - نيسان ٢٠١٣م.

٥- Daniel Jonah Goldhagen - دانييـل جونا غولدهاغن: مؤرخ أمريكي، اختصاصـي بالمحرقة، نشر العديد من الكتب التي تبحث في مجازر القرن العشرين.

6- Pire que la guerre. Massacres et génocides au XXe siècle,Fayard.

7- les mecanismes: إواليات

8- Harry Truman

٩- عن كتاب مناهضـة السـامية، تاريخها وأسبابها - لبرنار لازار: ينبغي البحث عن أسباب مناهضة السامية الإلغائية التي هي ليسـت إلا رد فعل طبيعي لموقف اليهود من غـير اليهود. فمنذ العصر الروماني، كانت اليهودية تحتوي على شكلية ضيقة وتعصب مطلق ومحتقر للأجنبي، وذلك وفق أرنست رينان. أما فلافيوس جوزيـف وهو مؤرخ من القرن الأول الميلادي وحَـبْرٌ في الشريعة، فيقول: «نحن لانتشرح لمعاشرة الأجانب»، لأنه عندما يلامس اليهودي أجنبياً فهو قد تلوّث وينبغي عليه أن يستحّم. ووفق فرانسيس سميث، دنس غير اليهودي معادل لدنس الزواحف. ووفق ابن ميمون: غير اليهودي هو في درجة أدنى من اليهودي لأنه لايملك روحاً إلهية أي إنه كائن غيرعاقل تحركه رغبات جسـده فقط. ينبغي إذاً التوجه بالدراسة توجهًا تاريخيًا صرفاً يتعلق بالمعنى الحرفي للنصوص التي تصنع الضمائر الدينية اليهودية وغير اليهودية وأثرها المشؤوم على العلاقات التاريخية لليهودي مع غير اليهودي، وللمذاهب كافة في العالم قاطبة.

10- ÉlieNgarambe

١١- Xavier De La Vega كزافييه دو لا فيغا ٢٠٠٥م

اقتصاديات تعلم اللغات

د. نزار عبد الله ✲

قيل سابقا: كل لسان بإنسان! كان العرب يفدون الأسير مقابل تعليمه ١٠ من العرب لغته أو حرفته!

إنه من الرشيد تعلم اللغات قديمها وحديثها، خاصة الكتابات القديمة كالمسمارية والأكادية والبابلية والسريانية إلخ. لأن تراثنا القديم جداً لا يزال الكثير منه مخبأً تحت الأرض يحتاج إلى من ينقب عنه من العرب



MS 577
Syriac Serta book script Mt Sinai, Egypt, ca. 11th c.

✲ كاتب وباحث في الاقتصاد

وينقله إلى العربية الفصحى، إضافة إلى الكتابات القديمة الأخرى كالسنسكريتية والهيروغليفية وغيرها. من الرشيد تعلم جميع اللغات الحية كلها، فلكل شعب ولكل لغة إسهام حضاري فريد مهما كان عدد أبناء هذا الشعب صغيراً. تستطيع الدول الغنية أن تنفق الكثير على البحث العلمي، فتتميز بإسهام مهم في مجال العلوم التي أنفقت على البحث العلمي فيها. أمّا في مجال الشعر والقصة والرواية والموسيقى وشتى فروع الأدب والثقافة تبدع كل أمة ويبدع كل شعب بأسلوبه الخاص فيساهم بإغناء التراث الإنساني. إن لغة كل أمة تعبر عن هويتها القومية وهي نتاج تراكم أجيال وأجيال عبر مئات و آلاف السنين. عمد الغزاة الأوروبيون عند استعمارهم دولا وشعوباً أخرى إلى محو لغات تلك الشعوب والأمم بقصد إحكام هيمنتهم عليها مثل ما فعل المستعمرون الإسبان في أمريكا الجنوبية ونجحوا في ذلك فدمروا تراثا إنسانيا لا يعوض. وفرضوا لغتهم بالقوة على السكان.

كذلك حاول المستعمرون الإنكليز والفرنسيون فرض لغتهم على الأمم والشعوب التي استعمروها، فهيمنت اللغتان الإنكليزية والفرنسية على مساحات شاسعة في أفريقيا وآسيا وكندا وأستراليا بقوة السلاح والبطش. بعد انحسار الاستعمار التقليدي، الذي حل بعده الاستعمار الحديث ليتابع فرض لغاته على باقي الشعوب إلى وقتنا هذا. وحتى الآن لا يزال التلاميذ والطلاب في وطننا العربي مجبرين كما كان الأمر في سني الاحتلال على تعلم لغات المستعمرين الانكليز والفرنسيين حصراً، فإلى متى يستمر هذا الأمر؟ وتفاقم الأمر فأصبحت جامعات ومعاهد تدرس في وطننا العربي بلغات المستعمرين عوضا عن اللغة العربية واستشرى ذلك كالوباء تحت ذرائع واهية مثل اللغة العربية غير قادرة على استيعاب العلوم الحديثة. هذه اللغة الحية التي يفهم أبناء اليوم ما قيل قبل أكثر من الآف السنين، كان هنالك لهجات واللغة لم تتغير.

وفي وطننا العربي نشأت اللغة المسمارية ونشأت في أوغاريت أول أبجدية في العالم قبل زمان طويل! وقد أخذت لغات كثيرة من اللغة العربية لأن وطننا كان مهد الحضارات. اللغة العربية اشتقاقية تستطيع توليد كلمات جديدة كلما دعت الضرورة إلى ذلك وهي تستطيع نقل شتى المصطلحات التي تستجد، عندما تقرر الجهات المعنية ذلك برصد الميزانيات المناسبة في الوقت المناسب. ليس العيب في اللغة العربية، بل في أصحاب القرار في هذا الشأن. يكرس هذا

الوضع الهيمنة الثقافية للغزاة المستعمرين على وطننا العربي. يزعم هؤلاء أنَّ دولاً مثل بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا هي دول عظمى. كان ذلك حتى الحرب العالمية الثانية، بيد أن دولاب الزمن قد دار، فتجمعت هذه الدول العظمى السابقة مع أكثر من ٢٠ دولة أخرى مشكلة الاتحاد الأوروبي، لتستطيع أن تقف على قدميها أمام العمالقة الجدد الولايات المتحدة الأمريكية واليابان والآن الصين والهند اللتين تتطوران بوتائر عالية يقارب معدل النمو الاقتصادي فيهما ١٠ ٪ سنويا ومنذ أكثر من عقد، في حين تعاني الولايات المتحدة الأمريكية من أزمة اقتصادية هائلة تذكر بأزمة الكساد الاقتصادي الكبير عام ١٩٢٩ الذي حل بالدول الرأسمالية.

يتوقع البعض أن تحاذي الصين الولايات المتحدة الأمريكية اقتصاديا قبل عام ٢٠٢٥ وقد تتقسم الولايات المتحدة الأمريكية إلى أكثر من دولة كما يتوقع بعض المفكرين فالشمال الغني يريد الانفصال عن الجنوب الفقير فيها.

لقد أنفق الاتحاد السوفييتي السابق الكثير على العلم، مما يؤهل اللغة الروسية كي تكون مطلبا للعلماء وكذلك اليابانية والهندية وغيرها الكثير. لقد أفل نجم اللغة الإيطالية والفرنسية وغيرها، واللغة الإنكليزية كان نجمها قد أفل لولا الولايات المتحدة الأمريكية الإمبراطورية التي نمت قبيل الحرب العالمية الثانية وحتى الآن هي مهددة بالأفول كغيرها من الإمبراطوريات وها هي تخسر حروبها الاستعمارية في العراق ولبنان وأفغانستان وهي أكبر دولة مدينة في العالم دينا خارجيا ودينا داخليا ومنها بدأت أخطر أزمة مالية تنبئ عن أزمة اقتصادية بنيوية قادمة. ولكن إلى متى تظل الإمبراطورية الأمريكية مزدهرة؟ متى يأفل نجمها ؟

يقتضي الرشاد الاقتصادي أن نتوقع تطور العالم خلال العقود القادمة، عندما نخطط لأية لغات أجنبية نعلم تلاميذنا وطلابنا، ينبغي أن نخطط لعقود قادمة. التخطيط الساكن مميت لينبغي أن يكون التخطيط حركيا يراعي التغيرات المستقبلية المحتملة والمتوقعة. ينبغي علينا أن نستشف المستقبل لنعرف أية لغات ستكون لها الريادة العلمية. اللغة الفرنسية مثلا تلفظ أنفاسها وكذلك الإيطالية والإسبانية وكم غيرها من اللغات؟ اللغة العربية قادمة بقوة مع تحرر الوطن العربي وانتصار حركة التحرر العربية وتوحد الأقطار العربية في دولة واحدة، تصبح عالمية!

انطلاقا من توقعنا لتطور العالم، ينبغي أن نخطط لتعليم تلاميذنا وطلابنا اللغات

الأجنبية ، التي ينبغي أن نخيرهم بينها. باقة واسعة من اللغات الحية وليس لغات المستعمرين حصرا! وذلك تبعا للأهمية النسبية المتوقعة لكل لغة وأمة ودولة! لا يجوز أن نلزم التلاميذ والطلاب بلغة أو بلغات معينة، بل نخيرهم بين باقة واسعة من اللغات، موزعة على القارات الآسيوية والأفريقية أولا، فالوطن العربي يتوزع بين هاتين القارتين، ثم القارات الأخرى.ينبغي أن نخطط لتلاقي الثقافات واللغات بين شعوب وأمم القارتين الآسيوية والأفريقية. فرنسا التي غزت أجزاء عديدة من الوطن العربي واستعمرت مصر والجزائر والمغرب وتونس وجيبوتي وموريتانيا وسورية ولبنان و عاثت فيها فسادا وتقتيلا ونهبا لثرواتها الاقتصادية والثقافية وارتكبت جرائم بشعة، فقتلت أكثر من ٤٥ ألف عربي في الجزائر عند انتهاء الحرب العالمية الثانية ، لأنهم طالبوا باستقلال الجزائر. وارتكبت مذبحة كبيرة في فرنسا ضد العرب الجزائريين الذين تظاهروا تأييدا لإخوتهم في الجزائر. فرنسا الهمجية التي ارتكبت مئات المجازر في إفريقيا العربية وغير العربية عندما استعمرتها (لمزيد من التفصيل: أنظر الكتاب الأسود للرأسمالية - دمشق- دار الطليعة) فرنسا ديغول التي أنشأت أول كلية للأمازيغية في باريس إبان استقلال الجزائر بقصد تفتيت وحدة البلاد والأمة كي تفرق بين العرب والأمازيغ، الذين هم عرب أيضا قدموا الجزائر والمغرب في هجرات سابقة. وقد بين عثمان سعدي سفير الجزائر سابقا في بغداد ودمشق وهو من أصل أمازيغي في قاموس جمعه للغة الأمازيغية أن قرابة ٩٠٪ من مفرداتها من أصول عربية. فرنسا شيراك الذي طلب من «المرت» في تموز ٢٠٠٦ اجتياح سورية بعد انتصاره على حزب الله في لبنان. فرنسا «ساركوزي» الذي أعلن أنه لن يصافح من لا يؤيد الكيان الصهيوني.

أمّا بالنسبة للغات والكتابات القديمة، فينبغي أن يتعلمها التلاميذ والطلاب العرب، لأهميتها الفائقة في قراءة التراث القديم. في هذا المجال يقتضي الرشاد الاقتصادي والأمن القومي العربي ، أن نخطط لتشييد جامعات عديدة وكليات تدرس اللغات القديمة والتاريخ القديم والفن المعماري القديم وشتى العلوم المتعلقة بالآثار ، لفك طلاسم اللقى الأثرية والكتابات والنقوش القديمة لمعرفة تاريخنا الموغل في القدم، بحيث نتولى نحن العرب حصرا فهمه وصياغته وكتابته. نمنع جميع فرق التنقيب الأجنبية عن الآثار، حفاظا عليها من النهب والتزوير والتدمير. يكون التنقيب والترميم والتحليل حصرا على العرب .

لقد ظل المستعمرون الأوروبيون والأمريكان ينهبون الآثار ويدمرونها ويوظفونها على هواهم السياسي والثقافي في زهاء قرنين من الزمان. المتاحف في أوروبة وأمريكا مليئة بالمسروقات من آثارنا وكذلك الكثير من البيوت الخاصة . ينبغي أن يتوقف النهب والتدمير والتزوير.

ينبغي انطلاقا من خطة بعيدة المدى الربط بين الأهداف الاقتصادية والتعليم. وتبيان حاجة القطاعات الاقتصادية المختلفة من زراعة وصناعة وتشييد وغيرها واقتصاد المعرفة من فنيين وعمال ومهندسين وخبراء الخ. للتوافق بين الطلب والعرض وليس العكس. يقتضي الرشاد الاقتصادي تأهيل قوة العمل لمهن واختصاصات ستكون مطلوبة في المستقبل. لا يتم ذلك مع الأسف الشديد حتى الآن، لذلك تتفاقم مشكلة البطالة البنيوية عاما بعد عام بين القادرين على العمل والذين تصل نسبتهم إلى ٥٠ ٪ في الوطن العربي. وهذه كارثة اقتصادية واجتماعية!

ماذا سيفعل الخريجون بمعارفهم باللغات الأجنبية بعد التخرج؟ هنالك مردود ثقافي من تعلم أية لغة أجنبية، لأنه يسمح بالمطالعة في هذه اللغة والاطلاع على علومها وآدابها. لكن المردود الاقتصادي مهم جداً، فأية مهنة سيمارس؟عندما نتابع أعداد الذين يدرسون الأدب الفرنسي والأدب الإنكليزي في الوطن العربي، سنجد أرقاما كبيرة جداً تعد بمئات الآلاف! فماذا سيعمل هؤلاء؟ إننا نخرج عاطلين عن العمل، لماذا نفعل ذلك؟ أليس ذلك تبديدا للموارد البشرية والاقتصادية؟

ذكر السفير الفرنسي في سورية أن عدد مدرّسي اللغة الفرنسية في سورية ٧٠٠٠ . أكان ذلك ممكننا لولا قسر تعلم الفرنسية؟ و كأن سورية لا تزال تحت الانتداب! ما أزال أذكر كيف كنَّا نعاقب في المدرسة عندما كنا نتفوه بكلمة عربية واحدة، حتى في الفرصة. كان الجواسيس يسجلون أسماء التلاميذ الذين استخدموا في تخاطبهم لغة أخرى غير الفرنسية!

ستتحرر الأمة العربية قريبا وتتوحد في دولة واحدة، تصبح دولة عظمى في الأفق المنظور، لما تملكه من موارد بشرية وتراث حضاري عريق وموارد اقتصادية وفيرة(ثمة دراسة ستصدر قريبا تحمل هذا العنوان). ينبغي أن نعمل منذ الآن آخذين ذلك في الاعتبار، فنبني علاقات ثقافية واقتصادية مع جميع دول العالم. يتطلب ذلك أن نتعلم جميع لغات الأرض والتي تنوف على المئات. هنالك أكثر من ٢٠٠ دولة في الأمم المتحدة، والعديد منها تتكلم أكثر من لغة. ينبغي أن ندرس آداب وعلوم وثقافة واقتصاد وسياسة كل دولة وشعب دون استثناء وأن نترجم بعض

ما عنده من كتب ودراسات وأن نترجم إلى لغته بعضا من كتبنا العربية نعرف عبرها بحضارتنا واهتماماتنا المختلفة الثقافية والاقتصادية والسياسية كي يتشكل حوار خلاق مستمر بيننا وبينها.

ينبغي أن ننشر لغتنا العربية في جميع الدول، مبتدئين بجيراننا وبالدول الإسلامية والدول النامية في أفريقيا وآسيا وبالدول النامية في أمريكا الجنوبية وكذلك في الدول الأخرى في أوروبة وشمال أمريكا إلخ. وخاصة للمغتربين في بلدان الاغتراب وبإحياء العلاقة مع المغتربين العرب والذين يزيد عددهم على ١٠٠ مليون وينتشرون في شتى أصقاع المعمورة. لكي نجني من ذلك فوائد كثيرة، منها أن نفهم بشكل أفضل حضارات الشعوب الأخرى بكل مكوناتها، فنبني علاقاتنا معها بناء على تلك المعرفة وأن نعرف الآخرين بحضارتنا واقتصادنا و خططنا للغد فنتعاون بما يحقق المصالح المشتركة. هذا ما تفعله الدول المتحررة. إننا نتعرف على جزء يسير من حضارات الشعوب الأخرى عن طريق ترجمات لما ينشر في الدول الاستعمارية التي تسيطر على موارد الكثير غيرها من الدول والشعوب وتترجم وتدرس انطلاقا من مصالحها الاستعمارية. لذلك فهمنا لما يجري في الدول الأخرى قاصر جداً. ينبغي أن نوفر سيلا متدفقا من المعارف عن كل الدول والشعوب بشكل موضوعي وحديث معتمدين على كتاب وباحثين ودارسين عرب نمول أبحاثهم وننشرها ونقيمها ونبني عليها سياساتنا الثقافية والاقتصادية وغيرها. هذه أولى خطوات التحرر والاستقلال، أن نرى الأمور بمنظارنا لا بمنظار الدول الاستعمارية.

نتبادل التجارة الخارجية مع دول كثيرة، بيد أن الاستيراد يتركز على الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية واليابان وروسيا والصين وتبلغ التجارة البينية حول ١١٪ من إجمالي تبادلنا التجاري مع العالم وحجم الاستيراد والتصدير معا بلغ حول ١٣٣٠ مليار دولار عام ٢٠٠٩. أما صادراتنا فتتوزع على عدد قليل من الدول. يقتضي الرشاد الاقتصادي أن تتوزع صادراتنا ووارداتنا على جميع دول الأرض. وهذا ما سيحصل في المستقبل مع تحرر الوطن العربي وتوحده وتغيير تقسيم العمل الدولي الذي فرضه الغرب المستعمر. لا تزال صادراتنا في معظمها مواد خام من نفط وغاز وقطن وحديد وفوسفات إلخ. ينبغي أن تتحول الصادرات إلى سلع مصنعه بين سلع رأسمالية(وسائل الإنتاج) وسلع جاهزة للاستهلاك. وأن تشمل جميع دول العالم، انطلاقا من المصالح المشتركة المتشابكة المتغيرة والتعاون العلمي والتقني

والاقتصـادي والسياسـي والثقـافي الخ. سـتتحرر الدول النامية الأخرى من الهيمنة الغربية الاستعمارية الاقتصادية والسياسية والثقافية و شـتى أشكال الاستعمار القديم والحديث وأسـاليبه الماكـرة الخبيثـة، وستتصرف انطلاقا من مصالحها، فتصبح الفرصـة لتعاون مثمر معها متاحة في شتى المجالات. وحتـى نسـتطيع أن نفعل ذلك، ينبغي أن نتعلم لغات جميع الدول والشعوب بلا استثناء. نتيح الفرصة للتلاميذ والطلاب باختيار اللغات التي يرغبون ، نسـاعدهم في هـذا الاختيار ولا نجبرهم ونعرفهم بكل دولة وبلغتها وأهميتها الثقافية والاقتصادية والسياسـية ونوضـح لهم أية مزايا نسبية يحصـلون عليها عند إتقان هذه اللغة وأية فرص عمل محتملة مثـل الترجمة والعمل في شـركات عربية صـناعية مثلا تتعامل مع هذه الدولة وتحتاج لمختصيـن في لغتها واقتصادها وحضارتها إلخ. نعد العدة منذ الآن لتأهيل الأساتذة في هذه اللغات، انطلاقا من خطة بعيدة المدى، لأن ذلك يستغرق زمنا. بوسـعنا أن نبدأ بلغات الدول الإسـلامية المجـاورة في آسـيا كالإيرانيـة والتركيـة والماليزية والإندونيسية إلخ. وببعض اللغات الإفريقية المجاورة مثل تشاد والنيجر ومالي والسـنغال. بلغ عدد سـكان الوطن العربي قرابة ٣٥٠ مليون نسمة نهاية ٢٠١٠، أي إن عدد الطلاب من المرحلة الإعدادية (الصف السـابع) قرابة ٨٠ مليون نسمة. نتصور كم نجنـي من منافع ثقافية واقتصـادية لو أن ١٠٪ منهم تعلم اللغة الصـينية و١٠٪ منهم تعلـم الهنديـة و١٠٪ منهم تعلم الروسـية و١٠٪ منهم تعلم اليابانية وهكذا دواليك!

يبلغ عـدد المواقـع الأثريـة في الوطن العربـي أكثر من ١٠٠ ألـف موقع. ملايين المخطوطات موزعة في شتى الدول من تركيا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية وإيطاليا. تحتاج إلى من يدققها ويحققهـا ويعيـد كتابتها. هنالـك الكثير من الرقـم المكتوبة بالسريانية والسـومرية والأكادية و المسمارية كم عدد العرب الذين يسـتطيعون قراءة المسمارية؟ وهل يتجاوزن اصـابع اليد. ذكر د. نائل حنون أن هنالك أكثر من ٥ مليون رقم مسـماري وغيرها من الرقـم ، تحتاج إلى من ينقلهـا إلى العربية الفصحى. جميع الرقم المكتشفة في «إيبلا» أرسـلت إلى إيطاليـا ولم نحتفظ بها عندنا، لماذا التفريط بهذه الكنوز. ذكرت الصـحف منذ سـنوات عدة ، أن ١٧ مجلداً قد صـدر عنهـا في إيطاليـا، فكم ترجمنـا منها؟ لو تولينـا نحن اسـتقدام المختصيـن بالآثار ودربنا طلابنا على دراسـتها وتقييمها ، كم كنا وفرنا فرص عمل ثمينة؟

بلغ عدد الطلاب في قسم اللغة الإنكليزية

والفرنسية في جامعة حلب عام ٢٠٠١/٢ قرابة ٧آلاف طالب، توزعوا بين الإنكليزية ٥٤١٠ طالبا والفرنسية ١١١٣ طالبا وبلغ عدد الطلاب في قسم اللغة الإنكليزية والفرنسية في جامعة دمشق قرابة ١٤ ألف طالباً بين ١٠٣٦٦ في الإنكليزية و٣٣٩٦ في الفرنسية عام ٢٠٠٢/٣ في حين بلغ عدد طلاب اللغة اليابانية ٣٠ طالبا فقط! هذه الأعداد في القطر العربي السوري فقط، فكم تبلغ في الوطن العربي كله؟ كم عدد الطلاب الذين يتعلمون الصينية والتي أضحت ثاني دولة في العالم من حيث الأهمية الاقتصادية بعد الولايات المتحدة الأمريكية وقد تجاوزت اليابان ومن المتوقع أن تصبح أول دولة في العالم تليها الولايات المتحدة الأمريكية خلال عقد من الزمن. فمتى نبدأ بتعليم اللغة الصينية في المدارس واليابانية والهندية وغيرها من اللغات مثلا، لتحل محل لغات الغزاة المستعمرين.

إنه من الرشيد أن نتوقف عن تدريس لغات الغزاة الفرنسية والإنكليزية والإيطالية في الأقطار العربية التي استعمروها، كما كان يقول المفكر العربي الكبير الأستاذ زكي الأرسوزي مدة ربع قرن من الزمن، كي نقطع شبكة الهيمنة الثقافية الثقيلة لهذه اللغات على مجتمعنا العربي ونتحرر من آثارها الضارة. أي فرصة عمل تنتظر هذه الأعداد الضخمة من خريجي الآداب الإنكليزية والفرنسية؟ وهل هذه الآداب بهذه الأهمية حتى نبدد طاقة ووقت هذه الأعداد الكبيرة من شبابنا على دراستها؟! هنالك آداب شعوب كثيرة جديرة بالاهتمام والمعرفة، فكم نعرف عن ثقافة وآداب الأمة الصينية والهندية اللتين يشكل سكانهما قرابة ٤٠٪ من سكان المعمورة، ناهيك عن وجود علوم ومعارف كثيرة جداً، قصرنا في تحصيلها، ينبغي علينا أن نوجه شبابنا لتعلمها.

قال عثمان سعدي رئيس جمعية الدفاع عن العربية «إن اللوبي الفرانكفوني أنهى مهام الرئيس الشاذلي بن جديد، لأنه وقع قانون تعميم استعمال اللغة العربية، وأنهى مهام الرئيس الأمين زروال، لأنه ألغى تجميد القانون المذكور.» (مقابلة قام بها بوعلام غمراسة مع عثمان سعدي - جريدة الشرق الأوسط عدد تاريخ ٢٠٠٩/١/٣٠) ويتابع عثمان السعدي حديثه ويعتبر الفرنسيون خطا أحمر تعريب ثلاثة ميادين: إدارة الدولة الجزائرية والاقتصاد وتعليم العلم والتقانة بالجامعة.

وعندما صدر قانون تعميم اللغة العربية عن المجلس الشعبي الوطني يوم ٢٧ كانون أول ١٩٩٠ أدلى وزير الفرانكفونية الفرنسي «آلان ديكو» بتصريح معاد للقانون في نفس

اليوم. وشنت الصحافة الفرنسية حملة ضارية عليه. وعندما ألغى الرئيس الأمين زروال تجميد القانون تحرك النواب الفرنسيون في مجلس الشعب الأوروبي، الذي أصدر في تشرين ثاني ١٩٩٧ بيانا بواسطة لجنته الفرعية لحقوق الإنسان جاء فيه أن اللغة العربية التي فرضت على المجتمع الجزائري هي اللغة الفصحى، وهي لغة مصطنعة بعيدة عن المجتمع وعن العربية التي يتكلمها الشارع الجزائري، فالعربية الفصحى فرضت عنوة في التعليم والقضاء، وقد ألحق تعليم الفصحى الضرر بالفكر، ومكن الفكر الأصولي الظلامي الديني من الانتشار، وأدخل الحركة الإسلامية إلى البلاد. وفي عهد بوتفليقة بدأ التآمر على المدرسة الوطنية التي تعتبر قلعة اللغة العربية، فصدر قرار بتقديم تدريس اللغة الفرنسية من السنة الرابعة إلى السنة الثانية ابتدائي وهو قرار يتنافى مع أبسط القواعد التربوية التي تعمل بها حتى فرنسا والتي ترى أن اللغة الأجنبية ينبغي أن تدرس بعد أن يتمكن الطفل من لغته الوطنية، ففرنسا مثلا تدرس اللغة الأجنبية في السنة السادسة ابتدائي.

أمّا في القطر العربي السوري فتدرس اللغات الأجنبية الإنكليزية منذ الصف الأول والفرنسية منذ الصف السادس . وقد عرب تعليم الرياضيات في الجزائر بالرموز العربية، وفي الأعوام الأخيرة استبدلت الرموز العربية بالرموز الفرنسية تحت شعار الرموز الدولية. وفي القطر العربي السوري حدث الشيء ذاته تحت إطار تطوير المناهج الذي يقف خلفه «خبراء» غربيون. وقد عرضت فرنسا في السبعينيات إقامة جامعة على حسابها في سورية شريطة أن يكون التدريس باللغة الفرنسية، لكن طلبها رفض، بسبب أن الهوية ليست للبيع. و عرضت على جمهورية مصر العربية إقامة جامعة في الإسكندرية شريطة أن يكون التدريس باللغة الفرنسية، وافقت حكومة مبارك على هذا العرض. وحاول مجلس الشعب المغربي إصدار قانون تعميم العربية أسوة بالجزائر ، لكن الملك الحسن الثاني استعمل حق النقض ومنع صدوره. في الوقت الذي تعفي فيه فرنسا من الخدمة العسكرية الإلزامية كل أستاذ يدرس الفرنسية في المستعمرات السابقة في إفريقيا، خاصة الجزائر والمغرب. وقد قال عميد كلية جراحة الأسنان في باريس: إن معهدي يستقبل الطلبة من سائر أنحاء الوطن العربي، وأفضل طلبة يستوعبون العلم هم الآتون من الجامعات السورية، ويعود السبب في ذلك لدراستهم الطب باللغة الأم.

في عهد محمد علي الألباني كان العلم

والثقافة يدرسان بالعربية واحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ وتولى اللورد كرومر التعليم في مصر مدة ربع قرن فجعل التعليم حسب مشيئة المستعمر بالإنكليزية في كليات العلم والثقافة. في «مشروع إسرائيل» يتم تدريس سائر المواد بما في ذلك العلوم النووية، منذ إقامته على أرض فلسطين العربية عام ١٩٤٨م باللغة العبرية الميتة!

تعتبر شهادات ومخططات القناصل الفرنسيين في القرن التاسع عشر حول دور مدارس الإرساليات التبشيرية التي أقامتها فرنسا «العلمانية» في المشرق العربي أنها تصنع «فتحا بوساطة اللغة على الشعب وتخلق جيشا يتفانى في خدمة فرنسا»! وبعبارة «بول موفلان» -أحد كبار اليسوعيين-: «فإن تعليم الناس لغتنا (الفرنسية) لا يعني مجرد أن تألف ألسنتهم وآذانهم الصوت الفرنسي، بل إنه يعني فتح عقولهم وقلوبهم على الأفكار والعواطف الفرنسية، حتى نجعل منهم فرنسيين من زاوية ما.. إنَّ هذه السياسة تؤدي إلى فتح بلد بوساطة اللغة»!.. وفي مذكرة كتبها القنصل الفرنسي «دي لتينو» - في ٢٢ كانون الأول سنة ١٨٤٧ م - كانت الصراحة العارية، التي جعلت هذا القنصل الفرنسي يقول: «إن الهدف من فرنسة التعليم هو جعل البربرية العربية ؟!! تنحني لا إراديا أمام الحضارة المسيحية الفرنسية»!.. هكذا بدأ تغريب اللغة والثقافة والتعليم في بلادنا..

وهكذا خرجت هذه المدارس أول من نادى بإحلال العامية محل الفصحى-أمين شميل (١٨٢٨-١٨٩٧ م) وأول من نادى بإحلال الداروينية محل نظرية وعقيدة الخلق الإلهي للكون-(شبلي شميل١٨٥٣-١٩١٧م)ومن خريجي هذه المدارس تبلور تيار التغريب والعلمنة الذي يعارض خيار الإسلام في التقدم والنهوض..)

د.محمد عمارة - تغريب اللغة العربية - جريدة المجد- عمان - تاريخ ١٨/٧/٢٠١١ صفحة ٩)

الدولة الاستعمارية العدوة للأمة العربية تبذل كل ما بوسعها لمنع استخدام اللغة العربية في الجزائر والمغرب وتونس و تشوه صورة العرب والإسلام والمسلمين في أدبياتها ونحن نجبر تلاميذنا على تعلم لغتها وآدابها! أية مفارقة هذه؟

انعقد منذ السبعينيات ١٤ ملتقى ١٢ منها أوروبية أفريقية واثنان عربيان أفريقيان. وقد حاول أول حاكم لغرب أفريقيا إكساب المدارس القرآنية الطابع الغربي وإدخال اللغة الفرنسية فيها كلفة دراسة منذ ١٨٥٧م، لكن الشعب السنغالي رفض هذه المحاولة وفشلت جميع محاولاتها، فأنشأت مدارس عربية فرنسية في المدن

الكبيرة. أما الإنكليز فأقاموا تعليما انكليزيا صرفا وأهملوا التعليم العربي الإسلامي وتم إهمال اللغات الأفريقية باستثناء السواحلية التي انتشرت كلغة تخاطب أفريقية.

ثمة عوامل دينية علمية واقتصادية وسياسية جعلت اللغة العربية تتطور من لغة دين إلى لغة تخاطب إلى لغة تعامل في الدول الأفريقية التي استعملت الحرف العربي منذ انتشار الإسلام فيها قبل حوالى ثمانية قرون (د. أحمد العابد- تونس-البحث في العلاقات بين اللغة العربية واللغات الإفريقية: واقعه وآفاقه- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (جهاز التعاون الدولي للتربية والثقافة العربية الإسلامية) صفحة/ ١٢٥١٢٤- تونس- ١٩٩٢. المعهد الثقافي الأفريقي-داكار.

كم خسرنا نحن العرب بانغلاقنا وتقوقعنا تحت عباءة لغات الغزاة وحرمنا أنفسنا من الانفتاح المعرفي على لغات باقي شعوب الأرض التي لم تعادنا. كم كانت الحصيلة المعرفية ستكون جليلة لو أننا بدأنا منذ «الاستقلال» غير الناجز تعلم اللغات الأخرى بشكل موسع لكنا رأينا العالم بعيون مفتوحة وليس بأعين الغزاة الأوروبيين والأمريكان. ماذا لو تعلم عشرات ملايين الطلاب العرب اللغة الصينية والروسية والهندية والفارسية وغيرها اليوم وليس غداً! يندر أن تخلو جامعة أجنبية من الطلاب العرب، وهؤلاء ثروة كبيرة، فلنوجههم لخدمة قضايا الأمة العربية انطلاقا من تخطيط علمي بعيد المدى اعتمادا على استشراف المستقبل.

يقتضي الرشاد الاقتصادي والعقلانية أن نلغي احتكار فرض اللغات الانكليزية والفرنسية والإيطالية، وترك الخيار للطلاب في اختيار لغات الشعوب الأخرى الصاعدة كالصينية والهندية واليابانية وغيرها وتوفير الأساتذة والمختصين بلغات جميع شعوب الأرض وآدابها وعلومها وتأسيس المعاهد المختصة والكليات لتعلم لغات شعوب الأرض قاطبة وآدابها واقتصادها وكل ما يتعلق بها، كما تفعل ذلك الكثير من الدول الكبيرة والمقتدرة وتعميمها على كل الجامعات لإحداث تحول جذري وكبير في اقتصاد الثقافة والمعرفة ورصد المبالغ المناسبة لها بكل سخاء، إلى جانب اللغات واللهجات القديمة ليتمكنوا من قراءة الرقم والألواح الطينية والنقوش وشتى الكتابات. وقد ذكر عالم الآثار د. نائل حنون أنّ عدد الرقم المسمارية يزيد على ٥٠٠ مليون، فكم نحتاج إلى أساتذة لتعليم قراءتها و طلاب ودارسين لقراءتها ونقلها إلى العربية؟ وكم نحتاج إلى زمن؟ لا نزال نترك أمر قراءتها وغيرها والتنقيب والترميم والتحليل للأجانب، فأي احترام للتراث الذي لا يقدر بثمن

الـذي خلفه لنا أجدادنـا! إن الثروات التي نهبت ضـخمة جداً والنهب لا يزال مستمرا عبر آليات شـتى، (أحدهـا بعثات التنقيب الأجنبية الأوروبية والأمريكية) تفوق قيمتها الاقتصـادية النهب ، الذي تقوم به شركات النفط الغربيـة والشروط التعسـفية التي تفرضـها الدول الاسـتعمارية على إنتاجه ونقله وتصـنيعه وتسـعيره بأقل من سـعر المياه المعدنية أو الكـولا. الثروات الآثارية، التـي لا تزال تحت الأرض كبيرة جدا. كم نخلق فرص عمل وفيرة للمبدعين من كتاب وروائيين وموسـيقيين ومخرجين ومترجمين وغيرهم ونتعرف على حضـارات كل شعوب الأرض ونعرفهم بحضارتنا مباشرة، عندما نطور إنتاجنا السـينمائي من أفلام الرسوم المتحركة والوثائقية والعادية والمسلسـلات والتي نعدها لتكون ناطقة بلغات الشـعوب التي نصدرها إليها عوضا عن ترجمتها إلى الإنكليزية والفرنسـية. وعندما نستوردها نجعلهـا ناطقـة باللغة العربيـة، كما تفعل الدول المسـتقلة. ينبغي وضـع خطة بعيدة المدى للترجمة من اللغـات الأجنبية وإليها فيهـا حصـص للغـات العالم كلـه وتأهيل المترجمـين لتلك المهمة الجليلة حضـاريتا، ولها فوق ذلك مردود اقتصـادي وسياسـي كبير جداً.

نكـون بهـذا وظفنـا اقتصـاد المعرفة كخطـوة أولى في خدمة التحرر والنهضـة العلمية والاقتصادية العربية.

الآلات النانوية
جاهزة لثورة الصناعة الحديثة

ترجمة: محمد الدنيا ✪

آلات نانويــة تجــري، وترفــع، وتضغط، وتلــوي.... كالأدوات الآلية الأخرى، سوى أن هذه الآلات النانوية، التي هي وليدة الكيمياء، تعمــل بالجزء من المليار مــن المتر! هنا، بهذا المستوى الجزيئي، يخضع العالم لقوانين أخرى وينبثق العمل من المادة مباشرة.

الحركات التي تقوم بها هذه الآلات بسيطة للغاية. إحداها قادرة على نقل الأشياء بوساطة عجلاتهــا الأربعة المتحركة؛ ويمكن لأخرى أن ترفعها على صفيحة رافعة؛ وتستطيع الثالثة أن تضغطها بين فكيهــا؛ وتتمكن الرابعة من ليّها بوساطة ملاقطها؛ وليست الأخيرة سوى محرك يدور ١٠٠ دورة/ الثانية. إنّها الأعمال الميكانيكيــة نفسهــا الموجــودة على خطوط صناعــة المعامل الحديثــة، أو تلك التي كانت تــرجّ الأرض تحــت الآلات البخاريــة الأولى فيما مضــى. وإن لم تكن هــذه الآلات عادية فذلك بسبب حجمها: ابتُكرت خلال السنوات الأخيــرة واختُــبر عملهــا المتقــن في أفضل مختــبرات الفيزياء والكيميــاء في العالم، وهي أصغر وأدق آلات صنعها الإنسان، ومن المفترض أنّها تستطيع التعامل بشكل مباشر مع الذرات والجزيئات المفردة. إنّها في الواقع أصغر آلات يمكــن أن تصمّم: تتشكل مــن عشرات أو من

✪ كاتب ومترجم سوري.

مئـات الذرات، بحجم بضعـة نانومترات أي بضعـة أجزاء من المليار من المتر، مع مسننات أصغر بمليون مرة من مسننات ساعة اليد!.

ولكن، وبغض النظر عن حجمها، إذا كانت هـذه «الآلات النانويـة» - التي تنشط وتدور بالإلكترونات، والفوتونات أو بتغيرات الحرارة - مهمة إلى هذه الدرجة، فلأنها واعدة بثورة صناعية أكبر جداً من تلك التي أحدثتها حتى الآن الابتكارات السابقة لوسائل إنتاج جديدة: قـدرة على إنتاج ثروات بدقـة هائلة، وتوفير أمثـل في المادة مـع مـردودات كان يستحيل بلوغها حتى الآن بطريقة أخرى...

مضى اثنا عشر عاماً على اقتحام التقانات النانوية المعادلة الصناعية. في الحقيقة، أتاح هذا الميدان، الهادف إلى السيطرة على المادة ذرةً فـذرة، إمكانيـات جديدة لفـروع المواد، والمـواد التجميليـة، والإلكترونيـات بفضل الجسيمات النانوية والألياف النانوية و«نقاط كموميـة» points quantiques (أشباه موصلات) أخرى. إلا أن هذه التقانات النانوية من الجيل الأول، تقتصر على تحسين أداءات المواد والطرق الصناعية. إنه تطور مثير، لكنه لا يشكل ثورة حتى الآن؛ أمّا التأثير فهو واعد بأن يكـون أعمق بكثير مـع الآلات الجزيئية الجديـدة. ذلك أن التقانـات النانوية تصبح هذه المرة تقانات الفعل. تعيد الآلات النانوية، كجدّاتهـا البخارية، ابتـكار جوهر الصناعة ذاته، أي إنهـا سترتقي باستمرار، أكثر فأكثر، بإمكانية القيام بحركات ذات قوة ودقة وسرعة تعزز مهارةَ اليد البشرية وقدرتها.

ستتجـدد هوامـش التقدم كليـاً مع هذه الإمكانيـة المدعوة إلى عـالم يتشكل من ذرات وتحكمه قوانين عجيبة - الميكانيكا الكمومية هـي السائـدة أولاً هنا، ولا تعـود الجاذبية متحكمة. وهكذا، كان عدد من المخابر قد طور نمـاذج أولية من شريـط آلات نانوية يتحرك بمفرده، أو يـدوِّر مولِّداً لإنتاج الكهرباء. لكن الآفاق أوسع من ذلك: مـواد تتنظف وأخرى تلتئـم، ذاتيـاً، وتتكيف مـع الحالـة البيئية بالبرمجـة، مغـيرةً بنيتها وقوامهـا. إنَّ خيال المهندسـين خصب. وفي ميـدان المعلوماتية، سيكون للشريحة الإلكترونية، المكونة من آلات نانويـة، الإمكانية الذاكرية نفسها التي تتمتع بها أفضل الشرائح الحالية (١٢ جيغا أوكتيه) ولكن أرقّ بـ ١٠٠٠٠٠ مرة!.

ميكانيك وليدة الكيمياء

مثـلاً، يوضـح «المكبـس - الروتاكسان» piston - rotaxane (الروتاكسـان جزيء شبيه بثقّالة الرياضيين) جيداً مدى التطورات الهائلة التي أحرزها ميكانيكيو العالم النانوي. وهذه الأداة هي عبارة عن بنية جزيئية مؤلفة من ساق من الذرات تنزلق حوله حلقة، وتعتبر اليـوم من قطع الغيـار العاديـة في «المشغل

النانوي». مع ذلك، عندما صُنعت لأول مرة، عام ١٩٦٧م، لم تكن هذه الطريقة فعالة كثيراً. كانوا يمزجون حلقات - الكانات alcanes حلقية - ومحاور جزيئية - سلاسل متعددة الكربون -، دونما ألفة بين هذه وتلك. ولجعلها تتجمع بعضها مع البعض الآخر، كان يتوجب عليهم تكرار الإجراء الكيميائي ٧٠ مرة، وهو ما كان يستغرق وقتاً طويلاً مع مردود ٦٪ فقط.... بعد ذلك، اكتشف عدد من الكيميائيين حيلاً لإدخال الحلقات بالمحاور بصورة فعالة. واليوم، يستطيع الطلبة الأكثر تدرباً أن ينتجوا، بكميات جيدة، بعض هذه البنى الهندسية «المتشابكة المعقدة، خلال بضع جلسات من ممارسة العمل!»، حسب عبارة فريديريك كوتروfrédéric Coutrot الباحث في «المركز الوطني للبحث العلمي» في مونبلييه بفرنسا.

فمن أجل صنع آلات نانوية، يجب العمل أولاً في الكيمياء، حيث ينبغي حشد الأدوات التقليدية كلها لصنع المسننات النانوية: المُقَطِّرات، وقناني النتروجين، والهليوم السائل، وأدوات السفط والمص، والزجاج، ومصابيح «بونسن»، والمجففات.... وتظهر هذه القطع الميكانيكية، حال الانتهاء من تركيبها من مستحضرات كيميائية، على شكل مسحوق، وبلور، أو مخففة في مادة مذيبة (يظهر المكبس- الروتاكسان الصغير على شكل مسحوق أبيض). تأتي بعد ذلك مرحلة التحقق لأنَّ العين غير كافية لتأكيد أن هذا المنتَج هو المطلوب: تفاعلات كيميائية جديدة تحدد نتيجتُها (اللون أو سواه) وجود الجزيئات المرغوبة، وفصل للمواد الملوّنة في المرحلة الغازية، للتمييز بين مختلف أنماط الجزيئات، وقياس طيف الكتلة وحيود الأشعة السينية لوصف بنيتها الكيميائية....

حماس شديد للاختراع

للتحقق من عمل الآلات النانوية المنجزة، يلتفت ميكانيكيّو النانو بعد ذلك إلى أدوات الفيزيائي (مجهر المفعول النفقي)، وهي الأدوات التي يمكن أن يستفيد منها أيضاً في صنع الجزيئات - الآلات ووصلاتها، ذرة بذرة. «رأس هذه المجاهر هو بمثابة استطالة لـ «إصبع» المهندس الذي «يدغدغ» الجزيءَ، ويحركه بل ويغير فيه أحياناً»، حسب وصف «كريستيان يواكيم» Christian Joachim، مدير «مجموعة العلوم النانوية» في مركز تطوير المواد والدراسات البنيوية (المركز الوطني للبحث العلمي / باريس) والحائز على جائزة Feynman عام ١٩٩٧م و٢٠٠٥ وهي تعادل جائزة نوبل التقانات النانوية.

وبفضل هذا الالتقاء بين الكيمياء والفيزياء، خرجت من المختبرات مجموعة من الآلات النانوية، شيئاً فشيئاً. ونحو

منتصف العقد الماضي، تسارع إيقاع الحماس الشديد للاختراعات: باتت هنالك عشرات من النماذج الأولية لهذه الآلات، التي صمم كل منها وفقاً لتطبيقات معينة في الطب، والكيمياء، والإلكترونيات، وعلوم المواد.... ويبقى على المهندسين أن يتولوا أمر هذه العجائب، لأنّه إن كانت هذه الآلات الجزيئية تعمل وفق رغبات مخترعيها تماماً، فإنّ ذلك يجري ضمن وسط المختبرات المضبوط. إلا أن المقتضيات الصناعية موضوع آخر: صنع كميات بكلفة أقل وعلى نحو منطقي من منتجات ذات مسارات متوقعة، وجاهزة للاستخدام، وتستجيب لطلب قوي محتمل.

هنالك إذاً هوة بين النموذج الأولي والمنتَج النهائي، الذي يجمع وينظم بشكل فعال مليارات إن لم نقل ملايين المليارات من الوحدات. ويجهد الباحثون من أجل ردمها. «ملأنا خزائن المختبرات بالآلات الجزيئية، لكننا لا نعرف ما سيختاره الصناعيون، الذين تختلف متطلباتهم عن متطلبات البحث العلمي»، يلخص «كريستيان يواكيم».

ليست النماذج الأولية التالية المنجزة حتى الآن سوى طليعة، أو إشارة لانطلاقة ثورة صناعية مذهلة. وفي هذه الأثناء، أصبحت هذه الجزيئات الكبيرة على وشك أن تبدأ أعمالها. وإذا نظرنا إليها عن قرب، سنراها تمثل ما يمكن أن يشبه مصانع العالم النانوي المستقبلية: ومعها، ستنتقل المادة إلى الفعل.

هل ستتزود المصانع بآلات نانوية قريباً؟

ينبغي على نماذج المخترعين الأولية اليوم أن تعمل معاً كي تغزو الصناعة، وهو ما يشكل تحدياً بالنسبة للمهندسين. هل سيمكن فعلاً لهذه الآلات النانوية التي ستخرج من المختبرات أن تعمل معاً؟ السؤال حاسم. في الواقع، إنّ هذا التحدي، أي أن تعمل الآلات النانوية الصناعية بشكل جماعي ومشترك، هو ما يواجه المهندسين. «المعادل الجزيئي للمحركات، والمسننات، والبكرات، والمكابس... موجود بحوزتنا اليوم، غير أن جعل هذه الأشياء المختلفة تعمل سويةً ليس أمراً سهلاً. يجب أن نفهم كيفية ربط آلة جزيئية مع أخرى»، يشرح «ديفيد ليغ» David Leigh الأستاذ في School of Chemistry بجامعة «إدمبورغ» بأسكتلندة.

ما هي فرص إمكان التوصل إلى هذه المرحلة؟ يقول «كريستيان يواكيم»: لاتتوافر لدينا قواعد. انتقلت الإلكترونيات التقليدية من الأنابيب المفرَّغة إلى الحساب الثنائي في غضون أقل من ثلاثين سنة. ولكن استغرقت اختراعات أخرى عدة قرون قبل أن تفرض نفسها، كالحسّابات الميكانيكية على سبيل المثال. هذا هو قانون الصناعة: سيبقى بعض الاختراعات العبقرية في الأدراج لزمن طويل، بينما سترى أخرى النور لتغزو المصانع رغم

أنها أقل أهمية ولكن أسهل إنتاجاً بكميات كبيرة أو أيسر دمجاً في منتجات أو في أنظمة موجودة منذ وقت سابق. وفي بعض القطاعات، بات الباحثون يستشعرون آجالاً أقصر، لا تتعدى عقداً أو عقدين من الزمن، لاسيما في مجال الصناعة الدوائية والكيميائية. وهكذا، أوجد فريق SMART، من Institut des biomolécules Max-Mousseron بجامعة «مونبلييه II» الفرنسية، «خُطّافات خلوية» و«حبالاً - مزدوجة» (مع أنشوطة) و«أنزيمات نانوية» اصطناعية قادرة على استهداف ونقل وتحرير عناصر دوائية ناشطة بشكل انتقائي.

«إن كانت خطافاتنا وحبالنا المزدوجة تعمل جيداً في مُذيب معين، فإن الوسط البيولوجي هو أعقد بكثير. ولكن حتى لو كنا في بداية العمل بعد من أجل جعلها متوافقة، فإني متأكد من أن هذه المرحلة ستكون مثمرة في غضون عشرين عاماً»، يقول «فريديريك كوترو».

استخدام القوانين الكمومية

يعلقون آمالاً كبيرة على المحركات النانوية على صعيد الصناعة الكيميائية، لأنها قادرة عند الطلب على تحريك الجزيئات وجعلها تتلاقى بدقة، وتعد في غضون السنوات الثلاثين القادمة بتسريع التفاعلات الكيميائية والحلول محل الحفازات التقليدية المستخدمة في الصناعة، فتقلل من حجم الطاقة المصروفة والفضلات السامة.

ماذا عن البقية؟ هل سنرى تحقيق وعود المواد الجديدة الناشطة والمركبات المعلوماتية الثورية؟ في الواقع، ما تزال هناك صعوبات هامة في طريق هذين الرهانين التقانيين الجوهريين: بينما يستطيع المهندسون، في حالة الحفز الكيميائي أو العمل البيولوجي، الاكتفاء بأن يؤدي قسمٌ فقط من مليارات الآلات الجزيئية دورَه بشكل مناسب فإنه يتوجب على كل آلة نانوية هنا القيام بمهمة محددة تماماً بدقة شبه تامة.

في الواقع، ترتكز المواد المحسَّنة الأداء بالآلات النانوية إلى الفعل الموحد والمتزامن لمليارات النسخ. ولكن، كما يشير «جان - بيير سوفاج» Jean - Pierre Sauvage، أحد أبرز رواد هذا الميدان، ومدير الأبحاث في مختبر الكيمياء العضوية - المعدنية في جامعة «استراسبورغ» الفرنسية، «لا نعرف، بنتيجة التأثرات مع السطح، أو مع الجزيئات المذيبة، كيف نجمع، ونوجه ونُزامن ونقود حركات مجموعة كبيرة من الآلات الجزيئية». وليست هذه الصعوبة ناتجة فقط عن العدد الكبير من العناصر المساهمة في العمل، بل أيضاً عن قوانين الميكانيكا الكمومية التي تحكم هذه الآلات. وتولّد هذه القوانين تأثرات كهربية

راكدة مع الدعائم، ومفاعيل نفقية effets tunnel تتيح للشيء أن يجتاز حدوداً فيزيائية متعذرة الاجتياز على نطاق واسع، وهناك أيضاً الضجيج الحراري، الذي «يهز» ذرات وجزيئات باستمرار.. مع ذلك، هناك حلول لهذه المسائل لحسن الحظ.

نحو التجميع الذاتي

يتابع الباحثون إستراتيجيتين متمايزتين جداً: الأولى هي التجميع ذاتياً، وتقوم فكرتها على تصميم آلات نانوية وظيفتها الأولى هي وصل آلات نانوية أخرى فيما بينها، وفق مخطط دقيق. مثلاً، تصميم مكونات جزيئية تترابط من تلقاء ذاتها في دارة إلكترونية كاملة. وهذه الإستراتيجية كان قد وضعها منذ زمن طويل «إريك دركسلر» Eric Drexler أحد رواد التقانة النانوية. واليوم، ينظر هذا الفيزيائي الأمريكي إلى هندسة البروتينات والتعامل مع الـ«دنا» (DNA)، «الحمض الريبي النووي منقوص الأكسجين الذي يعمل كمادة وراثية أولية») على أنهما مفتاحا هذا التصنيع ذاتي التنظيم على المستوى النانومتري. «أعتقد أننا سنتوصل إلى تطوير طرق مشابهة لطرق الريباسات ribosomes، التي تقرأ في الخلايا الحية تعليمات وراثية كي تجمّع البروتينات كتلة فكتلة»، يقول «إريك دركسلر». وحسب رأيه، يمكن استخدام «الأوريغامي» origamis (كلمة من أصل ياباني تعني فن طيّ الورق) وبنى معقدة أخرى تم الحصول عليها خلال السنوات الأخيرة من خلال قطع «دنا» صغيرة مستخدمة كقطع تبديل، كمصانع آلات جزيئية. وقد بوشر بتطبيق هذه الرؤية منذ وقت مضى. «نقوم الآن بصنع آلات جزيئية يمكنها أن تؤدي دوراً في صنع جزيئات أخرى»، يقول «ديفيد ليغ». مع ذلك، لم تقنع مثل هذه الإستراتيجية جميع الاختصاصيين.

«ليس هناك سوى الخلايا الحية يمكنها أن تقوم بالجمع ذاتياً مع صيانة ذاتية ديناميكية. وجزيئاتنا ليست حية وما نزال نجهل إلى حد كبير كيف نضفي عليها خاصيات تجعلها شبيهة بها كي تركّب آلات نانويةً معقدة»، حسب تقدير «كريستيان يواكيم»، الذي يراهن من جانبه على الإستراتيجية الثانية: البناء ذرة بذرة بوساطة مجاهر المفعول النفقي أو مجاهر القوة الذرية.

«يمكننا أن نتصور جيداً جداً تصغير وتركيب عدد كبير من المجاهر على نحو متواز في قاعات بيضاء، وهو ما يتيح إيجاد مصنع للبناء ذرة بذرة، على غرار ما طورته صناعة الإلكترونيات المكروية». وهذا السيناريو مقنع، بشرط أن يتم إنتاج هذه الأدوات المختبرية المكلفة بالمئات في سلاسل الإنتاج عالية التقانة. وكان هذا الموضوع الوحيد الذي نوقش

في آب ٢٠١٣م خلال مؤتمر عقد في الصين حول الصناعات النانوية.

إذن، إما تركيبٌ جزيئي ذاتي التنظيم أو صنعُ ذرة بذرة متواز بكثافة، ينبغي أن تنجح إحدى هاتين الإستراتيجيتين على الأقل كي تدفع الآلات النانوية الصناعة باتجاه ثورتها القادمة. ويبذل الاختصاصيون جهدهم كله كي يتحقق ذلك.

وقد عبر مؤتمر آب في الصين عن برنامجه بوضوح بالقول إن الطموح الأخير هو التقريب بين علوم نانوية وعلوم المهندس. وإذا ما تحقق التطابق بينهما ستنجح ثورة الصناعة. وستحقق الآلات النانوية أكبر الثورات. ولن تعمل المصانع على تشكيل المادة، بل ستجعل المادة هي التي تشكِّل.

من أجل إحداث الثورة الصناعية، يتوجب:

...أن نستوحي من آلات نانوية هائلة هي الأنزيمات

يرى «فريديريك كوترو» مستقبل الآلات الجزيئية في تقليد الطبيعة. يتشكل بدننا الحي من آلات معقدة هائلة، الأنزيمات enzymes (مجموعة معقدات بروتينية عضوية تصنعها الكائنات الحية في خلاياها لتتواسط التفاعلات الكيميائية الخلوية وخارج الخلوية ولتسهل إنجازها بأقل قدر من الطاقة)، التي تعمل جيداً جداً رغم الشواش الكيميائي والحراري الذي تغوص فيه.

ويحلم الباحث في الاستلهام من الأنزيمات لتصميم جزيئات قادرة على التعلق، والخرْق، والقطع. ويقول «لم نتمكن بعد من صنع أنزيمات حقيقية، غير أننا نقترب من ذلك...». ومن هنا، يأمل الفريق الذي يرئسه أن يتوصل، من خلال تفاعلات كيميائية تقليدية، إلى آلات نانوية تهاجم الخلايا السرطانية بشكل نوعي. وبات لديه الآن «كُلابات خلوية» صغيرة من «الروتاكسانات» التي تتعلق بالأغشية عند ازدياد حموضة الوسط – التي تعني اقتراب خلية سرطانية. المرحلة القادمة: تزويد هذه الكلابات بجزيئات سمّية تدمر الخلية.

...أن نتحكم بالعمل الميكانيكي لجزيء واحد

لدى «كريستيان يواكيم» رأي يؤكده دائماً: التركيز على الوظائف الميكانيكية لجزيء واحد صغير. وبدلاً من إنتاج مليارات النسخ من آلة جزيئية معقدة يتميز بعضها فقط بالخاصيات المطلوبة، ينتج «يواكيم»، وهو من رواد هذا الميدان، جزيئات تتألف من أقل من ١٠٠ ذرة وذات سلوك ميكانيكي فردي محدد تماماً.

الفكرة هي إيجاد سلسلة نقل بين هذه الجزيئات– الآلات– وهي أشياء كمومية – وجزيئات العالم المعتاد. «خلافاً لجزيئاتنا–

الآلات، لا تعمل الآلات الجزيئية إلا «وسطياً» على عدد كبير من الوحدات. أمَّا نحن، فنشغِّل جزيئاً واحداً يمكننا أن ندمجه في آلية أوسع - كمستن تقليدي. يمكن لمثل هذا النمط من المنظومات أن يستخدَم كساعة ميقاتية مثلاً في حواسيب ذات دارات جزيئية».

..وأن نمكِّن الآلات النانوية من استخدام الطاقة المحيطة

كيف نجعل آلة نانوية تعمل بفعالية مع أقل قدر ممكن من الطاقة؟ «يكون ذلك باستخدام « الضجيج الحراري »، هذا الهيجان الذي لا يتوقف للأشياء النانوجهرية، والذي يجعلها تتصادم في الاتجاهات كلها»، وفقاً لإجابة «ديان أستوميان» Dean Astumian الاختصاصي البارز في الديناميكا الحرارية للآلات الجزيئية.

إذا نزل حَبُّ البَرَد على سيارة وهي في الطريق، فإن كل حبة تحرِّك السيارة مسافةً زهيدة إلى الأمام أو إلى الخلف. ووسطياً، كمية الحركة المنقولة إلى السيارة هي لا شيء، ولكن خلال مدد قصيرة من الزمن، تتحرك السيارة في أحد الاتجاهات أكثر قليلاً من الآخر.. والفكرة هي الإفادة من هذه «الدفوع الاحتمالية». كيف؟ ذلك من خلال منظومة مسننات تسمح للسيارة بالتحرك إلى الأمام، ولكن تمنعها من الحركة باتجاه الخلف. وبنتيجة مثل هذا النوع من المنظومات، القابلة للتنقل وتبديل الموضع في العالم النانوي، فإن فقدان الانتظام يمكن أن يكون أفضل حليف طاقي للآلات.

..وأن نجعل العالم النانومتري حساساً للمَس

يقول «ستيفان رينييه» Stéphane Régnier، من معهد الأنظمة الذكية والروبوتيات بجامعة باريس-٧ - المركز الوطني للبحث العلمي، إنَّ بالإمكان تزويد الإنسان بأحاسيس عند تعامله مع العالم النانومتري. «نسعى إلى جعل هذا العالم يتأثر باللمس، مثلما نتعامل مع الأشياء اليومية. تقوم الفكرة على صنع منظومات «لمسية» كتلك المستخدمة في العمليات الطبية الجراحية عن بعد أو في بعض الألعاب المعلوماتية. يمكن أن تكون الأدوات عبارة عن مجاهر قوة ذرية وملاقط بصرية. ويبقى بعد ذلك تصميم نماذج» تترجم «لغة» قوى العالم النانوي الكمومية إلى لغة القوى الفيزيائية التقليدية.

عن Science & Vie، septembre ٢٠١٢

المراجع

1- »Science & Vie, septembre 2012

بلا عنوان

٭
سامر منصور



صرخ صرخـةً شجية حين شعـر بنشوة الحيـاة.. ثم رفع جفنيه الصغيرين.. كانت عيناه كحجريـن وكـم مــن أحجار شقَّـت ولانت وهــي تلثم وجنة الجمال.. نظر حولـه يتصيَّدُ ببصره الأنوار والأشكال.. رأى الكائنات وقـد شربت من بهيِّ الألـوان حتى سكرت به وشفّت عنه صبابة وتلذذاً.. كان غارقاً في بحـر مــن اللـذة والجمال ومتوحداً مع المشهد، لكن رغبةً غريبة كانت تدفعه إلى الحركة،

٭ أديب وشاعر سوري.

أراد النهوض لكن قلبه الصغير أبى أن يخفق بعيداً عن أديم الأرض، كان دفء أعطاف هذه الأم الرؤوم ونعومة ترابها وبهاء غلالة العبير التي تتشح بها، يجعله لا يمل لمسها، وهكذا حَبا وحَبا.. وكأنه يريد ليستكشف بيديه الصغيرتين كلَّ حبة رمل.. أو ربما كان يريد أن يحصي ما نثرت الشمس على وجنتي أمه من قبلات النور، لكن الرغبة الغريبة ساورتهُ مُجدداً ودفعته إلى الوقوف على قدميه والابتعاد بأنفه الصغير الذي اعتادَ لعق كل رائحة وعبير تفيض بها أثداء أمه السمراء.

انتصب ونظر بعينيه الواسعتين على مدِّ البصر فرأى الجمال يتدحرج في أغوار اللانهاية وغدائر السعادة تتدلى خلفه.. تلقفت أذناه كلَّ نغمة، وداعبت جلده الناعم كلُّ نسمة.. سار بجسده بين سطور النور فمرَّ على أجمل كلمات الدفء.. اتسعت خطواته وتسارعت حركته، كل أحاسيسه كانت تناديه وتطلب منه الانحناء والعودة إلى الأرض والتدثر بالرمال.. كل أحاسيسه كانت تذوب حنيناً إلى اللحظة الأولى .. اللحظة التي أحس بها كل شيء.. لحظة عجزه عن إدراك ذاته، تلك اللحظة التي كان فيها متوحداً مع العالم، لكن نداء الأحاسيس تلاشى أمام صرخة تلك الرغبة.. أصبح جلدُ قدميه أكثر غلظةً بعد أن كثرت خطواته.. وصوت تلك الرغبة كان يرتفع ويزداد صخباً.. كان يهتف.. تحرّك.. أسرع.. حثَّ الخُطى.. ارتقِ.. تقدّم.. أنت مختلف.. أنت المحور.. لأجلك الحاضر وأنت المستقبل.. لأجلك كلُّ شيء.. بل أنت كلُّ شيء ومن دونك لا معنى لشيء..

حين كثرت حركته ابتدع الزمان وأخذ يقيس الحياة ويمطر لوحة الوجود الجميلة بأخاديد الكم والنوع وادّعى أن العالم نقائض وأضداد.. فاخترع القبح حين ظن أنه يُدرك الجمال.. واخترع الضوابط والقيود حين ظن أنه يُدرك الحرية واخترع المُلكيّة ثم آلهة طريفة على صورته وأمور أخرى لا حصر لها وكأنه يريد إعادة تجسيد الوجود في بوتقة بدعه.

كلما صرخت به تلك الرغبة أجفل إحساسه، وسارع إلى إدراك نفسه على أنه أسمى من عناصر الوجود.. استبدل بانوراما الحياة بما فيها من جلال الجمال وجمال الكمال، بصورة مُسطحة يُقعرها غروره شيئاً فشيئاً حتى تغدو الكائنات وكأنها الظلال تدور في فلكه.

ياللمسكين بل ياللأرض المسكينة التي ستسفك فيها الدماء لأجل الدماء وهي التي لم تشهد سفك الدماء إلا لأجل الحياة.

حين استطالت قدما ذلك المسكين واتسعت خُطاه أغفل جلال الوجود المتسامي ببساطته وبات لا يُفرِّقُ بين بانوراما الجمال وأغوار الظلال.

هل ماتت أذناه.. حتى أعرض عن ترانيم الطيور؟.. هل تصلّبت وجنتاه.. فتكسرت عليها أصابع النور؟.. هل تحجرت مقلتاه؟.. هل أغلقت تلك النافذتين اللتين تهب من خلالهما نسمات الجمال تنشر عبير النشوة في أغوار نفسه؟..

حاول المسكين أن يضع الوجود في نطاق الزمان.. ثم حاول أن يستولي على ما يسميه بديع المكان.. وكان منه من البِدَعِ ما كان.. نسي أنه نغمة في سمفونية الوجود وتوهم أنَّ الوجود نغمة عظيمة مصلوبة فداءً لسمفونية الإنسان.

الحياة بانوراما الملذات ولا ألم في الحياة إلا في سبيل تجدد الحياة.. فالولادة حدثٌ عظيم أكبر من السعادة وحدها ومن الألم وحده.

ألم يتساءل حين ظن أنه مُدركٌ للوجود.. هل تفكر الكائنات بالزمان؟.. ألا تتشارك على اختلافها المكان؟.. هل تندب البعوضة عمرها القصير؟.. أم أنّها راضية كونها نغمة لم تشذ عن سمفونية الحياة..

أراك تمضي حياتك في سباقٍ تتعثّر فيه الحركة بالزمان.. أراك تنظر إلى قوس قزح وتتواثب إليه ورغبتك الغريبة تهيب بك أن ترتقي.. أن تصعد إلى الفضاء.. أن تهجر أقطار الأرض إلى أغوار السماء..

لم تتوانَ عن هجر أمك السمراء.. وأصعب الهجران الوصل بأذى.. خيالك مهد لك الطريق وتمكنت بالفعل من تسلق قوس قزح وكلما ارتفعت مُبتعداً عن أمك.. صَغُرت في عينك.. وظننت أنك أصبحت عملاقاً.. أنت دوماً فرحٌ بالعلو ولا تكترث لتكاثف الضباب.. لم تعد بناتُ أمك السمراء سوى أرطال من اللحم وأمتار من الصوف والفرو وزينة من عاج..

إحساسك أيّها المسكين ماض مُسجّى بالضباب.. خَفَتَ صوت الجمال وتلاشت ألوان الأصوات وطمست معالم الوجود حين اختزله إدراكك في نغمة الإنسان.. تأمل لغتك التي تكاد تخلو من كلمة إلا لها ضد.. انك مزيجٌ من التناقضات..

أنت أيّها المتعالي.. يا من ظلم الحياة حين اخترع الزمان.. أنت أيّها اللون الساكن الذهبي البرّاق.. الذي أفسد اللوحة حين اختار الحركة.. لست تسمو.. بل أنت الهارب إلى الأمام.. أصبحت ساقاك طويلتين عاجزتين عن الاستمتاع برقصة الحياة.. سابقت الزمان حتى فاتتك ترانيم السعادة التي تتدفق في عروق الوجود.. ها أنت على قوس قزح مُعلّق بين حقيقة كيانك وبدعك وعجيب آمالك.. فرحاً تسيرُ على جسر من حُطام النور نحو جَبلٍ من الضباب.. لتلقي نفسك في أغواره وبسمةٌ ساذجةٌ مُستلقيةٌ بين أساريرك.

هل أنت مُعجزة الوجود؟.. أم أنت طفرة هذا الوجود وسرطانه؟.. ليتك بقيت نغمة الصمت الشجيّة في هذه اللوحة الطروب.. فصرختك الآن تصمُّ الوجود..

هــا أنت تخطــو على جســرك المبهرج يعانقكَ الضــباب يجرُّ ذيولاً من دخان.. ها أنت ذا تشعر بخفة كأسك المذهبة وتلعق أثر حلاوة الرشــفة الأخيرة عن شفتيك.. بينما نظركَ معلّقٌ علــى حورياتٍ من نارٍ يسربلها الدخــان تنقضُّ على الشــيوخ والمرضــى وتتراقــص على أنغام عويلهم منيرةً سـماء إسبارطة.. وربما رأيت في العجزة مستقبلك أيّهــا المحارب القــوي ورأيت في المرضــى طيف ذكرى لمرض عابــر ألمّ بك.. فأجفلت وابتدرت أشباح مخاوفك فسولت لك نفسك ما ســولت.. وها أنت ذا بعد مئات الســنين ترتــدي بدلةً أنيقــة وتعرض مآثر كرمك على الناس وتدعوهم أن يحذو حذوك وكل هذا باسم الإنســانية.. ساعدوا من نكبتهم الحروب والكوارث الطبيعيّة..

الإنسانية..

تلك التي تتخذها متى تشاء شُعلةً مُقدّسة يذوب لها قلبك ضراعةً وتعبُّداً وترميها متى تشــاء شرارةً تتدحرج في هــوّة أطماعك.. هــا أنت ذا تلقي أطنانــاً وأطناناً من القمح والبن وغيرها إلى أسماك البحر كي لا تختلّ أســعار هذه المواد في الســوق العالمية بينما تركل أقدام الجوع طفــلاً إلى وديان الردى في كلِّ دقيقة..

إذا ســمت عناصر كيان يســمو الكيان، إذا وجــد كيان كل عناصــره قوية فهو على الأرجح كيانٌ قوي.

أخطــو خطوةً أخرى على جسرك المُبهرج لتتمزّق أحشــاء الضــباب عنك وأنت تسند ســيفك إلى الجــدار وتخلع خوذتــك وتفرد رداءك المخملــي الأحمــر أمــام تلــك الملكة الســاحرة لتطأه بقدميها الصغيرتين كيمامة تدوس جناح الرخ المهيض وتنزع عنه ريشــه ليتجمــد حتى الموت.. لم يكن دفء رعشــات النشــوة بلا مقابل.. وها أنت تعيد المشهد.. لكنك الآن أكثر شباباً ورغم أنك ترى ريشات الــرخ مبعثرة في أرجاء مخــدع كليوبترا وعلى الرغم من أنك ســمعت هجاء كبير الجناحين من أفــواهٍ جففها رفاتــه.. إلا أنك يا مارك أنطونيو اســتبدلت ريشك زغباً ودخلت عشّ اليمامة المصنوع من الأفاعي.. هل حقّاً كنت تنوي اســتبدال الحرب بالحب؟ وبرد السلاح بدفء حاضنات الأرواح؟.. أم أنك كنت ترضي غرورك وتمجّدُ نفسك بطريقةٍ مختلفة؟

خطوةٌ أخرى..

أراك فيهــا يا منونيســ وقعت في غرام سميراميس وســعدت بها.. هل كانت الأثرة التي حظيت بها من أثرة مباعث سعادتك؟..

نزلت عن تلك الزهرة لملك آشور وبابل[1] ضناً بملكك ومجدك على مذابح الفداء.. ربما قادتك حرباء الجهالة إلى أوكار الظنون فحسبت أن بادية الشام قادرةٌ على احتضان بذور النور وإنجاب زهور البلور لعددٍ غير محصور.. هل عرفت سميراميس الحب يوماً؟ هل أحبتك ثم طوت صفحة حُبها نار غدرك بها؟ أليس الحب أسمى من أن يتحول إلى حقد؟

سمعتك ذات مرّة تقول: (إن الحبَّ سام) ورأيتك مرّات لا تحصى ترتكب أكثر أنواع الجنون انحطاطاً باسم الحب.

لماذا حين تكتب القصص حول الحب يكون الأبطال غاية في الجمال؟ لماذا حين ترسم قصص الحب في أشعارك جل ما نقرأ أوصاف الجمال؟ لماذا يأتي الأمير على الحصان الأبيض؟ لماذا لا يأتي الفقير على التيس الأبرص؟.. لماذا الوردة الحمراء هي أهم رموز الحب؟.. ألا يجوز أن تكون ورقة العنب رمزاً للحب؟.. هل الحب يدور في فلك الجمال؟.. أليس جُلُّ المتحابين يعوزهم الجمال؟.. أيهما أسمى الحب أم الجمال؟..

هل الحب بغير جمال كأزهار بغير عطر وأثمار بغير بذور كما قال جبران؟

ربما من الأفضل أن لا أثير الكثير من الأسئلة لأنّها كالرمل إن أثرتها خسرتُ صفاء أوهامي..

ها أنت يا عاشق الحركة تخطو خطوةً جديدة والضباب يضمحل لتتكشف مستنقعات الحقيقة.. أخفض صوتك ضقت ذرعاً بصراخك.. الجسر.. نعم لقد سمعتك الجسر.. الجسرُ هو الذي سيمكننا من العبور.. فوق هاوية الشرور.. فوق أغوار الظلام الممتدة في عروق اللانهاية..

دعني أذكرك.. حين نُحتت بأمرك الجلاميد وتجلى للعالم باسمك ذلك الصرح المشيد.. دعني أذكرك يا فرعون بشهوتك المستعرة وشفتيك المرتعشين وشقيقتك قابعةً فوقك عارية في طقسٍ مقدّس يحفظ دم سلالتك المقدس من دنس الاختلاط بدماء العباد.. وها أنت ذا في بعيد مكان وزمان مُخيَّرٌ بين الزواج من أمك أو أحد أخواتك وإلا اعتبرتك القبيلة شاذاً عن أعرافها وطردتك لتهيم في أرجاء التيبت كحيوانٍ مُصاب بالجذام.. أخفض صوتك حين تتحدث عن جسر الأخلاق.. فهذا الجسر مُعلقٌ بين أنامل الزمان وصدى كلامك عن هذا الجسر قد يهزّه وتأرجح الجسر سيجعل صوتك يرتعش وسيعود الصدى مثل صوتك مرتعش وسيهتزُّ الجسر مجدداً وستبقى تتأرجح فوق ما تسميه هاوية الشرور..

أنت تلوك ما تصادفه في هذا الوجود

بعقلك ثم تلفظه في أحشاء إدراكك.. حالك كحال الطفل الفضولي يضع ما بين يديه في فمه ليستكشفه وما كان ليفعل لولا جهله ببقية مَلكاته.

.. أراك كثير الضحك وأنت تخطو.. وتخطو في دوائر الزمان..

الضحك..

لماذا تضحك؟

ما هو الشيء الذي يُضحكك؟.. هل الضحك ناتج عن غموض يكتنف موقفاً ما؟ أم عن التباس في فهم أمرٍ ما؟ ألا يُضحكك المُحتار التائه، المتخبط في أعماله عند رؤيته للوهلة الأولى؟

لماذا يضحك العامي الجاهل أكثر مما يضحك الفيلسوف العالم؟

إلى أي حد يرتبط الضحك بالسخرية؟

سمعنا أن الكفار كانوا يضحكون و يَسخرون من أقوال وأفعال الأنبياء.. ويصعب أن نتخيل الأنبياء يضحكون و يسخرون من العوام الجُهلّ، فهل أضحَكُ الناسِ سِناً أقلهم علماً؟ وهل الساخر من الآخرين كثير الضحك عليهم مدفوعٌ إلى ذلك بجهله؟

ألا يجد البعض لَذّةً في الضحك على أبناء جلدتهم حين يقومون بتصرفٍ غبي مؤذٍ؟ أليس من الساديّة الضحك على من يؤذي نفسه؟

القبح..

سمعتك تقول وأنت في ثوب المفكر الأديب: (إذا كان القبح شيئاً ما.. فما هو – في الحقيقة – إلا قشرة الصدأ على أعيننا، والوقر في آذاننا.. لا تدعو شيئاً قبيحاً سوى الخوف الذي يخالج روحاً ما حيال ذكرياتها الخاصة)

أتمنى لو استبدل الناس كلمة قبيح بعبارة غير مفهوم أو غامض..

المُفكر الأديب..

تجلّت حديقة النبي تطفو في بحر خيالك، وأمواج إبداعك تتعالى حولها وتنثر حَبابها ندى وزبدها أريجاً يستنشقه العقل ويمرره بقبلة من نور إلى العقل الباطن.. قليلاً ما أتفق معك يا جبران خليل جبران.. لكن لحظة من لحظات اتفاقنا تنسيني كل خلافاتنا.. ما أن تمسك صفحاتك البيضاء حتى تتشرَّبَ آمالك و آلامك.. وما أن تخدش بياضها بقلمك حتى يتساقط عن كلمات ترسم ملامح روحك المُرهفة.. أحاول تخيل تلك الساعات العظيمة التي كنت ترتحل فيها بين سماء الخيال وبحر الحكمة تدعو النجوم واللآلئ للرقص على سطور مؤلفاتك.. فيكادُ يتجسّم لي قلمك وهو يبكي على صدور دفاترك حتى تذيب دموعه بياضها.. أتمنى أن أقدِّمَ قلمي شمعة أمام محراب أمجادك..

تستلقي الأوراق البيضاء أمامك يا جبران باردة كلوح من الجليد، لكن ما أن يرقص عليها قلمك حتى تذهب خطواته الدافئة ببياضها البارد..

العدو..

الإنسان أذكى المخلوقات ولذلك قلّما يُشكل ما دونه من المخلوقات خطراً على وجوده واستمراره.. لكن وحشية الكيان الإنساني ومطامعه ورغبة المتميزين من أفراده باستثمار الخوف المرتبط في معظم الأحيان بالجهل ليحققوا مآربهم كل هذا أدى إلى التكريس لفكرة العدو..

العدو موجود عبر العصور عند معظم الأمم ومع الأسف في غالب الأحيان عدو الإنسان إنسان..

العدو كرسي لا يجب أن يبقى فارغاً في مسرح الأمم ، هذه كانت قاعدة تسير عليها الشعوب في العصور الوسطى وما قبلها من حقب.. ومع الأسف مازالت العديد من الشعوب متمسكة بهذه القاعدة.. إنكلترا كانت عدوة فرنسا.. تركيا كانت عدوة اليونان.. الهند كانت عدوة باكستان.. أمريكا عدوة الإرهاب - إن لم يخدم مصالحها- أولم تكن حركة طالبان حليفة" لأمريكا حين أرادت الأخيرة حسر المد الشيوعي؟

أرقى الأمم هي التي تتخذ الفقر والجهل والظلم أعداء لها، وتمتنع عن مُعاداة بقية الأمم.

من يجلس في كرسي العدو يمكن بكل بساطة أن يتركه ليجلس في كرسي الصديق شريطة أن يحل محله في الكرسي عدو مشترك.. فعدو عدوي صديقي..

هل موارد هذا الكوكب أندر من أن تكفينا جميعاً؟.. أم أن الكوكب بأسره أصغر من أن يحتوي جشع الإنسان؟

لا نستطيع أن ننكر أنَّ الخوف يوحِّدُنا و لكي نخاف يجب أن يكون هناك عدو.. الخوف يزيدُ تقدمنا سُرعةً.. مَن ذا لا يذكر التطور العلمي إبان الحرب العالمية الثانية؟.. ألم يوحد الولايات الأمريكية خوفها من بطش وهيمنة ملوك وزعماء أوروبة؟.. سبق أن قلت الخوف يوحد الأمم.. وأضيف الخوف يجعل الأمم تسحق بعضها وتوقف عَجلة مجدها الحقيقي عن الدوران.. يحضرنا جميعاً أمثلة من التاريخ لا حصر لها.. لنأخذ الأمور من منظور أصغر.. كلنا سبق أن شاهد جموع الناس المتدافعة خوفاً من هراوات قوات حفظ النظام في الملاعب وكلنا شاهد أناساً يدوسون آخرين وهم يتقدمون نحو الأبواب هَرباً..

الخير والشر مُتلازمان..

معظم الأديان تدعو إلى الخير والسلام.. ومن أكثر الناس شراً هم المُتطرفون.. وفي تكوين عالمنا إذا ذهبت إلى أقصى الشرق تجد نفسك آتياً من الغرب.

العدو يمكن أن يكون مُحفزاً.. مثلما أنّ الجنة محفز لعمل الخير.. والنار محفز للابتعاد عن الشر..

القتل هو الجريمة العظمى في معظم الشرائع وللمفارقة أن القتل نُبلٌ و منبعٌ للفخر و المجد إن كان المقتول عدوّاً للأمة..

كم من أمة أعلنت أن دم رعايا جارتها مهدور وعاملتهم كأنهم من نسل الشياطين؟..

أولم تبشر الأديان بمعركة في آخر الزمان بين الخير والشر إحدى أشهر أسمائها (هرما جدون)؟..

حتى لو كانت النبوءة التي تحدثت عن هذه المعركة باطلة فمجرد إيمان العديد من الأمم بحتميتها و سعيهم ليكونوا في خندق الخير سيجعل تلك النبوءة تتحقق لا محالة؟

أليست كل الشعوب التي تؤمن بهذه المعركة تعتبر نفسها في خندق الخير؟..

إن كان الكل في صف الخير فلمَ المعركة إذاً؟..

إن لم يجد الإنسان عدواً فهو يصنع العدو.. ببساطة لا وجود للخير بلا شر ولا وجود للشر بلا خير.. وإيماننا بالله يستتبع إيماننا بوجود الشيطان.. و حتى عَبدة الشيطان استتبع إيمانهم بالشيطان إيمانهم بوجود الله.

الخوف.. والجهل.. والفناء.. دياجيرٌ(1) ثلاثة تذهب بنور نجم القوة الذي استحوذ على بصرك وبصيرتك..

الخوف والجهل والفناء.. هي أكثر حقائق الوجود إثارةً لحفيظتك وتحدياً لإرادتك.. ها أنت ذا تتقدم وتقول نحن خلقنا الآلهة حين جَهلنا حقيقتنا.. ها أنت يا فريدريك نيتشه تقول: (لن تموت آلهة السماء إلا حين تبعث الآلهة على الأرض وتلك الآلهة تكمن فينا) ها أنت تصمُّ الآذان بصراخك: القوّة.. القوّة هي المعنى الأسمى.. ها أنت تتوارى خلف زرادشت والأدب لتخفي ضعفك.. هل تقدِّس القوّة لأنّها أكثر ما تعوزه؟ ها أنت ذا طوعاً تدخل المعسكرات على الجبهة وتطالب ببذلة عسكرية وسلاح.. ولكنك يا من يقدس الحرب و القوّة.. تعجز عن تحقيق مُرادك.. فترتدي ثوباً أبيض وتدخل على الجرحى ممرضاً.. يُداخلُ اتزانك تأرجحٌ ودوار وتسقط مغشيّاً عليك فأنت أيّها المسكين لا تستطيع تحمُّلَ منظرِ الدماء.. عُد إلى بيتك يا نيتشه فالجبهة ليست مكاناً لك.. بل هي ليست مكاناً لأحد.. إن هي إلا رمالٌ متحرِّكة تواثبت من جهلنا وأنانيتنا و تعصبنا لبدعنا.. وهي تجترُّ أكثر ما تجتر دماءنا وتقدمنا..

إنّ تفوّق الإنسان على الخوف والجهل والفناء.. فما الفرق بينه وبين الإله؟.. وإن

لم يتفوّق الإنسان على هذه الأمور فسيبقى هناك إنسان وإله.

هل الإنسان أسير معادلة مستحيلة الحل؟.. هل اللاهوت نابعٌ من غرور الإنسان ورفضه التسليم بأنه حيوانٌ يتميَّزُ بالعقل؟..

حين أدرك الإنسان المغرور نواقصه أوجد آلهة على شاكلته تطورت مع تطور إدراكه.. وبعد كل التحسينات التي طرأت عليها عبر العصور مازالت تشبهه.. فإن انتفى عنها الجوع والعطش لم ينتفِ عنها الرضا والغضب..

هل الله هو ضمير العالم العاقل؟

انتهيتَ إلى فكرة غير خاضعة لأدوات النفي أو الإثبات مفادها أن الله خلق الإنسان على صورته.. فهل اللاهوت هو وسيلةٌ يكرِّسُ بها الإنسان لفكرة أنه مركزٌ يتقعَّرُ حوله الوجود؟

حين تنطلق من معلوم قد تجد المجهول لكن حين تنطلق من مجهول فلن تجد المعلوم.. ببساطة معادلة كل عناصرها مجاهيل هي معادلة مستحيلة الحل..

هكذا قلتَ حين ارتديت ثوب الفلسفة الملون.

كثرٌ هم الفلاسفة الذين امتنعوا عن مهاجمة الأديان كونها تلجم الإنسان وتمنعه من تدمير نفسه.. فهذا الوحش الجبار يكتفي بإبراز أنيابه حين يساوره الخوف.. ويخفيها بلون دمه وقطع لحمه إن تلاشت مخاوفه.. الجنة وحدها غير كافية لإصلاحك والنار وحدها لا تكفي أيضاً.

أخبرني يا نيتشه كم عمر أقدم الرايات؟.. وكم عمر الإنسان على هذا الكوكب؟ عاش الإنسان زمناً طويلاً من دون رايات.. لكنه لن ولم نعش من دون أخيه الإنسان.. ألأجل رايات ابتدعناها تُفرقنا.. نَسلبُ الأرواح ونمزِّقُ الأجساد؟

الإنسان ينتمي أكثر ما ينتمي للإنسان.. ولا يجب أن يموت في سبيل جوهرة في تاج ملك أو نيشان جديد على صدر جنرال..

هل الأمّة التي تبسط يدها بالقتل والتنكيل وتستعبد الأمم المجاورة هي أمةٌ عظيمة ومتميِّزة؟ أم هي شذّت عن إنسانيتها حين دأب قادتها على حشد رعاياهم خلف رايات وشعارات وغرسوا فيهم الوحشية والعصبيّة..

يا للناس المساكين يعظّمون أكثر ما يعظّمون حين يموتون في ساحة الهيجاء وعندها يسمون شهداء والمزعج في هذه الكلمة أنها تأتي بصيغة الجمع دوماً فتجعل ممن مات في منزله جراء شظيّة كمن حارب باسلاً ولم يُجفل وهو يعالج أنياب الردى.. آلاف لا بل ملايين انتزعت منهم أسماؤهم وسمّوا شهداء بينما القادة والسياسيون تبقى أسماؤهم مرسومة مرصّعة في أيقونات التاريخ.. وكم من ملك من ملوك

أوروبة بدين دميم أصابهُ النقرص[٣] لكسله وقلّة حركته نسبت إليه الأمجاد وضاقت بذكره المدونات.. أولم يكن بعض الأباطرة الرومان يجعلون أصابعهم في أفواههم كي يتقيئوا بعد أن أتخموا كي يتناولوا الطعام مُجدداً فيتلذذوا.. وأطفالٌ بين أيادي آبائهم والمُقل تناجي المُقل بينما براثن الردى تنسلّ في أعناقهم لتجني ما زرعت الحشرجات في صدورهم.. أليس أصحاب السيادة والسلطان هم من سمموا سقراط ورجموا بولس وقتلوا جاليليو وفتكوا بعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه؟

إن كان لا بدَّ أن تحارب فحارب الملوك كلهم وكفنهم براياتهم واتخذ من الأرض كلها وطناً ومن البشر كلهم أهلاً.. فلتقر السيوف في الأغماد والدماء في العروق والأرواح في الأجساد هذا ما أردته يا فولتير.. وأخشى أن هذا ما لن يكون..

ها أنت ذا.. جلادٌ يحمل قضيباً وراهبٌ يحمل صليباً وقاضٍ مبدع بابتكار أوامر التنكيل والتعذيب.. وأنتِ يا أوروبا الجميلة تتلفعين بضباب الجهل وتنظرين بمقلتين من جليد تأبيان البكاء لمئات الفتيات والنساء اللاتي اتهمنَ بالسحر والشعوذة يُحرّقنَ أحياءً باسم الرب.. ها أنتَ أيّها الراهب تدبُّ على أرض مدينة (تولوز[٤]) وتدنو من جان كالاس الهَرم وهو عارٍ موثق إلى دولاب التعذيب سحيق العظام محروم حتى من خَدَرِ الإغماء.. ها أنت تُدني الصليب من وجهه وتطلب إليه تقبيله..

أنى تمحى هذه الصورة من ذاكرتك يا فولتير؟.. وها هي الحكاية تعود لتروى على لسان فيكتور هوغو أثناء تأبينك وهاهو هوغو يقول:

(اجتمعنا هنا لنمجد السلام حُباً في المدينة، وحرصاً على جمالها ورونقها، فالسلام فضيلة المدينة والحرب رذيلتها)

الآلهة..

كثيرةٌ هي.. وكلما ازداد وعيك قلّتْ آلهتك فهل سيأتي يومٌ تصبح فيه آلهتك إلهاً واحداً أو عدماً؟

البوذيّة.. المسيحية.. وغيرها نبذت الآلهة القديمة والأوثان وتجسيد الرب.. لكنك أيّها المسكين جَنحت إلى المادة مجدداً فهاهو بوذا يملأ الأسواق.. وهاهي الكنائس متاحف..

جدران المسجد الكبير في الأندلس لم تسَن بعد أتباع الملك فردينان وهم يُزيّنونها بالرموز المسيحية المقدسة من غير ذات الصورة البشريّة، حفاظاً على المسيحية من بدع ما قبل الميلاد.

ومَن يدري قد تكون أيّها الإنسان وكوكبك الأزرق حقل تجارب لحضارة كائناتٍ أسمى وأعظم..

تقدّم نحـو الماضي أيّها المسكين.. بدأت عاريـاً وعدت اليـوم كاسياً عاريـاً.. بدأت ضعيفـاً مُهدداً وأنت اليـوم مُهددٌ بقوتك.. قتل قابيل هابيل.. واليوم ألف قابيل يقتلون ألف هابيل.. هبطت مـن جنة السماوات.. وستهبـط من جنة الأرض.. كنت في السماء ضحية حواء وعلى الأرض حواء ضحيتك.. الشيطـان أدار عليك من دوائر كيده يغشى بصيرته الغـرور والتكبر.. أما أنت تكيد كلَّ مـا دونك من كائنات بـل تكيد حتى نفسك يغشى بصيرتك الغرور والتكبر فلا تسمع إلا صوت أنانيتك ولا تركب إلا أمواج جشعك.. فتعلو برذائلك فـوق رذائلك.. لستَ بحاجة لإلهٍ يُقيم اليوم الآخر ويطوي صفحة الحياة على الأرض.. فأنت من سيقوم بهذا.. لكنك بحاجـة إلى إله يُقيم العدل ويقتص.. وأنت لن تقوم بهذا..

ستبقى أيّها المسكين كذلك الجسر الذي تقـف عليه .. طيفٌ عابـر متعدد الألوان.. تتعمَّـدُ بدمائك راكعـاً أمام مـرآة يومض حولها شعـاع السراب وتتماوج أمامها حبال الضباب – يا حسرةً عليك – كم تعشق ذلك المحراب..

ملاحظة:

ربمـا لمست عزيـزي القـارئ عشوائيـة و عدم انتظام في مسار النص وهذا لأن النص ومضـات علـى بعض مـن جوانـب مسيرة الوجـود الإنساني لم أشأ إخضاعها لمعالجة منهجية أو للنسـق القصصي.. كل ما أردته أن أعكـس ولـو جـزءاً بسيطـاً مـن تخبـط الإنسانيـة في مسـرح الحيـاة ولم أرغب في أن تكـون مرآتي (الأدب) صقيلـة(٥) متجانسة – فليس لأحد أن يدعـي القدرة على إظهار تعقيـدات النفس البشريـة – لذا كان النص أشبـه بمـرآة محطمـة أعيـد تجميـع بعض قطعها لتعكس لنا بعضاً من صورة الإنسان المشوشـة.. وتترك ما بقـي لعقلك و خيالك ولكاشفات المستقبل.

الهوامش

(١) نينوس.

(٢) مفردها ديجور: ظلام ، ظلمة .

(٣) النقرص: داء يصيب المفاصل وهو أكثر ما يصيب البدين الكسول.

(٤) مدينة فرنسيّة

(٥) صقيلة: ملساء.

مع:

الدكتور نبيل طعمة

إعداد وحوار: محمد خالد الخضر ○



الدكتور المهندس نبيل طعمة.. باحث في علم الفلسفة والتكوين الفكري أضاف في هذا المجال أسساً ومفاهيم جديدة يريد من خلالها أن يصل بالإنسان إلى أقصى درجات الأخلاق والمحبة والانتماء.. كما كتب في السياسة.. فظهرت مشاعره الوطنية لتعبر عن عشق الأرض ومدى حبه لها وكشف مزاعم الأعداء..وفضح حقائقهم.. إضافة إلى الرؤى الشعرية التي سجل من خلالها تجلياته وأحلامه التي يرنو من خلالها إلى عالم أصيل.. مليء بالحب والأمان.. ومن هذا وذاك.. تلتقي أفكاره

○ شاعر وأديب وصحفي سوري.

في رجل يعشق الثقافة.. ويضحي من أجلها ويتحلى خلال تعاطيه معها.. بأخلاق الفارس العربي النبيل..

وحول كتاباته ورؤاه كان معه الحوار التالي..

- أنت تبحث في علوم الفلسفة.. لكنك تعمل بأسلوب آخر ومنهج قد يصل إلى تغيير بعض المفاهيم الفلسفية السائدة.. ما هي الفلسفة برأيك؟

• الفلسفة ليست هي التفلسف بالمفهوم السائد.. حيث يدركه إنساننا من خلال السواد الأعظم.. وهذا ما تدل عليه كثير من المعطيات من دون الالتفات إلى جوهر الحقيقة التي تأخذنا لقيمة أي فعل مادي أو لا مادي.. فالذين سبقونا في أعماق التاريخ.. كأفلاطون وأرسطو وسقراط.. وبعد ذلك ابن رشد وابن عربي.. إلى أن نصل إلى الحداثة التي بدأت مع عصر النهضة كما فعل غوتيه ونيتشه وهيغل وفور باخ وأصحاب النظريات الماركسية والوجودية وصولاً إلى علماء آخرين في الموسيقى والمسرح مثل تشيكوفسكي وبيتهوفن وموتسارت وبودلير وموليير.. هؤلاء جميعهم أوجدتهم قدرة التأمل والبحث العميق في مجتمعاتهم والسعي نحو الانتصار إلى الأفضل.. عكس ما حصل في أغلب مجتمعاتنا العربية التي يطغى عليها مفهوم الآخر.. وما يصنعه لها من رؤى بعيدة عن الغوص في مشاكله وهمومه.. ليبقى بعيداً عن الأفضل وفق نظريات فلسفية ونفسية تقضي بإقناعه بالتغيير والتجديد من دون أن يفهم المعاني والبنى الحقيقية لما هو مرسوم إليه.

- ما هي العلاقة الجوهرية بين التصوف والفلسفة؟

• التصوف هو التأمل في عمق المشكلة.. والفلسفة هي جوهر المشكلة.. فإذا استطعت من خلال التأمل بأي شيء أن تصل إلى جوهره تكون قد ملكته وتحكمت فيه.. وهذه علاقة مثيرة جداً ضمن منهجية خاصة لنظم التفكير.. وعلينا إدراك صعوبة فهم أي شيء من دون فهم مكوناته.. وهذا ما يجعلنا نشير إلى أن التصوف مع بالغ الأسف.. لم يفهم بعد على أنه حالة تأمل.. وكذلك الفلسفة لم يجر استيعابها على أنها جوهر.. ومن دون فهم الجوهر والمظهر لا يمكن إحداث أي عملية تقدم في مجتمع يتجه إلى عملية البناء.. كما لا يمكن له أن يبنى من دون أسس.. وهذه برأيي هي الأسس.. وبذلك نرى أن أوروبة انتقلت من عصر الانحطاط وفق رؤى الفلاسفة الحداثيين الذين لم ينفوا جوهر الفلسفة التاريخية.. ضمن الحاجات الرئيسة لمجتمعاتهم.

وعلينا أن ندرك أنّ التصوف والفلسفة واقع منطقي لا يؤدي أبداً إلى أي ظاهرة

سلبية تسبب قمع المتعات المتوازنة وتراجعها تحت أي حجة أو غطاء.. فلا يمكن أبداً أن ننكر أثر الأدوات الذوقية الجمالية ودورها في تنمية الحس الإنساني.. والارتقاء بحضارته كالنحت والرسم والرقص والعمارة والسينما.. وهي أشياء تعمل على التهذيب الفكري والأخلاقي ويجب ألا تتنافى مع المعنى الحقيقي للتصوف والفلسفة.. بصفتها تساهم في تطوير الإنسان ووصوله إلى جميع الرؤى الصحيحة التي تجعلنا نفرق بين الصح والغلط..

ونبتعد عن آثار المعاني الصوفية المغلوطة المتمترسة خلف مظاهر ومصطلحات تدفع بالإنسان إلى الاعتكاف والانهزام.. لذلك علينا أن ندرك بأنَّ العلاقة الجدلية بين التصوف والفلسفة في المعنى الحقيقي لهما.. يؤدي إلى العمل والاجتهاد والتواصل بين أبناء جنس الإنسان من أجل إحداث عملية التطور.

- ماذا تعني لك فلسفة التكوين الفكري وإلى أين تؤدي مضامين هذا العنوان التي كانت معظم أبحاثك تدور في فلكه؟

• كما ذكرت إنَّ الفلسفة جوهر.. والتكوين مظهر.. والفكر هو الرابط ما بين الجوهر والمظهر.. فإن لم يكن هناك رابط تاه الجوهر وضعف المظهر.. وحين اخترت هذا العنوان الذي تسلسل خلفه إحدى عشر جزءاً في موسوعة (فلسفة التكوين الفكري) وصلت إلى تساؤلات كثيرة عن مغزى هذا العنوان.. الذي يقضي أيضاً بترتيب نوعي على شكل جداول للأولويات والأهميات حتى لانكون في حالة فوضى.. وإن هذا العنوان ضمن هذا الترتيب تسلسل بعده ما يقارب ألف عنوان كانت تتضمن إعادة صياغة المفاهيم الفكرية.. والتي في اعتقادي يجب أن تصيب أهدافها التي تنشدها في التوجهات الفكرية بين شرح الفلسفة.. الجوهر.. والتصوف التأملي.. المظهر.

- التكوين الفكري.. هذا النوع من الفلسفة..أين هو من ثقافتنا الآن؟

• إذا بحثنا في ثقافة مجتمعاتنا نجد الآن أنَّها ضمن مثلث..النقل والنقد والاعتراض.. أي إنَّها بفعل عدم معرفتها الحقيقية..غالباً تبتعد عن الرؤية التي تستطيع المجتمعات من خلالها تقديم هويتها وشخصيتها بشكل علمي وحضاري وفلسفي في آن واحد.. وهذا ليس تشاؤماً لكنه حقيقة سببها ثقافة الخوف من الإبداع و طرح الرأي والعمل على خلق موانع فكرية في أعماق النفس في الوقت الذي يسمح لمجتمعاتنا أن تطرح إبداعاتها وابتكاراتها.. وإن تضخم الشرطة الفكرية في جوهر العقل جعل الثقافة تصل إلى ما وصلت إليه والثقافة هوية الفرد الذي يتكون منه المجتمع الذي يعتبر

بالنتيجة صورة الدولة وهذا يجعلنا نخلص إلى تراجع هذا النوع من الثقافة والثقافات الأخرى.

- هل تعتبر فلسفة التكوين الفكري ابتكاراً أم هي ثقافة ترتكز على أفكار أخرى؟

• ما أعتقده أنَّ هذا النوع من الفلسفة يعتبر استنباطاً ويتجه صوب لغة الاقتراب من الحقيقة ولما لم تكن هناك أفكار منتشرة لما كنا استطعنا أن نربط بينها ونضيف على مكوناتها وصولاً إلى التطوير الذي يمتلك في محتواه صفة الاعتراض لأنَّ الإنسان السابق وما قبله الإنسان الموغل في القدم كاد أن ينجز كل شيء في القيم ولو لم يعترض ويفاير أشياء مبهمة لما استطاع الكون أن يصل إلينا بشكله الحالي وربما يعتقد الآخرون إن لم يتأملوا في ما نتحاور فيه وندور حوله أننا نتفلسف بالمعنى العامي الغوغائي.. إذاً هذا النوع من الفلسفة يعتمد على أسس قابلة للتطور وتعتمد على الاعتراض وإيجاد البديل

- هل طور هذا النوع من الفلسفة أو أضاف شيئاً كما فعل ابن عربي مثلاً؟

• صحيح أن ابن عربي أسقط الكثير من السفسطة التي كانت تعتمد على أشكال محتواها فارغ لذلك جسد ابن عربي التصوف الإستراتيجي الذي يجمع الجمال الإنساني من أعمق أعماق التاريخ مروراً بالحاضر وصولاً إلى المستقبل، لذلك نجده عندما أسقط بعض النظريات استطاع أن ينتقل إلى الحاضر، ويعيش فيه ليكون حاضرنا هو مستقبله المنشود ضمن صوفيته قبل ما يقارب من ألف عام.

وفي رؤانا التكوينية والتي استحضر منها أمثلة حول العقل واتساعه ونظم ترتيبه وأولويات أفكاره والاتجاه إلى فهم مبسط يصل إلى حلول معينة كي ننتقل إلى المركَّب والمعقَّد من دون التوهان فيه، وكي يبدو البناء جميلاً بتعدد طبقاته والذي يشير إلى تنوع إنسانه، ذهبت بهذا الاتجاه الفلسفي التأملي من أجل إنجاز يؤدي إلى حالة عالية تضيف دائماً الأفضل كي يتابع الآخرون وتتجسد نظرية التطور

- عبر التاريخ تجلى شعر يرتكز على رؤى فلسفية فهناك فلاسفة شعراء أو شعراء فلاسفة هل تتمكن من إسقاط التحليل ذاته على القصيدة الفلسفية التي وجدناها أمام النظريات الأخرى؟

• العقل بطبعه خط مستقيم لا انحراف فيه فإما أن يأخذ بك إلى الأمام وإما أن يرمي بك إلى التهلكة والقلب يؤدي نبضات وفق العاطفة في أغلب الأحيان، فإن لم تدخل إلى العقل لا تستطيع أن تقدم شيئاً إذا اقتصرت على العاطفة.. لذلك كان المنتج الشعري مع الفلسفة المركبة حالة ضرورية فهي توحد

العــارف أو الفاهم أو المفكــر في اللاشعور لأن التأمل الذي يوصلك إلى اختراق الأشياء الصلبة لا يمكــن أن تحقق نجاحاً بها إن لم تمتلــك العقل الذي يؤدي بك إلى اللطف في التعامل مــع الحياة وتقديم الأشياء الصعبة بطروحــات يقبلها الآخر وهنــا تبرز أهمية الحالــة الشاعريــة التــي يحياهــا المتأمل والمتفكر والعــالم والمبدع، فــإذا تطلعت إلى تاريخ العلماء والمفكريــن والمبدعين ستجد جوانــب كثيرة تمتعت بالرقة على الرغم من قساوة المقدَّم الماثــل بين أيدينا، وإنَّ تطوير الذائقة الشعرية خلال ذلك يؤدي إلى تقدم المجتمعــات وانتشــار الجمال فيهــا ليكون الإنســان أسمــى المخلوقــات وأرقاها على الإطلاق

- يوجــد في كتاباتــك نمــط تعبيــري آخــر ظهــرت عبــره رؤى شعريــة فلسفيــة مثل الذي أتيــت بــه في مجموعتــك (بيــن الحب والآه وأشرب نخبك) هــل يقترب هــذا الأسلوب من كتاباتــك الأخرى أم أنه نمط آخر ويحتاج إلى توقف آخر.

• هــذا النــوع مــن الكتابــة يحمل في المحصلة بنية نفسية تصل في أغلب الأحيان إلى النتيجة المشابهة لكل النتائج في الكتابات الأخــرى إلا أنَّها تحتــاج إلى انفصال أكثر عن الواقع والالتــزام الآني بالوحدة للتمكن مــن التعامل مــع مساحات الخيــال بشكل أكثر امتــداداً.. وهذا يحتاج أيضاً إلى دفق عاطفي ليــس بالقليل يمتزج بالتأمل ويصل إلى أقصــى درجــات الإنسانيــة التي يحلم بهــا الشاعر الفيلسوف وهــذا يندرج أيضاً تحــت مسمى التصوف الــذي يمتلك كثيراً مــن النقاء أيضاً لذلــك أرى من الضروري أن يعيــش المتلقي أو القــارئ شيئاً من هذه الحالة عندما يقرأ هــذه النصوص.. وهنا يــرى الإنسان مدى أهميــة احترام الإنسان ومحبتــه والتخلي عــن أي سلــوك لا يليق بإنسانيته وهذا ما يدفعه للقول أنَّ النتيجة في التعامل مع النظريات الفلسفية والفلسفة الشعريــة متقاربة في النتائــج ومختلفة في الوسائــل فالنظريــات تحتــاج إلى البحث والتأمل والشعر يحتاج إلى العاطفة والتأمل إضافة للثقافة التي يحتاجها الاثنان معاً

- أنــت قلــت إنَّ النتائــج متشابهــة في النظريــات الفلسفيــة وفي الشعــر الفلسفي.. هــل تتشابه الحالات الشعوريــة والنتائج عند الشعــراء الفلاسفة ما دامــت القيمة الإنسانية تعتبر من الثوابت؟

• في واقع الأمر الشعر الفلسفي يخضع بشكل أو بآخر إلى العاطفة، وإن كان للتأمل والعقــل دور في ذلك. إضافة إلى دور البيئة والبنية التربويــة التي ترعرع عليها الشاعر الفيلســوف، لذلــك نصــل في النتيجة إلى قيمة جمالية عاليــة تخص الإنسان وتؤدي

دورها الثقافي أمامه حتى لو اختلفت بين فلسفة وأخرى فالعاطفة والشعور تؤديان حالة إنسانية واحدة فأبو العلاء المعري مثلاً يقول:

ليلتي هذه عروس من الزنج

عليها قلائد من جمان

ونزار قباني يقول:

والسماء الزرقاء دفتر شعر

والحروف التي عليها سنون

كلاهما قدَّم صوراً رائعة وجميلة ومبهرة إلا أنَّها اختلفت تماماً في الدلالات والاستعارات التي أتى بها الشاعران قبل أن يدخلا إلى حالة فلسفة التكوين الفكري المؤدية إلى قراءة كل شاعر لعصره وزمنه على الرغم من أنَّ كلاً منهم أتى بالماضي والحاضر وتمكن من الوصول إلى المستقبل

- هل تتوحد رؤى الفلاسفة الشعراء ومعانيهم خلال الأسس المكونة للفلسفة ولو بشكل جزئي للأنا الشاعرة ما دامت ترتكز هذه الفلسفة على موهبة شعرية؟

• إن الشاعر الفيلسوف بطبعه التكويني يكون قد قرأ واطلع على تجارب الآخرين وعرف مآربهم وأدرك ثقافاتهم سواء أكانت شعرية أو غير ذلك فيصل إلى نتيجة من الثقة بالنفس تجعله يرى أنه يمتلك من القدرة ما لا يمتلك سواه وهي حالة قد يتشابه فيها الشعراء الفلاسفة فإن أبو العلاء المعري قال:

وإني وإن كنت الأخير زمانه

لآت بما لا تستطعه الأوائل

وهذا أمر فيه كثير من الثقة بالنفس وإن اعتمدت نظرياته وأفكاره الفلسفية الشعرية وغير الشعرية على رؤى تصيب أحياناً وتخطأ أخرى وهذا ما نراه يتشابه مع ابن عربي في رؤية الأنا الشعرية من خلال النتيجة والمعنى فابن عربي أيضاً يقول:

بالشم أدرك أحياناً وبالنظر

ما ليس يدركه غيري من النظر

ولكن في النتيجة سيكون لكل فيلسوف رؤى خاصة به يتمسك بها بشكل مبدئي فأبو العلاء المعري يعتبر وجوده في الحياة جناية سببها أبوه يقول:

هذا ماجناه علي أبي.. وما جنيت على أحد

وهي رؤية غير موجودة عند غيره وتكونت من عوامل اجتماعية وبيئية كثيرة قد اختلفت عند الآخرين

- ذكرت كلمة البيئة والتربية ودورهما في بنية القصيدة الفلسفية وهذا ما يؤدي أحياناً إلى اختلاف في المعاني التي يأتي بها الفلاسفة الشعراء.. هل تؤدي هذه النتائج إلى اختلاف المواقف أيضاً

• إنَّ الحالة النفسية التي يعتمد عليها الشاعر الفيلسوف في قصيدته يظهر خلالها

كثير من الانعكاسات الذاتية شاء من شاء وأبى من أبى فليس من الصحيح أن يبقى أبو العلاء من دون زواج ويعتبر هذا الأمر جناية وفي النتيجة إنَّ استمرار الحياة جناية وليس من الصحيح أن يقول أبو العلاء المعري أيضاً

وما صح ود الخل فيها وإنما

تغر بود في الحياة سقيم

هذا يؤدي إلى موقف يخالف تماماً مواقف ابن عربي وفلسفته الاجتماعية والنفسية ومرتكزاته الثقافية التي قضت بألق اجتماعي كبير كما في قوله:

وإني أناديني إذا ما دعوتني

وقد هتفت بي في الخطوب الهواتف

وفي النتيجة يمكنني القول إن الفلسفة والتصوف غالباً يؤديان غرضاً إنسانياً عالياً وإن ارتكزا في بعض الأحيان على رؤى سلبية لا تضر كثيراً لأنَّها تكاد تكون قليلة وأكثر ما تفرد بهذا الأسلوب أبو العلاء المعري حيث عوض في أكثر المجالات الإنسانية التي أتى بها في أشعاره.

- لقد قمت أيضاً بالعمل على دراسات في السياسة وفي الأديان إضافة إلى كتاباتك ما هو السبب في إضافة هذا النوع من الكتابة إلى عالمك الفكري

• إنَّ كل مثقف وكاتب يمتلك الإحساس والكرامة والعزة لا بد له أن يعي ويدرك من خلال التفكر والتأمل أن من واجبه تأدية دور يكشف أسباب الأحداث التي تدور حول جغرافيتنا العربية، وكان الأعراب من أدواتها حيث سخرت أمريكا وأوروبة والصهيونية كل ما تملك للسيطرة على حياتنا، وعقولنا ومواردنا على أمل العودة إلى ما كنا عليه في البداية بعد أن عشنا زمن الاستعمار فكيف لا يكتب المفكر أو الموهوب أو الشاعر وهو يدرك أنه قد يرى كرامته مهدورة في أقرب وقت لأن كرامته مرتبطة بكرامة أمته ولذلك لابد أن يكون للمثقف دور حين حدوث أي خلل لأنَّ المثقف عندما يتقدم تتراجع السلبيات ويبقى المجتمع سليماً ومستعداً لأخذ حقوقه فالكتابة بكل أنواعها تأتي تبعاً للتغيرات النفسية والاجتماعية والتاريخية ويبقى دور الضمير فهو الذي يحدد النمط والاتجاه وفق المعيار المسبب.

- لقد كتبت أيضاً بحوثاً ومقالات في فلسفة الجسد وطرائق تعايشه مع البيئة والحياة وما يعتريه من متغيرات ما سبب ذلك؟

• لا يمكن أن تفصل علوم فلسفة الجسد عن غيرها فهو جزء من الوجود والحياة الإنسانية وعليه يظهر كثير من الانعكاسات والتبدلات التي يسببها أي تحرك نفسي في مشاعر الإنسان كما يلعب الجسد دوراً كبيراً في الانعكاسات الأخرى التي تخص

المشـاعر والعواطف والروح لذلك تتناسب الرياضة طرداً مع السمو الأخلاقي، وينعكس ترويض الجسـد على غذاء معين على كثير من التقلبات النفسية والفلسفية. إضافة إلى أهمية دور الجسـد بالتفكير وبناء على ذلك لا يمكـن أن يفكر المعاق كما يفكر السـليم حتى لو كان تفكيره إيجابياً إذ يعدُّ الشاعران بشار بن برد والمعري نموذجاً في بناء تكوين فكري لكل منهما وينطبق ذلك على الجاحظ والحطيئة.

لقطات من حياة

الدكتور المهندس نبيل طعمة

• هو باحث في علم الفلسـفة والسياسة ومفكـر وشـاعر لـه العديد مـن المؤلفات أهمها:

– فلسفة التكوين الفكري وقد وصل إلى عشرة أجزاء.

– له مجموعة من الرؤى الشعرية نشرت في دواويـن (أشربُ نخبكَ وبينَ الحبِ والآه) إضافة إلى مجموعات شعرية في الغزل وهي غزل وأمل، وحقيقة وأمل، وعرقك عطري.

ومن مؤلفاته في السياسة:

– مقالات كتبت في حينها.

– كلمات تخص الصهيونية.

– رؤية خطها قلم السياسة.

ومن مؤلفاته أيضاً:

– خريطة الأديان.

– من أفكار روّاد الإصلاح.

– جدلية التصوف.

• حائز على شـهادة دكتـور مهندس من جامعة أوديسـا ودكتـوراه بمرتبة شرف في العلـوم الإنسـانية والثقافـات العالمية من إيطاليا.

• حائز على وسـام فارس مـن مرتبة الشرف في إيطاليا.

• حائز علـى جائزة اليونسـكو للسـلام عام ٢٠٠٧م.

• صـاحب ومديـر مجلتـي الأزمنـة والباحثون.

• صاحب دار الشرق للطباعة والنشر.

• قـام بإنتـاج الكثـير من المسلسـلات الدرامية: غزلان في غابة الذئاب، والشتات ونزار قباني وهولاكو.

• وهو عضو اتحاد الكتّاب العرب.

«صليب الطين..»

عرض وتقديم: سمر الزركي ✽

رواية مميزة متألقة، شائكة ومتشعبة، شخصيّاتها متمردة، وحكاياتها واقعية حاضرة.

الإبداع سمتها، ورويت بصدق تام، بحروفها وألفاظها إلا أنّها عصيّة عن العرض، وتأبى أن تخرج من صومعتها حتى لا تُقطَّع أوصالها إلى أشلاء باردة.

الروحُ الواحدة نسيجها ورابطها، وإن تعددت أصواتها.

الرواية لامست قضايا جوهرية، على مختلف ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية..

سجل الكاتب على صفحاتها توثيقاً تاريخياً لأحداث تقع على مقربة منه، حيث رصد آلام ومعاناة السوريين من خلال قصة حب جارفة، كُتبت في عشق إنسان ووطن..

رواية «صليب الطين» للدكتور إسماعيل مروة، الصادرة عن دار التكوين لعام ٢٠١٣م تقع في مئة وستين صفحة من القطع الوسط، يضمها غلاف يحمل لوحة فنيّة معبرة مزجت ألوانها بألوان الحياة الدائرة..



✽ كاتبة من سورية.

«صليب الطين» يهدي «إلى الفادي طفل المغارة..

مغارة مقدسة لا شبيه لها

صليب من نور وتراب» (ص٥)

نور وتراب شكّلا الصليب الذي أعطى مروة القوة للدخول إلى معمعة الحدث الذي يضج حركة لولبية. حيث نبض الناس آخذ بالصعود والهبوط لا يدري أحدهم متى يتوقف قلبه عن الحركة..!!

واللافت في هذا العمل، أنّه ارتكز على اللسان الذي لعب دوراً أساسيّاً فيه وخاصة لسان المرأة العجوز الحائرة التي أوقفت سامي على الرصيف وسألته بعفويتها: «يقولوا إنّ الأمور ستنتهي خلال ثلاثة أشهر، لكن لا يمكن لأحد أن يدخل الشام، شو رأيك؟» (ص٧)

حار سامي بما يجيب هذه العجوز إلى أن قال لها:

«لن يقدروا يا أمي، فأنت موجودة، وأنت وحدك من يحمي الشام.. رسمت شارة صليب على وجهها وصدرها. ومشت بخطوات مهدودة، بينما نظرها كان متوجهاً إلى قاسيون» (ص٧)

نظرات تراقب قاسيون (قاسيون دمشق) بكبريائه وعليائه وشموخه؛ لا يمكن لأصحابها أن يتخاذلوا أمام الصعاب مهما عظمت. لأنّهم أكبر وأعظم من أي طغيان وظلم يقع عليهم.

«يالها من امرأة شغلت باله وروحه، عندما داهمته بسؤالها كان يرقب خط السيارات الممتد من ساحة الأمويين إلى شارع الثورة» (ص٨)

وإذ بسيارة مفخخة تحرق الشهور الثلاثة، لتكون هذه المرأة جثة مجهولة المعالم، بلا رأس «وحده اللسان يقفز من بلاطة إلى أخرى يتمتم بعبارات لا يسمعها أحد، ولا تصل إلى السمع، وحين يضربون طوقاً حول المكان تدوس الأقدام اللسان، وينزلق تحتها ليستقر أخيراً تحت حاجز إسمنتي، تتراخى عضلات اللسان شيئاً فشيئاً، وترتاح تحت الحاجز محتفظة بما تبقى عليه من كلمات لم تبح بها تلك العجوز» ص٨

ويُسأل سامي عن رأيه بما حدث في مقابلة (تلفزيونية) أجريت معه (موثقة بالصور) ولاسيّما أنّه إعلامي وكاتب مشهور، ملتزم بعمله، محب لوطنه فيجيب:

«إنّ الذين ذهبوا ذهبوا بالحب للأرض

شدهت المذيعة، وفغرت فاها

نعم؟:

تابع سامي: الحب هو السبب، والحب هو العلاج يا صديقتي، وعندما يكون أحدنا محبّاً حقيقيّاً يصبح قادراً على فعل كل شيء إلا فعل القتل..!

وأعلى مراتب الحب أن يحب الإنسان

ذاتــه.. فإن أحب نفسه كان قادراً على حب الآخــر، وإن عجز الإنســان عن حب نفسه، فهو عن حب غيره أعجز.

لا تتوقعي يا صديقتي أن يكون الإنسان قادراً على حب الآخرين وهو لايحب ذاته». ص٧٠

ومن ثــم سألتــه: متى تنتهــي الأزمة؟ فأجابها بذكاء وحنكة، رابطاً الأزمة بقضية الحب معلّلاً ذلك بقوله: «مادمنا بعيدين عن الحب ومفهومه، سيبقى كل واحد يدعي أنّه المحب، وأنّه على صواب والآخر ليس كذلك، بل وسيدعي كل واحــد أنّه صاحب الأرض والمشروع، ولن نجد حلّاً سريعاً..»ص٧١

ياله من رجل محب لوطنه وذاته والآخر. فها هي مرآة ذاته تعكس لنا حبه لغزل. ذلك الحب الذي اجتاح كيانه، وهزّ العمق العمق منه:

«هبطت إليّ من المحل الأرفع
ملاكاً
إلهاً
حبيباً
يا التي انتظرت وما ظننت
كوني حلماً
كوني طيفاً»ص٣٨

وغزل تبادل سامي الحبّ، وتودّ حمايته من كل شيء حتى من نفسه.

«أنت مهم لنبضي وروحي
وفكري يطوف فوق رأسك
يودّ حمايتك من كل شيء من نفسك
أحب حبك».ص٧٦

إنَّ حبَّ سامي لغزل حبٌّ صادق؛ إذ أراد من محبوبته أن تكون مــلاكاً، لايدنسه فعل البشـر، وإن كان هذا فليكن حلماً، طيفاً، أو ضرباً من الخيال..

وكما أنَّ غــزل خشيت فعل الخيانة، ولا تريد أن ترتكبه. إلّا أنَّ الأحداث تأخذ هذه المرأة المثقفة، والصحفية المتزوجة من شادي (المحـب لها) إلى لحظة خلود أبدية تجمعها بسامي الذي أحبته..

«أنت أبد الأبد..».

أمّا سناء (عشيقــة سامي) المقربة منه. والتي أذاقته أفانين العشــق والهوى تطاله من شخصه وفكره وعشقه. وسامي يغفر أيّ شيء إلّا أن ينال أحد من شخصه.

ويحاول الكاتب بين حين وآخر أن يلفت انتباهنا إلى التجاذبــات السياسية، وتبادل الاتهامات عبر تسليــط الضوء على نشرات الأخبار، وتداولات الإعلام التي تتعاطى بها شخصيات الرواية..

بينما منيرة التي ظلمها ذوو القربى قبل ظلم المجتمع لها، تبدو لنا وكأنَّ أمواج الحياة تلاطمهــا أينما حلت. يا لقسوة الحياة التي عاشتها..!!

صــدى جرس المعهــد الإصلاحــي

(للجانحات) يرن في ذاكرتها، تسترجع ما كان يجري فيه من مآسٍ حُفظت في ذاكرتها..

لجأت منيرة إلى سامي الذي صدّقها، وشعر بالظلم الذي وقع عليها؛ فساعدها بطريقته الساحرة. وأدركت أنّها مع شخص دخل روحها..

ومن ثم نفاجأ بخالد السمير الدائم، والصديق الأهم في حياة سامي تختلط أشلاؤه بأشلاء سامي حينما خرجا معاً من المقهى (شي نو) حيث اعتادا أن يجتمعا في هذا المكان ركبا السيارة.. وما إن أدار سامي محرك السيارة حتى هزّ المنطقة انفجار كبير..!!

«الشريط الإخباري أورد خبراً عاجلاً بالأحمر: انفجار عبوة ناسفة بسيارة في دمشق أودت بحياة الكاتب سامي.. والإعلامي خالد..

الأوساط الإعلامية والثقافية تندد بهذا العمل الإجرامي الذي استهدف الرأي والقلم..»ص١٥٥

عندما قرأت غزل الخبر، راحت في نوبة بكاء هستيرية..

«وقفت غزل أمام المرآة بلباس أسود، خلفها شجرة الميلاد. وكل الأمنيات عليها سوداء.. وراحت تقرأ ما بين يديها من أوراق. وتحدث نفسها حقّاً إنَّ الأحلام تفسد عندما تتحول إلى حقيقة.

بدأت بتعليق صورها، وقصاصات ورق كتب عليها عبارات تخصها كلّها كانت تقول: «لم يعد في العمر بقية»ص١٥٧

وبعد صمت طويل للّسان فإذا به ينطق بها. وذلك عندما لم يجد إنساناً يروي له الحكاية.

«أشعر أنني لن أعيش طويلاً.. لم يعد في العمر بقية»ص١٦٠

إنَّ هذه المقولة في الرواية شكلت –حسب رأيي– (العقدة) القدرية التي وُلدت منها الحلول باتجاه النهايات التي بدأت مع رؤية غزل لذلك اللسان الذي سكن تحت الحاجز الإسمنتي متسائلة وهي ترقب ذلك اللسان على شاشة التلفزيون: «ويلي إن كان هو، من سيقول في أذني كلاماً حلواً؟»ص٢٤

مستعيدة ما قاله لها: «غزل العمر الذي رحل.. آه من العمر الذي رحل من دون وجودك، والعمر المتبقي، ومابقي قليل..»ص٢٤

وتحفز تلك المقولة فعل الحب بينهما

بعد أن كشف سامي لغزل إرهاصات الأزمة التي تمر بها البلاد، وماتركته من آثار تمزق وضياع في روحه التي يضمدها من التآليل التي غطتها. ومحاولته الخلاص من الموت والدمار والنزوح والخطف والقتل والدم. وإخباره لها بأنّه يكاد يجن أو يموت للغرابة التي يراها حوله وفي نفسه قائلاً لها: «ما الفرق بين الرضا والسخط يا غزل العمر، أنا أشعر بأنني راحل يا غزل، لم يعد في العمر بقية».ص١٣٩

ما جعلها تطلب لقاءه على فنجان قهوة. مبررة فعل الخيانة الذي بقي زمناً لم تجب عليه وفقاً لفلسفة سامي للحب وتساؤله حوله:

هل هو أن تخون مع من تحب؟ أم تخون من تحب؟!».ص١٠٢

ليأتي جوابها المقترن بحافز الرغبة (الحب) وبطلبها من سامي:

«سامي تريد أن ترحل فارحل فيَّ، في داخلي، اسكن روحي وجسدي، وكل فاصلة ومسام من مساماتي..».ص١٤٦

وهنا غابت غزل الضحيّة، لتشرق معادلاً مكافئاً لسامي في الحب..

كما أنَّ كراهية فعل الخيانة الذي استحوذ على غزل كان حافز الإعاقة السلبي الذي منح السرد دفعاً في مساره الخطي. وبقي هو العقدة المستعصية على الحل الذي أعلنه فعل النهايات، وتبديات الأزمة التي تحيط بأفعال القص والخشية من الفراغ والموات المرتسم في واقع الشخصيات وأحلامهم الآيلة إلى البتر؛ لاقتناص الحياة والخلود عبر نصوص رسائل السرد بالنسبة لسامي عبر غزل.

إذ أوحت «صدى النداءات» برغبة الحياة عند غزل، ولو من خلال الأحلام:

«..لابدَّ أن يأتي، سيأتي، إنَّه في سفر مؤقت؟!»ص١٥٧

وفي نهاية المطاف تبتعد «صدى النداءات» عن الأحلام لتؤكد مقولة: إنَّ الناس سيرحلون، وتبقى الأرض..

«التلفزيون صنع فيلماً عن حياة سامي وجهوده تحدث عن الحب، عن شام، عن الأرض الباقية، عن الناس الذين سيرحلون، وتبقى الأرض وأنهوا الحديث عنه في البرنامج بأغنية كان يحبها سامي كثيراً:

يانهر الشام

أنا جاي لعندك

وتحت فيّة زندك

حط راسي ونام

يا نهر الشام».ص١٦٠

وأخيراً أقـول: إنَّ الرّوايـة قُدِّمت عبر أجواء مـن الإثارة والشدّ، وبـدا الكاتب ذا ثقافة واسعة، وظهر لنا ذلك جلياً من خلال معالجته الواقع المأزوم عبر الحوار الذي دار بين شخوص الرواية.

كما أنَّه يمتلك قدرة كبيرة على زج القارئ في عـالم الرواية وكأنَّه أحد شخوصها. حيث استطاع بأسلوبه السردي المميز، ومتانة لغته وانسيابها، واستخدامـه العبارات الجريئة (القريبة مـن العامية التي تخـدم الموقف والحدث) أن يكسـر الحاجز الخفي ما بين الكاتب والقارئ بقوة لافتة. إذ لعبت جرأته دوراً كبيراً في دخول كلٍّ منهما عالم الآخر من دون استئذان. مصوراً مرحلة ضبابية مبهمة لكثير من الناس..!!

آخر الكلام

رئيس التحرير

«كوداي» والموسيقى الشعبية

زرت هنغاريا، مرة يتيمة، في مناسبة ثقافية، ومع ذلك كانت فرصة للاطلاع على جوانب من الحياة الثقافية والفنية في هذا البلد الصديق، وقد وقفت طويلاً عند تجربة رائدة ومهمة قام بها الموسيقار الهنغاري سلطان كوداي (١٨٨٢-١٩٦٧م)، في مجال تطوير وتطويع الموسيقى الشعبية، ووضعها في خدمة الموسيقى العالمية، وبكل أسف، هذه الطريقة الناجحة لم تعرف طريقها إلى موسيقانا العربية، مع أنَّها تعتمد على الغناء، والموسيقى العربية، كما هو معلوم، يغلب عليها الطابع الغنائي..

لقد شرحوا لنا كيف انطلق «كوداي» في عمله الموسيقي من نقطتين أساسيتين:

الأولى: هي أنَّ الارتفاع بمستوى الموسيقى ذات الطابع الثقافي يجب أن يرافقه، ارتفاع بمستوى جمهور المستمعين..

أمَّا الثانية: فهي أنَّ الأغاني الفولكلورية، تشكّل اللغة الموسيقية الأم، مما جعله يقوم بتدوين آلاف الأغاني الفولكلورية، وتحليلها وتحديد قوالبها، تمهيداً لإيجاد الصلة بين الغناء من جهة، وتربية الأذن عن طريق الإملاء الموسيقي من

جهة ثانية، و«الصولفيج» من جهة ثالثة.. ويعد «كوداي» أوّل من ابتكر طريقة «الصولفيج النسبي» الذي يثبت المسافات الموسيقية بأنواعها في الذاكرة، ويسهّل القراءة «الصولفائية» المطلقة.. وهذه الطريقة تتيح تدوين أية جملة موسيقية، وإخضاعها للصولفيج..

لقد استطاع «كوداي» بفضل طريقته أن يحقق نهضة موسيقية رائعة في هنغاريا، وأصبحت نسبة متذوقي الموسيقى ذات الطابع الثقافي، في تزايد مستمر، حتى إنّ عدداً كبيراً من المستمعين في الأمسيات السيمفونية، في هنغاريا، أصبحوا يتتبعون التدوين الخاص بالسيمفونية،من خلال الكتيبات الخاصة، بينما تقوم «الأوركسترا» بأداء السيمفونية ونعتقد أنّه قد آن الأوان للموسيقى العربية أن تتخلى عن طريقة التلقين في تعليم التراث، وبذل الجهود المكثّفة لجعل التعليم مقتصراً على كل ما هو مدّون موسيقياً، بدقة، غناءً كان أو عزفاً، مع الإبقاء على ظاهرة الارتجال في حدود التقاسيم والليالي والموّال..

تجربة «كوداي» استغرقت أكثر من ثلاثين عاماً، قام خلالها بنشر سلسلة من الكتب والدراسات التي تضم عدداً كبيراً من الأغاني الفولكلورية الهنغارية، المدوّنة مع تحليلها الموسيقي، وقد استهل هذه السلسلة بشرح طريقته التربوية في التعليم الموسيقي، التي أعطاها الموسيقيون المحترفون والهواة كل اهتمامهم، وأصبحت تطبّق في المدارس العامة والمدارس الموسيقية العامة والمعاهد الموسيقية المختصة.. وكانت النتيجة باهرة، وبالغة التأثير، في تحقيق نهضة موسيقية في هنغاريا..

انطلق «كوداي» في عمله من منطلقين أساسيين: الأول: إنّ كبار الموسيقيين والفرق الأوركسترالية الهنغارية، كانوا يعزفون في صالات شبه فارغة من الجمهور، والثاني: إنّ الأطفال عموماً، يملكون أصواتاً غنائيّة سواء في المدارس العامة، أو المعاهد الموسيقية العامة، وعلى هذا الأساس، فقد سخّر الأصوات الغنائية في تعليم الغناء «الكورالي» الموزّع، وفي تعليم الإملاء الموسيقي و«الصولفيج» الغنائي، وإيماناً

من أنَّ الأغاني الفولكلورية تشكّل اللغة الموسيقية الأم، فقد وجد «كوداي» أن دراستها وجمعها وتدوينها وتحليلها وتخليصها من الشوائب، هو المنطلق لتربية ونهضة موسيقية تنسجم مع تراث وطبيعة الشعب الهنغاري.. ونعتقد أنَّ هذه الخطوات والمراحل التربوية والموسيقية التي قام بها «كوداي» جديرة بالدراسة من قبل العاملين في المجال التربوي والتراثي والموسيقي في سورية، للقيام بنهضة موسيقية شاملة نحن أحوج ما نكون إليها في عالم اليوم..

بقي أن نشير إلى أنَّ طريقة «كوداي» باختصار تهدف إلى إيجاد نوع من الصلة بين الغناء، وتكوين الأذن الموسيقية من جهة، والكتابة الموسيقية والقراءة من جهة أخرى، وتتدرج المعرفة على أساس علمي، حتى نصل إلى دراسة «علم الموسيقى الفولكلورية، وفق مجموعة متسلسلة من الأغاني الفولكلورية المتدّرجة، حسب أعمار الأطفال ومداركهم، بدءاً من رياض الأطفال، وحتى أعلى مستويات الدراسة الموسيقية.. ويعلّق «كوداي» أهمية كبيرة على تربية آذان دارسي الموسيقى، وتنمية الملكة الموسيقية لديهم، وضرورة تعرّفهم على ما يستمعون إليه بدقة، وممارسة تمارين الإملاء الموسيقي، التي يجب أن تعطى بصورة جماعية، لتجديد النشاط، وتنمية الحب لدراسة الموسيقى الفولكلورية..